تفسير الحداد

تفسير الحداد

كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل

لأبي بكر الحداد اليمني

تحقيق

الدكتور محمد إبراهيم يحيى

أستاذ مساعد تفسير القرآن وعلومه
بالجامعة الأسمرية - زليتن - ليبيا

المجلد السادس



دار المدار الإسلامي

تفسير الحدّاد

كشف التّنزيل في تحقيق المباحث والتّأويل

لأبي بكر الحدّاد اليمني

تحقيق

الدّكتور محمّد إبراهيم يحيى
أستاذ تفسير القرآن وعلومه
بالجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية
زليتن - ليبيا

الجزء السّادس

دار المدار الإسلامي

الطبعة الأولى

كانون الثاني/يناير/اي النار 2003 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 4165/ 2001
ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-062-X
دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار المدار الإسلامي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،
خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 ـ بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb
بيروت ـ لبنان

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498، هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ فاكس: 4442758 . 21 . 00218، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

سُورَةُ يسٓ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال أبو بكر الحداد رحمه الله:

سورة يس مكية، وهي ثلاثة آلاف حرف، وسبعمائة وتسع وعشرون كلمة، وثلاث وثمانون آية قال رسول الله ﷺ: «**لكل شيء قلب، وقلب القرآن يس. فمن قرأها كان كمن قرأ القرآن عشر مرات**[1]**، وهي تشفع لقارئها، وتستغفر لمستمعها**»، وقال ﷺ: «**يس تدعى المعمة**» قيل يا رسول الله، وما المعمة؟ قال: تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة، وتدعى الدافعة، والقاضية، تدفع عن كل سوء، وتقضي له كل حاجة، ومن قرأها عدلت له عشرين حجة، ومن سمعها كان له ألف مثقال ينفقها في سبيل الله، ومن كتبها وشربها دخل جوفه ألف دواء، وألف يقين، وألف زلفة، وألف رحمة، ونزع عنه كل داء وغل»[2]، وقال ﷺ: **من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر له**[3]**، وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتي عشرة مرة، وأيما مريض قرىء عنده سورة يس نزل عليه بعدد كل حرف عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه، ويستغفرون له،**

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه رقم: 2887، والبيهقي في الشعب: 2: 472 رقم 2460 فصل في فضائل السور والآيات.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره بسنده، وأخرجه البيهقي في الشعب: 2: 480 رقم 2465.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب: 2: 480 رقم 2462، وكذا الزمخشري في تفسيره: 3: 332.

ويشهدون قبضه، وغسله، ويشيعون جنازته، ويصلون عليه، ويشهدون، وأيما مريض قرأ سورة يس وهو في سكرات الموت، أو قرئت عنده لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان خازن الجنان بشربة من الجنة، فيشربها وهو على فراشه، فيموت وهو ريان، ويبعث وهو ريان، ويحاسب وهو ريان، ويدخل الجنة وهو ريان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء[1] عليهم السلام».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿يسٓ﴾ قال ابن عباس: يريد يا إنسان يعني محمداً ﷺ، وقال أبو العالية: يا رجل، وقال سعيد بن جبير يا محمد، قرأ أبو عمرو، وحمزة، وعاصم بإظهار النون، وقرأ عيسى بن عمر بالنصب تشبيهاً بأين، وكيف، وقرأ ابن أبي إسحاق يس بكسر النون تشبيهاً بأمس، وخدام، وقطام، وقرأ هارون الأعور بضم النون تشبيهاً بمنذ، وحيث، وقط، وقرأ الآخرون[2] بإخفاء النون.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي المحكم من الباطل، وقيل: أحكم بالحلال والحرام، والأمر والنهي، قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وذلك أن

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره بسنده، وكذا الزمخشري في تفسيره: 3: 333.

(2) تراجع هذه القراءات عند ابن مجاهد في المرجع نفسه، وابن جني في المحتسب: 2: 203 والنحاس في إعراب القرآن: 3: 381 والقرطبي في تفسيره: 15: 3.

كفار مكة قالوا لمحمد ﷺ: لست مرسلاً، فأقسم الله تعالى بالقرآن الحكيم: أنه مرسل، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني دين الإسلام، وطريق الأنبياء عليهم السلام، الذين مضوا قبلك، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ⑤﴾ وقرأ ابن عامر، وأهل الكوفة: تنزيل بالنصب[1] على المصدر كأنه قال: نزّل تنزيلاً، وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ متصل بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ③ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي لتنذر قوماً لم يأتهم نذير قبلك لأنهم كانوا في الفترة وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي عن حجج التوحيد، وأدلة البعث، وقيل: فهم غافلون عن أمور الآخرة، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑦﴾ أي لقد حقت حكمة العذاب على أكثر أهل مكة بكفرهم فهم لا يصدقون، وهذا إخبار عن علم الله فيهم أنهم لا يؤمنون فقتلوا يوم بدر على الكفر، قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ أي في أعناقهم وأيمانهم أغلالاً ولم يذكر الأيمان في الآية لأن في الكلام دليلاً عليه لأن الغل لا يكون في العنق دون اليد، ولا في اليد دون العنق، وإنما تغل الأيدي إلى الأعناق، وقوله تعالى: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ كناية عن الأيدي دون الأغلال، قوله تعالى: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ أي رافعوا رؤوسهم، والمقمح الرافع رأسه الغاض بصره، واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية؟ فروي عن ابن عباس أن الآية نزلت في قوم من الكفار فيهم أبو جهل تواطئوا على أن يقتلوا[2] النبي ﷺ إذا رأوه يصلي، وحلف أبو جهل أنه إذا رآه يصلي ليدفعه بالحجر فأتوه يوماً وهو يصلي فجاءه أبو جهل ومعه الحجر فرفع الحجر ليدفع به النبي ﷺ فيبست يده إلى عنقه، والتزق الحجر إلى يده، فلما رجع إلى أصحابه خلصوا الحجر من يده فأخبرهم بأمر الحجر، فقال رجل من بني المغيرة: أنا أقتله، وأخذ الحجر، ودنا من النبي ﷺ فطمس الله على بصره، فلم ير النبي ﷺ، وكان يسمع قراءته[3] فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ⑨﴾ أي

(1) ينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات ص 538، والقرطبي في تفسيره: 15: 6.
(2) الطبري في تفسيره: 12: 183، والسيوطي في أسباب النزول: 245.
(3) البغوي في تفسيره: 4: 533.

جعلنا من بين أيديهم غطاءً وستراً ومن خلفهم كذلك فأغشينا أبصارهم حتى لم يروا النبي ﷺ.

قال الفراء: معنى أغشيناهم ألبسنا أبصارهم غشاوة[1] أي غماً، وعن ابن خزيمة قال سمعت عكرمة يقرأ: فأعشيناهم بالعين المهملة، وروى ذلك عن ابن عباس[2] أيضاً، وقال الحسن: هذا على طريق المثل، وذلك أن الله تعالى لما حال بينهم وبين ما أرادوا بالنبي ﷺ كانوا كمن غلت يده إلى عنقه لا يمكنه أن يبسطها إلى شيء وهو قامح رأسه لا يبصر موضع قدمه قد سد عليه طريقه في الذهاب والرجوع - قوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي من أضله الله بهذا الضلال لم ينفعه الإنذار.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ معناه: إنما ينفع الإنذار من اتبع القرآن ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي وخاف الله من حيث لا يراه أحد ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي وثواب حسن في الجنة قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ أي ما أسلفوا من الخير والشر وقوله تعالى: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي وخطاهم فإن كل خطوة في الطاعة طاعة وكل خطوة في المعصية معصية، وقيل معنى وآثارهم أي: ما استن به من بعدهم قال ﷺ: «**من سن سنة**

(1) معاني القرآن: 2: 373.

(2) ينظر الطبري في تفسيره: 12: 183، وكذا القرطبي: 15: 10، والثعلبي في تفسيره - خ -.

حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[1]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي وكل شيء من الأعمال أثبتناه في اللوح المحفوظ، وقيل أراد بالإمام المبين الصحائف التي تكتبها الملائكة، وسمى الإمام مبيناً لأنه لا يندرس أثر مكتوبه.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي مثل لأهل مكة مثل أصحاب القرية يعني أنطاكية إذ جاء أهلها رسل الله تعالى، وذلك أن عيسى عليه السلام أرسل إلى أهل أنطاكية رسولين من الحواريين ليدعوهم إلى عبادة[2] الله تعالى وإنما أضيف الإرسال في الآية إلى الله تعالى لأن إرساله كان بأمر الله تعالى، والقصة في ذلك أن عيسى لما بعث الرسولين إلى أنطاكية وقربا من المدينة، وجدا شيخاً كبيراً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار فسلما عليه، فقال لهما: من أنتما؟ قالا: نحن رسولا عيسى ندعوكم إلى عبادة الله تعالى قال: هل معكما آية؟ قالا: نعم، نشفي المريض، ونبرىء الأكمه والأَبرص بإذن الله، فقال الشيخ: إن لي ابناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين، قالا: فانطلق بنا إليه فانطلق بهما، فمسحا ابنه، فقام من ساعته صحيحاً بإذن الله ففشى الخبر في المدينة وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى، وآمن حبيب النجار[3]، وجعل يعبد الله تعالى في غار جبل في أبعد أطراف المدينة، فسمع الملك بخبر هذين الرسولين، وكان يعبد الأصنام، فدعاهما فأتياه، فقال لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى ندعوك إلى عبادة الله تعالى، قال: وما آيتكما؟ قالا: نبرىء الأكمه والأبرص، فغضب الملك وأمر بهما فحبسا، وجلد كل واحد منهما مائة جلدة، فلما كُذِّب الرسولان بعث عيسى رسولاً ثالثاً يقال له: شمعون المصفّا على أثرهما لينصرهما، فدخل شمعون البلد متنكراً وجعل يعاشر حاشية الملك حتى

---

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه: 1: 75 ـ رقم 207، وأخرجه البيهقي في الشعب: 5: 376 رقم 6515.

(2) ينظر الطبري في تفسيره: 12: 186.

(3) ينظر الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

أنسوا به، فرفعوا خبره إلى الملك، فدعاه فأكرمه، وأنس به فقال له ذات يوم: أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن، وضربتهما حين دعياك إلى دين غير دينك، فهل كلمتهما، وسمعت قولهما قال: لا قال: فإن رأي الملك أن يدعوهما، ويسمع قولهما حتى يطلع على ما عندهما، فدعاهما الملك، فقال لهما شمعون: من أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء، وليس له شريك، فقال لهما شمعون: صفاه، وأوجزا؟ فقالا: إنه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد قال شمعون: وما آيتكما؟ قالا: ما تتمناه، فأمر الملك حتى جاؤوا بغلام مطموس العينين، موضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان الله حتى انشق موضع البصر.

ثم أخذا بندقتين من الطين فوضعتا في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فعجب الملك من ذلك، فقال شمعون للملك: إن أنت سألت إلٰهك أن يصنع مثل هذا فصنعه كان لك ولآلهتك الشرف، فقال الملك: ليس لي عنك سر إن إلٰهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ثم قال الملك للرسولين: إن هنا ميتاً مات منذ سبعة أيام فلم أدفنه وأخرته حتى يرجع أبوه، وكان أبوه غائباً فإن قدر إلٰهكما على إحيائه آمنت به، قالا: إن إلٰهنا قادر على كل شيء، ثم جعلا يدعوان الله علانية وجعل شمعون يدعو ربه سراً، فقام الميت حياً بإذن الله تعالى، وقد تغير وأنتن وهو يقول: أيها الملك إني مت منذ سبعة أيام، ووجدت مشركاً، فأدخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذركم ما أنتم عليه، فآمنوا بالله، واتبعوا هؤلاء الثلاثة، فقال الملك: ومن الثلاثة؟ قال: شمعون، وهذان، وأشار إلى الرسولين، فتعجب الملك من ذلك، وأجمع هو وقومه على قتل الرسل، فبلغ ذلك حبيب النجار، وهو على باب المدينة الأقصى، وقيل: إن الملك قال لهم: إنكم توافقتم على هذا الكلام، ثم أمر بهم فأخذوا، ونتفت حواجبهم، وشعور أعينهم، وطيف بهم، فلما سمع حبيب النجار بذلك أقبل من أبعد أطراف المدينة يسعى أي يعدو لينصر الرسل[1]، وقال يا قوم اتبعوا

---

(1) تراجع هذه القصة في تفسير الثعلبي ـ خ، وتفسير البغوي: 4: 536.

المرسلين وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿20﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا
يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿21﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿22﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿23﴾ إِنِّىٓ
إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿24﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿25﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ
قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿26﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿27﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقال حبيب للرسل: أتريدون أجراً على ما جئتم به قالوا: لا، فقال لقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿21﴾﴾ أي مصيبون في مقالتهم.

فقالوا له: صبوت إليهم يا حبيب، ودخلت في دينهم، فقال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي أي شيء لي إذا لم أعبد خالقي ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إليه تردون عند البعث فيجزيكم بكفركم ثم إن أهل المدينة قالوا للرسل: لستم بأولى بالنبوة منا ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ فيما تقولون وقالوا ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي ليس علينا إلا التبليغ البين، فقال القوم للرسل: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي تشاءمنا بكم، وكان قد حبس عنهم المطر، فقالوا: أصابنا هذا الشر من قبلكم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي لئن لم تنتهوا عن مقالتكم هذه لنقتلنكم رجماً، وليصيبنكم منا عذاب أليم يعنون الضرب والقتل، قالت لهم الرسل: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي شؤمكم معكم وهو كفركم بالله تعالى وقوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ معناه: أئن وعظتم بمواعظ الله تشاءمتم منا ليس منا ما يوجب التشاؤم، ولكن أنتم قوم مسرفون أي متجاوزون عن الحد في الكفر والمعصية وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يعني حبيباً النجار ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي من لا يسألكم أموالكم على ما جاءكم به من الهدى، فقالوا له: اتبعتهم أنت يا حبيب، قال: نعم وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون في

الآخرة، ثم أنكر عليهم اتخاذ الأصنام وعبادتها فقال أتخذ من دونه آلهة كما اتخذتم إن يردن الرحمٰن بضر في جسدي، أو في معيشتي لا تدفع عني شفاعة أصنامكم شيئاً يعني لا شفاعة لها ولا ينقذون أي ولا يخلصوني من ذلك المكروه، ولا من عذاب الله، وقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (24)﴾ معناه: إني إن عبدت غير الله كنت إذاً في خطأ مبين ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ فاسمعوا مقالتي وقيل إن قوله: إني آمنت بربكم خطاب للرسل قال لهم: اسمعوا كلامي لتشهدوا لي به في الآخرة، فلما قال هذا وثب عليه قومه وثبة رجل واحد[1] فقتلوه قال ابن مسعود: وطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره[2]، فأدخله الله الجنة، وهو حي فيها يرزق وذلك قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ فلما دخلها ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ تمنى أن يعلموا أن الله غفر له ليرغبوا في دين الرسل، والمعنى: يا ليت قومي يعلمون بغفران ربي لي، وإكرامه إياي بإدخالي الجنة.

قال الله تعالى:

﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (28) إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ (29) يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (30) أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ (31) وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ (32) وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ (33) وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ (34) لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ (35) سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ (36)﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (28)﴾ وذلك أنهم لما قتلوه غضب الله عليهم، وعجل لهم العذاب، ومعنى الآية: وما أنزلنا على قوم حبيب بإهلاكهم من جند من السماء يعني الملائكة أي

(1) ينظر الطبري في تفسيره: 12: 192 ـ 193.
(2) ينظر الطبري في المرجع نفسه.

لم ننتصر منهم بجند من السماء وما كنا منزلين، أي ولا كنا ننزل ذلك لمن قبلهم من الأمم إذا أهلكناهم، ثم بين الله تعالى كيف كانت عقوبتهم وعذابهم فقال تعالى ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي ميتون لا يتحرك منهم أحد قال المفسرون: أخذ جبريل عليه السلام بعضادتي باب المدينة وصاح بهم صيحة واحدة فتطايرت قلوبهم فإذا هم ميتون لم يسمع لهم حس كالنار إذا طفئت. قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ قال مقاتل ومجاهد معناه: يا ندامة عليهم في الآخرة باستهزائهم[1] بالرسل في الدنيا والحسرة أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية بعده حتى يبقى قلبه حسيراً والعرب إذا دعت نكرة موصولة بشيء آثرت النصب تقول يا رجلاً كريماً أقبل، ثم بين الله سبب الحسرة فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ معناه: ألم ير أهل مكة كم أهلكنا قبلهم من الأمم الماضية فيخافوا أن يعجل لهم في الدنيا مثل الذي عجل لغيرهم، ويعلمون مع ذلك أنهم لا يعادون إلى الدنيا أبداً قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ في أرض المحشر للحساب والجزاء هذا على قراءة من قرأ: ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ بالتشديد وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة وأما على قراءة من قرأ بالتخفيف[2] فإن ما صلة مؤكدة، وكان للإثبات كأنه قال: وإن كلاً الجميع لدينا محضرون.

ثم وعظ الله كفار مكة ليعتبروا فقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ أي وعلامة لهم تدلهم على التوحيد والبعث للأرض الميتة اليابسة التي لا نبات فيها ولا شجر أحييناها بإخراج الأشجار والزروع، وأخرجنا منها حباً وهو ما يقتات من الحبوب فمن الحب يأكلون ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾ أي بساتين في الأرض من نخيل وأعناب ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي من عيون الماء وقوله تعالى ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ أي من ثمر النخل والأعناب على اختلاف طعومها

---

(1) ينظر تفسير الطبري: 12: 5: رقم 22283 وكذا البغوي في تفسيره: 4: 540.

(2) يراجع في هذه الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لأبي محمد مكي: 2: 215، ومعاني القرآن للفراء: 2: 376.

وألوانها ويستدلوا بذلك على قدرة الله تعالى - قرأ الأعمش ثمره بضم الثاء، وسكون الميم وقرأ طلحة، ويحيى، وحمزة، والكسائي، وخلف - ثمره بضم الثاء والميم، وقرأ الباقون بفتحهما[1] وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي وما عملت أيديهم شيئاً مما ذكرناه وإنما هو من فعلنا ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله تعالى، ويجوز أن يكون معناه: ليأكلوا من ثمره، ومن ثمر ما عملت أيديهم يعني الغروس والحرث - قرأ أهل الكوفة: وما عملت بغيرها، ويجوز في ما ثلاثة أوجه: النفي بمعنى: ولم تعمل أيديهم أي وجدوها معمولة فلا صنع لهم فيها، وهذا قول الضحاك ومقاتل، والثاني: أن تكون بمعنى المصدر أي ومن عمل أيديهم، والثالث: بمعنى الذي أي ومن الذي عملت أيديهم من الغروس والحرث ومن قرأ عملته بالهاء[2] فالهاء عائدة على ما التي بمعنى الذي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36)﴾ أي سبحان الذي خلق الأصناف كلها من أجناس الفواكه والحبوب، وأصناف ما تنبت الأرض من الحلو والحامض، والأبيض والأحمر، وغير ذلك من الطعوم والألوان وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي وخلق من أنفسهم الذكران والإناث وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي وخلق في البر والبحر، وأجواف السماوات والأرض من جميع الأنوار والأشياء.

قال الله تعالى:

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40) وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (42) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (44)﴾.

---

(1) ينظر القرطبي في تفسيره: 15: 25، والزمخشري في تفسيره: 3: 321 - 322.

(2) ينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: ص 540، وكذا القرطبي والزمخشري في المرجعين المذكورين.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿37﴾﴾ أي وعلامة لهم أخرى تدل على قدرتنا الليل المظلم ننزع منه النهار فإذا هم داخلون في الظلام، وذلك أن الأصل هو الظلمة والنهار داخل عليها لأن الله خلق الدنيا مظلمة فإذا طلعت الشمس صارت الدنيا مضيئة تشبه ضوء النهار باللباس فإذا ذهب الضوء بغروب الشمس كان ذهاب ذلك بمنزلة سلخ جلد الشاة عن الشاة، وسلخ ثوب الرجل عن الرجل والمعنى: إذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل أي كشط فأزيل فتظهر الظلمة قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ معناه: وآية لهم الشمس تجري لمستقر لها أي إلى مستقر لها، وهو آخر مدة الدنيا ثم لا تجري بعد ذلك، ويقال: مستقرها منازلها إذا انتهت إلى أقصى منازلها التي لا تتجاوزها في الصيف رجعت ويقال: سميت منازلها مستقرها كما يقال: في منزل الرجل هو مستقره وإن تصرف فيه وتحرك، وعن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال مستقرها: تحت العرش رواه البخاري[1]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي ذلك الذي سبق ذكره تقدير العزيز في ملكه العليم الذي لا يخفى عليه شيء وفي قراءة ابن عباس: تجري لا مستقر لها[2] أي لا قرار لها فهي جارية أبداً ما دامت الدنيا قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب، والقمرُ بالرفع عطفاً على قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾، وقيل: على الابتداء وقرأ الباقون بالنصب[3] على معنى: وقدرنا القمر قدرناه منازل كما تقول: زيداً ضربته. والمعنى: قدرناه منازل ينزل في كل ليلة منزلة، وجملة منازله: ثمانية وعشرون فإذا صار إلى آخر منزلة وهي ليلة ثمانية وعشرين عاد كالعرجون القديم وهو: عذور النخلة الذي فيه الشماريخ إذا يبس، ولأن العذق إذا مضت عليه الأيام جفّ وتقوس، ويبس، ودقّ، واصفرّ، فصار أشبه الأشياء بالقمر في أول الشهر وآخره لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى، قوله

---

(1) أخرجه في صحيحه بشرح العسقلاني فتح الباري: 9: 502 رقم 4803 كتاب التفسير.
(2) يراجع ابن جني في المحتسب: 2: 212، والقرطبي في تفسيره: 15: 28.
(3) تراجع هذه القراءات في ابن مجاهد في كتاب السبعة ص 540.

تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ يعني أن الشمس أبطأ سيراً من القمر فلا تدركه، وذلك أن الشمس تقطع منازلها في سنة والقمر يقطع منازله في شهر وهما مسخّران مقصوران على ما دبرهما الله تعالى.

ويقال معنى قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ أي لا يدخل النهار على الليل قبل انقضائه بل هما يسيران دائبين ولكل حد لا يعدوه ولا يقصر دونه، فإذا جاء سلطان هذا ذهب ذلك، وإذا جاء سلطان ذلك ذهب هذا[1] فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي لا تتأخر الشمس عن مجراها فتسبق ظلمة الليل في وقت النهار وقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي كل من الشمس والقمر والنجوم الغاربة والطالعة في فلك يسيرون ويجرون بالانبساط والفلك هو مواضع النجوم من الهواء الذي يجري فيه مسمى بهذا الاسم لأنه يدور بالنجوم ومنه فلكة المغزل لأنها تدور بالمغزل قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ معناه: وآية لهم أخرى يعني أهل مكة تدلهم على توحيد الله أنّا حملنا ذريتهم في السفينة المملوءة وهي سفينة نوح عليه السلام والذرية في كلام العرب الآباء والأبناء والأجداد وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿42﴾﴾ أي وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح ما يركبون فيه على البحر يعني السفن التي عملت بعد سفينة نوح عليه السلام ما يركبون فيه على هيئتها وصورتها وقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ معناه: إن الله سبحانه ذكر بفضله أنه يحفظهم ولو شاء أغرقهم فلم يغنهم أحد ولم ينقذهم من الغرق ومعنى قوله تعالى: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي فلا مغيث لهم ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ من المكروه والغرق والصريخ بمعنى الصارخ لهم بالاستغاثة، وقيل الصريخ: المعين على الصراخ كأنه قال: لا معين لهم ولا هم ينقذون أي ولا هم مخلصون من الغرق إلا أن تتداركهم رحمة من الله فينقذهم إلى حين آجالهم[2].

(1) يراجع الطبري في تفسيره: 12: 11.

(2) الطبري في المرجع نفسه.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿45﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿46﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿47﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿48﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿49﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿50﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿45﴾﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار اتقوا ما بين أيديكم من أمر الآخرة فاعملوا لها، وما خلفكم من أمر الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها لعلكم ترحمون أي لتكونوا على رجاء الرحمة من الله، وجواب إذا محذوف تقديره: إذا قيل لهم هذا أعرضوا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي ما تأتيهم من عبرة ودلالة تدل على صدق النبي ﷺ ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ قال مقاتل: وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار قريش: أنفقوا على المساكين والفقراء ما زعمتم من أموالكم أنها لله وهو ما جعلوه من حروثهم وأنعامهم لله، فقال الكفار: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ورزقه[1]، قال الحسن: كان أهل الجاهلية أهل أخبار فقالوا: لم يشأ الله أن نطعمه، ولو شاء لأطعمناه، ويقال ظنوا بجهلهم أنه تعالى إذا كان قادراً على أن يطعمهم فيغنيهم عن إنفاق الناس، وهذا القول منهم خطأ لأن الله تعالى أغنى بعض الخلق، وأفقر بعضهم ليبلوا الغني بالفقير فيما فرض له من ماله من الزكاة، والمؤمن لا يعترض على المشيئة، وإنما يوافق الأمر وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذا من قول الكفار للمؤمنين يقولون لهم؛ إن أنتم في اتباعكم محمداً، وترك ديننا إلا في خطأ[2] بين، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي يقول كفار مكة متى

---

(1) ينظر البغوى في تفسيره: 4: 544.
(2) ينظر القرطبي في تفسيره: 15: 37.

هذا الوعد الذي تعدنا يا محمد من القيامة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنت وأصحابك أنا نبعث بعد الموت فأرنا ذلك. يقول الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ قال ابن عباس يعني النفخة الأولى التي تفجأهم وهم يخصمون في أمر الدنيا وفي تصرفاتهم[1] والمعنى تأخذهم الصيحة وهم يختصمون في البيع والشراء، ويتكلمون في الأسواق والمجالس وهي صيحة إسرافيل. قرأ ابن كثير وورش يخصمون بفتح الخاء وتشديد الصاد، وقرأ نافع غير ورش ساكنة الخاء مشددة الصاد، وقرأ أبو عمرو بالإخفاء، وقرأ حمزة ساكنة الخاء مخففة الصاد أي يغلب بعضهم بعضاً بالخصام، وأجود القراءة فتح الخاء مع تشديد الصاد لأن الأصل يختصمون فألقيت حركة الحرف المدغم وهو التاء على الساكن الذي قبله وهو الخاء وقرأ الباقون بكسر الخاء وتشديد الصاد[2].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي فلا يستطيع أحد أن يوصي في شيء من أمره ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي ولا يلبث أحد أن يصير إلى منزله وأهله لأنها تأخذهم بغتة فيموتون في مكانهم، وفي أسواقهم، قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لتقومن الساعة، وقد نشر الرجلان ثوباً يريد أحدهما أن يدفعه إلى صاحبه، فيحول قيام الساعة بينه وبين تسليمه إلى صاحبه، والذي نفسي بيده لتقومن الساعة وقد أهوى الرجل بلقمة ليضعها في فيه فيحول قيام الساعة بينه وبين وصولها إلى فيه**»[3].

قال الله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (51) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ (52) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53) فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا

(1) ينظر البغوي في المرجع نفسه.
(2) تراجع هذه القراءات في ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات ص 541، وكذا ابن الجزري في النشر في القراءات العشر: 2: 353 ـ 354.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني فتح الباري: 13: 156 رقم 6506 كتاب الرقاق، أخرجه البيهقي في الشعب: 1: 237 رقم 255 باب الإيمان باليوم الآخر.

مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (54) إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (57) سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (58) وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (59)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (51)﴾ أي ونفخ في الصور نفخة البعث فإذا هم من القبور إلى عرصات القيامة يخرجون مسرعين والنُسْلان: مقاربة الخطو مع الإسراع ومنه نسلان الذئب وهو هرولته وخببه، والأجداث: هي القبور. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ قال المفسرون: إنما يقولون هذا لأن الله تعالى رفع عنهم العذاب فيما بين النفختين فيرقدون، فلما بعثوا في النفخة الأخيرة، وعاينوا القيامة دعوا بالويل والثبور ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ فتقول لهم الملائكة هذا ما وعد الرحمٰن على ألسنة الرسل أنه يبعثكم بعد الموت، ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ في وعد البعث، وقال قتادة: أول الآية للكافرين وآخرها للمؤمنين، فقال الكفار: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، وقال المسلمون: هذا ما وعد الرحمٰن وصدق المرسلون، ويجوز أن يكون قوله: هذا من بعث المرقد كأنهم يقولون: من بعثنا من مرقدنا هذا الذي كنا راقدين فيه، فيقال لهم: هذا ما وعد الرحمٰن هو الذي بعثكم ويجوز أن يكون ما وعد الرحمٰن على هذا القول خبر مبتدأ محذوف تقديره: حق ما وعد الرحمٰن أو هذا ما وعد الرحمٰن(1).

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53)﴾ هذا في النفخة الثانية أي ما كانت نفخة البعث إلا صيحة واحدة لا تثنى فإذا الأولون والآخرون في عرصات القيامة محضرون إهلاكهم كان بصيحة واحدة، وبعث الخلائق كلهم كان بصيحة ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي لا تنتقص من حسنات أحدٍ ولا يزاد على سيئات أحد، ولا يجزى كل عامل إلا على ما عمل من خير أو شر قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ (55)﴾ معناه: إن أصحاب الجنة في الآخرة في شغل فاكهون ـ قرأ

(1) يراجع البغوى في تفسيره: 4: 546.

ابن كثير ونافع وأبو عمرو بجزم الغين، وقرأ الباقون في شُغُل بضم[1] الغين وهما لغتان مثل: السُحُت والسُحْت، واختلف المفسرون في شغلهم قال مقاتل: شغلوا بافتضاض العذارى عن أهل النار فلا يذكرونهم ولا يهتمون بهم، وقال الحسن: شغلوا بما في الجنة من النعيم عن ما فيه أهل النار من العذاب[2]، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عدن أبكاراً**» ـ قوله تعالى: ﴿فَكِهُونَ﴾ أي أصحاب فاكهة كما يقال: شاحم لاحم أي ذو شحم ولحم وعاسل ذو عسل وقرأ أبو جعفر: فكهون بغير ألف[3] والفكه: هو الفَرِح الضحوك الطيب النفس، ويقال: فاكه وفكه كحاذر وحذر قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ أي هم وحلائلهم في ظلال أشجار الجنة على السرر في الحجال جالسون بالإتكاء جلسة الملوك والأرائك هي السرر عليها الحجال وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ﴾ أي لهم في الجنة ألوان الفواكه ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي ولهم ما يتمنون ويسألون، وقال مقاتل معناه: ولهم ما يريدون، وقيل معناه: من ادعى شيئاً فهو له بحكم الله عز وجل لأنهم لا يدعون إلا ما يحسن وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿58﴾﴾ أي لهم سلام يسمعونه من الله، ويعلمهم بدوام الأمن والسلامة مع سبوغ النعمة والكرامة، ويقال تحييهم الملائكة عن الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾[4] وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «**بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب عز وجل قد أشرف عليهم من قولهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿58﴾﴾ فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى وبركته عليهم في ديارهم**».

(1) ينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات ص 541 ـ 542.
(2) ينظر الطبري في تفسيره: 12: 23 ـ رقم 22351 ـ 22353.
(3) ينظر الطبري في المرجع نفسه.
(4) سورة الرعد: 13 الآية: 23 ـ 24.

قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿59﴾﴾ معناه: تفرقوا، وقال السدي معناه: كونوا على حدة، وقال مقاتل معناه: اعتزلوا اليوم يعني في الآخرة من الصالحين وقال الزجاج معناه: انفردوا عن المؤمنين[1]، ومعنى الآية: أنه يقال للمجرمين تميزوا عن المؤمنين، وذلك أن الخلق كلهم يحشرون مختلطين.

قال الله تعالى:

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿60﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿61﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿62﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿63﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿64﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿65﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿66﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿67﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي ألم آمركم وأوحي إليكم، وقال الزجاج معناه: ألم أتقدم إليكم على ألسنة الرسل يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان[2] في الشرك أي لا تطيعوا الشيطان، وكل من أطاع شيئاً فقد عبده وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي عدو ظاهر العداوة أخرج أبويكم من الجنة ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ أي أطيعوني ووحدوني ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا طريق قائم يعني دين الإسلام قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي ولقد أضل الشيطان منكم أمماً كثيرة، وقيل خلقاً كثيراً قرأ علي رضي الله عنه جِبْلاً كبيراً ـ بالباء مخففاً، وقرأ عاصم ونافع وأيوب جبلاً بكسر الجيم والباء، وتشديد اللام وقرأ يعقوب بضم الجيم والباء، وتشديد اللام، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو جُبلاً بضم الجيم وسكون الباء مخففاً، وقرأ الباقون بضم الجيم والباء وتخفيف اللام[3]، وكلها لغات، ومعناه: الخلق والجماعة وقوله

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 4: 292 بنصه.

(2) المرجع نفسه.

(3) تراجع هذه القراءات في كتاب السبعة لابن مجاهد ص 542، والنشر لابن الجزري: 2: 355، والنحاس في إعراب القرآن: 3: 402 ـ 403، والقرطبي في تفسيره: 15: 47.

تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلم تعقلوا ما رأيتم من الأمم قبلكم إذا أطاعوا إبليس وعصوا الرسل فأهلكوا قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿63﴾﴾ أي يقال لهم حين وفوا من النار هذه جهنم التي كنتم توعدون بها في الدنيا وقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ أي الزموها اليوم بكفركم، وقاسوا حرها وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وذلك أنهم ينكرون الشرك فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين فيختم الله على أفواههم وتكلمت جوارحهم فشهدت عليهم بما عملوا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ قال عقبة بن عامر سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **أول عظم ينطق من الإنسان فخذه من رجله الشمال**»(1)، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه**»(2)، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي ولو نشاء لذهبنا أعينهم، وجعلناها بحيث لا يبدو لها شق ولا جفن والمعنى: ولو نشاء لأعميناهم في أسواقهم ومجالسهم بتكذيبهم إياك يا محمد كما فعلنا بقوم لوط حين راودوه عن ضيفه، وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي فطلبوا السبق وتبادروا إلى الطريق إلى منازلهم ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ أي فمن أين يبصرون لو فعلنا ذلك بهم وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي في منازلهم فصيرناهم قردة خاسئين وخنازير وحجارة ليس فيها روح ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يقدرون على ذهاب ولا مجيء، والمسخ في اللغة: نهاية التنكيل.

قال الله تعالى:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿68﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى
لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿69﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿70﴾
أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿71﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا
رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿72﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿73﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ

(1) أخرجه أحمد في المسند: رقم 17379، والطبري في تفسيره: 12: 31 رقم 22370.
(2) أخرجه الترمذي.

ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (75) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76)﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي ومن نُطوِّل عمره في الدنيا نرده إلى الحالة الأولى من الضعف قال الزجاج معناه من أطلنا عمره نكسنا خلقه فصار بدل القوة الضعف، وبدل الشباب الهرم[1] ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن القادر على رد البشر من حال القوة والكمال إلى حال الضعف وزوال العقل قادر على إعادة الخلق بعد الموت، ومن قرأ تعقلون[2] بالتاء فهو على مخاطبة الكفار، وقرأ عاصم وحمزة والأعمش ـ ننكسه بالتشديد، وقرأ غيرهم بالتخفيف، وفتح النون[3] قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ إنك شاعر، وإن القرآن شعر فأكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أي وما يتسهل له ذلك، وما كان يتَّزن له بيت شعر حتى إذا تمثل به جرى على لسانه منكسراً.

قال الحكم[4] كان رسول الله ﷺ يتمثل بقول العباس بن مرداس[5]:

أتجعلُ نَهْبي وَنَهْبَ العبيد ∴ بين الأقرع وَعُيَيْنَة[6]

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 4: 293 ـ بتصرف.

(2) يراجع ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات ص 543.

(3) يراجع ابن مجاهد في المرجع نفسه، والنحاس في إعراب القرآن: 3: 404، والفراء في معاني القرآن: 2: 381.

(4) الحكم بن عمرو الغفاري صحابي جليل له رواية وحديثه في البخاري صحب النبي ﷺ حتى توفي، ثم انتقل إلى البصرة توفي سنة خمسين هجرية، الإصابة: 2: 29، الطبقات الكبرى 2: 21 رقم 2842.

(5) أبو الهيثم العباس بن مرداس السلمي شاعر فارس، أسلم قبل فتح مكة فهو من المؤلفة قلوبهم حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، له ديوان شعر مطبوع توفي سنة ثمانية عشر هجري تقريباً ـ الطبقات الكبرى: 4: 15، تهذيب التهذيب: 5: 130.

(6) هذا البيت من جملة أبيات قالها العباس يعاتب بها النبي ﷺ على قلة ما أعطاه من سهم المؤلفة قلوبهم وذلك أن الرسول ﷺ أعطى أشراف القوم يوم حنين يتألفهم ويتألف بهم حتى أعطى الواحد مائة بعير ومن جملة من أعطى الأقرع بن حابس المجاشعي وعيينة بن حصن الفزاري وأعطى رجالاً من قريش دون المائة، وأعطى العباس بن مرداس أباعر قليلة فسخطها وأخذ ينشد

فقالوا له يا رسول الله: إنما هو بين عيينة والأقرع، فقال: بين الأقرع وعيينة، فقام إليه أبو بكر رضي الله عنه، فقبل رأسه، وقال: صدق الله ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وعن الحسن رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يتمثل بهذا البيت:

كفى بالإسلام والشَّيْب للمرء ناهيا[1]

فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما قال الشاعر:

كفَى الشَّيْبُ والإسلامُ للمرءِ نَاهِياً

فقال عمر رضي الله عنه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت: كان الشعر أبغض الحديث إليه، ولم يتمثل بشيء من الشعر إلا بيت طرفة[2]:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ∴ ويأتيك من لم تزود بالأخبار[3]

فقال أبو بكر: ليس هو كذا يا رسول الله، إنما هو: ويأتيك بالأخبار من لم تزود. فقال: إني لست بشاعر، وما ينبغي لي الشعر ـ قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ

ويعاتب وقال:

وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرىء منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال ﷺ لعلي بن أبي طالب: يا علي اقطع لسانه عني، فأخذه علي رضي الله عنه لإبل الصدقة، وقال خذ ما أحببت.

والعبيد بالتصغير: اسم فرس العباس. السيرة النبوية: 4: 427 ـ خزانة الأدب: 1: 152.

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره من غير نسبة وكذا القرطبي: 15: 52.

(2) أبو عمرو طرفة بن العبد البكري الوائلي شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات له ديوان مطبوع توفي وهو شاب.

(3) هذا البيت من معلقة طرفة بن العبد من البحر الطويل يقول فيه:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ∴ ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

الزوزني: شرح المعلقات السبع ص 45، خزانة الأدب: 1: 414، الأعلام: 3: 225.

إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ أي ما القرآن إلا ذكر وموعظة فيه الفرائض، والحدود، والأحكام ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ قرأ نافع وابن عامر بالتاء، والخطاب للنبي ﷺ، وقرأ الباقون بالياء يعني لينذر القرآن من كان حياً يعني: مؤمناً حي القلب لأن الكافر كالميت في أنه لا يتدبر ولا يتفكر ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي وتجب الحجة بالقرآن على الكافرين قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ معناه: أولم يشاهدوا أنا خلقنا لهم مما تولينا خلقه بإبداعنا وإنشائنا لم يشاركنا في خلق ذلك شريك ولا معين وذكر الأيدي هاهنا يدل على انفراده بما خلق.

والمعنى: أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملناه بقدرتنا لا بما عملتها أيدي مالكيها أنعاماً وهي الإبل، والبقر، والغنم فهم لها مالكون أي ضابطون قاهرون لها يصرفونها كيف شاءوا، واليد: تذكر ويراد بها القدرة، وإظهار الصنعة، وقوله تعالى: ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ﴾ أي لم نخلق الأنعام نافرة من بني آدم لا يقدرون على ضبطها بل هي مسخرة لهم والمعنى: وسخرناها لهم مع قوتها وضعفهم ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ﴾ أي مركوبهم ﴿وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ من لحومها، فقوله منها ركوبهم يعني الإبل قال عروة في مصحف عائشة: ركوبتهم[1] - والركوب والركوبة واحد مثل: الحمول والحمولة يقال: هذه الجمال ركوبة القوم وركوبهم، وهذه النوق حلوبة القوم وحلوبهم. قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾ أي منافع من أصوافها، وأوبارها وأشعارها، ونسلها ومشارب من ألبانها ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ رب هذه النعم فيوحدونه ثم ذكر جهلهم وغرتهم فقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤﴾ أي عبدوا من دون الله أصناماً رجاء أن ينصروهم ويشفعوا لهم كما قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[2] فنفى الله تعالى نصرهم بقوله: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ أي لا تقدر آلهتهم أن تمنعهم العذاب ﴿وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ أي هم للأصنام كالعبيد للأرباب قيام بين أيديهم ينتصرون بهم،

---

(1) ينظر ابن جني في المحتسب: 2: 216. وكذا القرطبي في تفسيره: 15: 56.
(2) سورة الزمر: 39 الآية: 3.

والأصنام لا تقدر على نصرهم، ولا على نصر أنفسهم، ويجوز أن يكون معناه: والمشركون يحضرون مع الأصنام في النار توبيخاً وتعذيباً للذين كانوا يعبدونهم، وقيل معناه: أن المشركين ينصرون الأصنام وهي لا تستطيع نصرهم قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا يحزنك يا محمد قول كفار مكة في تكذيبهم إياك، وقولهم: إنك شاعر ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في نفوسهم من تكذيبك، ومن مكرهم وخيانتهم، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ لك من العداوة بألسنتهم والمعنى: إنا نثيبك ونجازيهم.

قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ (81) إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (77)﴾ يعني: أبي بن خلف الجمحي، خاصم النبي ﷺ في إنكار البعث، وأتاه بعظم قد بلى، فجعل يفته ويذريه في الرياح ويقول لأصحابه: يحيي الله هذا العظم بعد ما رمّ، ويقول لهم: إن محمداً يقول: إذا متنا وصرنا تراباً نعاد وتنفخ فينا الروح إن هذا شيء عجيب من يقدر أن يحيي العظام وهي رميم فقال ﷺ: «**يحيي الله هذا ويميتك ويدخلك النار**»، فأنزل الله هذه الآية[1]، والمعنى: أولم ير الإنسان أنا خلقناه مع الحياة، والعقل، والحواس من نطفة، فبلّغناه إلى أن صار خصيماً جذلاً ظاهر الخصومة وهذا تعجيب من جهله وإنكار عليه خصومته أي كيف لا يتفكر في بدوّ خلقه وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا

(1) ينظر الواحدي في أسباب النزول ص 302 ـ 303، وكذا الطبري في تفسيره: 12: 38 رقم 22396.

﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ أي ضرب المثل في إمكان البعث بالعظم البالي بفته بيده ونسي خلقنا إياه بعد أن لم يكن شيئاً حتى صار مخاصماً، فقال من يحيي العظام وهي رميم؟ أي شيء بال، قاس قدرة الله بقدرة الخلق فأنكر إحياء العظم البالي لما لم يكن ذلك في مقدور البشر قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن الذي أنشأ الخلق من العدم إلى الوجود قادر على الإعادة بعد الإماتة وهو عليم بالخلق بعد أن خلقهم، قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ في هذه الآية زيادة بيان عن عجيب صنعه ومعنى ذلك الزنود التي كانت العرب توري منها النار كانوا إذا احتاجوا إلى النار أخذوا غصنا من شجر المرخ وغصنا من شجر العَفار وهو الأرين، فضربوا أحدهما بالآخر فخرجت النار، فقيل لهم: إن الذي جمع بين الماء والنار في الشجر الأخضر قادر على تضادهما لا يطفىء الماء النار ولا تحرق النار الشجر قادر على أن يبعثكم ويرد أرواحكم إلى أجسادكم، ويقال ما من شجرة إلا وفيها نار غير شجرة العناب ولذلك يختارها القصارون لدق الثياب عليها، ثم ذكر الله عز وجل ما هو أعظم خلقاً من الإنسان فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ معناه: على أن من قدر على خلق السموات والأرض في عظمهما وعجائبهما يقدر على إعادة خلق البشر لأن خلق السموات والأرض وما فيهما أبلغ في القدرة من إحياء الموتى، أفليس القادر عليهما قادر على الإعادة بلى وهو الخلاق يخلق خلقاً بعد خلق العليم بجميع ما خلق، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (82)﴾ معناه: إنما أمره إذا أراد شيئاً من البعث وغيره أن يقول له كن فيكون بغير واسطة فإن قيل: لم لا ينصب قوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ على جواب الأمر؟ كما يقال: ائتني فأكرمك قلنا ذاك مستقبل يجب الثاني بوجوب الأول، وهذا كائن لأن الفعل واجب مع إرادة الله تعالى وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ نزّه الله نفسه من أن يوصف بغير القدرة أي تنزيهاً للذي له القدرة على كل شيء من أن يوصف بغير القدرة، وملكوت كل شيء أي ملك كل شيء والقدرة على كل شيء وإليه ترجعون في الآخرة بعد الموت فيجزيكم بأعمالكم.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

قال الإمام الحداد رحمه الله:

سورة والصافات ـ مكية، وهي ثلاثة آلاف وثمانمائة وستة وعشرون حرفاً، وثمانمائة وستون كلمة، ومائة واثنتان وثمانون آية ـ قال ﷺ: «**من قرأ سورة والصافات أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد كل جني وشيطان، وتباعدت منه مردة الشياطين، وبرىء من الشرك، وشهد له حافظاه يوم القيامة، إنه كان مؤمناً بالمرسلين**»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿1﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿2﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿3﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿4﴾ رَبُّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿5﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿6﴾ وَحِفْظًا
مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿7﴾ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿8﴾ دُحُورًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿9﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿10﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ
خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿11﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿12﴾﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿1﴾﴾ يعني صفوف الملائكة في السماء كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة، وهذا قسم أقسم الله بالملائكة التي

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف: 3: 358 عند نهاية تفسيره للسورة. وكذا الثعلبي في تفسيره ـ خ.

تصف أنفسها في السماء ـ وقال ابن عباس: يريد الملائكة صفوفاً لا يعرف كل ملك من مثلهم إلى جانبه لم يلتفت مذ خلقه الله عز وجل، وقيل أقسم الله بصفوف الملائكة تصف أجنحتها في الهوى واقفة فيه حتى يأمر الله بما يريد[1] قوله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ أراد به الملائكة الذين يزجرون السحاب، فيسوقونه إلى الموضع الذي أمروا به، ويؤلفونه. وقال قتادة: يعني: زواجر القرآن، وهو كل ما ينهى ويزجر عن القبيح[2] وقوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾ يعني جبريل والملائكة يتلون كتاب الله وذكره وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤﴾ جواب القسم وإنما وقع القسم بهذه الملائكة لأن في تعظيمها تعظيماً لله تعالى، وقيل هذا قسم بالله تعالى على تقدير: ورب الصافات إلا أنه حذف لما يقتضي من التعظيم، وكذلك: والذاريات، والطور، والنجم، وغير ذلك، وقد تضمنت الآية تشريف الملائكة، وتعظيم الاصطفاف في الصلاة، وفي الحديث: «**إنهم يصطفون في صلاتهم في السماء، ويسبحون الله، ويذكرونه، ويرفعون أصواتهم بقراءة القرآن في الصلاة كما يصطف الناس في صلاتهم**»، فقال مقاتل: وذلك أن كفار قريش قالوا: أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً فأقسم الله تعالى لهؤلاء: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤﴾[3] ليس له شريك: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي مالكهما ومنشئهما ومدبر ما بينهما، ومالك المشارق ومدبرها، وإنما قال هاهنا: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ لأن للشمس ثلاثمائة وستين مشرقاً تطلع كل يوم من مشرق وتغرب في مغرب، فإذا تحولت السنة عادت إلى المشرق الأول والمغرب الأول وأما قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾[4] فإنما أراد جانب المشرق وجانب المغرب، وقيل: أراد به الجنس وقيل: أراد مشرقها ومغربها في يوم واحد، وأما قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ۝١٧﴾[5] فقيل: إنه أراد به مشرق

---

(1) ينظر البغوي في تفسيره: 4/ 555.

(2) ينظر الطبري في تفسيره: 12: 42 ـ وكذا البغوي في المرجع نفسه.

(3) القرطبي في تفسيره: 15: 62.

(4) سورة الشعراء: 26 الآية: 28 ـ وسورة المزمل: 73 الآية: 9.

(5) سورة الرحمٰن: 55 الآية: 17.

الشمس ومشرق القمر ومغربهما، وقيل: أراد بذلك مشرق الشتاء والصيف ومغربهما، وشروق الشمس طلوعها يقال شرقت إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ أي زينا السماء التي هي أدنى إليكم من سائر السماوات بضوء الكواكب ونورها قرأ أبو بكر بزينة بالتنوين ونصب الكواكب أعمل الزينة في الكواكب أي بأن زينا الكواكب فيها وقرأ حمزة، وحفص بزينة بالتنوين، وخفض الكواكب على البدل أي بزينة الكواكب وقرأ الباقون[1] بالإضافة، وقوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ أي وجعلنا الكواكب حفظاً من كل شيطان متجرد للشر يقذفون بها إذا استرقوا السمع والمارد: الخبيث الخالي من الخير، والمارد: هو المتمرد قال: وفي هذا دليل أنه إنما يرجم بالكواكب بعض الشياطين وهم المردة قوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كأنه قال: فلا يسمعون أي لا يسمع مردة الشياطين إلى الملائكة، ولا إلى كلامهم ـ قال الكلبي: معنى الآية لكيلا يسمعوا إلى الكتبة من الملائكة، والملأ الأعلى هم الملائكة لأنهم في السماء قرأ أهل الكوفة: لا يسَّمَّعون بالتشديد[2] أي يتسمعون وقوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا﴾ أي ويرمون من كل جانب بالشهب يعني أن الشياطين يرمون بالشهب عند دنوهم من السماء لاستماع كلام الملائكة في تدبير أمور الدنيا يرمون بالشهب من نواحي السماء وأطرافها وقوله تعالى: ﴿دُحُورًا﴾ أي طرداً وإبعاداً يقال: دحره دحراً ودحوراً إذا طرده وأبعده، ولهم مع ذلك في الآخرة عذاب واصب أي دائم لا ينقطع وقيل معنى الواصب الموجع من الوصب وهو الوجع، وقيل معنى الآية: إنهم يدحرون فيبعدون عن تلك المجالس التي يسترقون فيها السمع: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي دائم إلى النفخة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ أي إلا من اختلس كلمة من كلام

---

(1) ينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات ص 546 ـ 547، وابن الجزري في النشر: 2: 356. وكذا النحاس في إعراب القرآن: 3: 410.

(2) ينظر ابن مجاهد في المرجع نفسه، وكذا القرطبي في تفسيره: 15: 65، والفراء في معاني القرآن 2: 382.

الملائكة مسارقة: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي لحقه وأصابه نار مضيئة تحرقه، والثاقب: النيّر المضيء وهذا كقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾[1] كأنه قال: لا يسمعون إليهم إلا من استمع مختلساً، والخطفة: هي أخذ الشيء بالسرعة قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي نجم وهاج متوقد مضيء يحرقه وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي سل يا محمد أهل مكة واستعلمهم تقريراً للحجة عليهم أهم أشد خلقاً أي أحكم صنعة أم من خلقنا قبلهم من الأمم الماضية كانت الأمم الماضية أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأهلكناهم بكفرهم وتكذيبهم فكيف يأمن هؤلاء الهلاك مع إصرارهم على الكفر وهم أضعف ممن قبلهم ثم ذكر الإنسان فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ أي إنا خلقنا أصلهم وهو أبو البشر آدم عليه السلام من طين لازب أي لاصق ثابت يقال: ضربة لازب وضربة لازم وإذا خلق أصلهم من طين لازب، فكيف لا يقرون بقدرة الله تعالى على البعث قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ⑫﴾ أي بل عجبت يا محمد من إنكارهم للبعث مع ظهور ما جئت به من الحجة والأدلة، ويقال: بل عجبت من أجلهم حيث اختاروا ما تجب به النار لهم، وتركوا ما تجب لهم به الجنة وهم يسخرون من بعثك، ويستهزءون بكلامك وبالقرآن وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف[2] بضم التاء وهي قراءة ابن مسعود على معنى أنهم قد حلوا محل من يعجب منهم، وقال الحسين بن الفضل[3]: أيعجب من الله على خلاف العجب من الآدميين[4]، وإنما العجب هاهنا هو الابتكار والتعظيم، وقد جاء في الخبر: «**إن الله تعالى ليعجب من شاب ليس له صبوة**»، وقيل إن الجنيد سئل عن هذه الآية فقال: إن الله لا يعجب من شيء ولكن الله وافق

---

(1) سورة الحجر: 15 الآية: 18.

(2) ينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة: ص 547 والنحاس في إعراب القرآن: 3: 413.

(3) الحسين بن الفضل بن عمير البجلي - مفسر معمر، كان متفوقاً في معاني القرآن، أصله من الكوفة، وانتقل إلى نيسابور، فأقام فيها يعلم الناس. توفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين هجرية. لسان الميزان: 2: 307.

(4) القرطبي في تفسيره: 15: 71.

رسوله لما عجب[1] رسوله فقال: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾[2] أي هو كما تقوله قال شريح: إنما يعجب من لا يعلم والله تعالى عنده علم كل شيء[3] وقرأ الباقون: بل عجبت بفتح[4] التاء على خطاب النبي ﷺ وبل معناه: ترك الكلام الأول، والأخذ في كلام آخر كأنه قال: دع يا محمد ما مضى عجبت من كفار مكة حين أوحى إليك القرآن ولم يؤمنوا به وهو قوله تعالى: ﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾ لأن سخريتهم بالقرآن: ترك الإيمان به، وقال قتادة: عجب نبي الله من هذا القرآن حين أنزل عليه، وظن أن كل من سمعه آمن به فلما سمعه المشركون، ولم يؤمنوا به، وسخروا منه، عجب النبي ﷺ من ذلك[5]، فقال الله عز وجل عجبت يا محمد من نزول الوحي عليك وتركهم الإيمان.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ١٣ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ١٩ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١ ۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ٢٦ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ١٣﴾ أي وإذا وعظوا بالقرآن لا يتعظون، ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤﴾ أي إذا رأوا معجزة مثل انشقاق القمر وغيره اتخذوه سخرية، ونسبوا ما يدلهم على توحيد الله إلى السحر فقالوا: إن هذا إلا سحر مبين، وقالوا أيضاً على وجه الإنكار أئذا متنا وصرنا تراباً وعظاماً بالية أئنا لمبعوثون أي أنبعث بعد الموت، وآباؤنا الذين مضوا قبلنا قل لهم يا محمد نعم

(1) ينظر الثعلبي في تفسيره - خ -.
(2) سورة الرعد: 13: الآية: 5.
(3) الثعلبي في المرجع نفسه.
(4) ابن مجاهد في المرجع نفسه.
(5) ينظر الطبري في تفسيره: 12: 54 رقم 22448.

تبعثون وأنتم داخرون أنتم وآباؤكم أي وأنتم إذاً لصاغرون، والدحور: أشد الذل ثم ذكر أن بعضهم يقع بزجرة واحدة أي بصيحة واحدة: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ ماذا يؤمرون به وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي فإنما قصة البعث صيحة واحدة من إسرافيل يعني نفخة البعث: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ إلى البعث الذي كذبوا به، فلما عاينوا البعث ذكروا قول الرسل في الدنيا: إن البعث حق، فدعوا بالويل، وقالوا: يا ويلنا من العذاب هذا يوم الدين أي هذا يوم الحساب والجزاء نجازى فيه بما عملنا، فقالت الملائكة هذا يوم الفصل أي يوم القضاء الذي كنتم به تكذبون، يفصل به بين المحسن والمسيء، والمحق والمبطل وهو اليوم الذي كنتم تكذبون به في الدنيا، قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي يقال لخزنة جهنم: اجمعوا الذين ظلموا وأقرانهم من الشياطين الذين قيضوا لضلالهم، ويقال أراد بالأزواج: نظراؤهم وأشكالهم من الأتباع، والزوج في اللغة: هو النظير، ومن ذلك زوجان من الخف، ويقال أراد بالأزواج: نساؤهم إذا كانت امرأة الكافر كافرة، أو منافقة والمعنى: جمعوا الذين ظلموا من حيث هم إلى الموقف للجزاء والحساب، والمراد بالذين ظلموا: المشركين. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي اجمعوا المشركين، وأتباعهم، وأوثانهم وطواغيتهم وأصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

وقال مقاتل: يعني إبليس وجنوده[1] فهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله قال الله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي سوقوهم واذهبوا بهم إلى طريق الجحيم، فلما انطلق بهم إلى جهنم أرسل ملك يقول لخزنة جهنم: قفوهم إنهم مسؤولون أي أجلسوهم في موضع الحساب ليسألوا، ويعرفوا جزاء أعمالهم وهذا سؤال توبيخ لا سؤال استفهام قال ابن عباس معناه: إنهم مسؤولون عن أعمالهم في الدنيا وأقاويلهم[2]، وقال مقاتل: تسألهم خزنة جهنم ألم يأتكم نذير؟ ألم يأتكم رسل منكم؟ ويجوز أن يكون هذا السؤال ما ذكر بعد وهو: قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿25﴾﴾ أي يقال لهم

(1) ينظر البغوي في معالم التنزيل: 4: 558.
(2) المرجع نفسه.

على سبيل التوبيخ ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً؟ كما كنتم في الدنيا وذلك أن أبا جهل لعنه الله قال يوم بدر: نحن جميع منتصر[1]، فقيل لهم ذلك اليوم: ما لكم غير متناصرين؟ وأنتم زعمتم في الدنيا أنكم تتناصرون قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26)﴾ أي منقادون خاضعون لما يراد بهم، والمعنى: هم اليوم أذلاء منقادون لا حيلة لهم، فالعابد منهم والمعبود لا يحمل أحد عن أحد ولا يمنع أحد عن أحد قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (27)﴾ أي أقبل الشياطين والمشركون يسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ، فيقول المشركون للشياطين: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾.

قال الله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ (28) قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (29) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (31) فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35)﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ (28)﴾ فتزينون لنا الضلالة، وتردوننا عن الخير فتقول لهم الشياطين: إنما كان الكفر من قبلكم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ﴾ أي من قوة تجبركم على الكفر: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ﴾ أي متجاوزين ضالين، وقال الحسن في معنى الآية: وأقبل بعضهم على بعض أي أقبل التابعون على المتبوعين، وكلهم من بني آدم، فيقولون: لولا أنتم لكنا مؤمنين فتقول لهم الرؤساء: ما أجبرناكم على الكفر بل كفرتم بسوء اختياركم، فيقول لهم التابعون: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين أي من أقوى الجهات.

وذلك لأن جهة اليمين أقوى من جهة الشمال كما أن اليمين أقوى من الشمال وتقديره: خدعتمونا بأقوى الوجوه، واليمين هي القوة قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ (93)﴾ أي بالقوة، وقال قتادة معناه: إنكم تأتوننا عن اليمين

---

(1) القرطبي في تفسيره: 15: 74.

أي تمنعونا عن طاعة الله[1] فتقول الرؤساء: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ في الأصل إذ لم تكونوا تريدونه فكيف أجبرناكم عليه: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ للإجبار على الكفر: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ أي فوجب علينا جميعاً كلمة ربنا بالسخطة والعذاب، وهي قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ أي إنا لذائقوا العذاب، فالضال والمضل في النار وقوله تعالى: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ (32)﴾ أي أضللناكم عن الهدى، ودعوناكم إلى الغواية ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ بأنفسنا يقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33)﴾ لا ينفعهم التنازع والتخاصم وكلا الفريقين مشتركون في العذاب: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (34)﴾ أي هكذا نعاقب المشركين، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35)﴾ أي إنهم كانوا يتكبرون عن كلمة التوحيد.

قال الله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ (36) بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ (37) إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ (38) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (39) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (40) أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (41) فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (42) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (43) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (44) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ (45) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (47) وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (49) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (50)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أنترك آلهتنا، وعبادتها بقول شاعر مجنون، يعنون النبي ﷺ نسبوه إلى الشعر والجنون، فأكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ (37)﴾ أي ما هو بقول شاعر، وما صاحبكم بمجنون: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالقرآن والتوحيد: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين كانوا قبله أي أتى بما أتوا به من الإيمان، وقول الحق، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ (38)﴾ أي يقال لهم: إنكم أيها المشركون لذائقوا العذاب الأليم على شرككم ونسبتكم النبي ﷺ إلى الشعر والجنون، وما تجزون في الآخرة إلا ما كنتم تعملون في

---

(1) ينظر القرطبي في تفسيره: 15: 74.

الدنيا من الشرك ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (40)﴾ أي لكن عباد الله الموحدين المخلصين فإنهم لا يعذبون. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (41)﴾ أي يجزون بأكثر مما استحقوه، وقيل لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا، وقيل الرزق المعلوم: هو ما ذكر بعد هذا في قوله تعالى: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (42)﴾ والفواكه: جمع فاكهة وهي الثمار كلها رطبها ويابسها، وهم مكرمون بثواب الله تعالى على السرر في جنات النعيم على سرر متقابلين أي لا يرى بعضهم قفا بعض، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (45)﴾ أي بآنية مملوءة من الشراب، ولا تسمى الآنية كأساً إلا إذا كان فيها الشراب، والمعين هاهنا: الخمر سميت معيناً لأنها تجري هناك على وجه الأرض من العيون كما يجري الماء فيها في غير الأخدود، وقوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (46)﴾ قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن[1] ليست هي على لون خمر الدنيا، ولكنها بيضاء لرقتها ولونها، ورونقها وصفائها وقوله تعالى: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي لذيذة، أو ذات لذة للشاربين يقال شراب لذ ولذيذ قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي ليس في شرابها صداع، ولا وجع بطن، ولا أذى، ولا تغتال عقولهم، فيذهب بها، ويقال للوجع غول لأنه يؤدي إلى الهلاك وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي ولا هم عنها يسكرون يقال: نزف الرجل فهو منزوف ونزيف إذا سكر، وقال الكلبي معنى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي إثم[2] قال الله تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[3] وقال ابن كيسان: الغول المغص، وقال أهل المعاني: الغول فساد يلحق في خفاء يقال: اغتاله اغتيالاً إذا أفسد عليه أمره في خفية وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، بكسر[4] الزاي هاهنا، وفي الواقعة ومعناه: لا ينفد شرابهم بل هو دائم لهم أبداً يقال: أنزف الرجل إذا أنفد شرابه، ومن قرأ[5] بفتح الزاي

---

(1) ينظر البغوي في تفسيره: 4: 561.
(2) القرطبي في تفسيره: 15: 79.
(3) سورة الطور: 52 الآية: 23.
(4) ينظر مكي في الكشف عن وجوه القراءات 2: 224.
(5) المرجع نفسه.

فمعناه: لا يسكرون فيها يقال: نزف الرجل فهو منزوف ونزيف إذا سكر وزال عقله قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي يعقد لهم مجلس الشراب ويسقون هذه الكؤوس اللذيذة، ويحضرهم حور عين قاصرات الطرف قصرن أطرافهن على أزواجهن لا يبغين بهم بدلاً ولا ينظرون إلى غير أزواجهن، والعين جمع عيناء وهن كبار الأعين وحسانها، وقال الحسن: العين اللاتي بياض أعينهن في غاية البياض، وسوادها في غاية السواد[1].

ومعنى الآية: وعندهم حابسات الأعين غاضات الجفون قصرن أعينهن من غير أزواجهن فلا ينظرن إلا إلى أزواجهن وقوله تعالى: ﴿عِينٌ﴾ أي نجل العيون حسانها، واحدتها عيناء يقال رجل أعين، وامرأة عيناء، ونساء عين وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (49)﴾ أي مستور مصون، والبيض جمع بيضة قال الحسن: شبههن ببيض النعام يكنها الريش من الريح والغبار، وهذا من تشبيهات العرب في وصف النساء بالبيض فشبه الله تعالى بياض أبدانهن ببياض البيض المكنون، ويقال: أراد بالبيض المكنون هاهنا البياض الذي في داخل القشر[2] الخارج قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50)﴾ أي يتحدثون في الجنة عن أمور الدنيا.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِن
كِدتَّ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا
الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61)
أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (63) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي
أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا
الْبُطُونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68)﴾.

(1) القرطبي نفسه.
(2) القرطبي في تفسيره 15: 80.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في جواب ما يسأل عنه ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي كان لي صاحب في الدنيا يقول لي صدقت وهو منكر للبعث ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بالبعث ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ وصرنا تراباً وعظاماً بالية أئنا لمدينون أي لمجزون محاسبون، وهذا استفهام إنكاري والدين: الحساب والجزاء أي كان يقول هذا الأمر ليس بكائن قوله تعالى ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿54﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿55﴾﴾ معناه: قال القائل من أهل الجنة لأصحابه هل تطلعون على النار، وعلى أهلها فتنظرون إلى هذا الذي كان قريناً لي وتعرفون حاله فاطلع هو بنفسه على النار وأهلها فرأى قرينه في وسط الجحيم يعذب بألوان العذاب، قال ابن عباس: وذلك أن في الجنة كوى ينظر منها إلى النار[1] فاطلع هذا المؤمن فرآه في سواء الجحيم أي في وسط النار يعذب، فقال له تالله إن كدت لتردين أي ما أردت إلا أن تهلكني كهلاك المتردي من الشاهق.

وقال مقاتل معناه: لقد كدت أن تغويني فأنزل منزلتك[2]، والإرداء: الهلاك ومن أغوى إنساناً فقد أهلكه وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ أي لولا إنعامه عليّ بالإسلام لكنت من المحضرين معك في النار، وقال الكلبي: ثم يؤتى بالموت فتذبح بين الجنة والنار، وينادي منادٍ يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت[3]، فيقول هذا القائل لأصحابه على جهة السرور: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿58﴾﴾ في هذه الجنة أبداً إلا موتتنا الأولى التي كانت في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿138﴾﴾ أبداً فيقال له: لا فيقول: إن هذا لهو الفوز العظيم فزنا بالجنة ونعيمها، ونجونا من النار وجحيمها فهذه قصة الأخوين اللذين ذكرهما الله في سورة الكهف بقوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾[4] قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿61﴾﴾ أي لمثل هذا النعيم المقيم، والملك العظيم فليعمل العاملون في الدنيا يعني بالنعيم ما ذكره الله من قوله تعالى: ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾

(1) القرطبي نفسه.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 4: 562.
(3) يراجع القرطبي في تفسيره: 15: 84.
(4) سورة الكهف: 18 الآية: 32.

إلى قوله تعالى: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿62﴾﴾ معناه: أذلك الفوز الذي سبق ذكره لأهل الجنة خير فيما يهيأ من الإنزال أم نزل أهل النار وقوله تعالى: ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ لأهل النار في النار والزقوم: هو ما يكره تناوله، والذي أراده الله هو شيء مر كريه تناوله، وأهل النار يكرهون على تناوله فهم يتزقمونه على أشد كراهة تقول العرب: تزقم هذا الطعام أي تناوله على تكره ومشقة شديدة قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿63﴾﴾ روى في سبب نزول ذلك أنه لما نزل تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿62﴾﴾ كانوا يقولون: لا ندري ما الزقوم، وكانوا يتذاكرون هذا الحديث إذ جاءهم عبد الله بن الزبعري السهمي، فذكروا له، فقال: أكثر الله تعالى في بيوتكم منها إن أهل اليمن يدعون الزبد والتمر: الزقوم، فقال أبو جهل لجاريته زقمينا يا جارية فأتته بزبد وتمر، فقال: تزقموا فإن هذا الذي يخوفكم به محمد فشاع في أهل مكة إن محمداً يخوف أصحابه بالزبد والتمر، فأنزل الله تعالى هذه[1] الآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿63﴾﴾ أي عذاباً للكافرين، والفتنة هي العذاب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿13﴾﴾[2] ذوقوا فتنتكم أي عذابكم، وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ ويجوز أن يكون معنى الفتنة في هذه الآية المحنة والبلية كما قال قتادة لما ذكر الله هذه الشجرة افتتن بها الظلمة[3].

وقالوا كيف تكون في النار شجرة وهي تأكلها لأن النار تأكل الشجر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿63﴾﴾ أي حيرة لهم افتتنوا بها وكذبوا بكونها، وبين الله تعالى أنها شجرة تخرج في أصل الجحيم أي تنبت في قفر الجحيم قال الحسن: أصلها في قعر جهنم، وأغصانها في دركاتها[4] بالنار غذيت، ومنها خلقت تنمو بلهب النار كما ينمو شجركم بالماء كلما ازدادت النار

(1) يراجع الطبري في تفسيره: 12: 75.
(2) سورة الذاريات: 51 الآية: 13.
(3) الطبري نفسه.
(4) يراجع البغوي في تفسيره: 4: 563.

التهاباً ازدادت تلك الشجرة نمواً وارتفاعاً وإن أهل النار يأكلون النار، ويشربون النار، ويلبسون النار، ويتقلبون في النار وإن أهون أهل النار عذاباً رجل يكون له نعلان يغلي من حرهما دماغه قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ (65)﴾ أي ثمرها كريه مرٌّ هائل المنظر كأنه حيات هائلات الرؤوس تكون في طريق اليمن تسمي العرب تلك الحيات رؤوس الشياطين لقبحها، وقال بعضهم: أريد به الشياطين المعروفة، وقد اعتقد الناس قبحهم وقبح رؤوسهم وإن لم يشاهدوهم ولذلك يشبهون الشيء القبيح بالشيطان يقول الرجل: رأيت فلاناً كأنه شيطان، ورأسه رأس شيطان فالشياطين موصوفة بالقبح وإن كانت لا ترى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا﴾ أي من ثمرها ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ وذلك أن الله تعالى يلقى على أهل النار من شدة الجوع ما يلجئهم إلى أكلها بما هي عليه من الحرارة والمرارة والخشونة فيبتلعونها على جهد حتى يختنقوا بها أو تمتلىء بطونهم منها، ويكون حالهم في الأكل منها آخراً كمالهم في الأكل منها أولاً قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (67)﴾ وذلك أن الله تعالى يلقي عليهم العطش بعد ذلك حتى يشربوا من الحميم وهو الماء الحار الذي قد انتهى حره، والشوب: هو خلط الشيء مما ليس منه بما هو شر منه يقال: شابه الشيء إذا خالطه فيشوب الجحيم في بطونهم الزقوم فيصير شوباً له قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ معناه: ثم إن مرجعهم بعد شرب الحميم، وأكل الزقوم إلى الجحيم وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه وهو خارج من الجحيم كما تورد الإبل الماء ثم يوردون إلى الجحيم، ويدل على صحة ذلك قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (44)﴾[1] فمرة يردون إلى الحميم فيتجرعونه، ويصب على رؤوسهم، ومرة يردون إلى النار الموقدة، وهذا دأبهم أبداً وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أيها الناس اتقوا الله ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم فكيف بمن هو طعامه ليس له طعام غيره**»[2].

---

(1) سورة الرحمٰن: 55 الآية: 44.

(2) الترمذي وابن ماجه، ابن كثير في تفسيره: 6: 18.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ (69) فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ (70) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (72) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ (73) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (74) وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (78) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ (79) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (82)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ (69)﴾ معناه: إنهم وجدوا آباءهم في الدنيا ضالين عن الحق والدين، فكانوا على آثارهم يهرعون أي يمضون مسرعين كأنهم يزعجون من الإسراع إلى اتباع آبائهم يقال: هرع وأهرع إذا أسرع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ (71)﴾ ولقد ضل قبل هؤلاء المشركين أكثر الأولين من الأمم الخالية كما ضل قومك ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (72)﴾ أي رسلاً ينذرونهم العذاب أي يخوفونهم بالعذاب على ترك الإيمان ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الذين أنذروا فكذبوا الرسل كيف أهلكهم الله وقوله تعالى ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (40)﴾ يعني إلا عباد الله الموحدين الذين لم يكذبوا فإنهم نجوا من العذاب، ولم يهلكوا وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (75)﴾ أي ولقد دعانا نوح على قومه حين يئس من إيمانهم، وأذن له في الدعاء، فدعا وقال: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾[1]، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ أي نعم المجيبون نحن أجبناه وأهلكنا قومه الكافرين، ونجيناه ومن آمن به من الكرب العظيم وهو الغرق قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (77)﴾ وذلك أن من كان معه من المؤمنين في السفينة انقرضوا من غير عقب، وكان النسل لنوح عليه السلام من أولاده الثلاثة: سام، وحام، ويافث، فأما سام: فأبو العرب، وفارس، والروم، وحام: أبو الحبش،

(1) سورة القمر: 54 الآية: 15.
(2) سورة نوح: 73 الآية: 26.

وجميع السودان، والسند، والهند، والبربر، ويافث: أبو الترك، وياجوج ومأجوج، وما هناك من باقي الناس ـ قال ابن عباس: لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده الثلاثة[1]، ونساءهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أي تركنا على نوح الذكر الجميل في الباقين بعده، وذلك الذكر قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ أي يصلي عليه إلى يوم القيامة.

قال الزجاج: معنى قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أي أبقينا عليه ذكراً حسناً وثناءً جميلاً فيمن بعده إلى يوم القيامة ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي كما أجزينا نوحاً وأنعمنا عليه فكذلك نجزي المحسنين في القول والفعل ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ وقيل معناه: تركنا على نوح في الآخرين أي يصلي عليه إلى يوم القيامة[2].

قال الله تعالى:

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ معناه: وإن من ملة نوح عليه السلام، والمستمسكين بدينه لإبراهيم ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ أي إذ أقبل على طاعة ربه بقلب سليم من الكفر والمعاصي، ومن كل عيب، والشيعة: هي الجماعة التابعة لرئيس لهم وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ هذا إنكار من إبراهيم على قومه كالرجل ينظر إلى غيره على قبيح من الأمر

(1) البغوي في تفسيره: 4: 564.
(2) معاني القرآن وإعرابه: 4: 308.

فيقول له ما هذا الذي تفعل وقوله تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ معناه: أتتخذون آلهة تريدون منادتها على وجه الكذب، وقيل معناه: أتأفكون إفكاً وهو أسوأ الكذب وتعبدون آلهة سوى الله ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره أي فما ظنكم أنه يصنع بكم وقوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ قال بعضهم: إنما نظر في النجوم نظرة تدبر واعتبار، واستدل بها على وقت حماء كانت تأتيه فلما عرف بذلك وقت حماه ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أي جاء وقت سقمي ومرضي، ويقال أوهمهم بهذا القول أن به مرضاً فتركوه، وكان يريد بهذا القول في نفسه إني سقيم القلب بما رأى من أحوالكم القبيحة في عبادة غير الله تعالى، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم عيد يخرجون إليه، فكلفوه الخروج معهم إلى عيدهم فنظر إلى النجوم يريهم أنه مستدل بها على حاله فقال إني سقيم ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي فتركوه وذهبوا إلى عيدهم.

وقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي مال إلى أصنامهم ميلة في خفية سراً لما أدبروا عنه فوجد بين أيديهم طعاماً كانوا قد وضعوه قبل خروجهم إلى عيدهم، وزعموا بجهلهم أن أصنامهم تبارك لهم فيه فإذا رجعوا من عيدهم أكلوه قال مقاتل: وكانت أصنامهم اثنين وسبعين صنماً من خشب، وحديد، ورصاص، وذهب، وفضة، وكان كبيرهم من ذهب، وعيناه ياقوتتان فلما رآهم إبراهيم كذلك، وبين أيديهم الطعام قال ألا تأكلون ما حولكم من الأطعمة فلما لم يكن لهم أكل ولا جواب قال ما لكم لا تنطقون إن كنتم آلهة وقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ أي مال عليهم بالضرب بيده اليمنى وبالقوة، ويقال بر في يمينه التي كان حلف وهي تالله لأكيدن أصنامكم فجعل يضربهم بالفأس حتى جعلهم جذاذاً، ثم جعل الفأس على عاتق كبير الأصنام والروغان في اللغة: هو الميل على وجه الاضطراب ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي أقبل المشركون إليه بعد رجوعهم من عيدهم يسرعون في المشي كأنهم أخبروا بصنيعه فقصدوه، والزفيف: هو المشي المسرع ومن ذلك زفيف النعام وهو خببه الذي يكون بين المشي والعدو، ومنه الآزفة لسرعة مجيئها وهي القيامة، وقرأ حمزة

يُزفون بضم الياء[1] أي يحملون دوابهم وظهورهم على الإسراع في المشي، وذلك أنهم أخبروا بصنع إبراهيم بآلهتهم فأسرعوا إليه ليأخذوه، فلما انتهوا إليه قال لهم محتجاً عليهم أتعبدون ما تنحتون بأيديكم من الأصنام أي تعبدون ما تنحتونه من الخشب والحجر مواتاً لا ينطق، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يعقل، والله خلقكم وما تنحتون بأيديكم أي خلقكم ومعمولكم وهو منحوتهم التي نحتوها، والمعنى: خلقكم وعملكم، وهذا مذهب أهل السنة لأنهم يعتقدون أن الله خلقهم وعملهم، والقدرية تنكر خلق الأفعال، فلما ألزمهم إبراهيم عليه السلام الحجة ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ أي قالوا ابنوا له حائطاً من حجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، وملأوه ناراً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ وهي النار العظيمة فبنوا له ذلك، وجمعوا فيه الحطب، وأرسلوا فيه النار حتى صار جحيماً ثم رموه بالمنجنيق، فنجاه الله تعالى، وجعل النار عليه برداً وسلاماً لم يؤذه منها شيء، ولا أحرقت شيئاً من ثيابه، وذلك لإخلاصه، وقوة دينه، وصدق توكله.

كما روى أنه عليه السلام لما انفصل من المنجنيق أتاه جبريل في الهوى، فقال له: هل من حاجة؟ فقال: أما إليك فلا[2]، وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي أرادوا به شراً وهو أن يحرقوه بالنار فجعلناهم الأسفلين لأن إبراهيم عليه السلام علاهم بالحجة حين سلّمه الله تعالى، ورد كيدهم عنه فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى أهلكهم الله وجعلهم في نار أعظم وأسفل مما ألقوه فيها.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ

---

(1) ينظر هذه القراءة في الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها: 2: 225.

(2) أخرجه البيهقي في الشعب: 2: 29 رقم 1077 ـ باب في الرجاء من الله تعالى.

لِلْجَبِينِ ﴿103﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿104﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿105﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿106﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿107﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿108﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿109﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿110﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿111﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿112﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿113﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿99﴾﴾ أي قال إبراهيم: إني ذاهب إلى مرضاة ربي سيهدين لما فيه رشدي وصلاحي، وأراد به الذهاب إلى الأرض المقدسة، وقيل إلى أرض الشام قال مقاتل: فلما ذهب إلى الأرض المقدسة سأل ربه الولد فقال: رب هب لي من الصالحين[1]، أي ولداً صالحاً، فاستجاب الله دعاءه بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿101﴾﴾، قال الزجاج: وهذه البشارة تدل على أنه مبشر بابن ذكر، وأنه يبقى حتى ينتهي في السن، ويوصف بالحلم[2] قال الحسن: وهو إسحاق عليه السلام، وقال الكلبي: هو إسماعيل، وكان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة[3] قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي فلما بلغ ذلك الغلام معه حالة السعي في طاعة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾[4] وقيل معناه: أن يمشي معه وقال مجاهد: لما شب حتى بلغ أن يتصرف معه ويعينه، وكان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة: وقيل أراد بالسعي في الوقت الذي ينتفع الوالد بالولد في قضاء حوائجه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ﴾ رؤيا تأويلها ﴿أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ وقيل رأيت في المنام: أني أذبحك.

قال مقاتل: رأى إبراهيم ذلك ثلاث ليال متتابعات، وقال ابن جبير: رؤيا الأنبياء وحي، وقال قتادة: رؤيا الأنبياء حق إذا رأوا شيئاً فعلوه[5] قوله تعالى:

---

(1) البغوي في تفسيره: 4: 566.
(2) معاني القرآن وإعرابه: 4: 310.
(3) القرطبي في تفسيره: 15: 100.
(4) سورة البقرة: 2، الآية 127.
(5) يراجع تفسير القرطبي: 15: 102.

﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ أي من الرأي فيما ألقيت إليك، وقرأ حمزة والكسائي: ماذا تُرى بضم التاء وكسر الراء[1] ومعناه: ماذا تشيره وماذا تريني من صبرك؟ أو جزعك؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر من ذبحي ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على بلائه، وإنما قال له إبراهيم هذا القول مع كونه مأموراً بذبحه لأنه أحب أن يعلم صبره وعزيمته على أمر الله وطاعته وفي الآية دلالة على أن إبراهيم كان مأموراً بذبح ولده لأن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي بمنزلة الوحي إليهم في اليقظة ولذلك قال الابن: يا أبت افعل ما تؤمر، ولم يقل افعل ما رأيت في المنام، واختلفوا في الذبيح من هو؟ فذهب الأكثرون إلى أنه إسحاق، وإليه ذهب من الصحابة: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، والعباس بن عبد المطلب، ومن التابعين: كعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، وعطاء، ومقاتل، والزهري، والسدي وقال آخرون: هو إسماعيل، وهو قول ابن عباس، وابن عمر، وسعيد بن المسيب، والشعبي، والحسن، ومجاهد، والكلبي، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي[2]، وروي عن أبي إسحاق الزجاج أنه قال: الله أعلم أيهما الذبيح[3]، وسياق الآية يدل على أنه إسحاق لأنه تعالى قال: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ۝١٠١﴾ ولا خلاف في أنه إسحاق ثم قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ فعطف بقصة الذبح على ذكر إسحاق، وقد روي عن رسول الله ﷺ: القولان، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**الذي أراد إبراهيم ذبحه هو إسحاق**»، وعن معاوية رضي الله عنه قال: كنت عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل، فقال: يا رسول الله عد عليّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ، فسأل معاوية: ومن الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما حفر زمزم نذر لله تعالى لئن سهل الله عليه أمرها ليذبحن أحد ولده، فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل، والذبيح الثاني: إسماعيل، ويدل على صحة هذا قوله ﷺ: «**أنا ابن**

(1) يراجع الكشف عن وجوه القراءات: 2: 225.

(2) تراجع هذه الأقوال في القرطبي نفسه، وكذا في تفسير الطبري: 12: 96.

(3) معاني القرآن وإعرابه: 4: 311.

الذبيحين» يريد أباه الأدنى عبد الله بن عبد المطلب، وجده[1] إسماعيل. وقال محمد بن كعب القرظي إن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه إسماعيل، وإنا لنجده في كتاب الله تعالى إن الله تعالى يقول: وقد فرغ من قصة المذبوح ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ وقال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ فقال لي: يا أصمع أين ذهب منك عقلك؟ وأين كان إسحاق؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، فهو الذي بنى البيت مع أبيه كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾[2] والمنحر بمكة لا شك فيه، وسئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد[3]:

إنَّ الذَّبيحَ هُدِيتَ إسْمَاعِيلُ ∴ نَطَقَ الْكِتَابُ بِذَاكَ وَالتَّنْزِيلُ
شَرَفٌ بِهِ خَصَّ الْإلَهُ نَبِيَّنَا ∴ وَأَتَى بِهِ التَفْسِيرُ وَالتَّأْوِيلُ

وأما قصة الذبح فقال السدي: لما فارق إبراهيم قومه وهاجر إلى الشام هارباً بدينه سأل الله أن يهب له من سارة ابناً صالحاً فقال: رب هب لي من الصالحين، فبشره الله بغلام حليم ـ وهو إسحاق، قال السدي: فهو والله الذبيح، وقال محمد بن إسحاق: هو إسماعيل، فلما أمر الله إبراهيم بذبح من أمر قال لابنه يا بني خذ الحبل والمدية، وانطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير قال له: يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك، فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر، واشدد رباطي حتى لا اضطرب، واكفف ثيابك حتى لا ينضح عليها شيء من دمي فينتقص أجري، وتراه أمي فتحزن، واستحدّ شفرتك، واسرع بمر السكين على حلقي حتى تجسر عليَّ فتذبحني ليكون أهون عليّ فإن الموت شديد، وإذا أتيت أمي فأقرأها مني السلام، وإن رأيت أن ترد عليها قميصي فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عنِّي، فقال إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهو

(1) الطبري في تفسيره 2: 101.
(2) سورة البقرة: 2 الآية: 127.
(3) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ وكذا القرطبي في تفسيره: 5: 100.

يبكي، والابن يبكي حتى استفرغ الدموع تحت خده، ثم إنه وضع السكين على حلقه، فلم تعمل في حلقه شيئاً، قال السدي: ضرب الله على حلقه صحيفة من نحاس فلم تقطع السكين شيئاً.

فقال الابن عند ذلك: يا أبت كبني على وجهي فإنك إذا نظرت في وجهي رحمتني وأدركتك الرقة علي فتحول بينك وبين أمر الله، ففعل ذلك إبراهيم، ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا هذه ذبيحتك فداء لابنك فاذبحها دونه، فنظر إبراهيم فإذا هو بجبريل عليه السلام، ومعه كبش أقرن أملح، فكبر جبريل، وكبر إبراهيم، وكبر ابنه، فأخذ إبراهيم الكبش، وأتى به المنحر من منى فذبحه، فلما ذبح إبراهيم الكبش، رجع إلى ابنه، فجعل يقبله، ويقول: يا بني قد وهبك الله لي ثم رجع إلى أمه فأخبرها الخبر، فجزعت وقالت يا إبراهيم أردت أن تذبح ولدي ولا تعلمني، وعن أبي هريرة قال: لما رأى إبراهيم ذبح ابنه، قال الشيطان والله لئن لم أفتن آل إبراهيم في هذا الأمر لا بقيت أفتن منهم أحداً، فتمثل الشيطان رجلاً، وأتى إلى الولد، فقال له: هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: نعم نحتطب لأهلنا حطباً من هذا الشعب، قال: والله ما يريد إلا أن يذبحك، قال: ولم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذبحك، قال: فليفعل ما أمره به ربه، فسمعاً وطاعةً لله تعالى عز وجل، فرجع الشيطان إلى أم الولد، وقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: نعم ذهبا يحتطبان قال: لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه، قالت: كلا هو أرحم به، وأشد حياله من ذلك، قال: إنه زعم أن الله أمره بذلك قالت: فإن كان ربه قد أمره بذلك، فقد أحسن في امتثال أمر ربه، فخرج الشيطان من عندها حتى أتى إبراهيم عليه السلام، فقال: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة، قال: والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك، فأمرك بذبح ابنك هذا، فعرفه إبراهيم، فقال: والله يا عدو الله لأمضين لأمر ربي، فرجع إبليس لعنه الله، بغيظه، لم يصب من آل إبراهيم شيئاً مما أراد[1] ـ قوله تعالى:

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره 12: 97، وكذا ابن كثير في تفسيره: 6: 26، وكذا القرطبي في تفسيره: 15: 105.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴿١٠٣﴾﴾ أي فلما انقادا وخضعا لأمر الله، ورضيا به وقرأ ابن مسعود: سلَّما أي فوضا[1]، وقوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي صرعه وأضجعه وكبه على وجهه للذبح، وقيل طرحه على الأرض على أحد جنبيه كما يفعل بالكبش حين يذبح نادته الملائكة من الجبل بأمر الله تعالى ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ أي وفيت بما أمرت به في المنام دع ابنك وخذ الكبش الذي ينحدر إليك من الجبل المشرف على مسجد منى، وقوله تعالى: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ أي نودي من الجبل أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا لأن الله قد عرف منهما الصدق حين قصد إبراهيم الذبح بما أمكنه، وطاوع الابن بالتمكن من الذبح، ففعل كل واحد منهما ما أمكنه وإن لم يتحقق الذبح.

وكان قد رأى في المنام معالجة الذبح، ولم ير إراقة الدم، ففعل في اليقظة ما رأى في المنام، فلذلك قيل له: قد صدقت الرؤيا، وتم الكلام، ثم قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴿٨٠﴾﴾ أي هكذا نجزي كل محسن ممن سلك طريقهما في الانقياد لأمر الله، وجميل الصبر على ابتلائه ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴿١٠٦﴾﴾ أي هو الاختيار البين فيما يوجب النعمة أو النقمة، وأي اختبار أعظم من أن يؤمر الشيخ الكبير بذبح الولد العزيز بيده وقوله تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴿١٠٧﴾﴾ أي بكبش عظيم أي أقمنا الذبح مقامه، وجعلناه بدلاً عنه، وعن عطاء بن يسار قال: لما بلغ إسماعيل سبع سنين رأى إبراهيم عليه السلام أن يذبحه، فأخذ بيده، ومضى به إلى حيث أمره ربه حتى انتهى إلى منحر البدن اليوم، فقال: يا بني إن الله قد أمرني بذبحك، قال إسماعيل: فأطع ربك، ففعل إبراهيم، فجعل نحره في حلقه فإذا هو يحز في نحاس لم تؤثر فيه الشفرة، فشحذها مرتين أو ثلاثاً بالحجر، وفي كل ذلك لا يستطيع فرفع رأسه، فإذا هو بكبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً[2]، وقال الحسن: ما فدي إلا بتيس هبط عليه من ثبير فذبحه إبراهيم فداءً عن ابنه، وقيل: كان الفداء وغلاً من الأوغال

(1) ذكرها القرطبي في تفسيره: 15: 104.

(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

الجبلية وأما قوله تعالى: ﴿بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ﴾ قال سعيد بن جبير: حق له أن يكون عظيماً لأنه قد رعى في الجنة أربعين خريفاً، وقال مجاهد: سمي عظيماً لأنه متقبل، وقال الحسين بن الفضل: لأنه كان من عند الله[1] وقال أبو بكر الوراق: لأنه لم يكن عن نسل، وإنما كان بالتكوين، قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿78﴾﴾ أي تركنا على إبراهيم في العالمين أن يقال: سلام على إبراهيم، ويصلى عليه إلى يوم القيامة وثنّينا عليه ثناءً حسناً وقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿112﴾﴾ من جعل الذبيح إسماعيل قال بشر الله إبراهيم بولد نبي بعد هذه القصة جزاءً لطاعته، وجعل الذبيح إسحاق قال بشر إبراهيم بنبوة إسحاق، وأثيب إسحاق بصبره بالنبوة، وقوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ أي باركنا على إبراهيم وعلى إسحاق، وقيل: على إسماعيل، وعلى إسحاق، وقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ المحسن: هو المؤمن، والظالم المبين: هو الكافر.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿114﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿115﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿116﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿117﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿118﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿119﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿120﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿121﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿122﴾ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿123﴾ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿124﴾ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿125﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿126﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿127﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿128﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿129﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿114﴾﴾ أي أنعمنا عليهما بالنبوة والرسالة، وغير ذلك من أنواع النعم، والمن: قطع كل أذية بالنعمة ومنه قوله تعالى: ﴿أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي غير مقطوع وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿115﴾﴾ أي وخلصناهما من الخزي الفظيع من استعباد فرعون إياهم

(1) تراجع هذه الأقوال في تفسير البغوي: 4: 570.

ومن ذبح الأبناء، وتسخير الرجال في الأمور الشاقة، ونصرناهم على فرعون وقومه فكانوا هم الغالبين بعدما كانوا مغلوبين، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿117﴾﴾ أي أعطيناهما الكتاب البين وهو التوراة ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿118﴾﴾، وهو دين الإسلام قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿123﴾﴾ قال ابن عباس هو عم اليسع وهو من ذرية هارون بن عمران، وهارون هو جد أبيه وقال ابن إسحاق: إلياس هو يوشع بن نون، ويقال: إن إلياس والخضر في الأحياء، فإلياس صاحب البراري، والخضر صاحب الجزائر ويجتمعان في كل سنة بعرفات، وعن أنس رضي الله عنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بفخ الناقة إذ نحن بصوت يقول: اللهم اجعلني من أمة محمد المرحومة المغفور لها، المثوب عليها، المستجاب لها، فقال ﷺ: «**يا أنس انظر هذا الصوت**»، فدخلت الجبل، فإذا أنا برجل أبيض الرأس واللحية عليه ثياب بيض طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع، فلما نظر إلي قال: أنت رسول النبي ﷺ؟ قلت: نعم قال: ارجع إليه فأقرئه مني السلام[1]، وقل له: هذا أخوك إلياس يريد لقاءك، فجاء النبي ﷺ وأنا معه حتى إذا كنا قريباً منه تقدم النبي ﷺ، وتأخرت، فتحدثا طويلاً، فنزل عليهما من السماء شبه السفرة، فدعواني فأكلت معهما، فإذا فيها كمأة، ورمان، وكرفس فلما أكلت قمت، فتنحيت فجاءت سحابة فاحتملته، وأنا أنظر إلى بياض ثيابه فيها فهوت به قبل الشام قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿124﴾﴾ أي ألا تتقون عقاب الله بعبادة غير الله وقوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي أتدعون بالإلهية صنماً، وتتركون عبادة أحسن الخالقين وكان قومه يعبدون صنماً لهم من ذهب يقال له بعل، وكان طوله عشرون ذراعاً، وكان له أربعة وجوه، فجعل الناس يدعوهم إلى عبادة الله وهم في ذلك لا يسمعون منه شيئاً وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿126﴾﴾ أي خالقكم وخالق آبائكم الأولين، ومن قرأ الله ربكم بالنصب[2] فعلى صفة أحسن الخالقين، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿127﴾﴾

c175

(1) يراجع تفسير القرطبي: 15: 116.

(2) نسب النحاس في إعراب القرآن: 3: 436 قراءة النصب إلى حمزة والكسائي، ويحيى بن وثاب وغيرهم، وكذا القرطبي في تفسيره: 15: 117.

أي لمحضرون في النار والعذاب بتكذيبهم وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (40)﴾ أي لكن عباد الله المخلصين مبعدون من الموضع الذي فيه المشركون.

قال الله تعالى:

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ (130) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (132) وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (137) وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ (141) فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144)﴾.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ يريد إلياس، ومن آمن معه قال أبو علي الفارسي تقديره الياسين إلا أن الياءين للنسبة حذفتا كما حذفتا في الأشعرين والأعجمين ـ وقرأ نافع على آل[1] يس أي سلام على أهل كلام الله، وآل محمد ﷺ فإن يس من كلام الله في القرآن ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (81)﴾ ظاهر المعنى ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (133)﴾ أي من جملة المرسلين ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ يعني امرأته المنافقة تخلفنا في موضع العذاب في جملة الباقين ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (172)﴾ أي أهلكناهم بعذاب الاستئصال وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (137) وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذا خطاب لمشركي العرب كانوا يمرون على قريات قوم لوط فلم يعتبروا وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي إذ هرب من قومه إلى السفينة المملوءة بالناس والدواب وإنما هرب لأنه كان أوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا فلم يؤمنوا، وعلم أن العذاب نازل بهم فخرج من بينهم قبل أن يأمره الله بالخروج فكان ذلك ذنباً منه وكان قصده حين خرج منهم المبالغة في تحذيرهم وإنذارهم فكان لذهابه كالفار من مولاه فوصف بالإباق وقوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ (141)﴾ وذلك أنه لما ركب

---

(1) يراجع الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها: 2: 227.

في السفينة وقفت السفينة فلم تسر بأهلها فقال الملاحون هاهنا عبد آبق من سيده، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها عبد آبق لا تجري فاقرعوا فوقعت القرعة على يونس، فقال: أنا الآبق، قال سعيد بن جبير: لما استهموا جاء حوت إلى السفينة فاغر فاه ينتظر أمر ربه كأنه يطلب واحداً من أهلها، فقال يونس لأهل السفينة: أنا المطلوب من بينكم، فقالوا: أنت أكرم على الله من أن يبتليك بمثل هذه البلية، فقال لهم: اقترعوا فمن خرجت على اسمه القرعة ألقي إلى الحوت، وكان يعلم أن القرعة تخرج عليه إلا أنه لم يبتد بإلقاء نفسه إلى الحوت مخافة أن تلحقه سمة الجنون، فساهم فوقع السهم عليه فكان من المسهومين[1].

والمدحض في اللغة: هو المغلوب في الحجة، وأصله من دحض الرجل إذا زلّ عن مكانه، فلما ألقي عليه السلام في البحر ابتلعه الحوت ابتلاع اللقمة، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي أتى بما يستحق به اللوم والمليم: الآتي بما يلام على مثله، وسبب استحقاقه اللوم خروجه من بين قومه قبل ورود الإذن عليه من الله تعالى. قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ أي لولا أنه كان قبل أن يلتقمه الحوت والنشور من المصلين لله تعالى لمكث في بطن الحوت إلى يوم البعث والنشور قال الحسن: ما كانت له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملاً[2] صالحاً قبل ذلك، ويقال إن المراد بالتسبيح في هذه الآية قوله في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3] قال السدي: لبث يونس في بطن الحوت أربعين يوماً، وقال الضحاك: عشرين يوماً، وقال عطاء: سبعة أيام، وقال مقاتل: ثلاثة أيام[4].

قال الله تعالى:

﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ

(1) يراجع القرطبي في تفسيره: 15: 121، والبغوي في تفسيره: 4: 580.
(2) يراجع الطبري في تفسيره: 12: 120.
(3) سورة الأنبياء: 21 الآية: 87.
(4) تراجع هذه الأقوال في معالم التنزيل للبغوي: 4: 581.

وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿149﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿150﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿151﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿152﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿153﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿154﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿155﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿156﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿157﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي ألهمنا الحوت أن يطرحه فطرحه على فضاء من الأرض والعراء: هو المكان الخالي من الشجر والبناء، قال مقاتل: معناه فنبذناه بالعراء يعني وجه الأرض وهو سقيم قد بلي لحمه مثل الصبي المولود قال ابن مسعود: كهيئة الفرخ الذي ليس له ريش، وقيل معنى وهو سقيم أي وهو مريض وذلك لما أصابه في بطن الحوت من الشدة والضغطة والبعد من الهوى والغذاء حتى ضعف جسمه ورق جلده، ولم يبق له ظفر ولا شعر كالولد أول ما يخرج من بطن أمه فلما ألقي على وجه الأرض كان يتأذى بحر الشمس، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين. قال الكلبي: هي القرع، وهي شجرة الدباء العربي، وكل شجرة لا تقوم على ساق، وتمتد على وجه الأرض مثل القرع والبطيخ ونحوهما فهو يقطين، واشتقاقه من قطن بالمكان إذا أقام به فهذا الشجر يكون ورقه وساقه على وجه الأرض فلذلك قيل يقطين ومن خصائص شجر القرع أنها لا يقربها ذباب قالوا فكان يستظل بظلها من الشمس، وسخر الله له وعلة بكرة وعشياً يختلف إليه فكان يشرب من لبنها حتى اشتد لحمه ونبت شعره[1].

ثم أرسله الله بعد ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿147﴾﴾ قال الحسن معناه: بل يزيدون[2]، وقال الكلبي معناه[3]: ويزيدون، وكان الذي أرسل إليهم أهل نِيْنَوَى كأنه أرسل قبل ما التقمه الحوت إلى قوم وبعد ما نبذه إلى قوم آخرين وقوله تعالى: ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي إلى حين نهي آجالهم[4]، واختلفوا في الزيادة على مائة ألف قال مقاتل: كانت الزيادة عشرين

---

(1) يراجع الطبري نفسه.
(2) يراجع الفراء في معاني القرآن: 2: 393.
(3) يراجع النحاس في إعراب القرآن: 3: 443.
(4) «نهى آجالهم» غير موجود في النسخة: ك.

ألفاً، وقال الحسن: بضعاً وثلاثين ألفاً، وقال سعيد بن جبير[1]: سبعين ألفاً. وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي سل يا محمد أهل مكة سؤال توبيخ وتقريع ألربك البنات ولهم البنون؟ وذلك أن قريشاً، وقبائل من العرب منهم خزاعة، وجهينة، وبنو سليم، كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ أي حاضرون خلقنا إياهم؟ فكيف جعلوهم إناثاً؟ ولم يشهدوا خلقهم كما قال الله تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ أي ألا إنهم من كذبهم، وفرط جهلهم ليقولون: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ في إضافة الولادة إلى الله تعالى: حين زعموا أن الملائكة بنات الله وقوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ القراءة المشهورة المعروفة بفتح الألف على الاستفهام الذي معناه: التوبيخ والمعنى: سلهم: أصطفى البنات؟ إلا أنه حذف ألف الوصل، وبقيت ألف الاستفهام مفتوحة مقطوعة[3] على حالها مثل: أستكبرت، وأستغفرت وأذهبتم ونحوها وقرأ نافع برواية ورش اصطفى موصولة على الخبر[4] والحكاية عن قول المشركين تقديره: ليقولون: ولد الله، ويقولون: اصطفى البنات، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ هذا توبيخ لهم أي كيف ترضون لله ما لا ترضون لأنفسكم أفلا تتعظون، فتمتنعون عن مقالتكم ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ أي أم لكم حجة بينة على صحة دعواكم هذه فأتوا بكتابكم وحجتكم إن كنتم صادقين فيما تدعون.

قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ

(1) تراجع هذه الأقوال في تفسير القرطبي 5: 132.
(2) سورة الزخرف: 43 الآية: 19.
(3) إعراب القراءات السبع وعللها: 2: 253، والنحاس في إعراب القرآن 3: 444.
(4) يراجع ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: ص 549.

ٱلْمُسَبِّحُونَ (166) وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أي جعل هؤلاء بين الله وبين الملائكة الذين لا يشاهدونهم نسباً، وسميت الملائكة جنة في هذا الموضع لاستتارهم عن أعين الناس كاستتار الجن ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ أي علمت الملائكة أن الكفار الذين عبدوهم لمحضرون في العذاب لدعائهم إلى هذا القول، ثم نزه الله تعالى نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يصفونه ويضيفونه إليه لكن عباد الله المخلصين من الجن والإنس لا يحضرون هذا العذاب قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161)﴾ هذا خطاب لكفار مكة معناه: فإنكم أيها المشركون وما تعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم على ذلك بمضلين أحداً إلا من كان في علم الله أنه ممن يصلى الجحيم وفي هذا بيان أنهم لا يفسدون أحداً إلا من كان في معلوم الله أنه سيكفر يعني أن قضاء الله تعالى سبق في قوم بالشقاوة وأنهم يصلون النار فهم الذين يضلون في الدنيا ويعبدون الأصنام قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (164)﴾ هذا من قول جبريل عليه السلام للنبي ﷺ يقول: ليس منا معشر الملائكة ملك في السماوات والأرض إلا له موضع معلوم يعبد الله فيه لا يتجاوز ما أمر به ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ (165)﴾ أي المصطفون في الصلاة كصفوف المؤمنين، وقيل صافون حول العرش ينتظرون الأمر والنهي من الله ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ (166)﴾ أي المصلون لله المنزهون له عن السوء، وعن جميع ما لا يليق بصفاته قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي وقد كان كفار مكة يقولون: لو جاءنا ذكر كما جاء غيرنا من الأولين من الكتب لأخلصنا العبادة لله فلما جاءهم الرسول والكتاب كما قالوا وطَلَبُوا كفروا بذلك فسوف يعلمون ماذا ينزل بهم؟ وهذا كما قالوا: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾(1).

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ

(1) سورة الأنعام: 6 الآية: 157.

ٱلْغَٰلِبُونَ (173) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (174) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ (177) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (178) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179) سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (181) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (182) ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (171)﴾ معناه: لقد تقدم وعدنا بالنصر والظفر لعبادنا المرسلين يعني بالكلمة قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[1] فهذه الكلمة التي قد سبقت فالله تعالى لم يعرض على نبي الجهاد إلا ونصره وجعل العافية له. قال الحسن: ما غلب نبي في حرب، ولا قتل فيه قط[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (173)﴾ أي إن حزب الله لهم الغلبة بالحجة والنصرة في الدنيا، فينتقم الله من أعدائه في الآخرة قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (174)﴾ أي أعرض عنهم حتى تنقضي المدة التي أمهلوا فيها، وأبصرهم في عذاب الآخرة ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما وعدوا به من العذاب، وقيل معناه: فأعرض عنهم حتى نأمرك بقتالهم، وأبصرهم بقلبك ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ العذاب بأعينهم، فقالوا للنبي ﷺ: متى ينزل بنا العذاب الذي تعدنا به، فقال الله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (204)﴾ أي أيطلبون تعجيل عذابنا بجهلهم فإذا نزل العذاب بساحتهم أي بفناء دارهم وموضع منازلهم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي فبئس صباح قوم أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا، وعن أنس رضي الله عنه قال: لما أتى النبي ﷺ خيبر[3] قال: «**الله أكبر ضربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء**

---

(1) سورة المجادلة: 58 الآية: 21.

(2) ذكره القرطبي في تفسيره: 15: 139.

(3) كانت خيبر ولاية يهودية كبيرة، ذات حصون ومزارع ونخيل وكروم، وتعد حصن اليهود بالحجاز، وأهلها أقوى يهود وأكثرهم مالاً وأشدهم نفيراً، وقد انزعجوا لصلح الحديبية، وغلبت عليهم دوافع الشر والتطير، فأصبحوا أعداء في مملكتهم الجديدة خيبر التي تبعد عن المدينة حوالي مائة وخمسين كيلومتراً ـ على مسيرة أربعة أو خمسة أيام إلى جهة الشام شمالي المدينة بشرق يبلغ عدد سكانها حوالي ثلاثة آلاف نسمة قد لجأ إليها كثير من بني قينقاع، وبني النضير، وأخذوا جميعاً يبيتون الشر للمسلمين، وكان يظاهرهم يهود وادي القرى، وفدك وتيماء. السيرة النبوية لابن هشام: 3: 328 ـ وما بعدها ـ.

صباح المنذرين»[1] قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿178﴾﴾ إنما ذكره ثانياً تأكيداً لوعد العذاب وقوله تعالى: ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿179﴾﴾ ليس هذا بتكرار لأنهما عذابان أراد بالأول عذاب الآخرة، وبالثاني عذاب الدنيا يوم بدر قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾﴾ أي تنزيهاً لربك رب القدرة والمنعة والغلبة عما يقولون من الكذب بأن الأوثان آلهة، وأن الملائكة بنات الله وقوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾﴾ الذين بلَّغوا عن الله التوحيد والشرائع قال ﷺ: **«إذا سلمتم علي فسلموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين»**[2] - وقوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الشكر لله رب الخلائق على إهلاك الأعداء، وإعزاز الأولياء وقيل معناه: والحمد لله رب العالمين على هلاك المشركين، ونصرة الأنبياء، وعن علي رضي الله عنه أنه قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه في مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين[3] إلى آخرها.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه شرح فتح الباري: 8: 242 رقم 4197 باب غزوة خيبر.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 12: 139 رقم 22806.

(3) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره ـ خ ـ من حديث علي رضي الله عنه، والزمخشري في تفسيره: 3: 358.

سُورَةُ صٓ

قال أبو بكر الحداد:

سورة ص مكية، وهي ثلاثة آلاف وسبعة وستون حرفاً، وسبعمائة واثنتان وثلاثون كلمة، وثمان وثمانون آية، قال ﷺ: «**من قرأ سورة ص أعطي من الأجر وزن كل جبل سخره الله لداود حسنات، وعصم من أن يصر على ذنب صغير أو كبير**»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ (1) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم
مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (3) وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ
كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ (5) وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟
وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ (7) أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟
عَذَابِ (8)﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ (1)﴾ اختلفوا في قوله:

---

(1) ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف: 3: 385، وذكره الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان عن تفسير القرآن ـ خ ـ.

(صۤ) قال بعضهم معناه صدق الله، وهو قول الضحاك، وقال عطاء معناه: صدق محمد ﷺ، وقال محمد بن كعب القرظي: هو مفتاح اسم الله تعالى: صمد وصانع المصنوعات وصادق الوعد، وقيل هو من فواتح السور وقال ابن عباس: هو قسم أقسم الله به، وقال سعيد بن جبير: هو بحر يحيى به الله الموتى بين النفختين[1]، وقيل: هو إشارة إلى صدود الكفار عن القرآن والهدى قال الكلبي معناه: أعرض عن الهدى كأنه ذهب إلى أنه كان في الأصل صدا أي صد أبو جهل أو صد أهل مكة عن الحق فأبدلت إحدى الدالين ألفاً، وقرأ عيسى بن عمر صاد بفتح الدال[2]، ومثله قاف، ونون لاجتماع الساكنين، وحركها بأخف الحركات، ومعناه: صاد محمد قلوب الرجال، واستمالها حتى آمنوا منه، وقرأ الحسن: صاد بكسر الدال[3] من المصادات التي هي المقابلة والمعارضة أي عارض عملك بالقرآن قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي ذي البيان الهادي إلى الحق وقيل معناه: ذي الشرف كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[4] والمعنى: أقسم الله بالقرآن: أن محمداً صادق، وجواب القسم محذوف تقديره: والقرآن ذي الذكر ما الأمر كما يقول الكفار بل الذين كفروا في عزة وشقاق يعني كفار مكة في منعة وحمية وتكبر عن الحق وشقاق أي خلاف وعداوة لمحمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي من أمم بتكذيبهم الرسل، فنادوا عند وقوع الهلاك بهم بالاستعانة ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي وليس بوقت فرار وقال وهب: ولات السريانية: وليس، وذلك أن السرياني إذا أراد أن يقول وليس يقول: ولات، وقال أئمة اللغة: أصلها لا زيدت فيها التاء كما زيدت في ثمت، وربت، وقال قوم: إن التاء زيدت في حين كما قال الشاعر[5]:

(1) تراجع هذه الأقوال في تفسير القرطبي: 15: 143.
(2) يراجع النحاس في إعراب القرآن: 3: 451.
(3) النحاس في المرجع نفسه.
(4) سورة الزخرف: 43 الآية: 44.
(5) هو أبو وجزة السعدي.

والعَاطِفُون تَحِينَ ما مِنْ عَاطِفٍ ∴ وَالْمُطْعِمُونَ زَمَانَ ما من المطعم[1]

أصول ٣٩ وأراد بتحين حين فمن قال: إن التاء مع لا فالوقف عليه بالتاء، وروي عن الكسائي ولاه بالهاء في الوقف[2]، ومثله روى «قنبل» عن ابن كثير[3]، ومن قال إن التاء مع حين فالوقف عليه ولا ثم يبتدىء تحين مناص قال ابن عباس: كان كفار مكة إذا قاتلوا فاضطربوا في الحرب قال بعضهم لبعض: مناص أي اهربوا، وخذوا حذركم فلما نزل بهم العذاب ببدر قالوا: مناص على عدوتهم فأجابتهم الملائكة: ولات حين مناص ـ أي ليس هذا حين نداء ينجي[4]، وقيل معناه: ولات حين مناص أي ليس هذا نزو ولا فرار، والمناص: مصدر من النوص يقال: ناصه ينوصه إذا فاته ويكون النوص بمعنى التأخر أي ليس هذا حين تأخر والنوص: هو الفوت والتأخر، قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي وعجب المشركون أن جاءهم نبي منهم يخوفهم من عذاب الله، وقالوا هذا ساحر كذاب يعنون النبي ﷺ وقوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي قالوا بفرط جهلهم على وجه الإنكار أجعل محمد الآلهة إلٰهاً واحداً ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي ما هذا الذي يقوله محمد من رد الحوائج إلى إلٰه واحد إلاّ شيء مفرط في العجب، والعجاب: ما يكون في غاية العجب يقال رجل طوال، وأمر كبار أي كبير، وسيف قطاع، وسيل جحاف ويراد بذلك كله المبالغة، وذلك أن عمر بن الخطاب لما أسلم شق ذلك على قريش، فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش وهم الرؤساء والصناصد والأشراف وكانوا خمساً وعشرين رجلاً: منهم الوليد بن المغيرة وهو أكبرهم سناً، وأبو جهل، وأبي بن خلف وأخوه أمية بن

---

(1) يراجع خزانة الأدب: 2: 147 ـ اللسان: ليت، عطف، أين، حين، ما، ومجالس ثعلب: 1: 170. قال ابن بري صواب إنشاده:

العاطفون تحين ما من عاطف والمنعمون زمان أين المنعم؟

واللاحقون جفانهم قمع الذرى والمطعمون زمان أين المطعم؟

(2) يراجع الكشف عن وجوه القراءات: 2: 230 والفراء في معاني القرآن: 2: 398.

(3) يراجع الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

(4) الثعلبي نفسه.

خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام ومخرمة بن نوفل، وزمعة بن الأسود، والأخنس بن شريق، وغيرهم.

قال لهم الوليد بن المغيرة: امشوا إلى أبي طالب، وقولوا له: أنت شيخنا وكبيرنا وإنا آتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فمشوا إليه وهو مريض يومئذ مرض الموت، فشكوا إليه النبي ﷺ وقالوا: إنه يشتم آلهتنا، ويعيب ديننا، ويسفه أحلامنا، ويقول: كذا وكذا، فدعا أبو طالب النبي ﷺ، وقال: يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال: «**أريد منهم كلمة واحدة إذا قالوها ملكوا العرب، ودانت لهم العجم**»، فقالوا: وما هي؟ قال: «**قولوا: لا إلٰه إلا الله**» فنفروا من ذلك، وقالوا: أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً[1]، وقيل إن أبا طالب لما دعا النبي ﷺ قال له: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل عليهم، فقال: «**وماذا يسألونني؟**» قال: ترفض ذكر آلهتهم، ويدعونك وإلٰهك، فقال ﷺ: «**إني أدعوهم إلى كلمة واحدة**»، قالوا: وما هي؟ قال: «**لا إلٰه إلا الله**»، فنفروا من ذلك، وقالوا: أجعل الآلهة إلٰها واحداً، واغتاظوا من ذلك، وخرجوا من عند أبي طالب يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على آلهتكم فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي انطلقوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب وهم يقولون: اثبتوا على عبادة آلهتكم، واصبروا على دينكم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي هذا شيء يريده محمد ولا يتم له ذلك قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي قالوا ما سمعنا بهذا الذي يقوله محمد من التوحيد في الملة الآخرة يعني النصرانية لأنها آخر الملل والنصارى لا توحد لأنهم يقولون: ثالث ثلاثة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي قالوا ما هذا الذي يقوله محمد إلا كذب اختلقه من تلقاء نفسه يعنون الذي جاء به من التوحيد والقرآن - قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي قال المشركون أخص محمد بالنبوة والكتاب من بيننا، ونحن أكبر منه سناً، وأعظم شرفاً والمعنى بالذكر: القرآن يقول الله عز وجل: ﴿بَل هُمْ

---

(1) يراجع الواحدي في أسباب النزول ص 304. السيوطي في أسباب النزول ص 249.

﴿فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ أي ليس الذي يقولون ما يعتقدونه إلا شاكين بل لما يذوقوا عذاب الاستئصال، وهذا تهديد لهم أي إنهم سيذوقون العذاب ثم لا ينتفعون بزوال الشك في ذلك الوقت.

قال الله تعالى:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن
كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن
فَوَاقٍ ۝١٥ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ معناه: أعندهم خزائن رحمة ربك أي أبأيديهم مفاتيح النبوة والرسالة فيضعونها حيث شاءوا، وقيل معناه: أعندهم خزائن رحمة ربك فيمنعونك عما من الله به عليك من الكرامة، وفضلك به من الرسالة، ومعنى الآية: ليس ذلك بأيديهم، ولكنها بيد العزيز في ملكه الوهاب الذي وهب النبوة لك ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾ وذلك أنهم كانوا يحسدون النبي ﷺ على ما خص به من النبوة والوحي، فقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فينازعوا خالقهم، وينزل الوحي على من يختارون فقل لهم: فليرتقوا في الأسباب أي فليصعدوا في طرق السماوات من سماء إلى سماء فليمنعوا الوحي عنك إن كان لهم مقدرة على ذلك قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾ أخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنه سيهزم جند المشركين ببدر، وجند خبر مبتدأ محذوف أي هم جند وما زائدة، وهنالك: إشارة إلى بدر ومصارعهم بها، والأحزاب: سائر من تقدمهم من الكفار الذين تحزبوا على الأنبياء عليهم السلام قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾ أي كذبت قبل قومك قوم نوح نوحاً، وعاد هوداً وكذب فرعون ذو الأوتاد موسى عليه السلام أي كذب هؤلاء أنبياءهم فحل لهم عذاب الاستئصال وكذلك كذبت ثمود صالحاً، وقوم لوط لوطاً، وكذلك أصحاب الأيكة شعيباً وقوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ أي أولئك الجماعة الكثيرة القوية كلهم كذبوا رسلهم فحق عليهم عقابي وعذابي وكذلك يحق على قومك، وسمى فرعون ذو الأوتاد لأنه كان يمد الناس بين الأوتاد فيرسل عليهم الحيات والعقارب، وقيل: إنه كان إذا غضب على إنسان وتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض وقال عطية: ذو الأوتاد: أي ذو الجنود والجموع الكثيرة يعني أنهم كانوا يقوون أمره ويشدّون ملكه كما يقوي الوتد الشيء[1]، وقيل الأوتاد: الأبنية المشيدة سميت بذلك لارتفاعها كما سميت الجبال أوتاداً، قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي ما ينظر أهل مكة لوقوع العذاب بهم إلا صيحة واحدة، وهي نفخة البعث، وذلك أن عقوبة قوم النبي ﷺ مؤخرة إلى يوم البعث وعقوبة الأمم الماضية كانت معجلة في الدنيا، ومؤجلة في الآخرة ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقوبة الاستئصال في الدنيا من الأمم الماضية، وقال في هذه الأمة[2]: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ أي ما لتلك الصيحة من رجعة إلى الدنيا والفواق بضم الفاء وفتحها بمعنى واحد: وهي الرجوع، ومن ذلك قولهم: أفاق من الجنون، ومن المرض: إذا رجع إلى الصحة، والفواق بضم الفاء: ما بين حلبتي الناقة لأن اللبن يعود إلى الضرع بين الحلبتين والمعنى ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من رجوع، وقيل ما يرد ذلك الصوت فيكون له رجوع - قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي قال المشركون: عجل لنا صحيفتنا قبل يوم الحساب حتى نعلم ما فيها. قال الكلبي: لما نزل في الحاقة: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾[4] قالوا على جهة الاستهزاء: ربنا عجل لنا قطنا في الدنيا قبل يوم الحساب أي عجل لنا كتابنا قالوا ذلك تكذيباً واستهزاء، والقط: الصحيفة التي أحصت كل شيء، وقيل القط: النصيب،

---

(1) البغوي في تفسيره: 4: 590.

(2) في النسخة: س ـ الآية.

(3) سورة القمر: 54 الآية: 46.

(4) سورة الحاقة: 69 الآية: 19 والآية 25.

وتسمى كتب الجوائز قطوطاً لأنهم كانوا يكتبون الأنصباء من العطايا في الصحائف يقال: أخذ فلان قطه إذا أخذ كتابه الذي كتب له بجائزته وصلته، وقال ابن عباس: معنى قوله تعالى: ﴿قِطَّنَا﴾ أي حظنا من العذاب والعقوبة، وقال قتادة: نصيبنا من العذاب، وقال مجاهد: عقوبتنا وقال عطاء: هو ما قاله[1] النضر بن الحارث. ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

قال الله تعالى:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿17﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿18﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿19﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿20﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿21﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿22﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر يا محمد على ما يقولون من تكذيبك، وعلى قولهم إنك ساحر وشاعر، ومجنون، وكاهن وانتظر ما وعدك الله به من النصر عليهم، والانتقام منهم ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي ذو القوة في العبادة وذو النعم الكثيرة كيف صبر هو على أذى قومه إنه أواب ـ أي مطيع لله مقبل على طاعته.

والأواب: كثير الأوب إلى الله، قال الزجاج: كانت قوة داود على العبادة، أتم قوة كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً وذلك أشد الصوم، وكان يصلي نصف الليل[3] قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿18﴾﴾ معناه: أن الجبال كانت تسبح معه غدوة وعشية، والإشراق: طلوع الشمس وإضاءتها يقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت، وعن ابن عباس فسر التسبيح

---

(1) تراجع هذه الأقوال في تفسير البغوي: 4: 591.

(2) سورة الأنفال: 8 الآية: 32.

(3) معاني القرآن وإعرابه: 4: 323 بلفظه تقريباً.

بالإشراق في هذه الآية بصلاة الضحى، وعن ابن عباس قال: كنت أقرأ هذه الآية لا أدري ما هي حتى حدثتني أم هانىء[1] بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ دخل عليها، ودعا بوضوء فتوضأ ثم صلى الضحى، وقال: «**يا أم هانىء: هذه صلاة الإشراق**»[2] قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أي وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبح الله معه غدوة وعشية كل له أواب أي كل لله تعالى مسبح ومطيع ترجع التسبيح مع داود كلما سبَّح، وقيل معناه: كل له رجاع إلى طاعته وأمره قوله تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ أي وقوينا ملكه وثبتناه بالهيبة ويقال بالحرس كان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل كان فيهم أبناء الأنبياء لم يطمع في ملكه أحد. قرأ الحسن: وشدَّدنا بالتشديد[3] وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ قال ابن عباس الحكمة: هي النبوة والمعرفة بكل ما حكم، وقال مقاتل الحكمة: الفهم والعلم ـ وقيل الحكمة: كل كلام حسن يدعو إلى الهدى، وينهي عن الردى[4]، وأما فصل الخطاب: فهو فصل القضاء بين الحق والباطل فيما بين الخصوم، وكان لا يتتعتع في قضائه وقيل فصل الخطاب: هو الحكم بالبينة واليمين، وقيل: هو قوله: أما بعد وهو أول من قال: أما بعد ومعناه: أما بعد حمد الله فقد بلغني كذا، وسمعت كذا قوله تعالى: ﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾﴾ اختلفوا في خطبة داود عليه السلام، والذي هو مستفيض بين العوام ما ذكره الكلبي: أن داود عليه السلام كان يصلي ذات يوم في محرابه، والزبور منشورة بين يديه إذ جاءه إبليس في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن فوقعت بين يديه فمد يده ليأخذها فطارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها، فامتد إليها ليأخذها، فطارت حتى وقعت في كوة، فذهب ليأخذها[5]، فطارت من الكوة.

---

(1) أم هانىء فاختة بنت أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم أطعمها رسول الله ﷺ بخيبر، الاستيعاب: 4: 479 ـ الطبقات الكبرى: 8: 38 رقم 4112.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 12: 163 رقم 22893، والبغوي في تفسيره: 4: 592.

(3) ذكر هذه القراءة الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

(4) تراجع هذه الأقوال في تفسير القرطبي: 5: 162.

(5) البغوي نفسه.

فجعل داود عليه السلام ينظر أين تقع فأبصر امرأة في بستان تغتسل وإذا هي من أعجب النساء وأحسنهن، فأعجبته فلما حانت منها التفاتة أبصرته، فأسبلت شعرها على جسمها فغطى بدنها، فزاده ذلك إعجاباً بها، فسأل داود عنها، وعن زوجها، فقالوا: اسمها تشايع بنت شايع، وزوجها: أوريا بن حنانا وهو غائب في غزاة بالبلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود فكتب داود إلى ابن أخته: إذا أتاك كتابي هذا فابعث أوريا إلى موضع كذا، وإلى القلعة الفلانية ولا تبرحوا حتى تفتحوها أو تقتلوا فلما جاءه الكتاب ندبه وندب الناس معه، فأتوا القلعة، فلما أتوها رموهم بالحجارة حتى قتلوهم، وقتل أوريا معهم، فلما انقضت عدتها تزوجها داود عليه السلام فهي أم سليمان، فلما دخل داود عليه السلام بها لم يلبث إلا يسيراً حتى بعث الله إليه ملكين في صورة آدميين، فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته، وكان من عادته أنه جزأ الدهر يوماً لعبادته، ويوماً لنسائه، ويوماً للقضاء بين الناس، فلما جاء الملكان في يوم عبادته منعهما الحرس من الدخول عليه، فتسوروا المحراب أي دخلوا عليه من فوق المحراب، فلم يشعر وهو يصلي إلا وهما بين[1] يديه جالسين، ففزع منهما حين هجما عليه بغير إذنه، فقالا لا تخف يا داود نحن خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط أي ولا تجر، وقال السدي: ولا تسرف، وقال المؤرج: ولا تفرط[2] وقرأ أبو رجاء: تشطط بفتح التاء وضم الطاء الأولى[3]، والشطط: مجاوزة الحد وقوله تعالى: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي وأرشدنا إلى الطريق المستقيم.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ

(1) تفسير البغوي نفسه.
(2) تراجع هذه الأقوال في تفسيري الطبري والقرطبي.
(3) النحاس في إعراب القرآن: 3: 460، والفراء في معاني القرآن: 2: 403.

بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩ (24) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (25) يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ (26)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي قال أحد الملكين إن هذا أخي أي على ديني له تسع وتسعون امرأة، والنعجة: البقرة الوحشية، والعرب تكنى عن المرأة بها، وتشبه النساء بالنعاج من البقر وإنما يعني بهذا داود لأنه كان له تسع وتسعون امرأة، وهذا من أحسن التعريض ويسمى هذا تعريض التفهيم والتشبيه لأنه لم يكن هنا زواج[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي امرأة واحدة، فقال أكفلنيها أي ضمها إلي واجعلني كافلها أعولها والمعنى: طلقها حتى أتزوجها وقال ابن جبير معنى قوله أكفلنيها أي تحول[2] عنها ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي غلبني، وقال الضحاك معناه: إن تكلم كان أفصح مني، وإن عاداني كان أبطش مني، وقال عطاء معناه: أعز مني وأقوى على مخاطبتي لأنه كان الملك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾، أي إن كان الأمر كما تقول: فقد ظلمك بما كلفك من تحولك عن امرأتك ليتزوجها هو وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ معناه: وإن كثيراً من الشركاء ليظلم بعضهم بعضاً ظن داود أنهما شريكان وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معناه: إلا الذين آمنوا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم لا يظلمون أحداً ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي هم قليل يعني الذين لا يظلمون، قال السدي: لما قال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة قال داود للآخر ما تقول؟ قال: نعم لي تسع وتسعون نعجة، وله نعجة واحدة، وأنا أريد أن آخذها، وأكمل نعاجي مائة، قال له داود: وهو كاره قال نعم وهو كاره، قال: إذاً لا ندعك، وإن رمت ذلك ضربنا منك هذا، وهذا يعني طرف الأنف وأصله فقال: يا داود وأنت أحق أن يضرب منك هذا، وهذا حيث كان لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة، فلم

(1) يراجع البغوي في تفسيره: 4: 595.
(2) في النسخة ك: تحول لي عنها، وكذا في تفسير الثعلبي ـ خ ـ.

تزل تعرضه للقتل حتى قتل، وتزوجت امرأته، ثم صعدا إلى السماء، فعلم داود أن الله قد ابتلاه وامتحنه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي ساجداً وأناب أي ورجع إلى طاعة الله بالتوبة والندامة ومعنى قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أي وعلم داود أنا قد امتحناه بما قدرنا عليه من نظره إلى المرأة، وافتتانه بها وهذا قول بعض المفسرين إلا أن هذا قول مردود لا يظن بداود عليه السلام مع جلالة قدره، وعظم منزلته، وكيف يظن بالأنبياء صلوات الله عليهم أن يعرضوا المسلمين للقتل لتحصيل نسائهم لأنفسهم.

ومن نسب الأنبياء عليهم السلام إلى مثل هذا، وصدق به فهو ممن لا يصح إيمانه بهم ولأن يخطىء الإنسان في نفي الفواحش عنهم خير من أن يخطىء في إضافتها إليهم وقد أمرنا في الشريعة بحمل أمور المسلمين على الصحة والسداد ما أمكن، وعن عبد الله بن عباس أنه قال: ما زاد دواد عليه السلام على أن قال لزوجها تحول لي عنها، وعن علي رضي الله عنه أنه قال: لئن سمعت أحداً يقول: إن داود عليه السلام قارب من تلك المرأة سوءاً، أو حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص معتقداً صحته جلدته مائة وستين جلدة يعني مثلي حد قذف سائر الناس(1)، وقيل: إن ذنب داود عليه السلام أنه تمنى أن تكون له امرأة أوريا حلالاً، وحدث نفسه بذلك، فاتفق غزو أوريا، وتقدمه في الحرب وهلاكه فلما بلغه قتله لم يجزع، ولم يتوجع عليه كما يجزع على غيره من جنده إذا هلك ثم تزوج امرأته، فعاتبه الله على ذلك، لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي خر ساجداً، وعبر عن السجود بالركوع لأن كليهما بمعنى الانحناء، روى أنه مكث ساجداً أربعين ليلة حتى نبت العشب من دموعه على رأسه، وأكلت الأرض(2) جبينه، وكان يقول في سجوده: رب زلَّ داود زلة أبعد ما بين المشرق والمغرب سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلق بما يشاء سبحان خالق النور الإلٰهي تبكي الثكلاء على ولدها إذا فقدته، وداود يبكي على خطيئته، إلٰهي أنت

---

(1) يراجع تفسير الثعلبي ـ خ ـ، وكذا تفسير القرطبي: 15: 181.

(2) يراجع المرجعين المذكورين.

خلقتني وفي سابق علمك ما أنا إليه صائر، سبحان خالق النور إلٰهي الويل لداود إذا كشف عنه الغطاء فيقال هذا داود الخاطىء، سبحان خالق النور، إلٰهي بأي عين أنظر إليك يوم القيامة، وإنما ينظر الظالمون من طرف خفي، وبأي قدم أقوم بها يوم القيامة يوم تزل أقدام الخاطئين، سبحان خالق النور إلٰهي أنا الذي لا أطيق حر شمسك فكيف أطيق حر نارك، سبحان خالق النور إلٰهي قرح الجبين وخمدت العينان من مخافة الحريق على جسدي، سبحان خالق النور إلٰهي أنت المغيث وأنا المستغيث إلٰهي أنت تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي[1].

سبحان خالق النور إلٰهي برحمتك اغفر لي ذنوبي، ولا تباعدني من رحمتك فإن إليك رغبتي، سبحان خالق النور إلٰهي أعوذ بنور وجهك الكريم من ذنوبي التي أوثقتني، إلٰهي أعوذ بك من دعوة لا تستجاب وصلاة لا تقبل وذنب لا يغفر، سبحان خالق النور إلٰهي فررت إليك بذنوبي، واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ولا تخزني يوم الدين، سبحان خالق النور، إلٰهي قرح الجبين، وفنيت الدموع وتناثر الدود من ركبتي وخطيئتي ألزم بي من جلدي، سبحان خالق النور، فأتاه نداء من السماء يا داود أجائع أنت فتطعم؟ أظمآن أنت فتسقى؟ أمظلوم أنت فتنصر؟ ولم يجبه في ذكر خطيئته بشيء فصاح صيحة هاج ما حوله من العشب ثم نادى يا رب الذنب الذنب الذي أصبته فنودي ارفع رأسك، فقد غفرت لك، فلم يرفع رأسه حتى جاء جبريل فرفعه، قال وهب: لما نودي داود عليه السلام يا داود إني قد غفرت لك قال يا رب وكيف وأنت لا تظلم أحداً، قال اذهب إلى قبر أوريا، فناده وأنا أُسْمِعُه نداءك فتحلل منه فانطلق حتى أتى قبره، وناداه يا أوريا، فقال لبيك من هذا الذي قطع علي لذتي، وأيقظني من رقدتي؟ قال: أنا داود، قال ما جاء بك يا نبي الله؟ قال: أسألك أن تجعلني في حل مما كان مني إليك، قال: وما كان منك إليّ؟ قال: عرَّضتك للقتل، قال: إنما عرضتني للجنة، فأنت في حل، فأوحى الله إليه يا داود ألم تعلم أني حكم عدل ألا أعلمته أنك قد تزوجت امرأته؟ قال فرجع، فناداه، فقال

---

(1) يراجع تفسير البغوي: 4: 598.

من هذا الذي قطع علي لذتي؟ فقال أنا داود، قال يا نبي الله أليس قد عفوت عنك؟ قال بلى، ولكني إنما فعلت بك ذلك لمكان امرأتك، وقد تزوجتها، فسكت فلم يجبه، فدعاه فلم يجبه، ودعاه فلم يجبه، فقام عند قبره، وجعل التراب على رأسه، ثم نادى الويل لداود، ثم الويل الطويل لداود إذا نصبت الموازين القسط ليوم القيامة، سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل له حين يؤخذ بذنبه، سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل له حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار، سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل له حين تقوده الزبانية مع الظالمين إلى النار، سبحان خالق النور، فنودي يا داود قد غفرت لك ذنبك، ورحمت بكاءك، واستجبت دعاءك، وأقلت عثرتك، فقال يا رب وكيف تعفو عني، وصاحبي لم يعف عني قال يا داود أعطيه يوم القيامة ما لم تر عيناه ولم تستمع أذناه وأقول له هذا عوض عن عبدي داود، فأستوهبك منه فيهبك لي[1]، قال يا رب الآن قد عرفت أنك قد غفرت لي فذلك قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا﴾ بعد المغفرة ﴿لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي لقرابة ومكانة ومنزلة حسنة.

وعن مالك بن دينار في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قال يقول الله لداود وهو قائم بساق العرش يا داود مجدني بصوتك الرخيم، فيقول كيف وقد سلبتنيه في الدنيا، فيقول إني أرده عليك قال فيرفع داود صوته بالزبور[2]، فيستفرغ نعيم أهل الجنة، وهو قوله: ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ يعني الجنة التي هي مآب الأولياء والأنبياء، وعن وهب بن منبه قال: لما تاب الله على داود بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا ترقأ له دمعة ليلاً ولا نهاراً وكان أصاب الذنب، وهو ابن سبعين سنة وكان يخرج إلى الفيافي: فيبكي وتبكي معه الشجر والرمال والطير والوحش ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته بالبكاء فتبكي معه الحجارة والجبال والدواب، ثم يجيء إلى الساحل فيبكي وتبكي معه الحيتان ودواب البحر وطير الماء، ثم يرجع إلى محرابه وقد بسط له فيه فرش من مسوح حشوها ليف

---

(1) يراجع تفسير البغوي: 4: 599.

(2) يراجع الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

فيجلس عليها ويجيء الرهبان فيجلسون معه فيبكي وينوح والرهبان معه فلا يزال يبكي حتى تغرق الفرش في دموعه ويصير داود مثل الفرخ يضطرب فيجيء ابنه سليمان عليه السلام فيحمله، فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الدنيا لعدله[1]، وروي أن داود عليه السلام ما شرب قط بعد المغفرة شراباً إلا ونصفه ممزوج بدموعه[2]، وكان يقول سبحانك إلٰهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلي روحي، إلٰهي أتيت أطباء عبادك فكلهم عليك دلوني، وقال رسول الله ﷺ: «**خرت الدموع في وجه داود خرير الماء في الأرض**»[3]، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**كان الناس يعودون داود، يظنون أن به مرضاً، وما به مرض إلا الخوف والحياء من الله عز وجل، وما رفع داود عليه السلام رأسه بعد الخطيئة إلى السماء حتى مات، وكان داود عليه السلام إذا ذكر عقاب الله تخلعت أوصاله، وإذا ذكر رحمته تراجعت**»، وعن الحسن رضي الله عنه أنه قال: كان داود بعد الخطيئة لا يجلس إلا مع الخاطئين[4] ثم يقول: تعالوا إلى داود الخطاء، وكان يؤتى عجين الشعير في الإناء فلا يزال يبكي حتى يبتل بدموع عينيه، وكان يذر عليه الرماد ويأكله، ويقول: هذا أكل الخاطئين وقال الكلبي رضي الله عنه: سجد داود أربعين يوماً حتى سقطت جلدة وجهه، ونبت العشب من دموعه حتى غطى رأسه، وكان لا يقوم من سجوده إلا لصلاة أو قضاء حاجة، وكان يقول في دعائه ومناجاته قد عرفت يا رب إن رحمتك واسعة، ولولا رحمتك لفضحتني، فمن ذا الذي ينصرني إن خذلتني، ومن ذا الذي يغفر لي خطيئتي إن لم تمحها عني، ومن ذا الذي يتداركني برحمته إن لم تتجاوز عني تصدعت الخدود وانقطعت الأشجار وارتجت البحار وفزعت الجبال والآكام من عظم خطيئة لا أطيق حملها إن لم تحملها عني فني دمعي وطال حزني ورق عظمي، وبلي لحمي، وبقي ذنبي على

---

(1) يراجع البغوي في تفسيره: 4: 595 وما بعدها.

(2) ذكر البغوي في تفسيره: 4: 600.

(3) البغوي نفسه.

(4) البغوي نفسه.

ظهري إليك أشكو فاقتي وضعفي وإفراطي في أمري يا إلٰه إبراهيم وإسحاق ويعقوب تنام كل عين وتستريح وقد شخصت عيناي ينتظران إلى رحمتك أدعوك يا رب فأسرع إجابتي وتقبل دعائي وارحم شططي وتجاوز عني برحمتك فاستجاب الله دعاءه وغفر له ذنبه قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي قال الله له بعد المغفرة يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض أي نبياً ملكاً على بني إسرائيل والخليفة هو المدبر للأمر والمعنى يا داود إنا صيرناك خليفة في الأرض تدبر أمور العباد من قبلنا بأمرنا فاحكم بين الناس بالحق أي بالعدل الذي هو حكم الله بين خلقه ولا تتبع الهوى في الحكم بين الناس فيضلك عن سبيل الله أي يصرفك الهوى عن طاعة الله إن الذين يضلون عن سبيل الله أي عن دين الله لهم عذاب شديد في الآخرة بما نسوا يوم الحساب أي بما تركوا العمل ليوم الحساب.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ (28) كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (29) وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ (31) فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ (32) رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ (33)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ أي ما خلقناهما وما بينهما من الخلق عَبثاً إلا للأمر والنهي، وإنما خلقناهما للتعبد وليجزي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني أهل مكة هم الذين ظنوا أنهما خلقا لغير شيء وأنه لا قيامة ولا حساب.

قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين إنا نعطي في الآخرة ما تعطون[1]

---

(1) يراجع البغوي في تفسيره: 4: 602.

فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: أنجعل المؤمنين المطيعين كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار أم نجعل الذين يتقون الكفر والكبائر كالفجار الذين يرتكبون ذلك لا نسوي بين الفريقين ولا ننزلهما منزلة واحدة، قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك فيه بركة لكم كثير خيره ونفعه يعني القرآن، وقوله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ أي ليتدبر الناس آياته يعني آيات الله ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي وليتعظ ذوو العقول من الناس قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي أعطينا لداود ولداً وهو سليمان، ثم أثنى على سليمان، فقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي رجاع إلى الله مقبل على طاعته وقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (31)﴾ معناه: إذ عرض على سليمان بعد العصر الخيل السوابق، وهي الجنود التي غنمها سليمان من أهل دمشق، وأهل نصيبين كانوا أجمعوا جموعاً ليقاتلوه فهزمهم وأصاب منهم ألف فرس عراب فعرضت عليه فجعل ينظر إليها ويتعجب من حسنها حتى شغلته عن صلاة العصر وغربت الشمس، فذكر الصلاة فغضب وقال ردوا الخيل علي فردت فجعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف حتى عقر منها تسعمائة فرس، وهي التي كانت عرضت عليه، وبقيت مائة لم تعرض عليه فكل ما في أيدي الناس من الخيل العراب فهو من نسل تلك المائة[1] هكذا ذكره الكلبي، وقد اعترضوا على هذا القول، فقالوا: كيف يجوز على نبي من الأنبياء أن يغفل عن صلاة مفروضة؟ ثم يعمد إلى خيل لا ذنب لها فيعقرها؟ ويجاب عنه أنه لم يكن ضرب سوقها وأعناقها إلا وقد أباح الله له ذلك، وأمره به وليس في الآية ما يقتضي أن الصلاة كانت مفروضة عليه في ذلك الوقت، وقد يذكر المسح ويراد به: الضرب، تقول العرب مسح علاوته إذا ضربها بالسيف، والصافنات: هي الخيل التي تقوم على ثلاث قوائم، وتكون القائمة الرابعة مفصلاً طرف حافرها بالأرض يقال: صفن الفرس يصفن صفونا إذا قام على ثلاث، وقلب أحد حوافره، والجياد: جمع جواد يقال: فرس جواد إذا

(1) البغوي في تفسيره.

جاد بالركض قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ معناه: إني آثرت الخير الذي ينال بهذه الخيل فشغلت به عن الذكر، وقد يذكر الخير ويراد به الخيل لأن الخيل معقود بنواصيها الخير.

قال الفراء معناه: آثرت حب الخير[1]، وقال قطرب: أراد حباً على المصدر ثم أضاف الحب إلى الخير وقوله تعالى: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ يعني صلاة العصر، قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ كناية عن الشمس، والمعنى: حتى استترت الشمس بما يحجبها عن الأبصار، ولأن قوله تعالى: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ كناية عن الشمس أي فيه ما يجري مجرى ذكر الشمس وجاز الإضمار إذ في الكلام ما يدل عليه قول لبيد:

حتَّى إذَا أَلْقَتْ يَداً في كَافِرٍ .·. وَأَجَنَّ عَوْراتِ الثُّغُور ظُلامُها[2]

وقوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ قال أبو عبيدة: معنى طفق: يفعل ما زال يفعل وهو مثل: ظل وبات والمعنى: طفق يمسح مسحاً أي يضرب[3] ضرباً، وقال الفراء: المسح هاهنا: القطع[4]، والمعنى: أنه ضرب سوقها وأعناقها لأنها كانت سبب فوت صلاته، وقال عند ذلك: حتى لا تشغلني عن عبادة ربي مرة أخرى، والسوق: جمع ساق.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ (34) قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ (35) فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ (36) وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ (37) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ (38) هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ (39) وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ (40)﴾.

---

(1) معاني القرآن: 2: 405.

(2) قال ابن منظور في اللسان (كفر)، وذكر ابن السكيت أن لبيداً سرق هذا المعنى فقال:
حتَّى إذا أَلْقَتْ يداً في كَافِرٍ وأجَنَّ عَوْرَات الثُّغور ظلامُها

(3) مجاز القرآن: 2: 183.

(4) الفراء في المرجع نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ اختلفوا في سبب فتنة سليمان قال بعضهم[1] سمع سليمان بمدينة في جزيرة من جزائر البحر يقال لها: صيدون بها ملك عظيم الشأن فجنح سليمان إلى تلك المدينة تحمله الريح حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها وأصاب فيما أصاب بنتاً لذلك الملك يقال لها: جرادة، لم ير مثلها حسناً وجمالاً، فدعاها سليمان إلى الإسلام فأسلمت على قلة نية منها، ولم يعلم سليمان ما في قلبها فتزوجها وأحبها محبة شديدة لم يحب مثلها أحداً من نسائه، فكانت عنده لا يذهب حزنها ولا ترقأ دمعتها فشق ذلك على سليمان، وقال لها: ويحك ما هذا الحزن الذي لا يذهب قالت: إني أذكر أبي، وأذكر ملكه، وما كان فيه، وما أصابه، فيحزنني ذلك، قال سليمان: قد أبدلك الله به ملكاً هو أعظم من ملكه، وسلطاناً خيراً من سلطانه، وهداك للإسلام وهو خير من ذلك كله.

قالت هو كذلك ولكن إذا ذكرت أبي أصابني ما ترى من الحزن، فلو أمرت الشياطين فصوروا صورته في داري لو أنا أراها بكرة وعشياً لرجوت أن يذهب ذلك حزني، وأن يسلي عني بعض ما أجد فأمر سليمان الجن فمثلوا لها صورة أبيها في دارها كأنه هو إلا أنه لا روح فيه فعمدت إليه حين صنعوه فأزرته وقمصته وعممته وردّيته بمثل ثيابه التي كان يلبسها، فكان إذا خرج سليمان من دارها تغدو عليه في ولائدها حتى تسجد له ويسجدن هن له، وكذلك كانت تعمل بالعشي، وسليمان عليه السلام لا يعلم بشيء من ذلك فكانت على ذلك أربعين صباحاً، وبلغ ذلك آصف بن برخيا «وكان صديقاً» فقال لسليمان عليه السلام: إن غير الله يعبد في دارك منذ أربعين صباحاً في هوى امرأة قال في داري قال في دارك قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ ثم خرج سليمان إلى داره فكسر ذلك الصنم، وعاقب تلك المرأة وولائدها، ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده، فأمر برماد ففرش ثم أقبل تائباً إلى الله حتى جلس على ذلك الرماد وتمعك فيه بثيابه تذللاً لله عز وجل، وتضرعاً إليه يبكي، ويدعو ويستغفر مما

---

(1) ذكر البغوي في تفسيره: معالم التنزيل ـ 4: 604 ـ هذا الأمر عن محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه وكذا يراجع الطبري في تفسيره: 15: 198.

كان في داره فلم يزل كذلك يومه حتى أمسى ثم رجع إلى داره، وكانت له أم ولد يقال لها «الأمينة» كان إذا دخل لقضاء حاجته وضع خاتمه عندها حتى يتطهر، وكان لا يمس خاتمه إلا وهو طاهر وكان ملكه في خاتمه، فوضع يوماً من الأيام خاتمه عندها كما كان يضعه ثم دخل فوضع الحاجة فأتاها الشيطان صاحب البحر، وكان اسمه «صخر» على صورة سليمان لا تنكر منه شيئاً فقال: يا أمينة هاتي خاتمي فناولته إياه فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، وخرج سليمان فأتى الأمينة، وقد تغير من حاله وهيئته عند كل من رآه، فقال: يا أمينة هاتي خاتمي، قالت: ومن أنت؟ قال: أنا سليمان بن داود، قالت: لست سليمان وقد جاء سليمان وأخذ خاتمه، وهو جالس على سريره في ملكه، فعرف سليمان أن الخطيئة قد أدركته، فخرج فجعل يقف على الدور من دور بني إسرائيل، فيقول: أنا سليمان بن داود فيحثون عليه التراب، ويسبونه، ويقولون: انظروا إلى هذا المجنون يزعم أنه سليمان، فلما رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر، فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر إلى السوق، ويعطونه كل يوم سمكتين.

فإذا أمسى باع سمكة بأرغفة، وشوى الأخرى، فأكلها فمكث كذلك أربعين صباحاً عدة ما كان عبد ذلك الوثن في داره فلما مضى أربعين يوماً طار الشيطان عن مجلسه ثم مر بالبحر فقذف الخاتم فيه فبلعته سمكة فأخذها بعض الصيادين، وكان قد عمل له سليمان فأعطاه سمكتين أجرته، فباع سليمان إحدى السمكتين بأرغفة، وعمد إلى السمكة الأخرى، فشق جوفها ليشويها، فوجد الخاتم فجعله في يده، ووقع ساجداً، وعكفت عليه الطير، والجن، وأقبل عليه الناس، وعرف أن الذي كان دخل عليه إنما هو بسبب ما كان أحدث في داره، فرجع إلى مملكته وأظهر التوبة من ذنبه، وأمر الشياطين، فقال: ائتوني بصخر وطلبته له الشياطين حتى وجدته فأتى به فأدخله في صخرة وسدّ عليه بأخرى، ثم أوثقها بالحديد والرصاص ثم أمر به فقذف في البحر وقال بعضهم: كان سبب فتنته قتله الخيل وضربه سوقها وأعناقها قوله تعالى: وألقينا على كرسيه جسداً أي شيطاناً اسمه صخر وقد ذكرناه، ويقال معنى ذلك: أن سليمان كان له ولد

فاجتمعت الشياطين، فقال بعضهم لبعض: إن عاش له ولد لم ننفكّ مما نحن فيه من البلاء والخدمة، فسبيلنا أن نقتل الولد أو نخبله، فعلم سليمان بذلك، فأمر الريح فحملته إلى السحاب فأودعه السحاب خوفاً عليه من الشياطين، فعاقبه الله على تخوفه من الشياطين، وأمات ولده في السحاب فألقي ميتاً على كرسيه، فهو الجسد الذي أريد بقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ لأن الجسد عبارة عما لا يكون فيه روح وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي ثم رجع بعد أربعين يوماً إلى ملكه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ معناه: لما رجع ملك سليمان إليه قال رب اغفر لي ذنبي وهب لي ملكاً لا أسلب فيه كما سلبت في المرة الأولى، ولا يجوز أن يكون سؤاله الملك لرغبة له في الدنيا، ولا بخلاً بمثله على من بعده ولكن طلب آية تدل جميع الخلائق على أن الله تعالى غفر له ذنبه، ورده إلى منزلة الأنبياء عليهم السلام، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: أنه صلى صلاة، فقال: «**إن الشيطان عرض لي ليفسد علي الصلاة فأمكنني الله منه فخنقته، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا، وتنظروا إليه جميعاً، فذكرت قول سليمان عليه السلام:** ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾».

قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ أي فاستجبنا له دعاءه، وسخرنا له الريح تسير بأمره لينة كيف أراد، وذلك أنه كان إذا أراد أن تسير الريح عاصفة كانت تجري عاصفة وإذا أراد أن تسير لينة، كانت تسير لينة، ويقال كانت تجري عاصفة حالة حمل السرير لكثرة من عليه من الخدم والحشم، والأواني، والفرش، والأطعمة، والأشربة، وكانت لينة في حالة ما تجري بالسرير، وذلك أرفق بمن يكون على السرير وأبعد من الضرر، ومعنى الآية: فسخرنا له الريح تجري بأمره لينة الهبوب ليست بالعاصف حيث أصاب أي حيث أراد من النواحي وحيث قصد وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي وسخرنا له الشياطين يبنون له الأبنية الرفيعة التي يعجز عنها الإنس، ويبنون له أيضاً ما يشاء من محاريب وتماثيل وقوله تعالى: ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ أي ويغوصون له في البحر فيستخرجون له اللالىء والجواهر وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي

﴿ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ أي وسخرنا له آخرين من الشياطين وهم المردة سخروا له حتى قرنهم في الأصفاد وهي السلاسل من الحديد، فكان سليمان يجعل الشياطين مقرنين في القيود والأغلال، ويصرف من شاء منهم في الأعمال فمعنى قوله تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي مشدودون في القيود قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ معناه: قلنا له: هذا عطاؤنا لك من المال والملك والجنود المسخرة لم نعطه أحداً قبلك ولا نعطه أحداً بعدك وقوله تعالى: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ أي أعط مما أعطيناك من شئت، وكيف شئت، وما شئت، وكم شئت، واحبس عمن شئت بغير تقدير، ولم يؤخذ عليك حد محدود في المنع ولا في الإعطاء، ولا حرج عليك فيما فعلت من ذلك قال الحسن في معنى: فامنن أو أمسك أي اطلق من شئت من الشياطين الذين أوثقتهم، وامسك في الوثاق من شئت منهم، وليس عليك في ذلك تبعة ولا جزاء[1] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي وإن له مع ما خص به في الدنيا من الملك والبسطة والنبوة والرسالة لقربة عندنا في الآخرة ونصيباً وافراً من ثوابنا في الجنة فجمع له بين ملك الدنيا، وملك الأخرى روي أن مدة ملك سليمان قبل الفتنة عشرون سنة، وملكه بعد الفتنة عشرين سنة، وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومات وله ثلاث وخمسون سنة، ومدة ملكه أربعون سنة.

قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٤٤ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ واذكر يا محمد عبدنا أيوب إذ نادى ربه في البلاء، فقال يا رب إني أصابني

---

(1) يراجع البغوي في تفسيره: 4: 609.

الشيطان بنصب أي بتعب في بدني وعذاب في أهلي ومالي، والنُصُب والنَّصَب بمعنى واحد مثل الرشد والرشد، والحُزن والحَزَن قرأ أبو جعفر بنُصُب بضمتين، وقرأ يعقوب بنَصَب بفتح النون والصاد وقرأ هبيرة[1] عن حفص عن عاصم بِنَصْب بفتح النون وجزم الصاد وقرأ الباقون بنُصْب بضم النون، وسكون الصاد[2]، وكل ذلك لغات فيه قال قتادة معنى قوله: ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ قال النصب: الضر في الجسد، والعذاب في المال[3] قال السدي النصب: أنصب الجسد والعذاب: أهلك المال ثم فتح الله[4] عنه، واختلفوا في سبب بلاء أيوب قال الحسن رضي الله عنه: إن إبليس قال: يا رب هل من عبيدك من إن سلطتني عليه يمتنع علي؟ قال: نعم عبدي أيوب، فجعل يأتيه الشيطان بوساويسه وحبائله فلا يقدر منه على شيء فقال: يا رب إنه قد امتنع عليَّ فسلطني على ماله، فجعل يأتيه فيقول يا أيوب هلك من مالك كذا وكذا فيقول أيوب اللهم أنت قد أعطيته، وأنت قد أخذته، اللهم لك الحمد على ما منعت، ولك الشكر على ما أبقيت فمكث كذلك حتى هلك ماله كله، فقال إبليس يا رب إنه لا يبالي بماله، فسلطني على جسده إنك لو سلطتني على جسده لم تجده شاكراً فسلطه عليه، فنفخ في أنفه، فانتفخ وجهه، وسرى ذلك إلى جسده، فوقع فيه الديدان إلا أن هذا القول لا يصح ولا وجه لقبوله، ولا يجوز أن يسلط الله إبليس على نبي من الأنبياء، فيفعل به ما يحب، ويقال سبب ابتلائه أن إنساناً استغاث به في ظلم يدرؤه عنه، فصبر لورده حتى فاته فابتلى، فلما مكث أيوب في البلاء ما مكث قاربت امرأته الشيطان في بعض الأمور قيل إن الشيطان قال لها لئن أكل أيوب طعاماً لم يذكر اسم الله عليه عوفي.

ويقال إنها قالت لأيوب لو تقربت إلى الشيطان فذبحت له عناقاً، فقال: لا

---

(1) أبو عمر هبيرة بن محمد التمار البغدادي أخذ القراءة عرضاً عن حفص بن سليمان عن عاصم، وقرأ عليه حسنون بن الهيثم، وكان حسنون أضبط أصحابه ـ غاية النهاية 2: 353.

(2) ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات: 554.

(3) ذكره الطبري في تفسيره: 12: 197 رقم 23019.

(4) الطبري نفسه.

والله ولا كفا من تراب وحلف بالله ليجلدنها إن عوفي مائة جلدة، وقيل: إن إبليس قال لها: إن شفيته تقولين لي أنت شفيته، فأخبرت بذلك أيوب فحلف، فلما طال البلاء على أيوب وبلغ به غاية الحد سأل الله تعالى أن يكشف ضره فقيل له: اركض برجلك أي اضرب بها الأرض، فركض رجله الأرض فنبعت عين ماء فاغتسل منها فذهب الداء من ظاهره، فضرب برجله الأرض مرة أخرى، فنبع ماء وشرب منه فذهب الداء من باطن جسده والركض: هو الرفع بالرجل على جهة الإسراع، ومنه ركض الفرس لإسراعه، والمغتسل: هو موضع الاغتسال قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ أي أحيينا له أهله وأولاده الذين كانوا هلكوا بأعيانهم، ورزقناه مثلهم في المستقبل ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي نعمة منا عليه وعظة لأولي العقول من الناس وذلك ليعلم العاقل أن ما يصيبه في الدنيا من المحن والمكاره والمصائب في النفس والأهل والمال لا يكون لهوان العبد على الله كما يظنه الجهال وإنما هو امتحان من الله لأوليائه كي يعرضهم بذلك لجزيل ثوابه[1] قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ وذلك أن أيوب كان حلف في مرضه أن يجلد امرأته مائة جلدة وكان ذلك لشيء كرهه منها على ما تقدم فجعل الله تحلة يمينه أن يأخذ حزمة واحدة فيها مائة قضيب فيضربها به، والضغث: ملء الكف من الشجر والحشيش والشمارخ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ أي لا تدع الضرب فتحنث وفي هذا دليل على جواز الاحتيال بمثل هذه الحيلة في اليمين على الضرب، فأما في الحدود فلا يجوز الاحتيال بمثل هذا لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾[2] وهذا نهي عن التخفيف عمن وجب عليه الحد قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي إنه صبر على البلاء الذي ابتلي به فإن قيل كيف صبر وهو يقول مسني الضر؟ قيل: إنه لم يشك إلى مخلوق، وإنما شكى إلى الله عز وجل حين ألحّ عليه الشيطان بالوسوسة، وخاف على نفسه أن لا يقوم بطاعة الله تعالى فدعا الله بعد أن أذن له في الدعاء والأواب: هو المقبل على طاعة الله الراجع إليه قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ

(1) يراجع تفسير القرطبي: 15: 208.

(2) سورة النور: 24 الآية: 2.

﴿وَيَعْقُوبَ﴾ معناه: واذكر لقومك يا محمد وأمتك حديث هؤلاء الأنبياء ليقتدوا بهم في حسن أفعالهم فيستحقوا بذلك جميل الثناء، وجزيل الثواب.

وقال مقاتل معناه: واذكر يا محمد صبر عبادنا إبراهيم حين ألقي في النار، وصبر إسحاق على الذبح، وصبر يعقوب حين ذهب بصره، ولم يذكر إسماعيل لأنه لم يبتل بشيء وقوله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ معناه: أولي القوة في طاعة الله تعالى، والأبصار في المعرفة بالله. قال قتادة: أعطوا قوة في العبادة، وبصراً في الدين، ويقال: إن الأيدي جمع اليد وهي الصنيعة أي هم ذوو الصنائع الجميلة في طاعة الله وقرأ الحسن: الأيد بغير الياء وهو عبارة عن القوة، ويجوز أن يكون المراد به الأيدي فحذف الياء كما تحذف من الداعي والهادي[1] قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿46﴾﴾ معناه: إنا أمرناهم بخصلة خالصة وهي ذكرى الدار الآخرة، وقال مجاهد: إنهم كانوا يكثرون ذكر الآخرة لم يكن لهم هم غيرها، وقال السدي: أخلصوا بذكر الآخرة أي بخوف الآخرة وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار، الاصطفاء: هو إخراج الصفوة من كل شيء، فهم صفوة وغيرهم كدر.

قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿48﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿49﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿50﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿51﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿52﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿53﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿54﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿55﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿56﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ أي اذكرهم بصبرهم وفضلهم لتسلك طريقهم، واليسع نبي من الأنبياء قال الكلبي: هو ابن عم إلياس، وأما ذو الكفل فهو نبي أيضاً كفل مائة نبي يطعمهم ويسقيهم وقيل: إنه

(1) يراجع القرطبي في تفسيره: 15: 217 وما بعدها، وكذا الثعلبي في تفسيره ـ خ، والبغوي في معالم التنزيل.

كان يعمل في العبادة عمل رجلين فسمي ذا الكفل والكفل: هو الضعف كما في قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾[1] قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي هذا القرآن عظة وشرف للناس، وقيل: هو ذكر في الدنيا لهؤلاء الأنبياء يذكرون به أبداً، وإن لهم مع ذلك لحسن مرجع في الآخرة ثم فسر حسن المرجع فقال: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي بساتين إقامة ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ انتصب على الحال وذلك أنهم إذا انتهوا إليها وجدوها مفتحة الأبواب لا يحبسون على الباب ليفتح لهم عند الورود.

ويقال: إن أبوابها تنفتح من غير فتح ولا مفتاح، والمفتحة أبلغ في اللفظ من المفتوحة والألف واللام في قوله: ﴿ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ عوض من الإضافة تقديره: مفتحة لهم أبوابها كما في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿41﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي في الجنات يدعون في الجنات بفاكهة كثيرة وشراب أي يدعون في الجنات بألوان الفواكه وألوان الشراب والاتكاء: هو الاستمساك بالسناد على هيئة جلوس الملوك وقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿52﴾﴾ أي وعندهم حور في الجنة قاصرات الطرف على أزواجهن لا يردن غيرهم بقلوبهن ولا ينظرن إلى غير أزواجهن وقوله تعالى: ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي مستويات على ميلاد واحد، مستويات في السن والشباب والحسن كلهن بنات ثلاث وثلاثين سنة قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿53﴾﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء[3]، ومعناه: قل للمتقين هذا ما يوعدون به ليوم الحساب أي ليوم الجزاء وقرأ الباقون توعدون بالتاء أي هذا الذي تقدم ذكره ما توعد به المتقون على لسان محمد ﷺ ومعنى الآية: هذا الذي ذكرناه ما توعدون به في يوم الحساب وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا﴾ أي هذا الذي ذكرناه رزقنا لهم ما له من نفاد أي ما له من انقطاع ولا فناء قال ابن عباس: ليس لشيء في الجنة نفاد ما أكل من ثمارها خلف مكانه

---

(1) سورة الحديد: 57 الآية: 28.

(2) سورة النازعات: 79 الآية: 41.

(3) ينظر ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات: ص 555.

مثله[1]، وما أكل من حيوانها وطيرها عاد مكانه حياً قوله تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي هذا الثواب الذي تقدم ذكره للمتقين ثم ابتدأ الخبر عما للطاغين فقال: وإن للطاغين أي الذين طغوا على الله وكذبوا الرسل وجاوزوا الحد في الكفر والمعصية لشر مئاب أي لشر مرجع ومصير ثم أخبر بذلك فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يلزمونها يوم القيامة ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ النار يمهدونها لأنفسهم.

قال الله تعالى:

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ (58) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ (59) قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (60) قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ (61) وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ (63) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ (64) قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (65) رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ (66)﴾.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ هذا العذاب فليذوقوه حميم وغساق أي يقال لهم في ذلك اليوم هذا حميم وغساق فليذوقوه والحميم: الماء الحار الذي قد انتهى حره من طينة الخبال وهي عصارة أهل النار، والغساق: ما سال من جلود أهل النار، من القيح والصديد من قولهم غسقت عينه إذا انصبت والغسقان: الانصباب قرأ حمزة والكسائي وخلف: وغسَّاق بالتشديد على معنى أنه سيّال من صديد أهل النار وقرأ الباقون بالتخفيف مصدر غسق يغسق[2] إذا سال، قال الكلبي: الغساق هو الزمهرير البارد الذي قد انتهى برده يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار، وقال ابن زيد: هو المنتن بلغة الترك، والطحاوية والعماليق وقال الحسن: لا أدري ما الغساق وما سمعت فيه شيئاً من الصحابة إلا أنه بعد ما أعدّ لأهل النار قوم أخفوا من المعصية أعمالاً فأخفى الله لهم[3] عقاباً قوله

---

(1) يراجع الطبري في تفسيره: 12: 209، والبغوي في معالم التنزيل: 4: 612.

(2) يراجع ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات: 555، والنحاس في إعراب القرآن: 3: 470.

(3) ينظر الطبري في تفسيره: 12: 210 وما بعدها، وكذا البغوي في معالم التنزيل: 4: 612.

تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿58﴾﴾ قراءة الأكثرين: وآخر على الوحدان أي وعذاب آخر من شكل العذاب الأول، والشكل: المثل يعني ضرباً من العذاب على مثل الحميم والغساق في الكراهية وقرأ أهل البصرة: وأُخر على الجمع على معنى: وأنواع أخر من شكله أي وأصناف من العذاب[1] وقوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أي ألوف وأنواع وأشباه وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ معناه: إن القادة والرؤساء من المشركين إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع قالت الخزنة من الملائكة للقادة: هذا فوج أي قطيع من الناس مقتحم معكم النار أي داخلون معكم النار. فتقول القادة: لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار كما صليناها، فيقول الأتباع[2] للقادة ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي أنتم بدأتم بالكفر قبلنا فبئس القرار جهنم للمشركين، ثم يقول الأتباع: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ أي يقولون: ربنا من شرع لنا هذا الكفر وسنه لنا فزده عذاباً مضاعفاً في النار، والاقتحام: هو الدخول في الشيء بشدة وصعوبة، وذلك أن أهل النار يساقون إليها فوجاً فوجاً، فيقال للرؤساء: هؤلاء الأتباع داخلون معكم، فيقولون: لا مرحباً بهم كيف يدخلون معنا؟ ونحن في هذا الضيق، فتقول لهم الخزنة: إنهم صالوا النار أي داخلوها كما دخلتم، والرحب في اللغة: هو السعة، وكذلك المرحب، ومعنى: لا مرحباً بهم أي لا اتسعت بهم مساكنهم ولا كرامة لهم.

وهذا إخبار أن مودتهم تنقطع وتصير عداوة فتقول لهم الأتباع: بل أنتم لا مرحباً بكم أي لا وسع الله عليكم أنتم شرعتم لنا سبب هذا العذاب[3]، فيقول الله تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي بئس المكان الذي أنتم فيه قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿61﴾﴾ أي قالت الأتباع والقادة جميعاً ربنا من سنَّ لنا هذا الكفر قبلنا فزده عذاباً ضعفاً في النار مما علينا من العذاب يعني حيات وعقارب وأفاعي قال الحسن: ما من أحد من أهل النار إلا وهو يعرف يوم القيامة شيطانه الذي يضله ويوسوس إليه في الدنيا قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا

---

(1) ابن مجاهد نفسه، والفراء في معاني القرآن: 2: 410، والقرطبي في تفسيره: 15: 222.

(2) في النسخة: س الأبناء.

(3) يراجع الفراء في معاني القرآن: 2: 411، والنحاس في إعراب القرآن: 3: 470.

لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿62﴾ ﴾ قال الكلبي: وذلك أن كفار قريش ينظرون في النار فلا يرون من كان يخالفهم من المؤمنين في دار الدنيا يعني فقراء المؤمنين فعند ذلك يقولون: ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم في الدنيا من الأشرار ـ أي كنا نعدهم في الدنيا من السفلة، ونقول لهم أنتم تتركون شهواتكم تطلبون بذلك النعيم بعد الفناء فهذا معنى: كنا نعدهم من الأشرار، وهم عمار، وخباب، وصهيب، وبلال، وسلمان، وسالم وأشباههم من فقراء المؤمنين[1] قوله تعالى: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَارُ﴾ أي يقولون قد اتخذناهم سخرياً أم مالت أبصارنا عنهم، فلم نكن نعدهم شيئاً قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا: اتخذوهم سخرياً، وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم ومن قرأ اتخذناهم بقطع الألف وفتحها فمعناه: الاستفهام كأنهم ينكرون ذلك على أنفسهم وهم في الآخرة يقولون: سخرنا بهم، وزاغت أبصارنا عنهم لضعفهم، فيقولون: ما لنا لا نراهم ولم يدخلوا معنا في النار أم دخلوا معنا ولكن لا نراهم وفي قوله: ﴿سِخْرِيًّا﴾ قراءتان ضم السين، وكسرها، فمن ضمها فهو من السخرية أي استذلوهم وسخروهم ومن قرأها بالكسر فهو من الهزء[2] وقوله تعالى؛ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ أي إن الذي وصف عنهم لصدق كائن واقع ثم بين ما هو فقال: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ يعني تخاصم القادة والأتباع على ما أخبر به عنهم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أي قل يا محمد لأهل مكة إنما أنا منذر لكم أحذركم عقوبة الله ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي وقل لهم أيضاً ما من إله إلا الله الواحد لا شريك له القهار لخلقه الغالب عليهم ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿66﴾ ﴾ أي المنتقم ممن لا يؤمن به المتجاوز عمن تاب وآمن به.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿67﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿68﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿69﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿70﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن

---

(1) الطبري في تفسيره: 12: 215.

(2) الطبري نفسه، والنحاس نفسه، وابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 556.

طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (72) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ (73) إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (74) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا
خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن
طِينٍ (76)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ (67)﴾ أي قل لهم يا محمد هذا القرآن الذي أتيتكم به خبر عظيم الشأن والشرف أنتم عن تدبره والعمل به معرضون، وقيل معناه: أمر القيامة عظيم أنتم عن الاستعداد له معرضون، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69)﴾ معناه: أن النبأ الذي أتيتكم به من قصة آدم وإبليس دليل واضح على نبوتي لأن ذلك لا يعلم إلا بوحي من الله تعالى، أو بقراءة الكتب ثم بينه من بعد بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[1] الآية أي إني ما علمت ذلك إلا بوحي من الله وقوله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ معناه؛ ما يوحى إليّ هذا القرآن إلا لأني نذير مبين أي ما يوحى إليّ إلا لأني نبي، ونذير مبين أبين لكم ما تأتون من الفرائض والسنن، وما تتركون من الحرام والمعصية - قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ (71)﴾ قد تقدم تفسير هذا، وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ أي ما منعك عن السجود لمن توليت خلقه من غير واسطة وسبب وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي رفعت نفسك فوق قدرك، أم كنت من الذين علو في المنزلة من السجود لمثله قال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ والنار شيء مضيء، والطين شيء مظلم.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ
إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (80) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (83) قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ

(1) سورة البقرة: 2 الآية: 30.

﴿جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿85﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿86﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿87﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿88﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من السماء، وقيل: من الجنة، وقيل: من الأرض إلى جزائر البحار، والرجيم: هو المرجوم بالخزي، والفضيحة، والشهب إذ رجع إلى السماء قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿36﴾﴾ أراد الخبيث أن لا يذوق الموت، فقيل له: إنك من المؤجلين إلى وقت النفخة الأولى فلم يجبه الله إلى ما سأل، ولم يعرفه ذلك الوقت وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿82﴾﴾ أي لأدعونهم إلى الغواية، ولأضلنهم إلا عبادك الذين أخلصتهم، وعصمتهم فلا سبيل لي عليهم قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قرأ مجاهد والأعمش وحمزة وخلف برفع الأول، ونصب الثاني على معنى: فأنا الحق، أو فمني الحق، وأقول الحق وقرأ الباقون بنصبهما[1]، واختلف النحاة في وجه ذلك، فقيل: نصب الأول على الأغراء، والثاني بإيقاع القول عليه، وقيل: الأول قسم، والثاني مفعول تقديره: قال فبالحق وهو الله أقسم بنفسه ثم حذف الخافض فنصب كما تقول: الله لأفعلن أقسم الله تعالى: لأملأن جهنم من إبليس وأتباعه، قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة ما أسألكم على تبليغ الوحي والقرآن من مال تعطونه جعلا ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي لم أتكلف دعاءكم إليه من تلقاء نفسي بل أمرت بذلك وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين، ولتعلمن أنتم يا كفار مكة نبأ أي خبر صدقه بعد حين أي بعد الموت، وقيل يوم القيامة، وقال الحسن: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين[2].

---

(1) يراجع تيسير القراءات السبع: 188، الفراء في معاني القرآن: 2: 412، والنحاس في إعراب القرآن: 3: 473، والثعلبي في تفسيره ـ خ.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 12: 224 رقم 23111 بلفظه.

سُورَةُ الزُّمَرِ

قال الحداد رحمه الله:

سورة الزمر مكية إلا قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية وهي: أربعة آلاف وتسعمائة وثمانية أحرف، وألف ومائة واثنتان وسبعون كلمة، وخمس وسبعون[1] آية - قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه، وأعطاه ثواب الخائفين**»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ معناه: هذا تنزيل من الله العزيز بالنقمة لمن لا يؤمن الحكيم في أمره وقضائه، ويجوز

---

(1) في النسخة: س وتسعون.

(2) ذكره الزمخشري في الكشاف: 3: 411.

أن يكون تنزيل مبتدأ وخبره من الله كما يقال: نعم الدين والدنيا من الله قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي أنزلنا إليك هذا القرآن بالحق، ولم ننزله باطلاً وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي اعبد الله وحده لا كما يعبده عبدة الأوثان وقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي إن العبادة الخالصة لله تعالى، وفي هذا بيان أن غير الخالص لا يكون لله، والإخلاص: أن يقصد العبد بنيته وعمله خالقه لا يجعل ذلك تعريضاً[1] للدنيا، وقيل معنى الآية: لله الدين الخالص أي إن الدين الخالص من الشرك هو لله وما سواه من الأديان فليس بدين الله الذي أمر به قال قتادة: الخالص: شهادة أن لا إلٰه إلا الله[2]، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني الذين يعبدون الأصنام، والملائكة، والشمس، والقمر، والنجوم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي يقولون ما نعبدهم إلا ليشفعوا لنا إلى الله وذلك التقريب هو الشفاعة والزلفى: القربى وهو اسم أقيم مقام المصدر كأنه قال: إلا ليقربونا إلى الله تقريباً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين أهل الأديان يوم القيامة ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين كل يقول: الحق الديني فهم مختلفون، وحكم الله بينهم أن يعذب كلاً على قدر استحقاقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي لا يرشد لدينه من كذب في زعمه أن الآلهة تشفع له إلى الله قوله تعالى ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي لو أراد الله أن يتخذ لنفسه ولداً كما زعم بعض الكفار: أن الملائكة بنات الله لما اقتصر على الأدون من البنات دون الأعلى من الذكران وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾[3] وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿21﴾﴾[4] وقيل معناه: لو أراد الله أن يتخذ ولداً كما قالت النصارى في المسيح واليهود في العزير لاختار خلقاً أفضل

---

(1) في النسخة: ك: تعرضا.
(2) ذكره الطبري في تفسيره: 12: 227.
(3) سورة الإسراء: 17 الآية: 40.
(4) سورة النجم: 53 الآية: 21.

من عيسى وعزير وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له في كل صفة لا تكون من أرفع الصفات وقوله: هو الله الواحد لا شريك له ولا شيء كمثله القهار: الغالب على خلقه الذي لا يحتاج إلى ولد ولا ظهير.

قال الله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ⑤ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ⑥ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ⑦﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي خلق السماوات والأرض غيره للخلق وإقامة للحق لا للبعث والباطل يدبر الليل على النهار ويدبر النهار على الليل، ويدخل كل واحد على الآخر، ويزيد من ساعات أحدهما على ساعات الآخر. والتكوير: هو إدارة الشيء على الشيء ومنه كور العمامة، وقد تسمى الزيادة كوراً كما قيل في الدعاء اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور أي من النقص بعد الزيادة وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى الوقت الذي وقت الله الدنيا إليه وهو انقضاؤها وفناؤها وقوله تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي خالق هذه الأشياء هو الله الغالب على كل شيء الغفار لأوليائه، وأهل طاعته.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خلقكم من نفس آدم وحدها، ثم خلق منها زوجها حواء من ضلع من أضلاعه القصيري ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ معنى الإنزال هاهنا: الإنشاء والخلق أي وخلق لكم من كل صنف من الإبل والبقر والضأن والمعز زوجين ذكراً وأنثى وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي يخلقكم نطفة، ثم علقة، ثم

مضغة إلى أن تخرجوا من البطون وقوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ يعني ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة[1]، وقيل: ظلمة الأصلاب، وظلمة الأرحام، وظلمة البطون وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي الذي يفعل هذه الأشياء وهو الله ربكم له الملك الدائم الذي لا يزول ولا خالق غيره ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ بعد هذا البيان والبرهان قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ أي إن تكفروا يا أهل مكة بنعم الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ لم يأمركم بالإيمان من حاجة له إليكم لا لجلب منفعة، ولا لدفع مضرة، وإنما أمركم به لنفعكم ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي لا يرضى لأوليائه وأهل طاعته الكفر، وقيل معناه: ولا يرضى لعباده المخلصين الذين قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله، وحببها إليهم، وقال السدي: ولا يرضى لعباده المؤمنين أن يكفروا وهذه طريقة من قال بالتخصيص في هذه الآية ومن أجراها على العموم فمعناه: لا يرضى الكفر لأحد، وكفر الكافر غير مرضي، وإن كان بإرادة الله فالله تعالى مقدر الكفر غير راضٍ به لأنه لا يمدحه[2]، ولا يثني عليه قال قتادة: ما رضي الله لعبد ضلالة ولا أمره بها ولا دعاه إليها، ولكن قدرها عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ معناه: وإن تشكروا ما أنعم عليكم من التوحيد يرضى ذلك الشكر لكم، ويثيبكم عليه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تؤخذ نفس بذنب أخرى ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة فيجزيكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بعزائم القلوب.

قال الله تعالى:

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9)﴾.

---

(1) الطبري في تفسيره: 12: 223.

(2) الطبري في تفسيره: 12: 235.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي إذا أصاب الكافر شدة في عيشه أو بلاء في جسده دعا ربه راجعاً إليه بقلبه قال عطاء: يريد عتبة بن ربيعة، وقال مقاتل: يعني أبا حذيفة بن المغيرة[1]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي ثم إذا أعطاه نعمة منه أي أغناه وأنعم عليه بالصحة نسي ما كان يدعو إليه من قبل أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي رجع إلى عبادة الأوثان ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي ليزل عن دين الإسلام ويضل الناس قل يا محمد لهذا الكافر تمتع بكفرك قليلاً في الدنيا إلى أجلك لفظه لفظ أمر ومعناه التهديد والوعيد ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ في الآخرة فما ينفعك التمتع القليل في الدنيا قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ معناه: أنت خير أيها الكافر أم من هو قانت، وقيل معناه: أم من هو قانت كمن جعل لله أنداداً وقيل معناه: أهذا خير أم من هو قانت لله تعالى، والقانت: هو المواظب على طاعة الله القائم بما يجب عليه من أمر الله، وآناء الليل ساعاته وقوله تعالى: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ نصب على الحال أي تارة ساجداً وتارة قائماً يفعل ذلك حذاراً من العذاب وطمعاً في الثواب، وقرأ نافع وابن كثير: أمن بالتخفيف[2] لأن ألف الاستفهام دخلت على من وهو استفهام إنكار والمعنى: أم من هو قانت كالأول روى أن قوله: أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه وقوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يستوي العالم والجاهل فكذلك لا يستوي المطيع والعاصي: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إنما يتعظ بمواعظ الله ذوو العقول من الناس، وقال مقاتل: هذه الآية في عمار بن ياسر، وأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي قل هل يستوي الذين يعلمون يعني «عمار»[3] والذين لا يعلمون يعني «أبا حذيفة» وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: من أحب أن يهون الله عليه الموقف يوم القيامة فليراه الله في سواد الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.

---

(1) الواحدي في أسباب النزول: 306، الثعلبي في تفسيره ـ خ.

(2) ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات: 561. النحاس في إعراب القرآن: 4: 5.

(3) القرطبي في تفسيره: 12: 239.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿10﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿11﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿12﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿13﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿14﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿15﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي أطيعوه واجتنبوا معاصيه، وتم الكلام ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وحدوا الله وأحسنوا العمل حسنة يعني الجنة وقوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ أي ارحلوا من مكة، وهذا حث لهم على الهجرة من مكة إلى حيث يأمنون وفيه بيان أنه لا عذر لأحد في ترك طاعة الله تعالى لكونه بأرض لا يتمكن فيها من ذلك وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ معناه: إنما يوفى الصابرون على دينهم فلا يتركونه بمشقة تلحقهم وهذه الآية نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين لم يتركوا دينهم، ولما اشتد عليهم الأمر صبروا وهاجروا والمعنى: يعطون أجرهم كاملاً على صبرهم على البلاء وهجران أهلهم وأوطانهم بغير وزن ولا مقدار بل يعطون نعيماً وثواباً لا يهتدي إليه عقل ولا وصف[1] قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿11﴾﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين، وأمرت أن أعبده على التوحيد والإخلاص لا يشوب عبادتي شرك قال مقاتل: وذلك أن كفار قريش قالوا له يا محمد ما يحملك إلى ما أتيتنا به ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادة قومك يعبدون اللات والعزى فتأخذ بها فأنزل الله[2] هذه الآية أي قل لهم إني أمرت في القرآن بتوحيد الله، وأن آمر الخلق كلهم بذلك، وأمرت أن أكون أول من أسلم من أهل هذا الزمان وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بالرجوع إلى

---

(1) يراجع البغوي في تفسيره: 5: 7.

(2) يراجع الطبري في تفسيره: 12: 242.

دين آبائي: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾ بالتوحيد لا أشرك به شيئاً: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ هذا أمر تهديد ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ بأن صاروا إلى النار يعني الكفار هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم من الأزواج والخدم بالتخليد في النار، ويقال: خسران الأهل: أن يخسروا أهليهم من الحور العين التي أعدت لهم في الجنة لو أسلموا.

قال الله تعالى:

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي أطباق من النار تلتهب عليهم ومن تحتهم ظلل أي مهاد من النار يريد بذلك أنهم جعلوا بين طباق جهنم فأحاطت بهم النار من كل جانب، وإنما سمي الذي من تحتهم ظلل لأنه ظلل لمن يكون أسفل منهم وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ أي ذلك الذي ذكر من العذاب للكفار تخويف للمؤمنين ليخافوه فيتقوه بالطاعة والتوحيد ثم أمرهم بذلك فقال يا عباد ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أي اتقوا عذابي بامتثال أوامري، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ يعني اجتنبوا كل ما يعبد من دون الله ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي رجعوا إلى طاعة الله بعزائمهم، وأقوالهم وأفعالهم ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ بالجنة ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾ يعني القرآن ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ وذلك لأن القرآن يشتمل على ذكر المباحات والطاعات فالمباحات حسنة والطاعات أحسن، واستحقاق الثواب يتعلق بفعل الأحسن، ويجوز أن يكون معنى الآية أن العفو عن القصاص أحسن من استيفاء القصاص، والصبر أحسن من الانتصار كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ

(1) سورة البقرة: 2 الآية: 237.

ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿43﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾[2] فجعل الأخذ بأحسن الطريقين أعظم للثواب، وقيل معنى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أي أحسنه وكله حسن وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي الذين وصفناهم هم الذين وفقهم الله للصواب وأولئك هم ذوو العقول، وقال عطاء عن ابن عباس أن أبا بكر رضي الله عنه آمن بالنبي ﷺ، وصدقه، فجاء عثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا فنزل فيهم ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أولئك الذين هداهم الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ﴾ أولي العقول[3].

قال الله تعالى:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿19﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿20﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿21﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿22﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ معناه: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب بكفره كمن ليس كذلك ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ أي من سبق في علم الله إنه في النار أفأنت تنقذه فتجعله مؤمناً يعني لا تقدر على ذلك قال عطاء: يريد أبا لهب، وأولاده، ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان به[4] وقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ أي لهم منازل في الجنة رفيعة وفوقها منازل أرفع منها، وعدهم الله تلك الغرف

---

(1) سورة الشورى: 42 الآية: 43.

(2) سورة البقرة: 2 الآية 184.

(3) يراجع أسباب النزول للواحدي: 306. وكذا البغوي في معالم التنزيل: 5: 9.

(4) يراجع القرطبي في تفسيره: 15: 244. وكذا الواحدي في أسباب النزول: 307.

والمنازل، وعداً لا يخلفه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني المطر فسلكه ينابيع في الأرض أي فأجراه في الأرض ينابيع وهو جمع ينبوع والينبوع: المكان الذي ينبع منه الماء قال مقاتل: معناه: فجعله عيوناً وركاباً في الأرض وذلك أن أصل المياه التي في الأرض من السماء وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي ثم يخرج بالمطر زرعاً مختلفاً من بين أحمر وأصفر، وأبيض وأخضر ثم يهيج أي ييبس فتراه بعد خضرته مصفراً ثم يجعله الله حطاماً أي متكسراً متفتتاً دقاقاً إن في ذلك الذي ذكر من صنع الله وقدرته لدلالة لذوي العقول على سرعة زوال الدنيا، وعلى قدرة الله على البعث بعد الموت قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ معناه: أفمن وسع الله صدره لقبول الإسلام فهو على بيان وحجة من ربه يبصر به الحق من الباطل كمن طبع الله على قلبه فلم يهتد الحق لقسوته قال قتادة: فهو على نور من ربه النور: هو كتاب الله تعالى فيه يأخذ وبه ينتهي[1] وتقدير الآية: أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه كمن أقسى قلبه.

وعن ابن مسعود أنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فقالوا: يا رسول الله: وما هذا الانشراح؟ قال: «**إذا دخل النور القلب: انشرح، وانفسح**»، قلنا: يا رسول الله: وما علامة ذلك؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل لقاء الموت**»[2]، قيل: إن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، وقال مقاتل: أفمن شرح الله صدره للإسلام يعني النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هم أبو جهل وأصحابه من الكفار، وقيل: إن هذه الآية نزلت في علي، وحمزة، وأبي لهب، وأولاده[3] فقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني علياً وحمزة وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هو أبو لهب وأولاده، وقوله تعالى: ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي عن ذكر الله.

---

(1) يراجع الطبري في تفسيره: 12: 248.
(2) يراجع القرطبي في تفسيره: 15: 247. والبغوي في معالم التنزيل: 5: 11.
(3) يراجع الواحدي في أسباب النزول: 307.

قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ (23) أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ (24) كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ (25) فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ (26)﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني القرآن سمي حديثاً لأن النبي ﷺ كان يحدث به قومه وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٗا﴾ منصوب على البدل من أحسن الحديث، وقوله تعالى: ﴿مُّتَشَٰبِهٗا﴾ أي يشبه بعضه بعضاً في كونه حكمة ومصلحة، وفي أنه حق لا يناقض فيه وقوله تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ أي مكرر للأنباء والقصص للإبلاغ والتأكيد، وتثنى تلاوته في الصلاة وفي غيرها فلا يمل من سماعه. وقوله تعالى: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ خوفاً مما في القرآن من الوعيد ومعنى تقشعر تأخذهم قشعريرة وهي تغير يحدث في جلد الإنسان عند الوجل والخوف قال رسول الله ﷺ: «**إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها**»(1). وقال الزجاج: إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين(2) وقال ﷺ: «**إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله حرمه الله على النار**»(3).

وعن عبد الله بن عروة(4) قال: قلت(5) لأسماء بنت أبي بكر: كيف كان

---

(1) أخرجه البيهقي في الشعب: 1: 491 رقم 803 ـ باب في الخوف من الله، والمنذري في الترغيب: 4: 128.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 4: 352.

(3) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ والبغوي في معالم التنزيل: 5: 12.

(4) عبد الله بن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، تابعي من الخطباء الشجعان، وله شعر، وكان يشبه بعمه عبد الله بن الزبير، في لسانه وجلده توفي سنة ست وعشرين ومائة ـ تهذيب التهذيب: 5: 319.

(5) لجدته أسماء ـ كما ثبت عند البغوي في تفسيره ـ قلت لجدتي أسماء... إلخ.

أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تدمع عيونهم، وتقشعر منه جلودهم فقلت لها: إن ناساً اليوم إذا قرىء عليهم القرآن خروا مغشياً عليهم، قالت: أعوذ بالله من الشيطان[1] الرجيم، وروي أن ابن عمر رضي الله عنه مر برجل من أهل العراق ساقطاً، فقال: ما بال هذا؟ فقالوا: إنه إذا قرىء عليه القرآن، وسمع ذكر الله سقط، فقال ابن عمر: إنا لنخشى الله ولا نسقط، وقال ابن عمر: إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب[2] رسول الله ﷺ. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي تسكن رعدة أعضائهم إذا سمعوا آيات الرحمة، وقيل: تلين جلودهم وقلوبهم أي تطمئن وتسكن إلى ذكر الله للجنة والثواب قال قتادة: هذا نعت أولياء الله، وصفهم الله بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يعني أحسن الحديث وهو القرآن هدى الله ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ قال ابن عباس وذلك أن الكافر يلقى في النار مغلول اليد إلى العنق لا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه وكان معنى الآية: أفمن يتقي بوجهه شدة العذاب يوم القيامة كمن يدخل الجنة ويتلذذ بنعيمها، قيل: إن هذه الآية نزلت في أبي جهل قال الكلبي: ينطلق به إلى النار مغلولاً فإذا رمت به الخزنة فيها لم يتقها إلا بأول وجهه وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي تقول الخزنة للكفار: ذوقوا العذاب بما كنتم تكسون في الدنيا من الكفر والمعاصي. قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿25﴾﴾ أي كذب الذين من قبل كفار مكة رسلهم ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: وهم آمنون في أنفسهم غافلون عن العذاب وفي هذا تحذير لأهل مكة لئلا يسلكوا طريقة من قبلهم فينزل بهم من العذاب ما نزل بمن قبلهم وقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ أي الهوان والعذاب في الحياة الدنيا

---

(1) ذكره البغوي في تفسيره بسنده: 5: 12.

(2) البغوي نفسه، والقرطبي في تفسيره: 15: 149.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُۚ﴾ مما أصابهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ولكنهم لم يعلموا ذلك.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۢ﴾ أي ولقد ضربنا لأهل مكة في هذا القرآن من كل مثل بينا لهم فيه من كل وجه مما يحتاجون إليه لعلهم يتذكرون فيؤمنوا وقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ قرآناً نصب على الحال كما يقال: جاءني زيد رجلاً صالحاً وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي مستقيم وليس بمختلف، وعن ابن عباس معنى غير ذي عوج أي غير مخلوق[1]، وقيل: غير ذي تضادد واختلاف لا يخالف الكتب المنزلة قبله قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي وصف مثل آلهتهم التي يعبدونها من دون الله يقول الذي يعبد آلهة شتى في أخلاقهم مشكلة وشراسة والذي يعبد رباً واحداً يكون خالصاً في عبادته إياه والمعنى فيه شركاء متنازعون ورجلاً سالماً لرجل سلم له من غير منازع، وقيل معناه: من اتخذ أرباباً كثيرة فيه شركاء متشاحون سيئة أخلاقهم، وكل واحد يستخدمه بقدر نصيبه يقال رجل شكس شرس، وضرس وضغس إذا كان سيء الخلق، ومخالفاً للناس وقوله تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ هذه قراءة ابن كثير وأبو عمرو، ومجاهد، والحسن، ويعقوب، واختاره أبو عبيد لأن السالم هو ضد المشترك، وقرأ الباقون: سَلَما من غير ألف بفتح اللام[2] وهو ضد المحارب ولا موضع للحرب هاهنا والمعنى

(1) يراجع الثعلبي، والبغوي، والقرطبي في تفسيره: 15: 252.

(2) يراجع ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات: 562، والنحاس في إعراب القرآن: 4: 10، والقرطبي نفسه.

ورجلاً ذا سَلَم لرجل من قولهم هو لك سلم أي مسلم لا منازع لك فيه، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي هل يستوي عندك شرك فيه نفر مختلفون لكونه جميعاً، ورجل خالص لرجل لا شركة فيه لأحد هل يستوي من يعبد آلهة شتى مختلفة يعني الكافر والذي يعبد رباً واحداً يعني المؤمن وهذا استفهام معناه: الإنكاري أي لا يستويان.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي الشكر كله لله دون غيره من المعبودين وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي دع الكلام الأول أكثرهم لا يعلمون ما يصيرون إليه من العقاب والمراد بالأكثر الكل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (30)﴾ أي إنك يا محمد ميت عن قليل وإنهم ميتون وقيل معناه: إنك ستموت وهم سيموتون ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يعني المحق والمبطل والظالم والمظلوم.

قال الله تعالى:

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ (32) وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (33) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (35) أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (36) وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ (37)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن جعل له ولداً وشريكاً ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي بالتوحيد والقرآن إذ جاء به محمد ﷺ وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ لفظ استفهام وهو تقدير وتحقيق أي مثواهم جهنم وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ قيل المراد به: جبريل، وصدق به يعني محمداً ﷺ، وقيل: إن الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والذي صدق به أبو بكر رضي الله عنه كان تصديقه في كل ما أخبر به فلذلك سمي صدِّيقاً[1]

(1) يراجع القرطبي في تفسيره: 15: 256.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ يعني أبا بكر، وأصحابه المؤمنين وقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ يعني لهم ما يشاؤون من الكرامة في الجنة ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في أقوالهم وأعمالهم وقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ أي ليكفر الله عنهم أقبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا بحسناتهم ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قال مقاتل: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزي بالمساوىء[1] قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ وذلك أن المشركين من أهل مكة قالوا للنبي ﷺ: إنك لا تزال تشتم آلهتنا وتعيبها فاتقيها أن لا تصيبك بشيء فتخبلك فأنزل الله[2] هذه الآية.

وقيل معناه: أليس الله بكافٍ محمداً ﷺ يكفيه عداوة من يعاديه ومن قرأ عباده[3] فالمراد بالعباد: الأنبياء وذلك أن الأمم قصدتهم بالسوء وهو قوله: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ﴾[4] فكفاهم الله شر من عاداهم يعني أنه كافيك كما كفى هؤلاء الرسل قبلك وقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ أي بالذين يعبدون من دونه وهم الأصنام.

قال الله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ (38) قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (39) مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ (40) إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ (41)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ

---

(1) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 17.

(2) الطبري في تفسيره: 12: 9، والقرطبي نفسه، وأسباب النزول للسيوطي.

(3) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 562.

(4) سورة غافر: 40 الآية: 5.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وذلك أنهم مع عبادتهم غير الله يقرون بأن الله خالق هذه الأشياء فجعل الله إقرارهم بذلك حجة عليهم، وبين أنه تعالى إذا أراد بعبد ضراً لم تقدر الأصنام على دفعه عنه، وإذا أراد بعبد رحمة لم تقدر الأصنام على حبسها عنه فكيف تعبدونها وتتركون عبادة الله الذي له هذه الصفات وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾ أي أمر الله النبي ﷺ أن يحتج عليهم بأن ما يعبدون من دون الله لا يملك كشف ضر قال ابن عباس: والمعنى: إن أرادني الله بفقر أو مرض أو بلاء أو شدة هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة أي بخير وصحة هل هن حابسات تلك الرحمة عني قرأ أبو عمرو ويعقوب ـ كاشفات وممسكات بالتنوين لأن اسم الفاعل غير واقع وما لم يقع منه فوجهه التنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين[1] استحقاقاً وكلا الوجهين حسن وقوله تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أي يكفيني الله تعالى الذي بيده الضر والرحمة ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي به يثق الواثقون لا بغيره قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على ناحيتكم وجهتكم التي اخترتموها إني عامل على ناحيتي وجهتي فستعلمون من يأتيه عذاب يخزيه أي يفضحه ويهلكه في الدنيا وينزل عليه عذاب دائم في الآخرة، ويجوز أن يكون قوله ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ ابتداء كلام من الله تعالى وخبره يخزيه، ويحل عليه العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآن ليعلموا ما فيه ويعملوا به ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي فمنفعة اهتدائه راجعة إلى نفسه، ومن ضل فضرر ضلاله راجع إليه ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي بحفيظ يخبرهم على الإيمان وهذا كان قبل أن يؤمر بقتالهم.

قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42) أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا

(1) ابن مجاهد نفسه، والقرطبي في تفسيره: 15: 259.

يَعْقِلُونَ ﴿43﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿44﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿45﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ معناه: الله يقبض الأرواح عند انقضاء آجالها، ويقبض الأرواح التي لم تمت في منامها فتحبس الأرواح التي قضى عليها الموت ولا يردها إلى الأجساد، ويرد أرواح النائمين إليهم عند الانتباه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى الأجل الذي قدر الله لهم وهو انقضاء الأجل إن في رد الأرواح بعد القبض لعلامات لقوم يتفكرون في قدرة الله فيستدلون بذلك على قدرته على البعث. قال الزجاج: لكل إنسان نفسان أحدهما نفس التمييز وهي التي تفارقه إذا نام فلا يعقل، والأخرى نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس، والنائم[1] يتنفس وعن ابن جريج عن ابن عباس أنه قال: إن النفس التي هي العقل والتمييز والروح: هو الشعاع الذي به يتحرك الإنسان فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه، وإذا مات قبض نفسه وروحه[2]، ويقال: إن الإنسان له نفس وروح وحياة، والبهائم لها أرواح، والنبات له حياة فنماء النبات لحياته، وتحرك البهائم بأرواحها، وتمييز الإنسان بنفسه، فإذا نام الإنسان عزب عنه عقله وفهمه وتمييزه، فإذا انتبه عاد كما كان، وكذلك الميت إذا بعث عاد كما كان، وسئل رسول الله ﷺ: أينام أهل الجنة؟ فقال: «**النوم أخو الموت وأهل الجنة لا يموتون، ولا ينامون**» وروي أن في التوراة مكتوب: يا ابن آدم كما تنام تموت، وكما تستيقظ تبعث وقوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ أي يمسكها عن الجسد يعني الروح التي توفاها فلا تعود إلى الجسد.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ يعني النفس إلى الجسد إلى أجل مسمى أي إلى انقضاء الأجل قرأ الأعمش وحمزة والكسائي وخلف قضي عليها بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء ورفع الموت على ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 4: 356.

(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ.

قضى على الفعل الماضي ونصب الموت[1] على قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ قال المفسرون: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله ثم يمسك الله أرواح الأموات فلا يردها، ويرسل أرواح الأحياء إلى الأجساد إلى وقت انقضاء مدة حياتها وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا آوى أحدكم إلى فراشه فليضطجع على جنبه الأيمن، وليقل باسم ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها مما تحفظ به الصالحين من عبادك**»[2]، قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ نزلت في أهل مكة زعموا أن الأصنام شفعاؤهم عند الله[3]، فقال الله تعالى منكراً عليهم ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ أي بل اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونها طمعاً في شفاعتها قل لهم يا محمد أتعبدونهم وإن كانوا لا يقدرون على شيء من الشفاعة ولا يعقلون الشفاعة فكيف يشفعون، وقيل: ولا يعقلون إنكم تعبدونهم ثم أخبر أنه لا شفاعة إلا بإذنه فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي لا يشفع أحد إلاّ بإذنه والمعنى لا يملك أحد الشفاعة إلاّ بتمليكه وهذا إبطال لشفاعة الأصنام ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وذلك أن المشركين كانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله وحده نفروا من ذلك واستكبروا، والاشمئزاز في اللغة: النفور والاستكبار قال ابن عباس اشمأزت: انقبضت عن التوحيد، وقال قتادة: استكبرت، وقال أبو عبيدة: نفرت[4]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني الأصنام التي عبدوها من دون الله ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ والمعنى: إذا قيل لهم لا إله الله وحده نفروا من ذلك، وإذا ذكرت أصنامهم فرحوا بذكرها.

قال الله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 562. النحاس في إعراب القرآن: 4: 14.
(2) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 12: 409 رقم 6320 كتاب الدعوات.
(3) يراجع تفسير القرطبي: 15: 263.
(4) مجاز القرآن: 2: 190.

فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (48) فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قل لهم: يا محمد اللهم فاطر السماوات والأرض أي خالقهما عالم الغيب والشهادة أي عالم ما غاب عن العباد وما علمه العباد أنت تحكم بين عبادك أي تقضي بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون من الدين قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لو كان الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ما في الأرض جميعاً من المال ومثله معه لفدوا به أنفسهم لشدة ما ينزل بهم من العذاب ثم لا يقبل منهم ذلك الفداء وظهر لهم من عقاب الله ما لم يكونوا يتوقعون في الدنيا أنه ينزل بهم في الآخرة وذلك أنهم لما كانوا لا يقرون بالبعث والنشور كانوا لا يتوقعون أهوال يوم القيامة بل كانوا ينتظرون ثواب الله أن لو قامت القيامة كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾(1) فإذا رأوا العذاب فقد بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وظهر لهم عقوبات ما كسبوا من المعاصي، وحلَّ بهم جزاء استهزائهم بالكتاب والرسول قوله تعالى؛ ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي إذا أصابه مكروه دعانا لنكشف عنه ثم إذا أعطيناه نعمة منا من صحة وعافية ويسراً بعد شدة، قال: إنما أوتيته على علم الله تعالى أني أهل لذلك، أو قال على علم مني فيه بوجوه مكاسبه ـ قوله تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي بل النعمة والشدة بلية وامتحان من الله للغني والفقير أي للغني بالشكر وللفقير بالصبر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها من الله تعالى قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قد قال تلك الكلمة قارون حين قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾(2) والمعنى: قد قالها

(1) سورة فصلت: 41 الآية: 50.
(2) سورة القصص: 28 الآية: 78.

الذين من قبل هؤلاء الكفار ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿84﴾﴾ أي ما أغنى عنهم الكفر من العذاب شيئاً والمعنى: أنهم ظنوا إنما آتيناهم لكرامتهم علينا ولم يكن كذلك لأنهم وقعوا في العذاب ولم يغن عنهم ما كسبوا شيئاً.

قال الله تعالى:

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿51﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿52﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿53﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿54﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿55﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ﴾ أي جزاؤها ثم أوعد كفار مكة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أي جزاء ما قالوا وعملوا ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لأن مرجعهم إلى الله فهم لا يعجزونه ولا يفوقونه فيجازيهم بأعمالهم قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾ معناه: أولم يعلموا أن الله يوسع الرزق على من يشاء ويضيق على من يشاء كل ذلك من عنده لا يحول الإنسان وقدرته إن في البسط والتقتير لآيات لقوم يصدقون أنها من الله قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ قال ابن عباس: إن هذه الآيات نزلت في وحشي[1] وأصحابه ـ الذين قتلوا حمزة عم النبي ﷺ، وجماعة من المؤمنين أرسلوا إلى النبي ﷺ رسولاً يطلبون التوبة من الله فأنزل الله[2] هذه الآية، وعن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه: يا محمد كيف

---

(1) وحشي بن حرب الحبشي، مولى جبير بن مطعم، وهو قاتل حمزة بن عبد المطلب في موقعة أحد، وكان قوياً فاتكاً.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني فتح الباري: 9: 513 رقم 4810 ـ كتاب التفسير، والواحدي في أسباب النزول: 307 وما بعدها.

تدعوني إلى دينك، وأنت تزعم أنه من قتل، أو أشرك، أو زنا يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة، ويخلد فيه مهاناً؟ وأنا قد فعلت ذلك كله، فهل تجد لي فيه رخصة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾[1] فقال وحشي: هذا شرط شديد لا أقدر على هذا فهل غير ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2]، فقال وحشي: وإني في شبهة فلا أدري أيغفر لي أم لا فهل غير ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ فجاء وحشي، وأسلم، فقال المسلمون: هذه له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال بل للمسلمين عامة[3]، ومعنى الآية: قل يا عبادي الذين جاوزوا الحد في المعاصي بالكفر، والزنا، والقتل، ونحوها لا تيأسوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً الصغائر والكبائر هو الغفور لمن تاب وآمن الرحيم بمن مات على التوبة قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي ارجعوا إلى طاعة ربكم بالتوبة واستسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تمتعون بما يراد بكم، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم وهو القرآن من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون وقت مجيئه.

قال الله تعالى:

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (58) بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (59) وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (60) وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (62) لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (63)﴾.

---

(1) سورة الفرقان: 25 الآية: 70.

(2) سورة النساء: 4 الآية: 48، والآية: 116.

(3) البغوي في تفسيره: 5: 22.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ معناه: بادروا حذاراً من أن تقول نفس وحذاراً أن تصيروا إلى حالة تتحسرون فيها على التفريط فيما ينال به ثواب الله قال الفراء معنى قوله في جنب الله الجنب: هو القرب أي في قرب الله وجواره والمعنى: أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في طلب جوار الله وقربه وهو الجنة[1]، وقال عطاء معناه: على ما ضيعت من ثواب الله، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي وما كنت إلا من المستهزئين بالقرآن والمؤمنين في الدنيا، وممن دعاني إلى التوحيد قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أي وخوف أن تقول لو أن الله نجاني من العذاب لكنت من جملة المتقين الشرك ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ أي ولئلا تقول حين ترى العذاب لو أن لي رجعة إلى الدنيا فأكون من الموحدين المحسنين، فيقال لهذا القائل: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ يعني القرآن ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ أي قلت ليست من عند الله ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ أي وتكبرت عن الإيمان بها، وتعظمت عن الإقرار بذلك، وصرت من الجاحدين لنعم الله فأصابك ما أصابك لجنايتك على نفسك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي وترى يا محمد في يوم القيامة الذين كذبوا على الله في قولهم: عزير ابن الله، وقولهم: المسيح ابن الله، وقولهم: الملائكة بنات الله وقول عبدة الأصنام: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ترى هؤلاء تسود وجوههم، وتزرق أعينهم وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تحقيق وتقرير والمثوى: هو المنزل والمتكبر: هو المتعظم عن الإيمان قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي يخلصهم من العذاب بفوزهم الذي استحقوه بأعمالهم قال المبرد المفازة: مفعلة من الفوز وهي السعادة[2]، وإن جمع فحسن كقوله: السعادة والسعادات، ويقرأ بمفازاتهم[3].

قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي لا يصيبهم العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأنهم رضوا بالثواب قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي جميع ما في الدنيا

---

(1) يراجع القرطبي في تفسيره: 15: 271.

(2) معالم التنزيل: 5: 26.

(3) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 563، والنحاس: إعراب القرآن: 4: 19.

والآخرة من شيء فالله خالقه وهو المستحق للعبادة وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي الأشياء كلها موكولة إليه وهو القائم بحفظها المدبر لأمورها الكفيل بأرزاقها قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له خزائن السماوات والأرض يفتح الرزق على من يشاء، ويغلقه على من يشاء، وقال ابن عباس: المقاليد: المفاتيح وواحد المقاليد مقليد كما يقال: منديل ومناديل[1] قال الضحاك مقاليد السماوات والأرض: خزائنها، ويجوز أن تكون المقاليد جمع المقلاد وهو مفعال من القلادة أي هو مالك الخلق وله طاعتهم، وبيده قلوبهم، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ معناه: الذين كفروا بالقرآن هم الذين خسروا حتى صاروا في النار.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (65) بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (66) وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (67) وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ (64)﴾ وذلك أن المشركين من قريش قالوا للنبي ﷺ: أتؤمن ببعض آلهتنا، ونؤمن بإلٰهك، فأنزل الله هذه الآية والمعنى: أتأمروني أن أعبد غير الله أيها الجاهلون بالله[2] ونعمه، قرأ نافع تأمروني بنون واحدة خفيفة على التحقيق، وقرأ ابن عامر بنونين على الأصل، وقرأ الباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام[3] وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ

(1) الطبري في تفسيره: 12: 30. والثعلبي في تفسيره ـ خ
(2) يراجع السيوطي في أسباب النزول ص 253.
(3) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 563.

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي ليحبطن عملك الذي عملته قبل الشرك، وهذا أدب من الله لنبيه ﷺ وتهديد لغيره لأن الله قد عصمه من الشرك، ومداهنة الكفار وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ أي وحد لأن عبادته لا تصح إلا بتوحيده، وكن من الشاكرين لإنعامه عليك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي ما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه إذ عبدوا الأوثان من دونه، وأمروا النبي ﷺ بعبادة غيره، ثم أخبر عن عظمته فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي وجميع الأرض في مقدوره يوم القيامة كالذي يقبض عليه القابض في قبضته وهذا كما يقال: فلان في قبضة فلان أي تحت أمره وقدرته، والقبضة في اللغة: ما قبضت عليه في جميع كفك أخبر الله تعالى عن قدرته، فذكر أن الأرض كلها مع عظمها وكثافتها في مقدوره كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ ذكر اليمين للمبالغة في الاقتدار يعني أنه يطويها بقدرته كما يطوي الواحد منا الشيء المقدور له طيه بيمينه قال الأخفش معناه: مطويات في قدرته نحو قولك أو ما ملكت أيمانكم أي وما كانت لكم عليه قدرة وليس الملك لليمين دون الشمال[1]، وقد تذكر اليمين بمعنى القوة كما قال الشاعر[2]:

إذا مَا رَايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ ∴ تلَقَّاها عَرابةُ باليَمين[3]

ثم نزه نفسه عن شركهم فقال: سبحانه وتعالى الله ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قوله

---

(1) معاني القرآن: 2: 674.

(2) الشماخ: واسمه: معقل بن ضرار الغطفاني: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وهو من طبقة لبيد، له ديوان شعر مطبوع شهد القادسية، وتوفي في غزوة موقان سنة اثنتان وعشرون هجرية. الأغاني: 8: 97، خزانة الأدب: 3: 196، الأعلام: 3: 175.

(3) خرج الشماخ يريد المدينة فلقيه عرابة بن أوس الأنصاري، من سادات المدينة المشهورين بالكرم، أدرك حياة النبي ﷺ، وأسلم صغيراً. فسأل عرابة الشماخ عما أقدمه للمدينة، فقال أردت أن أمتار لأهلي، وكان معه بعيران، فأوقرهما عرابة ـ تمراً وبراً وكساءً وأكرمه فامتدحه بالقصيدة التي يقول فيها:

رأيت عرابة الأوسي يسمو ∴ إلى الخيرات منقطع القرين

إذا ما راية... إلخ. بلوغ الأرب 2: 187، اللسان: عرب ـ الأعلام 4: 222.

تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قد ذكرنا أن النفخة نفختان في قول أكثر المفسرين، وبينهما أربعون سنة، فالنفخة الأولى هي نفخة الصعق، والصعق: هو الموت بصيحة شديدة، وحالة هائلة، ومنه الصواعق وهي التي تأتي بشدّة الرعد، وعن عبد الله بن عمر قال: سألت رسول الله ﷺ عن الصور فقال: قرن ينفخ فيه فيصعق من في السماوات ومن في الأرض أي يموتون من الفزع وشدة الصوت قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ يعني الملك الذي ينفخ في الصور ثم يميته الله بعد ذلك، وقال الحسن يعني: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وحملة العرش، وملك الموت. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عن هذه الآية من الذي شاء الله أن لا يصعقهم قال هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش، وعن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ عنهم فقال: «**هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت فيقول الله تعالى: يا ملك الموت خذ نفس إسرافيل فيأخذها، ثم يقول: خذ نفس ميكائيل فيأخذها، ثم يقول الله تعالى يا ملك الموت من بقي؟ فيقول: سبحانك يا رب تباركت وتعاليت بقي جبريل وملك الموت.**

فيقول الله تعالى: مت يا ملك الموت فيموت، ثم يقول الله: يا جبريل من بقي؟ فيقول: تباركت وتعاليت بقي وجهك الباقي الدائم، وبقي جبريل الميت الفاني، فيقول يا جبريل مت فيقع ساجداً يخفق بجناحه فيموت»[1]، وقال الضحاك معنى قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ هم رضوان والحور ومالك والزبانية، وقال قتادة: الله أعلم بثناياه[2]، وقيل: هم عقارب النار، وحياتها، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ يعني نفخة البعث فإذا هم قيام من القبور ينظرون ماذا يقال لهم؟ قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي وأضاءت الأرض يومئذ بعدل ربها فسمى العدل نوراً كما سمى النبي نوراً، وسمى القرآن نوراً ويقال: إن نور الأرض العدل كما أن نور الدين العلم وقال بعضهم: يخلق الله تعالى يومئذ نوراً يضيء لأهل القيامة غير الشمس والقمر قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 12: 37 ـ 38.

(2) القرطبي في تفسيره 15: 280.

﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ يعني صحائف الأعمال ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ قال ابن عباس: المراد بقوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ هم الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة[1]، وهم أمة محمد ﷺ وقال عطاء: يعني الحفظة، وقال السدي: يعني الذين استشهدوا في طاعة الله[2] تعالى. وقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي قضى بين الرسل والأمم بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من حسنات أحد ولا يزاد في سيئات أحد وقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي أعطيت كل نفس برة أو فاجرة جزاء ما عملت من خير أو شر، وهو أعلم بفعلهم لا يحتاج إلى كاتب ولا شاهد.

قال الله تعالى:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿71﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿72﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿73﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿74﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿75﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ وذلك أنهم يساقون إلى جهنم فوجاً فوجاً الأول فالأول يساق كفار كل أمة على حدة.

والزمر: جماعات متفرقة بعضها على أثر بعض يساقون سوقاً عنيفاً يسحبون على وجوههم إلى جهنم حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها عند مجيئهم، وقال لهم خزنتها وهم الزبانية ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ ويخوفونكم لقاء هذا اليوم؟ قالوا بلى قد أتونا بالرسالة، ولكن وجبت كلمة العذاب على الكافرين فيقول لهم الزبانية: ادخلوا أبواب جهنم السبعة خالدين فيها فبئس مثوى

(1) الطبري في تفسيره: 12: 42.

(2) الطبري نفسه.



المتكبرين ومعنى قوله: ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين هو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿فُتِحَتْ﴾ فخففها الكوفيون وشددها الباقون على التكثير[1] قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ وذلك أن المتقين ينطلق بهم إلى الجنة فوجاً فوجاً باللطف والإكرام حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها قال الأخفش: هذه الواو زائدة[2] والمعنى: فتحت حتى تكون جواباً لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ وقال الزجاج: القول عندي أن الجواب محذوف تقديره: حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها[3]، وسلَّم عليهم خزنتها ساروا إلى السعادة ووصلوا إلى مقصودهم وقيل هذه الواو واو الحال تقديره: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها، وأدخل الواو هاهنا لبيان أنها قد كانت مفتحة قبل مجيئهم، وحذفها من الآية الأولى لبيان أنها كانت مغلقة قبل مجيئهم، ويقال زيدت الواو هاهنا لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب جهنم سبعة فزيدت الواو فرقاً بينهما وحكي عن أبي بكر بن عياش[4] أنها تسمى واو الثمانية[5]، وذلك أن من عادة قريش أنهم يعدون العدد من الواحد إلى الثمانية فإذا بلغوا الثمانية زادوا فيها الواو فيقولون: خمسة ستة سبعة وثمانية يدل عليه قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾[6] وقال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[7] وقال تعالى: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[8] وقال: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[9]

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 564.

(2) معاني القرآن: 2: 673.
قول الأخفش ساقط من النسخة: ك من غير ترك بياض.

(3) معاني القرآن وإعرابه: 4: 364.

(4) أبو بكر شعبة بن عياش الكوفي الإمام العلم راوي عاصم توفي سنة ثلاث وتسعين ومائة ـ غاية النهاية 1: 325 رقم 1421.

(5) الثعلبي في تفسيره ـ خ، والقرطبي في تفسيره: 5: 285.

(6) سورة الحاقة: 69 الآية: 7.

(7) سورة التوبة: 9 الآية: 112.

(8) سورة الكهف: 18 الآية: 22.

(9) سورة التحريم: 66 الآية: 5.

وقيل: زيادة الواو في صفة الجنة علامة لزيادة رحمة الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ قال ابن عباس معنى قوله: طبتم أي طاب لكم المقام[1] وقيل معناه: ظفرتم بمصالح أعمالكم، وكنتم طيبين في الدنيا، وقيل: طابت لكم الجنة فادخلوها خالدين.

فلما دخلوها قالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده أي أنجزنا وعده، وأنزل أرض الجنة نتبوأ منها حيث نشاء أي نتخذ فيها من المنازل ما نشاء يقول الله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي نعم ثواب العاملين لله في الدنيا الجنة قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي محدقين حول العرش محيطين به يسبحون بحمد ربهم إجلالاً لعظمته، وقضى بين الخلائق بالحق أي بالعدل وأنصف بعضهم من بعض، ويقال لهم بعد الفراغ: الحمد لله رب العالمين وذلك أن الله تعالى ابتدأ خلق الأشياء بالحمد، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فلما بعث الخلق، واستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ختمه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (2)﴾.

---

(1) البغوي في تفسيره: 5: 30.

سورة غافر

قال أبو بكر الحداد رحمه الله:

سورة المؤمن مكية، وهي أربعة آلاف وتسعمائة وستون حرفاً، وألف ومائة وتسع وتسعون كلمة، وخمس وثمانون آية قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ حم المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه، واستغفر له»**[1]، وقال ﷺ: **«من أحب أن يرفع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم في صلاة الليل»**[2]، وقال ﷺ: **«الحواميم ديباج القرآن»**[3]، وقال ﷺ: **«الحواميم سبع، وأبواب جهنم سبعة، فيجيء كل حم منهن يوم القيامة على باب من هذه الأبواب، فيقول: لا يدخل الباب من كان يؤمن بي[4] ويقرأني»**، وقال ﷺ: **«لكل شيء ثمرة وثمرة القرآن الحواميم هن روضات حسنات مخضبات متجاولات فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم»**[5]، وقال ابن مسعود: إذا وقعت في الحواميم وقعت في روضات أتألق[6] فيها.

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ، والزمخشري في الكشاف: 3: 440.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود: 2: 483 رقم 2471، والحاكم في المستدرك: 2: 437.

(4) أخرجه البيهقي في الشعب 2: 486 رقم 2479.

(5) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ، والقرطبي في تفسيره: 15: 288.

(6) الثعلبي نفسه.

قال الله تعالى:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿حمٓ ۝١﴾ قال رسول الله ﷺ: «**حم اسم من أسماء الله وهي مفاتيح خزائن ربك**»[1]، وقال ابن عباس: حم اسم الله الأعظم، وعن عكرمة قال: ألر، وحم، ون حروف الرحمٰن مقطعة، وقيل: أقسم الله بحلمه وملكه لا يعذب أحداً عاد إليه بقول: لا إلٰه إلا الله مخلصاً من قلبه، وقال عطاء الخرساني: الحاء افتتاح أسماء الله حليم، وحميد، وحي، وحكيم، والميم افتتاح أسمائه: ملك، ومجيد، ومنان[2] قال الضحاك: معنى حم قضى ما هو كائن.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ أي هذا تنزيل الكتاب من الله العزيز في ملكه العليم بخلقه وقرىء حٰمَ بفتح الميم[3] أي أتل حٰم قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ أي غافر الذنب لمن قال: لا إلٰه إلا الله، وهم أولياؤه وأهل طاعته، وقابل التوب من الشرك شديد العقاب لمن مات على الشرك والتوب جمع توبة ويجوز أن يكون مصدراً من

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره: 15: 288.

(2) تراجع هذه الأقوال في القرطبي نفسه.

(3) تراجع هذه القراءة في كتاب السبعة في القراءات: 566، والتيسير في القراءات السبع: ص 191 وكذا تفسير القرطبي: 15: 210.

تاب يتوب توباً وقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي ذو الغناء عمن لا يوحده، ولا يقول: لا إلٰه إلا الله، وقال الكلبي: ذو الفضل على عباده والمن عليهم، وقال مجاهد: ذو السعة والغناء وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود للخلق سواه ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي مصير من آمن ومصير من لا يؤمن، وعن الحسن رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب سأل عن بعض إخوانه الذين كانوا بالشام، فقال: ما فعل أخي فلان؟ قالوا: ذاك أخو الشيطان، يخالط أهل الأشربة وجفا أصحابه فقال إذا خرجتم إلى الشام فآذنوني؟ فلما أرادوا الخروج أعلموه، فكتب إليه من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان بسم الله الرحمٰن الرحيم ـ سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إلٰه إلا هو أما بعد: فإن الله تعالى قال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، فلما جاء الكتاب قالوا له: اقرأ كتابك أيها الرجل فلما قرأ: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ قال عليم بما أصنع غافر الذنب إن استغفرت غفر لي ذنبي، وقابل التوب إن أنا تبت ليقبلن توبتي شديد العقاب إن لم أفعل عاقبني ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ ثم قال: صدق الله، ونصح عمر رضي الله عنه، فأقبل بطريقة حسنة إلى أن مات فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم زلّ، فسددوه ووقفوه، وادعوا الله أن يتوب عليه ولا تكونوا أعواناً للشيطان[1] عليه قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ما يخاصم في آيات الله بتكذيبها والطعن فيها، والمراء عليها إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ـ بالتجارات وسلامتهم في تصرفهم بعد كفرهم فإن عاقبة أمرهم العذاب كعاقبة من قبلهم من الكفار، وقيل معناه: فلا يغررك ذهابهم ومجيئهم في الأسفار بالتجارة فإنهم ليسوا على شيء. قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قومك قوم نوح، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وهم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب نحو عاد وثمود أي كذبوا رسلهم كما كذبك قومك ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ فيقتلوه وجادلوا بالباطل أي وخاصموا الرسل بالباطل ليبطلوا به

(1) القرطبي نفسه.

الحق الذي جاءت به الرسل فأخذتهم بعقوبة الاستئصال فكيف كان عقاب لهم وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ[1] رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي مثل ما حق على الأمم المكذبة حقت كلمة ربك بالعذاب على الذين كفروا من قومك أصحابك النار في الآخرة قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يعني حملة العرش والطائفين به وهم الكروبيون سادة الملائكة يسبحون بحمد ربهم، ويؤمنون بأنه واحد لا شريك له ويقولون ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ عن الشرك والمعصية، واتبعوا الطريق الذي دعوتهم إليه، وادفع عنهم عذاب الجحيم.

قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿8﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿9﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿10﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿11﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿12﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي يا ربنا وأدخلهم بساتين إقامة التي وعدتهم في الكتب على ألسنة الرسل، وأدخل معهم من صلح من آبائهم ونسائهم وأولادهم إنك أنت العزيز في ملكك وسلطانك الحكيم في أمرك وقضائك، وادفع عنهم عقوبة السيئات ومن تدفع عنه عقوبة ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي النجاه الوافرة، وانتصب قوله: ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ على التمييز[2]، قال ابن عباس: حملة العرش ما بين كعب

(1) قرأ نافع وابن عامر: «كلمات» جمعا، وقرأ العامة «كلمة ربك» على التوحيد: ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: 567، والقرطبي في تفسيره: 15: 293.

(2) أي وسع كل شيء رحمتك وعلمك: التبيان في إعراب القرآن: 2: 324.

أحدهم إلى أسفل قدمه مسيرة خمسمائة عام، ومستقر أرجلهم في الأرض السابعة السفلى، ورؤوسهم تحت العرش، وهم خشوع لا يرفعون أبصارهم، وهم أشد خوفاً من أهل السماوات[1] السبع. وعن الضحاك قال: لما خلق الله حملة العرش قال لهم: احملوا عرشي فلم يطيقوا، فخلق مع كل واحد من الأعوان مثل جنود سبع سماوات من الملائكة، وقال لهم: احملوا عرشي فلم يطيقوا، فخلق مع كل واحد من الأعوان مثل جنود سبع سماوات من الملائكة، ومثل من في الأرض من الخلق، وقال لهم: احملوا عرشي فلم يطيقوا، فخلق مع كل واحد منهم مثل جنود سبع سماوات وجنود سبع أرضين، وعدد ما في الأرض من الحصى والثرى فقال: احملوا عرشي، فلم يطيقوا، فقال قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله كلما قالوها حملوا العرش[2] قال ﷺ: «**أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسير سبعمائة عام**»[3] قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿10﴾﴾ وذلك أن الكفار لما دخلوا النار مقتوا أنفسهم، ومقت بعضهم بعضاً لانشغالهم في الدنيا بما قادهم إلى النار فيناديهم مناد لمقت الله أكبر أي مقت الله إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ قال بعضهم معناه: كنا نطفا في أصلاب آبائنا أمواتاً، فخلقت فينا الحياة، ثم أمتنا بعد ذلك عند انتهاء آجالنا، ثم أحييتنا للبعث، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[4] وإنما قالوا هكذا لأنهم كانوا في الدنيا قد كذبوا بالبعث، فاعترفوا في النار بما كذبوا به وهو قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ أي بالتكذيب، وقال بعضهم: أراد بالموتة الأولى التي تكون عند قبض الأرواح، وبالموتة الثانية التي تكون بالإحياء في القبر للسؤال لأنهم أميتوا في الدنيا ثم

---

(1) القرطبي في المرجع نفسه.

(2) ذكره الثعلبي بسنده ـ في تفسيره ـ خ.

(3) ذكره القرطبي في تفسيره: 15: 294، عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

(4) سورة البقرة: 2 الآية: 28.

أحيوا في قبورهم، فسئلوا ثم أميتوا في قبورهم ثم أحيوا في الآخرة للبعث فيكون المراد بالإحياء الأول: الإحياء في القبر، وبالإحياء الثاني: الإحياء للبعث وقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ أي بإنعامك علينا، ونفوذ قضائك فينا وتكذيبنا في الدنيا فهل إلى خروج من النار من طريق فنؤمن بك، ونرجع إلى طاعتك، فيجابون ليس لكم إلى خروج من سبيل، ويقال لهم ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم أي ذلك العذاب في النار والمقت بأنكم إذا قيل لكم في الدنيا: لا إلٰه إلا الله أنكرتم وكفرتم وقلتم: أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً وإن يشرك بالله صدقتم فالحكم لله العلي في سلطانه الكبير في عظمته لا يرد حكمه.

قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿13﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿14﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿15﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿16﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿17﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي دلالات توحيده ومصنوعاته التي تدل على قدرته من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والسحاب، وغير ذلك، وينزل لكم من السماء رزقاً يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي ما يتعظ إلا بهذه المصنوعات وقيل معناه: وما يتعظ بالقرآن إلا من يرجع إلى دلائل الله فيتدبرها ثم أمر المؤمنين بتوحيده فقال تعالى ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي مخلصين له الطاعة موحدين ولو كره الكافرون منكم ذلك، ثم عظم تعالى نفسه فقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي رافع درجاتهم، والرفيع بمعنى الرافع والمعنى: إنه يرفع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي خالقه ومالكه يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده أي ينزل الوحي على من يشاء أي على من يختصه بالنبوة والرسالة لينذر ذلك النبي الموحى إليه ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي يوم القيامة، وسمّي يوم التلاق لأنه يلتقي فيه أهل السماوات والأرض والمؤمنون والكافرون، والظالمون

والمظلومون، ويلتقي المرء فيه بعمله وقرأ الحسن: لتنذر بالتاء[1] أي لتنذر يا محمد يوم التلاق أي لتخوف به، وقراءة العامة بالياء أي لينذر الله قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ أي يوم هم خارجون من مواضعهم من الأرض، والبحار، وحواصل الطير، وبطون السباع لا يخفى على الله منهم ولا من أعمالهم شيء ومحل هم رفع بالابتداء، وبارزون خبره[2]، ويقول الله في ذلك اليوم: لمن الملك اليوم؟ فيقول: الخلق كلهم: لله الواحد القهار، وقال الحسن: هو السائل والمجيب لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه[3].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من قال الحمد لله الذي تعزز بالقدرة، وقهر العباد بالموت، نظر الله إليه، ومن نظر إليه لم يعذبه، واستغفر له كل ملك في السماء، وكل ملك في الأرض**» ـ قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ﴾ أي تجزى كل نفس بعملها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته لا ظلم اليوم من أحد على أحد إن الله سريع الحساب يحاسبهم جميعاً في ساعة واحدة يظن كل واحد أنه المحاسب دون غيره.

قال الله تعالى:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿18﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿19﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿20﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ أي حذرهم يوم القيامة والمعنى: يا محمد أنذر أهل مكة بيوم الآزفة يعني يوم القيامة سميت القيامة آزفة من أزف الأمرُ إذا قَرُب فالقيامة آزفة لسرعة مجيئها قال الزجاج: قيل لها آزفة لأنها قريبة،

---

(1) النحاس في إعراب القرآن: 4: 28.
والقرطبي في تفسيره: 15: 300.

(2) التبيان في إعراب القرآن: 2: 325.

(3) يراجع النحاس في إعراب القرآن: 4: 28، وحاشية الجمل على الجلالين: 4: 8، وكذا تفسير الكشاف: 3: 420، والقرطبي نفسه.

وإن استبعدها الناس[1]، وما هو آزف فهو قريب ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ أي حين تزول القلوب عن مواضعها من الجوف، فتشخص من صدورهم حتى تبلغ حناجرهم في الحلوق فلا هي تعود إلى أماكنها، ولا هي تخرج من أفواههم فيموتوا فيستريحوا وذلك أن القلب بين فلقتي الرئة فإذا انتفخت الرئة عند الفزع رفعت القلب حتى يبلغ الحنجرة فيلصق بالحنجرة فلا يقدر صاحبه على أن يرده إلى مكانه، ولا على أن يلفظ به فيستريح ونظيره قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿83﴾﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾[5] قوله تعالى: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي مغمومين مكروهين ممتلئين غماً وخوفاً وحزناً يعني أصحاب القلوب يتردد عزمهم وحسراتهم في أجوافهم والكاظم: هو الممتلىء أسفاً وغيظاً، والكظم تردد الغيظ، والحزن والخوف في القلب حتى يضيق به ونصب كاظمين على الحال[6] قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي ما لهم من قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع الشفيع فيهم، فتقبل شفاعته وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي خائنتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل قال ابن عباس: خائنة الأعين هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها[7]، قال قتادة: هو همزه بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله ورسوله[8]، ويجوز أن يكون المراد به: يعلم العين الخائنة أي يجازي بخائنة الأعين فكيف بما فوقها كما قال في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[9].

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 4: 369.
(2) سورة الأحزاب: 33 الآية: 10.
(3) سورة الواقعة: 56 الآية: 83.
(4) سورة إبراهيم: 14 الآية: 43.
(5) سورة القيامة: 75 الآية: 26.
(6) التبيان في إعراب القرآن: 2: 325.
(7) الثعلبي في تفسيره - خ - بلفظه.
(8) الطبري في تفسيره: 12: 69.
(9) سورة الإسراء: 17 الآية: 36.

وفي الحديث[1] أن النبي ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «**لا تتبع النظرة النظرة، فإن الأولى لك والثانية عليك**»[2] يعني بالأولى: إذا وقع نظره إلى موضع لا يجوز النظر إليه إلا عن تعمد منه، فإنه لا يكون آثماً في ذلك وإنما يأثم إذا أعاد النظر ثانية قوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ أي ويعلم ما تضمر الصدور عند خائنة الأعين، ويعلم ما تسر القلوب من المعصية قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي يحكم بالقسط والعدل لا يمنع أحداً من ثواب عمله ولا يعاقبه على ذنب لا يكسبه بل يجزي بالحسنة والسيئة وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ معناه: والذين يدعون من دون الله من الأصنام لا ينفعون من أطاعهم ولا يضرون من عصاهم ولا يجازون أحد لأنهم لا يعلمون ولا يقدرون قرأ نافع: والذين تدعون بالتاء، وقرأ الباقون بالياء[3] إن الله هو السميع لمقالتهم البصير بهم وبأعمالهم.

قال الله تعالى:

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿21﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿22﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿23﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿24﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿25﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية ظاهر المعنى وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي ما كان لهم من عذاب الله من واق يقي العذاب

---

(1) هذا الحديث في حفظ البصر، الأولى: التي وقعت عن غير قصد لك، أي لا تؤاخذ عليها.

(2) أخرجه الدارمي في سننه: 2: 754 رقم: 2609 ـ كتاب الرقاق.

(3) كتاب السبعة في القراءات: 568.

عنهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يعني الآيات[1] التسع ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي وحجة ظاهرة إلى فرعون وهامان وقارون ﴿فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي كثير الكذب، وخص فرعون وهامان وقارون بالذكر لأنهم كانوا هم المتبوعين وفي ذكر المتبوعين ذكر التابعين، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ أي واستبقوا النساء للخدمة، وذلك أن فرعون كان قد أخبر أنه يولد من بني إسرائيل مولود يذهب ملكه على يده، فأمر بقتل أبنائهم واستبقاء نسائهم فلما جاءهم موسى بالحق أمر بإعادة ذلك القتل عليهم كيلا يبلغ الأنباء فيعيبوه عليهم وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي يذهب كيدهم باطلاً، ويحيق بهم ما كانوا يكيدون.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ (27) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وذلك أن قوم فرعون قالوا أرجه وأخاه ولا تقتلهما فإنك إن قتلتهما قبل ظهور حجتنا عليهما وقعت للناس الشبهة في أنهما كانا على الحق، فقال فرعون دعوني أقتل موسى، وليدع ربه حتى يدفع ذلك القتل عنه ثم بين لأي معنى يقتله فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ

(1) التي ذكرها الله في القرآن وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والطمس الذي أصاب آل فرعون في أموالهم ـ أي غيرها الله سبحانه وتعالى فصارت حجارة ـ يراجع ـ القرطبي في تفسيره ـ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ الإسراء: الآية 101.

دِينَكُمْ﴾ يعني يبدل عبادتكم إياي ﴿أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ أراد ظهور الهدى وتغيير أحكام فرعون، فجعل ذلك فساداً قرأ الكوفيون ويعقوب أو أن بالألف وقرأ نافع وأبو عمرو ويظهر بضم الياء وكسر الهاء ونصب الفساد، وقرأ الباقون بفتح الياء والهاء ورفع الفساد[1] واختار أبو عبيد قراءة نافع وأبي عمرو لأنها أشبه بما قبلها لإسناد الفعل إلى موسى، وعطفه على يبدل[2] قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي لما توعد فرعون موسى بالقتل قال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر متعظم عن الإيمان وعن قبول الحق لا يصدق بيوم الحساب، استعاذ موسى بالله تعالى ممن أراد به سوءاً قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ اختلفوا في هذا المؤمن فقال بعضهم: كان قبطياً من آل فرعون غير أنه كان آمن بموسى، وكان يكتم إيمانه عن فرعون وقومه خوفاً على نفسه، وقال مقاتل والسدي كان ابن عم[3] فرعون وهو الذي حكى الله عنه ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾[4] وهذا هو الأشهر وكان اسمه حزقيل، وقيل حزبيل، وقال بعضهم: كان إسرائيلياً وتقدير الآية: وجاء رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون وقوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي لأن يقول ربي الله ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي أتاكم بما يدل على صدقه من المعجزات، وإن يك كاذباً فعليه كذبه لا يضركم ذلك وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم أي يصيبكم كل الذي يعدكم من العذاب إن قتلتموه وهو صادق والمراد بالبعض الكل في هذه الآية.

وقال الليث: بعض هاهنا زائدة[5] أي يصيبكم الذي يعدكم، وقال أهل المعاني: هذا على المظاهرة في الحجاج كأنه قال لهم: أقل ما يكون في صدقه

---

(1) ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات: 569، والكشف عن وجوه القراءات السبع: 2: 243.
(2) النحاس في إعراب القرآن: 4: 31.
(3) الطبري في تفسيره: 12: 73.
(4) سورة القصص: 28 الآية: 20.
(5) يراجع البغوي في معالم التنزيل 5: 40.

أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وفي بعض ذلك هلاككم فذكر البعض يوجب الكل، ويدل على ذكر البعض بمعنى الكل قول لبيد:

تَـرَّاكُ أَمْـكِـنَـةٍ إِذَا لَـمْ أَرْضَـهَـا ∴ أَوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُفُوسِ حِمَامُهَا[1]

أراد كل النفوس ومثل ذلك قول الآخر[2]:

قد يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بعض حاجته ∴ وقد يكون مع المستعجل الزلل[3]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي لا يهديه في الآخرة إلى جنته وثوابه والمسرف: هو المجاوز عن الحد في المعصية.

قال الله تعالى:

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (29) وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (31) وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي قال لهم الرجل المؤمن على وجه النصيحة يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين أي غالبين

---

(1) هذا البيت من جملة معلقة لبيد بن ربيعة العامري رقم 56 ـ شرح المعلقات للزوزني ص 96، والديوان: 311، يريد بالنفوس نفسه يقصد إذا رأيت في مكانه شيئاً أكرهه تركت ذلك المكان إلا أن يعوقني الموت ـ في النسخة: س ـ أو يرتبط.

(2) القطامي ـ أبو سعيد عمير بن شييم التغلبي شاعر غزل فحل عده ابن سلاّم في الطبقة الثانية من الإسلاميين وله ديوان شعر مطبوع محقق.

(3) هذا البيت من مشهور شعره، ومن شواهد الزجاج في معانيه: 4: 372، والزمخشري في كشافه: 4: 477.

مستقلين في أرض مصر ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي فمن يمنعنا من عذاب الله إن جاءنا ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أشير عليكم إلا ما أراه حقاً من الصواب في أمر موسى ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي ما أعرفكم إلا طريق الهدى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ (30)﴾ معناه: وقال لهم الرجل المؤمن: إني أخاف عليكم في قتله وترك الإيمان به أن ينزل عليكم من العذاب مثل ما نزل بالأمم الماضية قبلكم حين كذبوا رسلهم وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي لا يعاقب أحداً بلا جرم، ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ (32)﴾ يعني يوم القيامة ينادى فيه كل الناس بإمامهم، وينادي فيه أهل النار أهل الجنة، وأهل الجنة أهل النار.

وينادى فيه بسعادة السعداء وشقاوة الأشقياء وأصله يوم التنادي بإثبات الياء كما في التناجي والتقاضي إلا أن الياء حذفت منه كما حذفت من قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾[1] وشبه ذلك وقيل يسمى يوم التنادي لأن الكفار ينادون فيه على أنفسهم بالويل والثبور كما قال تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾[2] وقيل في معنى ذلك إنه ينادي المنادى ألا إن فلان بن فلان سعد سعادة لا شقاوة بعدها أبداً، وينادي ألا إن فلان بن فلان شقي شقاوة لا سعادة بعدها أبداً، وقرأ الحسن يوم التنادي بإثبات الياء على الأصل[3]، وقرأ ابن عباس يوم التناد بتشديد الدال[4] على معنى يوم التنافر، وذلك إذا هربوا فندوا في الأرض كما تند الإبل إذا شردت على أصحابها، قال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه فذلك قوله[5]: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾[6] وقوله تعالى:

---

(1) سورة القمر: 54 الآية: 6.

(2) سورة الفرقان: 25 الآية: 14.

(3) يراجع القرطبي في تفسيره: 15: 311.

(4) يراجع ابن جني في المحتسب: 2: 243.

(5) يراجع قول الضحاك في القرطبي نفسه ـ بلفظه تقريباً.

(6) سورة الرحمٰن: 55 الآية: 33.

﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ أي فارين منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ أي من مانع يمنعكم من عذابه ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ﴾ أي قد جاءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى بالدلالات الظاهرة على وحدانية الله تعالى يعني قوله: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[1] وقيل معنى قوله ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ أي من قبل المؤمن، وقوله تعالى: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾ أي في شك من عبادة الله وحده حتى إذا مات قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً يأمرنا وينهانا هكذا يهلك الله من هو متجاوز عن الحد مرتاب أي شاكٍ في توحيد الله وصدق أنبيائه.

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ (35) وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ (36) أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ (37) وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (38) يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ (39) مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ (40)﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾، قال الزجاج: هذا تفسير المسرف المرتاب على معنى هم الذين يجادلون في آيات الله بالإبطال والتكذيب[2] والطعن بغير حجة ﴿أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ أي عظم جدالهم بغضاً وسخطاً عند الله وعند المؤمنين كذلك يطبع الله أي هكذا يختم الله بالكفر على كل قلب متكبر عن الإيمان جبار للناس على ما

---

(1) سورة يوسف: 12 الآية: 39.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 4: 374.

يريد قال ابن عباس: يختم على قلوبهم فلا يسمعون الهدى ولا يعقلون الرشاد،
وقرىء على كل قلب بالتنوين وقال الزجاج: الوجه الإضافة لأن المتكبر[1] هو ٣٦
الإنسان قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي قال لوزيره يا هامان
ابن لي قصراً منيفاً مشيداً بالآجر كما قال في موضع آخر: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى
ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾[2] وكان هامان هو أول من طبخ الآجر لبناء الصرح،
ولذلك كره بناء القبور بالآجر وقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ﴾ يعني طرائق
السماوات والسبب في الحقيقة: كل ما يوصلك إلى الشيء، ولذلك سمّي الحبل
سبباً، وقال بعضهم: أسباب السماوات طباقها[3] وقوله تعالى: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ
مُوسَىٰ﴾ ظن فرعون بجهله أن إلٰه موسى ممن يرتقي إليه وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى
لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ أي وإني لأظن موسى كاذباً فيما يقول؛ إن له رباً في السماء،
وما قال موسى له ذلك قط، ولكنه لما قال له: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[4] قال له
موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[5] فظن فرعون بجهله واعتقاده الباطل أنه لما لم ير
في الأرض أنه في السماء، فرام الصعود إلى السماء لرؤية إلٰه موسى، وقيل
معناه: وإني لأظن موسى كاذباً فيما يقول: أن له رباً غيري أرسله إلينا، وقرأ
الأعرج ـ فأطلع بنصب العين على جواب لعل بالفاء على معنى أني إذا بلغت
اطلعت، وقراءة العامة: فأطلع بالرفع عطفاً على قوله[6]: ﴿أَبْلُغُ﴾ قوله تعالى: ٣٧
﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي هكذا حسن له قبح عمله زين له الشيطان
جهله ومن قرأ زين بفتح الزاي فهو على أن المعاصي يدعو بعضها إلى بعض
وقوله تعالى: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي صد غيره عن الهدى، ويحتمل أنه صد
عن السبيل بنفسه، وقرىء وصُدَّ بضم الصاد أي منع عن سبيل[7] الحق ﴿وَمَا ٣٨

(1) معاني القرآن نفسه، والكشف عن وجوه القراءات: 2: 243.
(2) سورة القصص: 28 الآية: 38.
(3) يراجع القرطبي في تفسيره: 15: 314.
(4) سورة الشعراء: 26 الآية: 23.
(5) سورة الشعراء: 26 الآية: 24.
(6) كتاب السبعة في القراءات: 570، والنحاس في إعراب القرآن: 4: 33.
(7) كتاب السبعة نفسه، والقرطبي نفسه.

﴿كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي في فساد وهلاك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38)﴾ أي قال الرجل المؤمن من آل فرعون يا قوم اتبعوني على ديني أحملكم على طريق السداد والهدى، ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أي متعة يسيرة تنقطع وإن الآخرة هي دار القرار فلا تزول أي هي المحل الذي يقع فيه الاستقرار وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ يعني الشرك فلا يجزى إلا مثلها في العظم يعني النار، ومن عمل صالحاً أي طاعة من ذكر أو أنثى وهو مؤمن مخلص وقال ابن عباس يعني قول: لا إله إلا الله[1] فأولئك يدخلون الجنة في الآخرة ويرزقون فيها بغير حساب أي ما لا يعرف له مقدار.

قال الله تعالى:

﴿۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ أي قال لهم الرجل المؤمن يا قوم مالي أدعوكم إلى سبب النجاة وتدعونني إلى عمل أهل النار وهو الشرك وقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي من لا أعرف له ربوبية وأنا أدعوكم إلى العزيز أي الغالب المنتقم ممن عصاه، الغفار لمن تاب وآمن قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ معنى قوله: لا جرم أنما تدعونني إليه من المعبود من دون الله ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة قال السدي: معناه: لا يستجيب لأحد في الدنيا ولا في الآخرة والتقدير: ليس له

---

(1) وكذا القرطبي نفسه.

استجابة دعوة[1] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي وأن مرجعنا إليه في الآخرة يفصل بين المحق والمبطل، وأن المجاوزين عن الحد في الكفر وسفك الدماء بغير الحق هم أصحاب النار قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ﴾ أي فستذكرون هذا الذي أقول لكم في الدنيا من النصيحة إذا نزل بكم العذاب في الآخرة حين لا ينفعكم الذكر فيه ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي أترك أمر نفسي إلى الله فأثق به ولا أشتغل بكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي بأوليائه وأعدائه فوقاه الله سيئات ما مكروا وذلك أن فرعون أراد أن يقتله فهرب منه فلم يقدروا عليه، ودفع الله عنه غائلة مكرهم ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي وأحاط ونزل بفرعون وقومه أشد العذاب قال الكلبي: غرقوا في البحر ودخلوا النار، والمعنى: وحاق بآل فرعون سوء العذاب في الدنيا الغرق وفي الآخرة النار[2] فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ ارتفع النار على البدل من سوء العذاب[3] وقوله تعالى: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ﴾ أي صباحاً ومساءً يقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخاً ونقمة قال ابن مسعود: إن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يعرضون على النار كل يوم مرتين[4].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن الجنة، وإن كان من أهل النار فمن النار يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة**»[5]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ قرأ نافع والكوفيون بقطع الألف وكسر الخاء أي يقال للملائكة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب وهو الدرك الأسفل من النار، وقرأ الباقون بضم الخاء ووصل الألف على الأمر لهم بالدخول[6].

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 5: 45 ـ بلفظه تقريباً.

(2) البغوي نفسه.

(3) العكبرى: التبيان في إعراب القرآن: 2: 327.

(4) ذكره الطبري في تفسيره: 12: 89. وكذا البغوي نفسه.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 3: 612 رقم 1379 ـ كتاب الجنائز.

(6) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها: 2: 245.

ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 572.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿47﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿48﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿49﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿50﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿51﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿52﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك إذ يختصم أهل النار في النار، وباقي الآية مفسر في سورة إبراهيم، وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي إنا نحن وأنتم قد استوينا في العذاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي قضى بهذا علينا وعليكم، وحكم أن لا يتحمّل أحد عذاب أحد فلما ذاقوا شدة العذاب قالوا لخزنة جهنم ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي يهون علينا العذاب قدر يوم من أيام الدنيا، فتقول لهم الزبانية: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالدلالات الظاهرة على وحدانية الله تعالى، فيقولون بلى قد أتتنا الرسل، فتقول الزبانية، فادعوا أنتم فإن الله تعالى لم يأذن لنا في الدعاء وما دعاء الكافرين إلا في ضياع لا ينفعهم قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي إنا لننصرن الرسل والمؤمنين على أعدائهم في الدنيا بالاستعلاء عليهم بالحجة وبالغلبة عليهم في المحاربة ونعينهم يوم القيامة يوم يقوم الأشهاد بإعلاء كلمتهم، وإظهار منزلتهم، والمعنى: ويوم القيامة تقوم الحفظة من الملائكة يشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب.

وواحد الأشهاد شاهد مثل صاحب وأصحاب، وطائر وأطيار، والمراد بالأشهاد: الأنبياء والملائكة والمؤمنون، والجوارح، والمكان، والزمان يشهدون بالحق لأهله، وعلى المبطل بفعله ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ إن اعتذروا من كفرهم لم يقبل منهم، وإن تابوا لم تنفعهم التوبة، ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي البعد من

الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ يعني جهنم سوء المنقلب.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ (53) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (54) فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ (55) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (56) لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي أعطينا موسى الهدى من الضلالة يعني التوراة وقيل معناه: ولقد أعطينا موسى الدين المستقيم، وتركنا على بني إسرائيل التوراة والإنجيل والزبور هدى من الضلالة وعظة لذوي العقول فاصبر يا محمد على أذى الكفار كما صبر الرسل من قبلك ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ في نصرتك وإظهار دينك صدق كاين ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ يعني الصغائر لأن أحداً من البشر لا يخلو من الصغائر وإن عصم من الكبائر، وقيل معناه: واستغفر لذنوب أمتك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي نزهه عن كل صفة لا تليق به واحمده على كل نعمة، ويجوز أن يكون المراد بالتسبيح في الآية من قوله: ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ الصلوات الخمس من وقت ما بعد الزوال إلى وقت العشاء الآخرة ومن قوله: ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ صلاة الفجر والمعنى: صل شاكراً لربك بالعشي والإبكار قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ وذلك أن اليهود كانوا يجادلون النبي ﷺ في دفع القرآن، وكانوا يقولون: صاحب المسيح بن يعقوب الدجال يخرج في آخر الزمان فيبلغ سلطانه البر والبحر ويردّ الملك إلينا وتسير معه الأنهار وهو آية من آيات الله، ويعظمون أمر الدجال فأنزل الله[1] هذه الآية ومعناها: إن الذين يخاصمون بغير حجة أتتهم ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ

(1) يراجع أسباب النزول للسيوطي: 254. والبغوي في معالم التنزيل: 5: 48. والقرطبي في تفسيره: 15: 325.

﴿إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ أي ما في قلوبهم إلا عظمة عن قبول الحق بحسدهم ما هم ببالغي تلك العظمة التي في قلوبهم لأن الله تعالى مذّلهم فلا يصلون إلى دفع شيء من آيات الله.

قال ابن عباس: والمعنى ما يحملهم على تكذيبك إلا ما في صدروهم من العظمة ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر لأن الله مذلّهم، وقال ابن قتيبة: إن في صدروهم إلا تكبر على محمد، وطمع أن يعلوه وما هم ببالغي ذلك ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ﴾ يا محمد من الكبر، ومن شر اليهود، ومن شر الدجال، أو من فتنة الدجال، ومن كل ما تجب الاستعاذة منه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمقالتهم ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ لهم وبأعمالهم، وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ أي هما أكبر من خلق الدجال، وقيل معناه: لخلق السماوات والأرض مع عظمهما ووقوفهما بغير عمد، وجريان الأفلاك بالكواكب فيها أعظم في النفس، وأهول في الصدر من خلق الناس، ولكن أكثر الكفار لا يعلمون حين لا يستدلون بذلك على توحيد خالقهما وقدرته على ما هو أعظم من خلق الدجال، وعلى أن يمنع المسلمين من غلبته عليهم وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن قبل خروج الدجال ثلاث سنين أول سنة تمسك السماء ثلث قطرها، والأرض ثلث نباتها، والثانية تمسك ثلثي قطرها، والأرض ثلثي نباتها وفي السنة الثالثة: تمسك السماء ما فيها، والأرض ما فيها، ويهلك كل ذات ضرس وظلف**»[1].

وعن أبي أمامة الباهلي قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فكان أكثر خطبته أن يحدثنا عن الدجال ويحذرنا فكان من قوله: «**أيها الناس إنه لم تكن فتنة في الأرض أعظم من فتنة الدجال وإن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا حذر أمته منه، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لا محالة، فإن خرج وأنا فيكم فأنا حجيج كل مسلم، وإن يخرج بعدي فكل امرىء حجيج نفسه والله تعالى خليفتي على كل مسلم إنه يخرج بين جبلين بين العراق والشام**

(1) يراجع القرطبي في التذكرة: 2: 851 ـ دار ابن زيدون ـ بيروت ـ ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ.

فيغزوا يميناً وشمالاً فيه عباد الله أثبتوا فإنه يبدأ فيقول: أنا نبي ولا نبي بعدي، ثم ينثني ويقول: أنا ربكم ولن ترون ربكم حتى تموتوا، وإنه أعور وليس ربكم بأعور، وأنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن فمن لقيه منكم فليتفل في وجهه، وإن فتنته أن معه جنة ونار فناره جنة وجنته نار فمن ابتلى بناره فيقرأ فواتح سورة الكهف ويستغيث بالله فتكون عليه برداً وسلاماً[1].

وإن من فتنته أن معه شياطين يتمثل كل واحد منهم على صورة إنسان فيأتي الأعرابي فيقول له: إذا بعثت لك أباك وأمك وأهلك تشهد أني ربك، فيقول نعم، فيتمثل له شيطانه على صورة أبيه وأمه فيقولان: يا بني اتبعه فإنه ربك، وإن من فتنته أن يسلط على نفس فيقتلها ثم يحييها الله تعالى بعد ذلك، فيقول الدجال: انظروا إلى عبدي هذا فإني بعثته الآن، ويزعم أن له رباً غيري»، قال مقاتل: إن الرجل الذي يسلط عليه الدجال رجل من خثعم فيقتله ويبعثه الله تعالى فيقول له الدجال: من ربك: فيقول الله ربي، وإنك الدجال عدوّ الله، وإن من فتنته أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك إبلك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فتمثل له شياطينه على صورة إبله وإن أيامه أربعون يوماً، فيوم كالسنة، ويوم دون ذلك، ويوم كالشهر ويوم دون ذلك، ويوم كالجمعة، ويوم دون ذلك وآخر أيامه كاضطرام السعفة في النار فيصبح الرجل بباب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى تغرب الشمس، قالوا: يا رسول الله كيف نصلي في تلك الأيام القصار، قال: تقدرون فيها كما تقدرون في هذه الأيام الطوال فلا يبقى شيء من الأرض إلا وطأه الدجال، وغلب عليه إلا مكة والمدينة فإنه لا يأتيهما، ويكون إمام الناس يومئذ بالمدينة رجلاً صالحاً، فيقال له: صل الصبح فإذا كبر ودخل في الصلاة نزل عيسى عليه السلام، فإذا رآه ذلك الرجل عرفه فيتأخر ليتقدم عيسى فيضع عيسى يديه بين كتفيه، ويقول له: صل فإنما أقيمت لك الصلاة فيصلي عيسى وراءه، ثم يقول افتحوا الباب فيفتح باب المدينة، ومع الدجال يومئذ سبعون ألف يهودي كلهم ذو سلاح وسيف

(1) الثعلبي نفسه، التذكرة: 2: 864.

محلى فإذا نظر الدجال إلى عيسى ذاب كما يذوب الرصاص من النار والملح في الماء فيقول له عيسى إن لي فيك ضربة لن تفوتني بها فيدركه عند باب كدا الشرقي وهو هارب فيقتله فلا يبقى شيء مما خلق الله تعالى يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء فلا شجر ولا حجر ولا دابة إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا كافر فاقتله[1].

ويكون عيسى عليه السلام حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً فيدقُّ الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويرفع الشحناء والتباغض، وينزع وصمة كل دابة حتى يدخل الصبي يده في فم الحنش فلا يضره ويلقى الإنسان الأسد فلا يضره، ويكون الأسد في الإبل كأنه كلبها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها وتملأ الأرض سلاماً، ويسلب الكفار ملكهم ولا يكون الملك إلا للمسلمين[2] ويبارك في الأرزاق حتى إن النفر يجتمعون على رمانة واحدة، ويكون الفرس بدرهمين.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿58﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿59﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿60﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿61﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿62﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿63﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿19﴾﴾ أي كما لا يستويان فكذلك لا يستوي المؤمن والكافر في الآخرة بالعذاب والنعيم، وباقي الآيتين ظاهر المعنى وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ أي اعبدوني ووحدوني أثبكم ووحدوني في الدنيا أتقبل منكم وأسمع دعاءكم إن الذين يتعظمون من

---

(1) يراجع التذكرة نفسه. يراجع تفسير الثعلبي نفسه. ومعالم التنزيل للبغوي: 5: 48 وما بعدها.

(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ، التذكرة نفسه.

طاعتي ومن المسألة مني ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين ذليلين، والداخر هو الذليل الصاغر. قال حسان:

قتلنا من وجدنا يوم بدر ∴ وجئنا بالأسارى داخرينا

قرأ ابن كثير: سيُدخلون بضم الياء وفتح الخاء[1] قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي تبصرون فيه لطلب المعاش ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومبتدعه لا معبود سواه ولا ينبغي لأحد أن يدعو مخلوق مثله لا إله إلا هو ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ قد تقدم تفسير ذلك ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي هكذا كان يصرف إلى الكذب القوم الذين كانوا بدلائل الله يجحدون.

قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65) ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67)﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي مستقراً للأحياء والأموات كما قال فيها تحيون وفيها تموتون ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي وجعل السماء سقفاً مرفوعاً فوق كل شيء ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي خلقكم فأحسن خلقكم قال ابن عباس: خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل بيده ويتناول بيده، وكل ما خلق الله يتناول بفيه[2]، وقال الزجاج: خلقكم أحسن الحيوان كله ﴿وَرَزَقَكُمْ

---

(1) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها: 2: 245. القرطبي في تفسيره 15: 328.

(2) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 52.

﴿مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي من لذيذ الأطعمة وكريم الأغذية، وقوله ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ﴾ أي فعل ذلك كله هو ربكم فاشكروه ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فتعالى الله دائم الوجود لم يزل ولا يزال رب كل شيء ذي روح من الجن والإنس وغيرهما هو الحي بلا أول ولا آخر لم يزل كان حياً ولا يزال حياً منزهاً عن كل الأوقات وليس أحد غيره من الأحياء بهذه الصفات لا يستحق الإلهية غيره فوحدوه مخلصين له الدين أي الطاعة فاشكروه على معرفة التوحيد قال ابن عباس: إذا قال أحدكم لا إله إلا الله فليقل في أثرها: الحمد لله رب العالمين[1] وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أمرت أن أستقيم على الإسلام قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي خلق أهلكم من تراب ثم خلقكم من نطفة آباءكم، ثم نقلكم إلى العلقة وهي الدم العبيط، ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً واحداً واحداً وكذلك وحد قوله تعالى ﴿طِفْلًا﴾ وقال: ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ لأن الواحد يكون له أعمال وقوله تعالى ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ أي يبقيكم إلى حال اجتماع القوة والكمال ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًاۚ﴾ أي ثم تصيروا شيوخاً بعد الأشد ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ﴾ البلوغ، ومن قبل الشيخوخة ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ يريد أجل الحياة إلى الموت، ولكل أجل يحبونه ينتهون إليه، ويقال: ولتبلغوا أجلاً مسمى أي لتوافوا القيامة للجزاء والحساب، ولكي تعقلوا وحدانية الله تعالى وتمام قدرته، وتصدقوا بالبعث بعد الموت.

قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿68﴾ أَلَمْ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿69﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا
بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿70﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿71﴾ فِى
ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿72﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿73﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ
قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿74﴾ ذَٰلِكُم
بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿75﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ

(1) تفسير الطبري 12: 102.

خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿76﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿77﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ أي يحيي الأموات ويميت الأحياء ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ من الإحياء والإماتة، فما يريده فيحدث وقوله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي يخاصمون في القرآن بالرد والتكذيب وهم المشركون كيف يصرفون إلى الكذب بعد وضوح الدلالة الذين كذبوا بالقرآن، وبما أرسلنا به رسلنا من الشرائع والأحكام والتوحيد ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم حين تجعل الأغلال الحديد مع السلاسل في أعناقهم يسحبون في الماء الحار على وجوههم يلقون في نار عظيمة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ قال مجاهد: توقد بهم النار فصاروا وقودها[1] ثم تقول لهم الزبانية: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها، وترجون منافعها وتدعونها من دون الله فيؤلمون قلوبهم بمثل هذا التوبيخ كما يؤلمون أبدانهم بالتعذيب، فيقول الكفار: ضلت آلهتنا عنا أي ضاعت فلا نراها ثم يجحدون عبادة الأصنام فيقولون: بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً أي لم نكن نعبد من قبل هذا شيئاً، ويجوز أن يكون هذا كالرجل يعمل عملاً لا ينتفع به فيقال له: إيش تعمل، فيقول: لا شيء وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي هكذا نهلكهم ذلكم العذاب الذي نزل بكم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالباطل ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ قال مقاتل: يعني البطر والخيلاء والغل هو ما يجعل في العنق للإذلال والإهانة، والطوق هو ما يجعل في العنق للتعظيم والكرامة[2]، وقرأ ابن عباس: والسلاسل بفتح اللام، ويسحبون بفتح الياء[3] معناه: ويسحبون السلاسل.

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ﴾ بنصرك والانتقام منهم ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ معناه: قال انتقمنا منهم وأنت

---

(1) البغوي في تفسيره: 5: 54.

(2) يراجع القرطبي في تفسيره: 15: 333.

(3) القرطبي نفسه، والنحاس في إعراب القرآن: 4: 42.

حيٍّ فبشرى لك وإن نتوفاك قبل أن نريك ذلك فإلينا مرجع الكل منهم للمجازاة، وسيصل إليهم موعدهم.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿78﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿79﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿80﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿81﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أي منهم من قصصنا عليك خبرهم في القرآن[1] ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ خبرهم ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ في الآية إبلاغ عن النبي ﷺ فيما لم يأتهم به من الآيات التي كانوا يقترحونها عليه، وليس علينا حصر عدد الرسل ولكنا نؤمن بجملتهم وقوله تعالى ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي إذا جاء قضاؤه بين أنبيائه وأممهم قضى بالحق أي لم يظلموا إذا عذبوا، وخسر عند ذلك المبطلون المكذبون قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ

---

(1) وقد جمعهم ناظم الإتقان الشيخ سيدي عبد العزيز بن عبد الواحد رحمه الله قال:

وفي الذِّكْر من أسمائِهِم قَدْرُ خَمْسَةٍ ... وَعِشْرِينَ إجْمالاً وأمَّا مُفَصَّلا

فآدم نوح ثم إدريس بعده ... ومن بعد إبراهيم وابناه بجلا

ويعقوب أيضاً ثم يوسف نجله ... وهود ولوط صالح كل أرسلا

وجاء شعيب ثم موسى وصنوه ... وداود فاعلم مع سليمان فضلا

وأيوب أيضاً ثم ذو الكفل منهم ... ويونس مع إلياس واليسع انجلا

كذا زكريا وابنه وابن مريم ... وخاتم رسل الله جاء مكملا

وقد ورد منهم ذكر ثمانية عشر في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الآية: 83 ـ والباقي منهم ورد ذكره مفرقاً في سور أخرى ـ هامش تفسير ابن عطية 14: 157.

﴿ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي الله الذي خلق لكم الإبل، والبقر، والغنم لتركبوا بعضها وتأكلوا لحم بعضها، ولكم فيها منافع من ألبانها وأصوافها وأوبارها وأشعارها ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي لتبلغوا عليها في ركوبها حاجة في قلوبكم لا تبلغونها إلا بها قال مجاهد: تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد، وتتبلغوا عليها حاجاتكم في البلاد ما كانت ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي وعلى ظهورها في البر، وعلى السفن في البحر تحملون في كسبكم وحجكم وتجاراتكم قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي يريكم الله دلائل قدرته من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والجبال والبحار، وتسخير الأنعام لمنافع العباد كلها من آيات الله، فأي آية من آيات الله تجحدون أنها ليست من الله.

قال الله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ من الأمم كيف أهلكهم الله عند تكذيبهم للرسل ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ﴾ من أهل مكة في العدد ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ في البدن وأظهر أثراً في الأبنية العظيمة والقصور المشيدة، والعيون المستخرجة فلم تنفعهم من عذاب الله كثرة عدوهم وشد قوتهم وجمعهم الأموال ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ﴾ بالجهل الذي عندهم أنه علم، وقالوا نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب فمعنى قوله: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي رضوا بما عندهم من العلم وهو في الحقيقة جهل وإن تزعموه علماً قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ أي فلما رأوا عذابنا آمنوا ولما[1]

(1) في النسخة: ك (ولم).

ينفع الإيمان عند ذلك وقوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ أي هذا قضائي في خلقي أن من كذب أنبيائي ومجد ربوبيتي أي سن الله هذه السنة في الأمم كلها أن لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب، وسنة الله هي حكم الله الذي مضى في عباده، وفي بعث الرسل إليهم ودعائهم إلى الحق وترك المعالجة بالعقوبة، وأن الإيمان وقت اليأس لا ينفع، ونصب قوله: ﴿سَنَةٍ﴾ على التحذير أو على المصدر[1]، وقوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي هلك عند ذلك المكذبون.

(1) يراجع العكبري: التبيان في إعراب القرآن: 2: 329، وسليمان الجمل: حاشيته على الجلالين. والثعلبي في تفسيره - خ.

سورة فصلت

قال الإمام الحداد:

سورة حم السجدة مكية، وهي ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسون حرفاً، وسبعمائة وست وتسعون كلمة، وأربع وخمسون آية قال ﷺ: «**من قرأ حم السجدة أعطي من الأجر بعدد كل حرف منها عشر حسنات**»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الأخفش: تنزيل مبتدأ خبره: كتاب فصلت[2] آياته أي بين حلاله وحرامه، ومعنى التنزيل: المنزل كما يذكر العلم بمعنى المعلوم، والخلق بمعنى المخلوق،

(1) ذكره الزمخشري في تفسيره «الكشاف»: 3: 459 ـ عند نهاية تفسير السورة.

(2) معاني القرآن: 2: 680.

وقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال أي بينت آياته في حال[1] جمعه على مجرى لغة العرب ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اللسان العربي ﴿بَشِيرًا﴾ بالجنة لمن أطاع ونذيراً بالنار لمن عصى الله فأعرض أكثر أهل مكة عن الإيمان فهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي قال كفار مكة للنبي ﷺ: قلوبنا في أغطية مما تدعونا إليه من القرآن لا يصل إلى قلوبنا ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي ثقل وصمم يمنع من استماع ما تقرؤه، والأكنة جمع كنان مثل عنان وأعنة ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي بيننا وبينك حاجز وفرقة في الدين فلا نوافقك على ما تقول فاعمل على أمرك ودينك إننا عاملون على أمرنا ومذهبنا قل يا محمد إنما أنا بشر مثلكم أي كواحد منكم ولولا الوحي ما دعوتكم، وقوله تعالى ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي لا تميلوا عن سبيله وتوجهوا إليه وإلى طاعته واستغفروه من الشرك ووحدوه.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي ويل لمن لا يقول لا إلٰه إلا الله ولا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد، وقال الحسن: لا يقرون بالزكاة لا يرون إيتاءها ولا يؤمنون بها قال الكلبي: عابهم الله بها، وقد كانوا يحجون ويعتمرون قال قتادة: الزكاة: قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا أي فمن عبرها نجا ومن لم يعبرها هلك[2] وفي هذه الآية دلالة أن الكفار يعاقبون في الآخرة على ترك الشرائع كما يعاقبون على ترك الإيمان لأن الله توعدهم على ذلك، وقال تعالى في جواب أهل النار حين يقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿42﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿44﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿44﴾﴾[3] قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع من قولهم مننت الحبل إذا قطعته، وثواب المؤمن لا ينقطع، وقيل: لا يمن عليهم بذلك لأن المنة تكدر الصنيعة.

---

(1) التبيان في إعراب القرآن: 2: 330.

(2) الطبري في تفسيره: 12: 117.

(3) سورة المدثر: 74 الآية: 42، 43، 44.

قال الله تعالى:

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿9﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿10﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿11﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿12﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿13﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿14﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي قل أئنكم يا أهل مكة لتكفرون بالذي خلق الأرض في عظمها وقوتها في يوم الأحد، ويوم الاثنين وتجعلون له أنداداً من الأصنام أي أعدالاً، قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الذي هذه قدرته رب كل ذي روح ومالكهم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ أي وخلق فيها جبالاً ثوابت أوتاداً لها في يوم الثلاثاء، وبارك فيها أي بارك في الأرض بالماء والشجر والنبات والثمار، وقدر فيها أقواتها أي معايشها قدر الله لكل حيوان ما يكفيه حسب الحاجة. وجعل في كل أرض معيشة ليست في غيرها ليتعايشوا ويتجروا وكان تقدير الأقوات في يوم الأربعاء فتم خلق الأرض بما فيها في أربعة أيام ولو أراد أن يخلقها في لحظة واحدة لفعل وقدر ولكنه خلقها في ستة أيام لأنه تعالى حليم ذو أناة أحب أن يُعلِّم الخلق الأناة في الأمور. وقال الحسن معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي قسم في الأرض أرزاق العباد(1) والبهائم وقال الكلبي: قَدَّر الخَيْرَ لأهل قُطْرٍ، والتَّمر لأهل قُطْر، والذُّرةَ لأهل قطر، والسَّمك لأهل قُطْر جعل الله في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من موضع إلى موضع(2). قوله تعالى: سواء للسائلين. رفعه أبو حفص على الابتداء أي هن

(1) الطبري في تفسيره: 12: 120.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 58.

سواء، وخفضه الحسن ويعقوب على نعت أربعة أيام، ونصبه الباقون على معنى استوت استواء واستوى يعني على المصدر كما يقال في أربعة أيام[1] تماماً ومعناه: من سأل عنه فهكذا الأمر قال السدي: سواء لا زيادة ولا نقصان جواباً لمن سأل في كم خلقت الأرض والأقوات فيقال في أربعة أيام سواء والسائلون هاهنا هم اليهود سألوا النبي ﷺ عن مدة خلق السماوات والأرض، ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عائداً على تقدير الأقوات كأنه قال لكل محتاج إلى القوت قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي ثم عمد وقصد إلى خلق السماء وهي دخان قال السدي: كان ذلك الدخان من نفس الماء حين تنفس وكان بخاره يذهب في الهواء فخلقت السماء منه، وفتحت سبعاً في يوم الخميس والجمعة وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي ائتيا ما آمركما وافعلاه كما يقال: ائت ما هو الأحسن أي افعله قال المفسرون: إن الله تعالى قال: أما أنت يا سماء فاطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وأما أنت يا أرض فشققي أنهارك، واخرجي نباتك وثمارك، وقال لهما: افعلا ما آمركما طوعاً وإلا ألجأتكما إلى ذلك حتى تفعلاه كرهاً فأجابتا بالطوع وهو قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي أتينا أمرك، ولما ركب الله فيهن العقول وخوطبن خطاب من يعقل جمعن جمع من يعقل كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2].

ولو جمعهن جمع من لا يعقل لقيل طائعات ويقال في معناه أتينا نحن ومن فينا طائعين وإنما ذكر تارة بلفظ التثنية، وتارة بلفظ الجمع لأن السماوات والأرض شيئان من حيث الجنس بمنزلة الفئتين والطائفتين فقيل لهما ائتيا ثم السماوات بنفسها جماعة وكذلك الأرض فلذلك قالتا أتينا طائعين، وانتصب طوعاً أو كرهاً على معنى أطيعا طاعة أو تكرهان كرهاً وبلغنا أن بعض الأنبياء قال: يا رب: لو أن السماوات والأرض حين قلت لهما ائتيا طوعاً أو كرهاً عصياك ما كنت صانعاً بهما قال كنت آمر دابة من دوابي فتبلعهما قال فأين تلك الدابة قال

(1) القرطبي في تفسيره: 15: 343، وابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز» 14: 167، والنحاس في إعراب القرآن: 4: 50.

(2) سورة الأنبياء: 21 الآية: 33.

في مرج من مروجي قال وأين ذلك المرج، قال في علم من علومي قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي صنعهن وأحكمهن وأتم خلقهن سبع سماوات بعضها فوق بعض بما فيهن من الشمس والقمر والنجوم في يوم الخميس والجمعة، فتم خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ولفظ القضاء في اللغة بمعنى الإتمام ومن ذلك انقضى الشيء إذا تم وقضى فلان إذا مات لأنه تم عمره وقال الشاعر[1]:

وعَلَيْهِما مسْرُودَتَانِ قَضَاهُما ∴ دَاوُدُ أوْ صَنَعُ السَّوابِغَ تُبَّعُ[2]

أراد عملهما وصنعهما، قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ قال قتادة: يعني خلق شمسها وقمرها ونجومها، وخلق في كل سماء خلقاً من الملائكة، والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلمه إلا هو، وقيل معناه: أمر في كل سماء ما أراد، وقيل: أوحى إلى أهل كل سماء ما يصلحها به من أمره[3] وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي زينا السماء القربى إلى الأرض بمصابيح وهي النجوم وقوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا﴾ أي حفظناها بالنجوم من استراق الشياطين للسمع حفظاً، وقيل: انتصب حفظاً على تقدير وزينا السماء الدنيا بمصابيح زينة وحفظاً فبعض النجوم زينة السماء لا تتحرك وبعضها يهتدي بها في ظلمات البر والبحر، وبعضها رجوم للشياطين قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي ذلك الذي سبق ذكره تقدير العزيز في ملكه القادر القاهر الذي لا يلحقه عجز ولا يعتريه سهر ولا جهل أحكم ذلك كله وأتقنه حتى لا يدخله الخلل بل الدهور.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية وذلك أن الملأ من قريش قالوا: قد

---

(1) أبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي، أشعر الهذليين، مخضرم حسن الإسلام، قال الشعر في أكثر أغراضه، وأجودها الرثاء.

(2) هذا البيت من عينية أبي ذؤيب التي رثى بها أولاده ـ شرح أشعار الهذليين ـ المفضليات، وفي اللسان: تبع، قضى ـ مختارات من روائع الأدب: د. عبد السلام سرحان.

(3) القرطبي في تفسيره: 5: 345.

التبس علينا أمر محمد فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فأتاه وكلمه ثم أتانا ببيان أمره فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر، وعلمت من ذلك علماً لا يخفى عليّ إن كان كذلك فمضى عتبة إلى رسول الله ﷺ وهو في الحطيم فكلمه[1] ولم يترك شيئاً إلا قاله وكان عتبة من أحسن الناس حديثاً، فقال: يا محمد: أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فيم تشتم آلهتنا؟ وتضلل آباءنا فإن كان ذلك طلباً للرياسة عقدنا لك ألويتنا، وكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة ممن تختار من بنات قريش، وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، فلما فرغ عتبة من كلامه قرأ عليه رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ فوثب عتبة فزعاً مخافة أن يصب عليه العذاب الذي خوفه به النبي ﷺ فأتى قومه مذعوراً وأقسم لا يكلم محمداً بعدها أبداً فقال له أبو جهل لعلك صبوت إلى محمد وما ذلك إلا من حاجة أصابتك، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يعينك عن محمد فغضب عتبة وقال: والله لقد كان وإني من أكثر قريش مالاً ولكني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر فوالله ما اهتديت لجوابه، فقال الحارث بن علقمة: لقد أفسد هذا الرجل ديننا وفرق من كلمتنا وأيم الله لئن بقي هذا الرجل وبقيتم ليكونن بطن الأرض خيراً لكم من ظهرها وسيبين ذلك لكم إذا خرج منكم إلى غيركم فذروه ما ترككم، ومعنى الآية: فإن أعرضوا عن الإيمان بك ولم يقبلوا قولك بعد هذا البيان فقل خوفتكم عذاباً مثل عذاب قوم هود وقوم صالح.

والصاعقة: هو الهلاك على حالة هائلة وقوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ

(1) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 60، والثعلبي في تفسيره ـ خ.

﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي إذ جاءتهم الرسل إلى من كان قبلهم فعلموا بتواتر الأخبار ثم أتتهم الرسل أيضاً من خلف من كان قبلهم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي لو شاء ربنا أن ينزل إلينا رسولاً لأنزل ملائكة من عنده ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ ما أنتم إلا بشر مثلنا ويجوز أن يكون معنى من بين أيديهم ومن خلفهم بأن الرسل أتتهم من جميع جهاتهم.

قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (16) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (18) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي تعظموا عن الإيمان بنبيهم ولمحبتهم أجسامهم فقالوا لنبيهم من أشد منا قوة بالبدن فتهلكنا، وذلك أن هوداً عليه السلام خوفهم وهددهم بالعذاب، فقالوا: نحن نقدر على دفعه عنا بفضل قوتنا وكانت لهم أجسام طويلة وخلق عظيم فلما أتتهم الريح قاموا ليصدوها عنهم فحملتهم إلى عنان السماء ثم صرعتهم على وجوههم، ثم ألقت عليهم الرمل حتى غطتهم وكان يسمع أنينهم من تحت التراب حتى أهلكهم الله فلما قالوا لنبيهم من أشد منا قوة قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ لأن الخالق للمشي لا بد أن يكون له مزية على خلقه ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي يكفرون قوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي عاصفاً شديد الصوت مأخوذ من الصرة وهي الصيحة، وقال ابن عباس: يعني باردة مأخوذة من الصر وهو البرد قال الفراء: هي الباردة تحرق كما تحرق النار[1] وهي ريح باردة شديدة الهبوب ذات صوت يحرق كالنار وقوله

(1) معاني القرآن: 3: 13.

تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ أي نكدات مشومات عليهم ذات نحوس قال ابن عباس: كانوا يتشاءمون بتلك الأيام، قرأ ابن عامر وأهل الكوفة. نحسات بكسر الحاء، وقرأ الباقون بسكونها[1] يقال: يوم نحْس ونحِس قوله تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي عذاب الهوان والذل وهو العذاب الذي يجزون به والخزي والفضيحة والنكال كله بمعنى واحد، وعذاب الآخرة أبلغ في المذلة وأبقى وأشد لا يرفع عنهم، ولا يخفف عليهم قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي أما ثمود فبينا لهم سبل الهدى ودعوناهم وذللناهم على الخير بإرسال الرسل فاختاروا الكفر على الإيمان بعد أن أريناهم الأدلة، وأخرجنا لهم ناقة عُشَرَاء من صخرة ملساء فأخذتهم صاعقة العذاب الهون أي ذي الهون بكفرهم وعقرهم الناقة، ونجينا الذين آمنوا بصالح وكانوا يتقون الشرك والكبائر قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ قرأ نافع ويعقوب نحشر بنون مفتوحة، وضم الشين، ونصب أعداء وقرأ الباقون يحشر بالياء المضمومة، ورفع أعداء[2]، ومعنى الآية، وأنذرهم يوم يجمع أعداء الله ويساقون إلى النار بالعنف، وقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ثم يقذفون في النار.

قال الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(1) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها: 2: 247، والنحاس في إعراب القرآن: 4: 54.

(2) الكشف نفسه ـ والنحاس نفسه.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي حتى إذا جاءوا النار التي حشروا إليها حبسوا عندها وهم يعاينوها ويقول لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون فيجحدون ويقولون: والله ربنا ما كنا مشركين فعند ذلك يختم على أفواههم، وتستنطق جوارحهم فيشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وكل عضو من أعضائهم بما ارتكبوا من الكفر والمعاصي قوله تعالى: ﴿وَجُلُودُهُم﴾ قال ابن عباس: يريد فروجهم كني عنها بالجلود، وقيل الجلود: الجوارح[1] فيقول الكفار لجلودهم بعدما يرد النطق إلى ألسنتهم لم شهدتم علينا وعملتم على إهلاكنا ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وتم الكلام ثم قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي ليس إنطاقه الجلود أبدع من خلقه إياكم ابتداء وإعادة بعد الموت وليس هذا من كلام الجلود قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ معناه: ما كنتم تستترون بالمعاصي على الناس مخافة من أن تشهد عليكم هذه الجوارح في الآخرة لأنكم ما كنتم تظنون ذلك، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون أي ولكن عملتم بالمعاصي عمل من يظن أن الله لا يعلم بما يعمله في السر ـ قال ابن عباس: كان الكفار يقولون إن الله لا يعلم ما في أنفسنا، ولكنه يعلم ما يظاهر قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي ظننتم أن الله لا يعلم ما تعملون أرداكم أهلككم فصرتم مثوى لهم أي فإن يمسكوا عن الاستغاثة ولم ينطقوا بشكوى فالنار مسكن لهم منتقمة منهم ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي وإن يطلبوا العتبى وهي الرضا فما هم ممن يطلب رضاهم وتقبل معذرتهم يقال: أعتبني فلان أي أرضاني بعد إسخاطه إياي واستعتبته طلبت منه أن يعتب أي يرضى قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ معناه: سببنا لهم أعواناً وقرناء من الشياطين حتى أضلوهم وهو قوله تعالى: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الآخرة أن لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب وما خلفهم من أمر الدنيا أن لا ينفقوا في وجوه البر، وأن يتلذذوا في الدنيا، ويجمعوا الأموال ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ أي وجب عليهم في أمم قد خلت من قبلهم ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

(1) الثعلبي في تفسيره ـ خ.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ (27) ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ
ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ (28) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا
ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ (29) إِنَّ ٱلَّذِينَ
قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ
بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (30)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الذي يقرؤه عليكم محمد وإذا سمعتموه يقرأ فارفعوا أصواتكم بالأشعار والأراجيز والغطوا فيه بالمكا والصفير وقابلوه بكلام اللغو حتى تغلبوه فيسكت يقول الله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر، ولنعاقبنهم في الآخرة بعذاب أشد من عذابهم في الدنيا وذلك العذاب جزاء أعداء الله، وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارَ﴾ بدل من العذاب أي بدل من قوله[1]: ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي لهم في الدار دار الإقامة جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون يعني القرآن جحدوا أنه من عند الله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ معناه: يقول الذين كفروا في النار ربنا أرنا الذين أضلانا عن الحق قال بعضهم يريد به إبليس وقابيل أول من أحدث المعصية في بني آدم ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي أسفل منا في النار ليكونا في الدرك الأسفل، وقيل: ليكونا أشد عذاباً منا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي إن الذين وحدوا الله ثم استقاموا على الإيمان ولم يشركوا، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة[2]، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يعني: ثم استقاموا على أن الله ربهم، وقال مجاهد: هم الذين لم يشركوا به شيئاً حتى يلقوه، وقال بعضهم: يعني: الاستقامة على أداء الفرائض،

---

(1) العكبري: التبيان في إعراب القرآن: 2: 333.

(2) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 66.

ولزوم السنة، وروي أن عمر رضي الله عنه قال: استقاموا لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعالب[1]، وقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني عند قبض أرواحهم فتقول لهم: ألا تخافوا ولا تحزنوا أي لا تخافوا مما أنتم واقفون عليه ولا تحزنوا على الدنيا وأهلها، وتقول لهم عند خروجهم من القبور حين ينظرون[2] أهوال القيامة.

قال الله تعالى:

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿31﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿32﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿33﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿34﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿35﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿36﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿37﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ توليناكم وحفظنا أعمالكم ونتولاكم في الآخرة ونحفظكم وعن ثابت أنه قال: بلغنا أن المؤمن إذا خرج من قبره يوم القيامة نظر إلى حافظيه قائمين على رأسه يقولان له لا تخف اليوم، ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد، وقال عثمان رضي الله عنه: في معنى قوله ثم استقاموا: ثم أخلصوا العمل لله تعالى، وقال مجاهد وعكرمة معناه: ثم استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله، وقال مقاتل: استقاموا على المعرفة ولم يرتدوا تتنزل عليهم الملائكة في ثلاثة مواطن عند الموت، وفي القبر، وفي وقت البعث ألا تخافوا على صنيعكم ولا تحزنوا على مخلفيكم، وقال مجاهد: لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة ولا تحزنوا على ما خلفتم في الدنيا من ولد وأهل فإنه سيخلفكم في ذلك كله، وقال

(1) تراجع هذه الأقوال في معالم التنزيل نفسه.

(2) في النسخة ك: يرون.

السدي: لا تخافوا من ذنوبكم فالله يغفرها لكم[1]، وقال بعضهم معنى هذه الآية: إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا بالوفاء على ترك الجفاء تتنزل عليهم الملائكة بالرضاء أن لا تخافوا من العناء ولا تحزنوا على الفناء، وأبشروا بالبقاء مع الذين كنتم توعدون من اللقاء، وقيل معناه: لا تخافوا فلا خوف على أهل الاستقامة ولا تحزنوا فإن لكم أنواع الكرامة وأبشروا بالجنة التي هي دار السلامة لا تخافوا فعلى دين الله استقمتم، ولا تحزنوا فبحبل الله اعتصمتم، وأبشروا بالجنة وإن أذنبتم لا تخافوا ما دمتم، ولا تحزنوا فقد نلتم ما طلبتم، وأبشروا بالجنة التي فيها رغبتم لا تخافوا فأنتم أهل الإيمان، ولا تحزنوا فأنتم أهل الغفران، وأبشروا بالجنة التي هي دار الرضوان لا تخافوا فأنتم أهل الشهادة، ولا تحزنوا فأنتم أهل السعادة، وأبشروا بالجنة التي هي دار الزيادة لا تخافوا فأنتم أهل النوال ولا تحزنوا فأنتم أهل الوصال، وأبشروا بالجنة التي هي دار السرور ولا تخافوا فسعيكم مشكور، ولا تحزنوا فذنبكم مغفور، وأبشروا بالجنة التي هي دار النور لا تخافوا فطال ما كنتم خائفين، ولا تحزنوا فقد كنتم عارفين، وأبشروا بالجنة التي عجز عنها وصف الواصفين لا تخافوا فأنتم من أهل الإيمان، ولا تحزنوا فلستم من أهل الحرمان، وأبشروا بالجنة التي هي دار الأمان لا تخافوا فلستم من أهل الجحيم، ولا تحزنوا فقد وصلتم إلى الرب الرحيم، وأبشروا بالجنة التي هي دار النعيم، لا تحزنوا فقد زالت عنكم المخافة، ولا تحزنوا فقد سلمتم من كل آفة، وأبشروا بالجنة التي هي دار الضيافة، لا تخافوا العزل من الولاية، ولا تحزنوا على ما قدمتم من الجناية، وأبشروا بالجنة التي هي دار الهداية، لا تخافوا حلول العذاب، ولا تحزنوا من أهوال الحساب، وأبشروا بالجنة التي هي دار الثواب لا تخافوا فأنتم سالمون من العقاب، ولا تحزنوا فأنتم واصلون إلى الثواب، وأبشروا بالجنة فإنها نعم المآب قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾ أي تقول لهم الملائكة نحن أولياؤكم أي نحن الحفظة التي

---

(1) تراجع هذه الأقوال في تفسير الطبري: 12: 43 ـ 144، وتفسير البغوي: 5: 66، 67، وتفسير الكشاف: 3: 453.

كنا معكم في الدنيا ونحن أحباؤكم وأولياؤكم في الآخرة لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم من الكرمات واللذات يعني ولكم في الآخرة[1] ما تشتهي أنفسكم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي أنزلهم الله نزلاً، ويجوز أن يقول قوله: نزلاً جمع نازل ويكون المعنى: ولكم ما تدعون من غفور رحيم نازلين، ويجوز أن يراد به القوت الذي يقام للنازل والضيف والمعنى: ثبت لهم ما يدعون نزلاً من غفور أي كثير المغفرة رحيم بمن كان على الإيمان والتوبة، وعن رسول الله ﷺ أنه قال ـ لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ قال: «**أمتي ورب الكعبة**» لأن اليهود قالوا ربنا الله ثم لم يستقيموا إذ قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا ربنا الله ثم لم يستقيموا إذ قالوا: المسيح ابن الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال ابن عباس: هو رسول الله ﷺ دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله[2]، وقال الحسن: هو المؤمن أجاب الله دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته[3] ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وقالت عائشة رضي الله عنها: أرى هذه الآية نزلت في المؤذنين الذين يدعون إلى الصلاة ويصلون بين الأذان والإقامة[4] ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ أي لا تستوي كلمة الإيمان وكلمة الشرك، ويقال: هما الطاعة والمعصية، ويقال الخصلة الحميدة والخصلة السيئة، وقيل: الحلم والجهل، والعفو والإساءة، ودخول «لا» في قوله: ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ زائدة للتأكيد وبعد المساواة لأن المعنى: ولا تستوي الحسنة والسيئة ومثله قول الشاعر:

ما كان يَرْضى رسولُ الله فِعْلَهُم ∴ والطَّيِّبانِ أبو بكر ولا عمرُ[5]

---

(1) يراجع الطبري في تفسيره: 12: 146، والثعلبي في تفسيره ـ خ.

(2) (3) (4) يراجع القرطبي في تفسيره: 15: 360 ـ فقد ذكر هذه الأقوال. وكذا البغوي في معالم التنزيل: 5: 66 ـ 67.

(5) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ من غير نسبة. وكذا القرطبي في تفسيره أيضاً: 15: 361.

وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي ادفع السفاهة بالحلم، والعجلة بالأناة والرفق وذلك أنك ربما لقيت بعض من يضمر في نفسه عداوتك، فتبدأه بالسلام، أو تبتسم في وجهه لأن لك قلبه، وسلم لك صدره فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي إذا فعلت ذلك صار الذي يعاديك صديقاً لك قريباً، وسمي القريب حميماً لأنه يحمي بها نهم صاحبه، قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي ما يعطى هذه الخصلة التي هي دفع السيئة بالحسنة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على كظم الغيظ، واحتمال المكروه، وصبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله وما يعطاها إلا ذو حظ عظيم من الخير، وقيل من الصبر، وقيل الحظ العظيم: الجنة أي ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة، وقيل: الحظ العظيم القدر العظيم عند الله قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي وإما يلحقنك من الشيطان وسوسة عند جفوة غيرك، وعندما يدعوك إلى معصية الله فتصرفك الوسوسة عن الاحتمال فاستعذ بالله أي اعتصم بالله من شر الشيطان، وامض على حلمك إنه هو السميع لمقالة أعدائك العليم بهم وبمجازاتهم.

ثم ذكر الله علامات توحيده، ودلالة قدرته فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي ومن آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته الليل والنهار بما فيها من المنافع والمقاصد، والشمس والقمر بما فيهما من البدايع لا تعبدوا الشمس والقمر واعبدوا الله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون أي إن كنتم تريدون بعبادة الشمس والقمر عبادة الله، وذلك أن قوماً من الكفار يسجدون للشمس والقمر ويزعمون أنهم يتقربون بذلك إلى الله فقيل لهم: إن كنتم تريدون بذلك عبادة الله فالسجود لخالقهما أولى من السجود لهما فإن قيل ما معنى قوله خلقهن، والقمر مذكر، والشمس مؤنثة والمذكر والمؤنث إذا اجتمعا غلب المذكر قلنا إن قوله: خلقهن راجع إلى الآيات التي سبق ذكرها في أول هذه الآية من الليل والنهار والشمس والقمر، وقد يكون بمنزلة ضمير ما لا يعقل على لفظ التأنيث كما تقول: هذه كباش ذبحن وذبحت.

قال الله تعالى:

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا

يَسْـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي فإن تكبروا عن عبادتي والسجود لي فالملائكة الذين عند ربك بقرب الكرامة والمنزلة يصلون له الليل والنهار وينزهونه عن كل ما لا يليق به وهم لا يسأمون أي لا يملون عن عبادته ولا يفترون، واختلفوا في موضع السجود من هذه السورة فقال الحسن عند قوله ﴿تَعْبُدُونَ﴾[1] وهو قول الشافعي، وقال ابن عباس ومسروق عند قوله: ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾[2] وهو قول علمائنا، وهو الأصح لأنه موضع تمام الكلام[3].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي ومن آياته الدالة على وحدانيته أنك ترى الأرض معبرة يابسة لا نبات فيها فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت للنبات وانتفخت وارتفعت له حتى يكاد النبات يظهر إن الذي أحياها بإنزال المطر لمحيي الموتى في الآخرة إنه على كل شيء من الإحياء والإماتة قادر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي يميلون عن الحق في آياتنا إلى جانب الباطل قال مقاتل: يميلون عن الإيمان بالقرآن، وقال مجاهد: يلحدون في آياتنا بالمكاء واللغط لا يخفون علينا بأشخاصهم وأفعالهم وأقوالهم وعزائمهم واللحد واللحاد بمعنى واحد وهو الميل ومنه الملحد لعدوله عن الحق، ومنه

(1) لأنه متصل بالأمر بالسجود.

(2) لأنه عند تمام الكلام، وغاية العبادة والامتثال.

(3) يراجع هذا الاختلاف عند الجصاص في أحكام القرآن: 3: 385، والقرطبي في تفسيره: 15: 364. وابن العربي في أحكام القرآن: 4: 1664، والكاساني في بدائع الصنائع: 1: 193. الباجي في المنتقى شرح الموطأ: 1: 349.

اللحد الذي في القبر لأنه في جانب منه[1] قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فيه تقرير ففي المساواة بين الفريقين قيل المراد به بقوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ أبو جهل وبقوله: ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ حمزة، وقوله تعالى ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه: التهديد والوعيد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ﴾ أي بالقرآن لما جاءهم، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ﴾ محذوف الجواب تقديره: إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم سينزل بهم من العذاب ما هو مذكور في الكتاب العزيز والعزيز: هو الكريم على الله، وقيل هو الممتنع لأنه ممتنع على من يقصد معارضته أو تغييره بزيادة أو نقصان قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله، ولا يجيء من بعده كتاب فيبطله وقال الزجاج معناه: إنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه[2] فمعنى الباطل على هذا الزيادة والنقصان، وفي حين المعنى الباطل إبليس وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي منزل من عالم بوجوه الحكمة مستحق للحمد على خلقه بإنعامه عليهم قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ فيه تسلية للنبي ﷺ على ما كان يلحقه من أذية قومه أي قد قيل للأنبياء قبلك ساحر، وكذبوا كما كذبت، ويجوز أن يكون معناه: ما أقول لك، ولا آمرك في تبليغ الرسالة والوحي إلا ما قد قلت للرسل من قبلك وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي لذو مغفرة لمن تاب، وآمن، وذو عقاب أليم لمن مات على الكفر.

قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (44) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

(1) تراجع هذه الأقوال في تفسير القرطبي: 15: 366، وكذا تفسير البغوي: 5: 69.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 4: 388 ـ بلفظه تقريباً.

سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (45) مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (46)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي لو جعلناه قرآناً بلغة غير اللغة العربية لقال العرب لو بينت آياته بلغة العرب حتى نفهمها عنك من غير مترجم وقوله: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ استفهام على وجه الاستبعاد كأنهم قالوا كتاب أعجمي ورسول عربي كيف يكون هذا؟ فينكرونه أشد الإنكار يقال رجل أعجمي ورسول عربي إذا كان لا يفصح سواء كان من العرب أو العجم، ورجل أعجمي إذا كان منسوباً إلى العجم وإن كان فصيحاً ورجل أعرابي إذا كان من أهل البادية سواء كان من العرب أو لم يكن ورجل عربي إذا كان منسوباً إلى العرب وإن كان غير فصيح ومعنى الآية: أنهم كانوا يقولون المنزل عليه عربي والمنزل أعجمي فكان ذلك التكذيب أشد لتكذيبهم قل لهم يا محمد هو للذين آمنوا هدى وشفاءً يعني القرآن هدى للذين آمنوا من الضلالة وشفاء من الأوجاع[1] وقال مقاتل: شفاء لما في القلوب للبيان الذي فيه، وقوله تعالى: والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر أي أنهم في ترك القبول بمنزلة الصم العمي وسيؤديهم تكذيبهم إلى العمى وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي عموا عن القرآن وصموا عنه وقال السدي: عميت قلوبهم[2] عنه والمعنى: وهو عليكم ذو عمى وانتصب قوله: عمى على المصدر[3] وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي إنهم لا يسمعون ولا يفهمون كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم والمعنى أنه يبعد عندهم من قلوبهم ما يتلى عليهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة فاختلف فيه قومه كما اختلف قومك في القرآن وهذا تعزية للنبي ﷺ أي كما آتيناك الكتاب وكذب به قومك وصدق به بعضهم كذلك آتينا موسى الكتاب فكذب به بعض قومه، وصدق به بعضهم قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ معناه: لولا كلمة سبقت

---

(1) يراجع القرطبي في تفسيره: 15: 369.

(2) يراجع الطبري في تفسيره: 12: 159.

(3) التبيان في إعراب القرآن: 2: 330.

من ربك بتأخير العذاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[1] لعذبهم بعذاب الاستئصال، وقيل: أراد بسبق الكلمة أن لا يعذبهم وأنت فيهم والمعنى ولولا كلمة سبقت من ربك في تأخير العذاب عن مكذبي القرآن إلى أجل مسمى يعني القيامة لقضى بينهم بالعذاب الواقع ممن كذب وإنهم لفي شك من صدقك وكتابك مريب أي موقع لهم الريبة وقيل إنهم لفي شك من القرآن ظاهر الشك قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (46)﴾ ظاهر المراد.

قال الله تعالى:

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (48) لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي لا يعلم متى وقت قيامها إلا الله تعالى، ولا يجاب فيها بشيء ويقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ قرأ نافع، وابن عامر ثمرات[2] بالجمع وقرأ الباقون ـ ثمرة على الوحدان[3] وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ الأكمام: جمع الكمة وهي ليف النخل وقال ابن عباس الأكمام: الكثرى قبل أن تنشق فإذا انشق فليس بأكمام[4] ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ بين الله تعالى أن الله يعلم الثمار في

(1) سورة القمر: 54 الآية: 46.

(2) لكثرة أنواع الثمرات الخارجة من غلافاتها.

(3) لأن دخول «من» على «ثمرة» يدل على الكثرة. كتاب السبعة في القراءات: 577، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها: 2: 249.

(4) حاشية الجمل على الجلالين: 4: 47.

الأكمام، والأولاد في الأرحام مع مشاهدة الأكمام والأمهات هو الله تعالى لا يعلمه أحد غيره فلأن لا يعلم الساعة غيره ولم يشاهد شيئاً منها أولى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ فيه وعيد للمشركين أي يقال للمشركين يوم القيامة أين شركائي في ظنكم وزعمكم فيقولون آذناك ما منا من شهيد أي أعلمناك وعرفناك إنا كنا جهلاء في الدنيا ما منا من شهيد لهم بأنهم آلهة، وقيل ما منا من شهيد يشهد أن لك شريكاً يتبرءون يومئذ من أن يكون مع الله شريك، وقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي ضاع عنهم ما كانوا يعبدون في الدنيا وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي أيقنوا أنه لا خلاص لهم من النار قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي لا يمل الإنسان من طلب الخير وإن مسه الشر والمكروه كالأمراض والأسقام والشدائد فيؤوس قنوط أي يصير أيأس شيء من عود النعمة إليه، وزوال المكروه عنه فيضجر على ذلك غاية الضجر قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي نعمة منا من بعد ضراء أي من بعد مكروه مسّه ليقولن هذا لي أي بفضلي وقوتي وبعلمي استحققته وهذا من أخلاق الكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ هذا يدل على أن هذا الإنسان كافر وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي لست على يقين من البعث فإن كان الأمر على ذلك ورددت إلى ربي إن لي عنده للجنة، ويعطيني في الآخرة أفضل مما أعطاني في الدنيا قال الله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وعيد لهم.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ
عَرِيضٍ (51) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ
فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ
أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ
إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ (54)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي وإذا أنعمنا على الكافر أعرض عن الطاعة والشكر وتباعد عن الواجب كبراً، وإذا أصابه مكروه الدهر فهو أكثر شيء دعاء يدعو الله ليكشف ذلك عنه والمعنى بقوله تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي ذو دعاء كثير لا يمل من الدعاء وإنما لم يقل دعاء طويل لأن ذكر العرض أبلغ في باب الامتداد والانبساط لأن العرض يدل على الطول ولا يدل الطول على العرض قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لأهل مكة أرأيتم إن كان القرآن من عند الله ثم كفرتم به من أضل عن الحق والهدى ممن هو في خلاف للحق بعيد عنه وهو أنتم فلا أحد أضل منكم وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي سنريهم دلائل التوحيد من مسير النجوم، وجريان الشمس والقمر طلوعاً وغروباً على مر الدهور وما في الأرض من الجبال والأودية والأشجار وقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من مخارج الأنفاس ومجاري الدم وموضع العقل والفكر والفهم وآلات الكلام، وقيل معنى سنريهم آياتنا في الآفاق أي سنريهم ما يفتح من القرى على محمد ﷺ في النواحي والأطراف وفي أنفسهم فتح مكة قال الحسن: يعني سنريهم ظهور محمد على الآفاق، وعلى مكة حتى يعرفوا أنه مؤيد من قبل الله بعد ما كان واحداً لا ناصر له[1] وذلك قوله تعالى حتى يتبين لهم أنه الحق أي ما يقول لهم النبي ﷺ هو الحق قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ معناه: أولم يكف بربك شاهداً أن القرآن من الله تعالى، وأن النبي ﷺ صادق والشهيد هو العالم وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ معناه: ألا إنهم في شك من البعث والثواب والعقاب ألا إنه بكل شيء محيط أحاط بكل شيء علماً لأنه يعلم الغيب والشهادة.

---

(1) يراجع البغوي في تفسيره ـ معالم التنزيل: 4: 72.

سُورَةُ الشُّورَىٰ

قال أبو بكر الحداد:

مكية وهي ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة وثمانون حرفاً، وثمانمائة وست وستون كلمة، وثلاث وخمسون آية، قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة حمعسق كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له، ويسترحمون له**»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ③
لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ④ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن
فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ
ٱلرَّحِيمُ ⑤ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ⑥
وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ
فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ⑦﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم، حمعسق، ح حكمه، وم مجده، وع علمه، وس سناؤه، وق قدرته، أقسم الله بها، ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ أخبار الغيب[2]، وما يكون قبل أن يكون، وقيل الحاء من الرحمٰن، والميم من ملك،

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان عن تفسير القرآن ـ خ ـ بسنده»، ذكره الزمخشري في تفسيره «الكشاف» من غير سند عند آخر تفسيره للسورة.

(2) يراجع الثعلبي في تفسيره ـ خ. وكذا البغوي في معالم التنزيل: 5: 73.

والعين من عزيز، والسين من قدوس، والقاف من قاهر، ومعنى كذلك يوحى إليك أي مثل ما أوحينا إليك بهذه السورة أوحينا إلى من قبلك من الرسل، وعن ابن عباس أنه قال: ليس من نبي إلا وقد أوحي إليه بحم عسق كما أوحي إلى نبينا[1] ﷺ قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿4﴾﴾ ظاهر المعنى، وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي تكاد كل سماء تنشق فوق التي تليها من قول المشركين: اتخذ الله ولداً، ومن استعظام كفر أهل الأرض مع عظم نعم الله عليهم، وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي ينزهون الله عن القول الذي تكاد السماوات يتفطرن منه، ويستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين ألا إن الله هو الغفور الرحيم لأوليائه وأهل طاعته قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني كفار مكة اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي حفيظ على أعمالهم ليجازيهم بها وما أنت عليهم بوكيل لو نوكلك بهم حتى تؤخذ بهم، وتعاقب بمخالفتهم. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي كما أنزلنا على من قبلك بلسان قومهم أنزلنا عليك قرآناً بلغة العرب لتخوف به أم القرى وهي مكة سميت أم القرى لأن الأرض دحيت من تحتها وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي لتنذر أهل أم القرى ومن حولها من البلدان وقيل يعني قرى الأرض كلها ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله فيه الأولين والآخرين وأهل السماوات وأهل الأرض لا ريب فيه أي لا شك في الجمع أنه كائن ثم بعد الجمع يتفرقون كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي طائفة من أهل الجمع وهم المؤمنون يساقون إلى الجنة يتنعمون ويتمتعون، وطائفة يساقون إلى النار ذات الوقود وهم الكفار فيها يعذبون.

قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿8﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ

---

(1) في معالم التنزيل.

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿9﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿10﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿11﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿12﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي لجمعهم على دين الإسلام بأن يعرفهم طريق الحق بالاضطرار لكنه لم يفعله أراد أن يعرضهم للثواب والإلجاء يمنع من ذلك، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي في دينه الإسلام ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي والكافرون ما لهم من ولي يدفع عنهم العذاب ولا نصير يمنعهم من النار قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ معناه: بل اتخذ الكفار من دون الله أرباباً فالله هو الولي قال ابن عباس: وليك يا محمد وولي من اتبعك وهو يحيي الموتى يبعثهم للجزاء وهو على كل شيء من الإحياء والإماتة قادر وقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ معناه: وما اختلفتم فيه من شيء من الدين فردوا حكمه إلى كتاب الله واعتمدوا الأدلة دون التقليد والشبه كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[2] وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي الذي أدعوكم إلى عبادته هو الله ربي عليه توكلت في كفاية مهماتي وإليه أنيب أي أرجع في المعاد. ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو مبتدعهما ومدبرهما ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي جعل لكم من مثل خلقكم نساء، وخلق من الأنعام ذكوراً وإناثاً لتكمل منافعكم بها يعني خلق الذكر والأنثى من الحيوان كله.

وقوله تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يخلقكم في الرحم ويكثركم بالتزويج ولولا لم يكن الناس وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس مثله شيء في العلم والقدرة والتدبر وهو السميع لمقالة العباد البصير بأعمالهم، والكاف في

---

(1) سورة الأنعام: 6 الآية: 35.

(2) سورة النساء: 4 الآية: 59.

﴿كَمِثۡلِهِۦ﴾ زائدة مؤكدة والمعنى: ليس مثله شيء إذ لا يجوز أن يقال: ليس مثل مثله شيء لأن من قال هذا فقد أثبت المثل لله سبحانه تعالى الله عن ذلك[1] علواً كبيراً قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي له مفاتيحهما قال ابن عباس: يريد مفاتيح السماوات والأرض وقال الكلبي مقاليد السماوات خزائن المطر، وخزائن الأرض النبات[2] والمعنى: أنه يقدر على فتحها يملك فتح السماء بالمطر والأرض بالنبات يدل على هذا قوله تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يوسعه على من يشاء ويضيقه على من يشاء لأن مفاتيح الرزق بيده ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ من البسط والضيق لا يفعل ذلك جزافاً ولكن يرزق كل أحد على ما توجبه الحكمة.

قال الله تعالى:

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿13﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿14﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿15﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أي بين وأوضح من الدين ما وصى به نوحاً يعني التوحيد والذي أوحينا إليك من القرآن وشرائع الإسلام وشرع لكم ما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى ثم بين ما وصى به هؤلاء فقال: أن أقيموا الدين يعني التوحيد ولا تتفرقوا فيه أي لا تختلفوا في التوحيد قال مجاهد: يعني شرع لكم ولمن قبلكم من الأنبياء ديناً واحداً لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا

(1) النحاس: إعراب القرآن: 4: 74، والعكبري: التبيان في إعراب القرآن: 2: 337.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 76.

وصاه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار بالله، والطاعة في كل شيء أمره الله به فذلك دينه الذي شرعه لهم[1].

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ قال مقاتل معناه: عظم على مشركي مكة ما دعاهم النبي ﷺ من توحيد الله تعالى، والإخلاص له وحده، وخلع الأنداد[2] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي يصطفي من عباده لدينه من يشاء، ويهدي إلى دينه من ينيب أي من يقبل إلى طاعته، وقيل معناه: الله يختار لرسالته من يشاء ممن تقتضي الحكمة اختياره ويهدي إلى جنته وثوابه من يرجع إلى طاعته وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾، أي ما اختلفت اليهود والنصارى إلا من بعد ما وضح لهم أمر النبي ﷺ وذلك أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فأنكر من أنكر من علمائهم للبغي والعدوان على طلب الدنيا خافوا أن تذهب عنهم رياستهم ومآكلتهم وأن يصيروا تابعين بعد أن كانوا متبوعين[3] فتركوا اسم الإسلام. وقوله تعالى: ﴿بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي بغياً منهم على محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لولا حكم الله بإنظارهم وتأخير العذاب من هذه الأمة إلى أجل مسمى يعني يوم القيامة ليقضي بينهم أي بين من آمن ومن كفر بنزول العذاب بالمكذبين في الدنيا وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يعني اليهود والنصارى أورثوا التوراة من بعد أنبيائهم، وأسلاف أحبارهم لفي شك من دين الإسلام ظاهر الشك، قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي فإلى ذلك الدين الذي سبق ذكره يعني الذي وصى به الأنبياء من التوحيد فادع، وقيل معناه: فلأجل ما وقع منهم من الشك فادع واستقم على دين الإسلام كما أمرت به ولا تتبع أهواءهم في ترك التشديد عليهم في دعائهم، وقيل معناه: لا تتبع أهواء أهل الكتاب وذلك أنهم دعوه إلى دينهم ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي آمنت بكتب الله كلها، وإنما قال ذلك لأن الذين تفرقوا آمنوا ببعض

(1) القرطبي في تفسيره: 16: 11.
(2) يراجع الثعلبي في تفسيره.
(3) الطبري في تفسيره: 16: 23.

الكتب دون بعض وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي أمرت أن لا أحيف عليكم بأكثر مما افترض الله عليكم في الأحكام[1] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي إلٰهنا واحد وإن اختلفت أعمالنا وكل يجازى بما عمل، وقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم لا يؤاخذ أحد بعمل غيره وقوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي قد ظهر الحق وسقط الجدال ومع ذلك الحجة لنا عليكم لظهورها وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ في الآخرة فيجازى كلا بعمله ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ
وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿16﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿17﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا
وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿18﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ
بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿19﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ
فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿20﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي والذين يخاصمون في دين الله من بعد ظهور دلائله وهم اليهود والنصارى قالوا كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم فهذه خصومتهم، وإنما قصدوا مما قالوا دفع ما أتى به محمد ﷺ وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي من بعد ما دخل الناس في الإسلام وأجابوا النبي ﷺ إلى ما دعاهم إليه ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي خصومتهم باطلة حين زعموا أن دينهم أفضل من الإسلام وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في حكم ربهم وإنما قال ذلك لأنها لم تكن باطلة في زعمهم وعليهم غضب من الله ولهم عذاب شديد في الآخرة. قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ معناه: الله الذي أنزل القرآن بالحق أي بما ضمنه من الأمر والنهي والفرائض والأحكام وكلمة حق من الله وقوله

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 5: 77.

تعالى: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ اختلفوا في إنزال الميزان قال الحسن ومجاهد والضحاك أراد به العدل يعني به أمر ربه وإنما كني عن العدل بالميزان لأن الميزان طريق معرفة العدل والمساواة، وقال بعضهم: أنزل الميزان الذي يوزن به في زمن نوح عليه السلام، وقال ابن عباس: أمر الله بالوفاء ونهى عن البخس[1] قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ هذا تخويف للمشركين من قرب الساعة لينزجروا وقد كان قوم من المشركين سألوا النبي ﷺ عن الساعة تكذيباً بها، فأنزل الله[2] هذه الآية وإنما قال قريب ولم يقل قريبة لأن التأنيث غير حقيقي[3] كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4] ولأن معنى الساعة: البعث.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي يستعجلون بها قصداً إلى الإتيان بها استبعاداً لقيامها لأنهم لا يؤمنون بها وهذه طريقة الجهال في كل شيء يجحدونه من حقائق الأمور وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون منها لا يدرون على ما يقدمون عليه لأنهم موقنون أنهم مبعوثون محاسبون ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي أنه لا ريب فيها. قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي الذين تدخلهم المرية والشك في القيامة ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ حين لم يفكروا فيعلموا أن الذي خلقهم أولا قادر على بعثهم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي بار رحيم بهم يعني أهل طاعته، وقال مقاتل: لطيف بالبر والفاجر لا يهلكهم[5] جوعاً يدل على هذا قوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ وكل من رزقه الله من مؤمن وكافر وذي روح فهو ممن يشاء الله أن يرزقه وهو القوي على ما أراد من رزق من يرزقه، العزيز يعني الغالب الذي لا يلحقه عجز فيما أراد واللطيف: هو الموصل النفع إلى غيره من جهة يدق استدراكها. قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ أي من كان يريد

---

(1) يراجع الطبري في تفسيره: 13: 27، وكذا القرطبي في تفسيره: 16: 15 فقد ذكر هذه الأقوال ثم قال: متقاربة المعنى.

(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 79.

(3) الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: 3: 396.

(4) سورة الأعراف: 7 الآية: 56.

(5) يراجع القرطبي في تفسيره: 16: 16.

بعمله نفع الآخرة نزد له في حرثه أي نعينه على العبادة، ونسهل عليه، وقيل نزد له في ثوابه الحسنة بعشر أمثالها، وقيل نزد له في قوته ونشاطه وخشيته في العمل كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ أي ومن كان يريد بعمله نفع الدنيا من رزق أو محمدة ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ما يشاء على ما تقتضيه الحكمة، وما له في الآخرة من ثواب لأنه عمل لغير الله قال السدي: هذا المنافق وكان رسول الله ﷺ يعطيه سهمه من الغنيمة.

قال الله تعالى:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿21﴾ تَرَى الظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿22﴾ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿23﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿24﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ اللَّهُ﴾ يعني كفار مكة المعنى: لهم آلهة سنوا لهم من الدين والشريعة ما لم يعلم الله به قال ابن عباس: شرعوا لهم ديناً غير دين الإسلام[2] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي ولولا حكم الله بأن يفصل بينهم يوم القيامة لعاجلهم بالعقوبة ﴿وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وجيع في الآخرة ترى الظالمين الذين يكذبونك خائفين يوم القيامة مما كسبوا من الكفر والتكذيب وهو واقع بهم أي وجزاؤه واقع بهم. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ الروضة: هو البستان الجامع لأنواع الرياحين، والجنة: هي البستان الجامع لأنواع الشجر لهم

---

(1) سورة العنكبوت: 29 الآية: 69.

(2) ذكره البغوي في تفسيره: 5: 80 ـ بلفظه.

ما يشاءون من النعيم في حكم ربهم ذلك هو الفضل الكبير أي المن العظيم من الله قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي ذلك الذي سبق ذكره من النعيم والجنات يبشر الله به عباده المؤمنين المخلصين قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجراً وهذا دأب كل نبي مع قومه وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة قال ابن عباس: لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة[1]، والمعنى: قل لا أسألكم أجراً على ما أدعوكم إليه من الحق إلا أن تحفظوني من قرابتي بيني وبينكم وقال مجاهد معناه: يا معشر قريش لا أسألكم على ما أقول أجراً ارقبوني في الدعاء بيني وبينكم ولا تعجلوا إليّ ودعوني والناس، وقال الحسن معناه: إلا أن تودوا إلى الله فيما يقربكم إليه من العمل الصالح[2]، وعن ابن عباس قال: لما نزلت قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى. قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين يأمرنا الله بمودتهم؟ قال: «**علي وفاطمة، وولدهما**»[3]. وعن علي رضي الله عنه قال: فينا في الرحم آية لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن ثم قرأ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وقال الكلبي معناه: لا أسألكم على الإيمان جعلاً إلا أن تودوا أقاربي، حثَّ الله الناس على مودة ذوي قرابته.

وعلى الأقوال كلها قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾ استثناء ليس من الأول، وليس المعنى أسألكم المودة في القربى لأن الأنبياء لا يسألون أجراً على تبليغ الرسالة، والمعنى: ولكني أذكركم المودة[4] في قرابتي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي ومن يكتسب حسنة نجازيه عليها أضعافاً بالواحدة عشراً فصاعداً إن الله غفور لذنوب التائبين شكور للقليل حتى يضاعفه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ

(1) الطبري في تفسيره: 16: 31 ـ رقم 23684.

(2) الطبري نفسه.

(3) القرطبي في تفسيره: 16 ـ 21 ـ 22.

(4) الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: 4: 398.

ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يعني كفار مكة قالوا اختلق محمد كذباً حين زعم أن القرآن من عند الله فاغتممت لذلك يا محمد ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم، ويذهب الله ما يقولون، من الباطل، ويحق الحق يعني الإسلام بكلماته بما أنزل من كتابه، وقد فعل الله ذلك فأزهق باطلهم وأعلى كلمة الإسلام ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بما في قلوب خلقه.

قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿25﴾
وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿26﴾
۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ
خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿27﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ
ٱلْحَمِيدُ ﴿28﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ
إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿29﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن
كَثِيرٍ ﴿30﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿31﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿32﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿33﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من خير وشر ومن قرأ بالتاء فهو خطاب للمشركين[1] وتهديد لهم، ويستجيب الذين آمنوا أي يجيبهم إلى ما سألوه قال ابن عباس: يثيبهم ويزيدهم من فضله سوى ثواب أعمالهم تفضلاً عليهم[2] وقال أبو صالح[3]: يشفعهم في إخوانهم[4].

(1) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: 2: 251.

(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 84 ـ بلفظه تقريباً.

(3) أبو صالح سُميع روى عن عبد الله بن عباس ـ الطبقات الكبرى: 5: 231 رقم 938.

(4) البغوي نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لو وسع الله على عباده لطغوا وتطاولوا، وقال مقاتل معناه: لو وسع الله لعباده فرزقهم من غير كسب لعصوا وبطروا النعمة، وطلبوا ما ليس لهم أن يطلبوه لأن الذي يوسع عليه يرتفع من منزلة إلى منزلة، ومن مركب إلى مركب، ومن ملبس إلى ملبس فيستطيل بذلك على الناس، ويستعين برزق الله على المعصية[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ ولكن يوسع على قوم ويضيق على آخرين على ما تقتضيه الحكمة ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ أي أعلم بهم من أنفسهم منهم من يصلح له الفقر ولو أغناه لكان شراً له، ومنهم من يصلح له الغنى ولو أفقره لكان شراً له. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أي ينزل المطر من بعد ما يئسوا منه وينشر رحمته بإخراج النبات والثمار، وقيل معنى ينشر رحمته أي يبسط مطره وهو الولي لمن أطاعه، وقيل هو الولي بإنزال المطر عاماً بعد عام (الحميد) المستحق للحمد على خلقه بإنعامه عليهم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ معناه: ومن دلائل توحيد خلق السماوات والأرض بما فيهما من الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والأشجار وما بث فيهما أي وما فرق فيهما من الملائكة والناس وغيرهم، وقيل معناه: وما بث في الأرض من دابة وهذا كقوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[2] وإنما يخرج من أحدهما، وهو على جمعهم في الآخرة إذا يشاء قدير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني ما أصابكم من مكروه في النفس والمال والولد أو نكبة حجر أو عثرة قدم ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من المعاصي ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ فلا يعاقب بها لطفاً بهم قال ﷺ: «**ما من خدشة عود أو عثرة قدم أو اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله تعالى أكثر**»[3] ـ وقال الحسن معنى الآية: وما أصابكم من حد في سرقة، أو زنا فبما كسبت

---

(1) يراجع الثعلبي في تفسيره ـ خ.

(2) سورة الرحمٰن: 55 الآية: 22.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 7: 153 رقم 9815. باب في الصبر على المصائب، وذكره الطبري في تفسيره بسنده عن قتادة: 13: 43 رقم 23721.

أيديكم، وقال الضحاك: ما حفظ رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب، وقرأ هذه الآية، وقال إن أعظم المصائب نسيان القرآن.

وفي مصاحف المدينة والشام ﴿**بما كسبت أيديكم**﴾[1] قال الزجاج: وإثبات الفاء أجود لأن الفاء جواب الشرط، ومن حذفها فعلى أن «ما» بمعنى الذي[2] تقديره: والذي أصابكم[3] وقع بما كسبت أيديكم ـ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يا معشر المشركين لا تعجزونني حيث كنتم ولا تسبقونني هرباً في الأرض ولا في السماء لو كنتم فيها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ أي ومن آياته الدالة على توحيده وقدرته الجواري في البحر وهي السفن جمع الجارية تجري في البحر كالأعلام أي كالجبال الطوال ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ معناه: إن يشأ الله يسكن الريح التي تجري بها السفن فيبقين واقفات على ظهر الماء، ويبقى أهلها حيارى لا يجدون حيلة في الخلاص لأن ماء البحر راكد لا تجري السفينة فيه إلا بريح تجريه، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ﴾ يعني السفن رواكد ثوابت على ظهر البحر لا تجري ولا تبرح ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي لدلالات على توحيد الله ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على طاعته ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه، وقيل: لكل صبار في الشدة شكور في الرخاء.

قال الله تعالى:

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(1) ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: 581، والكشف عن وجوه القراءات: 2: 251. وابن الجزري النشر في القراءات العشر: 2: 367.
(2) معاني القرآن وأعرابه: 4: 399.
(3) «أصابكم» غير موجود في النسخة: ك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي يهلكهن بالريح العاصفة ويفرقهن يعني أهلهن بما كسبوا أي بما أشركوا واقترفوا من الذنب ويعف عن كثير فيجري السفن على ما يشاءون وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿35﴾﴾ يعني أن الكفار الذين يكذبون بالقرآن إذا صاروا إلى الله بعد البعث
علموا أن لا مهرب لهم من عذاب الله فمن قرأ ويعلمُ بالرفع فعلى الابتداء من ٤٤
غير أن يكون معطوفاً على ويعف لأن علم الله تعالى مقطوع به لا يجوز تعليقه بمشيئته، ومن قرأ بالنصب فهو نصب على إضمار[1] أن معناه: ولأن يعلم الذين ينازعون في آياتنا بالتكذيب أنه لا مخلص لهم في الآخرة من عذاب الله كما لا مخلص لأهل السفينة من البحر إلا بالله.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما أعطيتم من شيء مما في أيديكم فهو متاع تمتع به إلى حين وما عند الله من الثواب أفضل وأدوم مما في أيديكم ثم بين الله تعالى لمن الثواب فقال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿37﴾﴾ قد تقدم الكلام في الكبائر والفواحش في سورة النساء قال مقاتل: الفواحش ما يقام فيها الحد في الدنيا، وقيل الفواحش: الزنا وأنواعه، وكبائر
الإثم: الشرك كذا قال ابن عباس[2]، وقرأ حمزة كبير الإثم على الواحد وهو ٤٥
يريد الجمع[3] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي يكظمون الغيظ ويعفون عمن ظلمهم يطلبون بذلك ثواب الله وعفوه، وهذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين أقبل رجل من المشركين يشتمه، ويقع فيه، فلم يرد عليه أبو بكر[4] رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ أي أجابوا إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي فعلى من المشورة

(1) يراجع مكي في الكشف نفسه ـ والتبيان في إعراب القرآن: 2: 339. والنحاس في إعراب القرآن: 4: 84.

(2) تراجع هذه الأقوال في تفسير الثعلبي، وكذا القرطبي في تفسيره: 16: 35.

(3) كتاب السبعة في القراءات: 581.

(4) القرطبي نفسه.

وهي الأمر الذي يتشاور فيه يقال صار هذا الأمر شورى بين القوم إذا تشاوروا فيه، والمعنى أنهم يتشاورون فيما يبدو لهم ولا يعجلون في الأمر قال الحسن: والله ما نشاور قوم إلا هداهم الله لأفضل ما بحضرتهم[1] والمعنى أنهم إذا حدث لهم أمر لا نص فيه من كتاب، ولا سنة ولا إجماع شارو بعضهم بعضاً لإظهار الحق قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ (39)﴾ معناه: والذين إذا أصابهم البغي والظلم والعدوان هم ينتصرون ممن ظلمهم قال عطاء يعني المؤمنين الذين أخرجهم الكفار من مكة وبغوا عليهم ثم مكنهم الله في الأرض حتى انتصروا ممن ظلمهم قال ابن زيد: جعل الله المؤمنين صنفين صنف يعفون عمن ظلمهم فبدأ بذكرهم فقال: وإذا ما غضبوا هم يغفرون، وصنف ينتصرون ممن ظلمهم وهم الذين ذكروا في هذه الآية ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ فأخذ حقه، ولم يجاوز في ذلك ما حدّ الله فهو مطيع لله، ومن أطاع الله فهو محمود ثم اعلم أن أول هذه الآية يقتضي أن الانتصار بأخذ الواجب من القصاص أو نحوه أفضل لأن الله عطف هذه الآية على الآية التي ذكر فيها الاستجابة لله، وأقام الصلاة، وتكلموا في معنى ذلك قال بعضهم: أراد به الانتصار ممن فارقهم في دينهم، فأما من المسلمين فالانتصار مباح كما قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ (41)﴾ والعفو أفضل كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾[2] وقال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ قال بعضهم: إذا كان العفو يؤدي إلى الإخلال بشيء من حقوق الله مثل العفو عن الفاسق الذي لا يرتدع أو العفو عن الباغي الذي يكون مصراً على قصده. فالانتصار أولى من العفو، وإذا كان العفو لا يؤدي إلى إسقاط شيء من حقوق الله فالعفو أفضل كما قال تعالى في آية القصاص: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾[3] وفي بعض التفاسير ـ إنما جعل الانتصار في أول هذه الآيات أفضل لأنهم كانوا يكرهون أن يذلُّوا أنفسهم فيتجرىء عليهم الفساق[4].

(1) القرطبي نفسه.

(2) سورة البقرة: 2 الآية: 237.

(3) سورة المائدة: 5 الآية: 45.

(4) يراجع تفسير أحكام القرآن: 4: 366 ـ لأبي الحسن الكيا الهراسي، يراجع تفسير أحكام القرآن: 4: 1669 ـ لأبي بكر بن العربي، يراجع تفسير الجامع لأحكام القرآن: 16: 39 ـ لأبي عبد الله القرطبي.

قال الله تعالى:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿40﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿41﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿42﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿43﴾ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿44﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿45﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿46﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ فيه بيان أنه لا تجوز الزيادة على السيئة الأولى وإنما سميت الثانية سيئة لأنها في مقابلة الأولى فالأولى سيئة لفظاً ومعنىً والثانية سيئة لفظاً لا معنى وسميت بهذا الاسم لأن مجازاة السوء لا تكون إلا بمثله[1] قال مقاتل: معنى هذه الآية في القصاص والحراجات والدماء وقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي من عفا عمن ظلمه، وأصلح بالعفو بينه وبين ظالمه فأجره على الله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني من يبدأ بالظلم، وفيه بيان أن الله تعالى إنما ندب المظلوم إلى العفو لا لمثله إلى الظالم أو لحبه إياه ولكن ليتعرض المظلوم لجزيل الثواب بالعفو قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي بعد ظلم الظالم إياه فالمصدر هاهنا مضاف إلى المفعول كقوله: ﴿مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾[2] و﴿بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ﴾[3] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ - أي ما على المنتصرين من سبيل بعقوبة ومؤاخذة. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني الذين يبدأون بالظلم ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي يعملون بالمعاصي. قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ يعني من صبر ولم ينتصر وغفر فإن ذلك الصبر والتجاوز لمن عزم الأمور. قال مقاتل: من

---

(1) الزجاج: معاني القرآن: 4: 401.

(2) سورة فصلت: 41 الآية: 49.

(3) سور ص: 38 الآية: 24.

الأمور التي أمر الله بها[1]، والمراد بذلك إذا كان الجاني نادماً مقلعا، والعزم على الشيء هو أن يعقد قلبه على أنه سيفعله وكلما كانت رغبة الصابر في الثواب أكثر كان عزمه على التجاوز أتم لتيقنه بالخلف والثواب قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من يخذله الله بعناده وجحوده ويضله عن الهدى فما له من ولي أي ما له من أحد يلي هدايته بعد إضلال الله إياه وقيل معناه: من يهلكه الله ويضيعه فما له من ولي يلي أمره ويدفع عنه العذاب وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وترى المشركين يا محمد لما رأوا العذاب في الآخرة يسألون الرجعة إلى الدنيا يقولون: هل إلى مرد من سبيل قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على النار قيل: إن يدخلوها خاشعين من الذل أي أذلاء من الهوان، وقيل: ساكنين متواضعين ينظرون من طرف خفي أي ينظرون إلى النار مسارقة الأعين نظر الخائف إلى من يخافه فزعاً منه، وقيل معنى خاشعين: مطرقين من الخجل والوجل والطرف: هو العين، وعن ابن عباس أنه قال: ينظرون بقلوبهم نظر الأعمى إذا سمع حساً وقف مستمعاً خائفاً منه[2] لأن الله تعالى قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[3] قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي عرف المؤمنون خسران الكفار في ذلك اليوم فقالوا: إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن صاروا إلى النار وأهليهم في الجنة بأن صاروا لغيرهم وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي دائم لا ينقطع.

قال الله تعالى:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ

(1) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 88.

(2) معالم التنزيل نفسه.

(3) سورة الإسراء: 17 الآية: 97.

أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿48﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿49﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿50﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أي أجيبوا داعي ربكم يعني محمداً ﷺ من قبل أن يأتي يوم لا يقدر أحد على دفعه ورده وهو يوم القيامة ما لكم من ملجأ تلجأون إليه وما لكم من نكير ينكر العذاب ويدفعه عنكم وقيل معناه: لا تقدرون أن تنكروا ما توقفون عليه من ذنوبكم، وما يتنزل بكم. قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي فإن أعرضوا عن إجابتك يا محمد فما أرسلناك عليهم حفيظاً يحفظ أعمالهم وأقوالهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ عن الله ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي غذاء وصحة فرح بها يعني الكافر وإن تصبهم سيئة أي قحط بما قدمت أيديهم من الكفر فإن الإنسان كفور لما تقدم من نعم الله عليه ينسى ويجحد قوله تعالى: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي التصرف فيهما بما يريد يهب لمن يشاء إناثاً مثل ما وهب للوط عليه السلام ويهب لمن يشاء الذكور مثل ما وهب لإبراهيم عليه السلام لم يكن له ولد أنثى أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً أي يجمع لمن يشاء البنين والبنات كما وهب لنبينا ﷺ فإنه كان له أربعة بنين وأربع بنات ويجعل من يشاء عقيماً لا يولد له مثل يحيى وعيسى عليهما السلام ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ على كل شيء لا يلحقه عجز ولا يعتريه منع.

قال الله تعالى:

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿51﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿52﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿53﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أي ما كان لأدمي أن يكلمه الله مواجهة بغير

حجاب إلا أن يوحي إليه أي يقذف في قلبه ويلهم ما في المنام أو اليقظة كما أخبر الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ كما كلم الله موسى عليه السلام كان يسمع كلامه من حيث لا يراه أو يرسل رسولاً من الملائكة جبريل أو غيره فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن الله ما يشاء الله قال الزجاج المعنى: أن كلام الله للبشر إما أن يكون بإلهام يلهمهم الله أو يكلمهم من وراء حجاب كما كلم موسى أو برسالة ملك إليهم[2] فمن قرأ ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ﴾ بنصب اللام فمعناه: أن يرسل رسولاً من الملائكة كما أرسل جبريل وتقديره: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى إليه وحياً أو يكلمه من وراء حجاب أو يرسل رسولاً، ومن قرأ بالرفع أراد: وهو يرسل فهو ابتداء واستئناف[3] والوقف كاف على ما قبله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ أي هو أعلى من أن يدركه الخلق بالأبصار الفانية بلا حجاب وهو الحكيم فيما يأمر وينهى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ أي كما أوحينا إلى الرسل من قبلك أوحينا إليك جبريل بالقرآن الذي فيه حياة القلوب من الجهل وعن هذا سمي القرآن روحاً لأنه سبب حياة الدين كما أن الروح سبب حياة الجسد، وقال مقاتل يعني قوله: ﴿رُوحٗا﴾ يعني الوحي وهو القرآن لأنه يهتدي به ففيه حياة من موت الكفر[4]، وقوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ أي بأمرنا وقيل: إن الروح هاهنا جبريل، وقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أي ما كنت تدري قبل الوحي ما الكتاب ولا الإيمان لأنه كان لا يعرف القرآن قبل الوحي ولا كان يعرف شرائع الإيمان ومعالمه وهي كلها إيمان وهذا اختيار الإمام محمد بن خزيمة[5]، واحتج بقوله:

---

(1) سورة الصافات: 37 الآية: 102.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 4: 403.

(3) الكشف في وجوه القراءات السبع وعللها: 2: 253 ـ 254. التبيان في إعراب القرآن: 2: 240 ـ 241. النحاس في إعراب القرآن: 4: 92.

(4) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 90.

(5) أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، إمام نيسابور في عهده، محدثاً كبيراً وفقيهاً مجتهداً رحل

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾[1] يعني الصلاة سماها[2] إيماناً، وقيل معناه: ما كنت تدري ما الإيمان قبل البلوغ يعني كان طفلاً، وفي المهد، وقال الحسين بن الفضل[3]: هذا من باب حذف المضاف، ومعناه: ولا أهل الإيمان أي مَن الذي يؤمن؟ ومَن الذي لا يؤمن[4]؟ وفي الجملة لم يكن النبي ﷺ على الكفر قط فإنه كان على فطرة الإسلام حين ولد، وكذلك جميع أنبياء الله صلوات الله عليهم قبل الوحي كانوا مؤمنين، وكان محمد ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ يعني الوحي نوراً ودليلاً على التوحيد والإيمان يهدي به من يشاء من عبادنا إلى دين الحق ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي لتدعوا الخلق كلهم بوحينا إليك إلى طريق قائم يرضاه الله وهو الإسلام، وقوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خفض على البدل، وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إليه ترجع عواقب الأمور في الآخرة.

إلى العراق والشام والجزيرة ومصر، له مصنفات كثيرة، منها كتاب «التوحيد» و«صحيح بن خزيمة» توفي سنة إحدى عشر وثلاثمائة هجرية ـ طبقات الحفاظ: 130 ـ طبقات السبكي: 2: 130 ـ الأعلام 6: 29.

(1) سورة البقرة: 2 الآية: 143.

(2) البغوي نفسه، وتفسير القرطبي: 16: 59.

(3) أبو علي الحسين بن الفضل الكوفي ثم النيسابوري ـ مفسر أديب، إمام عصره في معاني القرآن سمع «يزيد بن هارون» و«عبد الله بن بكر السهمي» وجماعة، وروى عنه «محمد بن الأخرم» و«محمد بن القاسم العتكي» وآخرون توفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين هجرية ـ طبقات المفسرين للداودي: 1: 159 رقم 152، طبقات المفسرين للسيوطي: 12، لسان الميزان: 2: 307.

(4) يراجع تفسير القرطبي ـ نفسه.

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

قال الإمام الحداد رحمه الله:

سورة الزخرف كلها مكية، وهي ثلاثة آلاف وأربعمائة حرف، وثمانمائة وثلاث وثلاثون[1] كلمة، وتسع وثمانون آية، قال ﷺ: «**من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، وادخلوا الجنة بغير حساب**»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ⑴ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ⑵ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ⑶
وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ⑷ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن
كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ⑸ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ⑹ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا
كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ⑺ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ⑻ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم
مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ⑼﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿حمٓ ⑴ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ⑵﴾، أقسم الله بالقرآن المبين الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة، وأبان ما يحتاج إليه من الشرائع، وجواب القسم إنا جعلناه قرآناً عربياً أي إنا أنزلناه على لغة العرب

---

(1) قوله: وثلاث وثلاثون كلمة: كذا بالأصل ولا يخفى ما فيه.

(2) ذكره الزمخشري في تفسيره «الكشاف»: 3: 499 ـ عند آخر تفسيره للسورة.

ليكون أبلغ في الحجة، وأدعى إلى القبول كي تعقله العرب من غير مترجم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿4﴾﴾ أي إنه مذكور مثبت في اللوح المحفوظ عندنا كما قال في آية أخرى ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[1] وسمي اللوح أم الكتاب لأنه أصل كل كتاب، وتسمى الوالدة أماً لأنها أصل الولد وقوله تعالى: ﴿لَدَيْنَا﴾ يريد الذي عندنا يخبر عن فضيلته ومنزلته وشرفه. إن كذبتم به يا أهل مكة فإنه عندنا شريف رفيع محكم من الباطل، ويقال ذو حكمة لا يحتمل الزيادة والنقصان والتغيير والتبديل قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ قال الكلبي: يقول الله لأهل مكة أفنترك عنكم الوحي صفحاً فلا نأمركم ولا ننهاكم ولا نرسل إليكم رسولاً وهذا استفهام معناه: الإنكار أي لا نفعل ذلك ومعنى الآية: أفنمسك عن إنزال القرآن ونهملكم فلا نعرفكم ما يجب عليكم من أجل أنكم أسرفتم في كفركم وهو قوله تعالى: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ والمعنى: لأن كنتم والكسر في إن على أنه جزاء استغني عن جوابه بما تقدمه كما تقول: أنت ظالم إن فعلت كذا ومثله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ﴾[2] بالفتح والكسر[3] وقد تقدم ومعنى الآية: أفنضرب عنكم تذكيرنا إياكم الواجب ونترككم بلا أمر ولا نهي معرضين عنكم لئن أسرفتم والصفح في اللغة هو الإعراض يقال صفح فلان عني بوجهه أي أعرض وهو في صفات الله بمعنى العفو يقال أصفح عن ذنبه أي أعرض عنه، والإضراب والضرب في الكلام كلهما بمعنى الإعراض والعدول.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيه تسلية للنبي ﷺ، وبيان أن دأب كل أمة مع رسولهم التكذيب والاستهزاء به، وأن من سنة الله تعالى إهلاك المكذبين فحذر أيها الرسول قومك كي لا يسلكوا طريقة من قبلهم فينزل بهم من العذاب ما نزل بمن قبلهم وقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي أقوى من قومك يعني الأولين الذين أهلكوا بتكذيبهم ومضى مثل الأولين أي

---

(1) سورة البروج: 85 الآية: 21 ـ 22.

(2) سورة المائدة: 5 الآية: 2.

(3) ابن خالويه: إعراب القراءات السبع وعللها: 2: 292.

وسبق فيما أنزلنا عليك تشبيه حال الكفار الماضية بحال هؤلاء في التكذيب ولما هلك أولئك تكذيبهم فعاقبة هؤلاء أيضاً الإهلاك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ معناه: ولئن سألت قومك من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن الله العزيز العليم وهذا إخبار عن غاية جهلهم إذ أقروا بأن الله خلق السماوات والأرض ثم عبدوا معه غيره، وأنكروا قدرته على البعث فهم يقرون بالله ويشركون به غيره كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾[1] وتم الكلام والإخبار عنهم ثم ابتدأ عز وجل فقال:

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ هذا ابتداء كلام من الله تعالى على معنى نعم خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض مهاداً يمكنكم القرار عليها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طرقاً ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في الطريق من بلد إلى بلد، وتهتدون بوحدانية الله تعالى وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ يعني المطر بمقدار معلوم يعلمه خزان المطر ليس كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أهلكهم بل هو بقدر يكون معاشاً لكم ولأنعامكم وقوله تعالى: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي فأحيينا بذلك المطر بلداً ميتاً بإخراج الأشجار والزروع كذلك تخرجون من القبور يوم النشور للحساب والجزاء.

(1) سورة يوسف: 12 الآية: 106.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ معناه: والذي خلق الأصناف كلها، والألوان كلها، ويقال الذكور والإناث كلها، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون يعني السفن يركبون عليها في البحر، والأنعام يركبون عليها في البر وقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ الكناية تعود إلى لفظه أي لتستووا على ظهور ما تركبون ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه يعني النعمة بتسخير ذلك المركب في البر والبحر قال مقاتل والكلبي هو أن يقول: الحمد لله الذي رزقني هذا وحملني عليه، وتقولوا: سبحان الذي سخر لنا هذا المركب وذلله لنا[1] وسهل ركوبه علينا ولولا تسخيره لنا ما كنا له مقرنين أي مطيقين ضابطين يريد لا طاقة لنا بالإبل، ولا بالفلك، ولا بالبحر لولا أن الله تعالى سخر لنا ذلك لنا قال قتادة: قد علمكم الله كيف تقولون إذا ركبتم البحر وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه قال إذا ركب الرجل الدابة فلم يذكر اسم الله تعالى ردفه الشيطان، فقال له: تغن، فإن لم يحسن قال له: تمن[2]. وعن رسول الله ﷺ أنه كان إذا استوى على بعيره خارجاً في سفر كبر ثلاثاً، وقال: «**سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا وَاطْوِ عَنَّا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل**[3]**، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال**»[4]، وإذا رجع قال: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون**»[5] رواه مسلم في الصحيح وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ فيه بيان أنه كما يذكر نعمة الله عليه في الدنيا فعليه أن يذكر مصيره إلى الآخرة، وينبغي للعاقل إذا ركب دابة أو سفينة أن يتذكر آخر مركبه وهي الجنازة، وإذا لبس أن يتذكر آخر ملبسه وهو الكفن، وإذا اغتسل أن يتذكر آخر عهده بالغسل،

---

(1) يراجع الثعلبي في تفسيره ـ خ، والشوكاني في الفتح القدير: 4: 769.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 4: 279 رقم 5101 باب في حفظ اللسان.

(3) أخرجه الدارمي في سننه: 2: 741، رقم 2573 ـ باب الدعاء في السفر.

(4) أخرجه الدارمي في سننه: 2: 741 ـ رقم 2572 ـ باب في الدعاء في السفر.

(5) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 9: 110 باب استحباب الذكر إذا ركب دابته.

وإذا نام أن يتذكر الحال التي يوضع فيها على جنبه في اللحد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ أي جعل الكفار لله تعالى من عباده جزءاً لأنهم قالوا الملائكة بنات الله فوصفوا عباد الله بأنهم جزء من الله تعالى، وقد تقدم أن الذين قالوا هذا القول حي من خزاعة.

ومعنى الجعل هاهنا: الحكم بالشيء والوصف والتسمية كما يقال: جعل فلان زيداً من أعلم الناس أي وصفه بذلك، ويقال: إن الجزء في كلام العرب عبارة عن الأنثى كما قال الشاعر:

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يوماً فَلاَ عَجَبٌ ∴ قَدْ تُجْزِىءُ الحُرَّةُ المِذْكَارُ أَحْيَاناً[1]

أراد بأجزأت ولدت أنثى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أراد بالإنسان الكافر وقوله تعالى: ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي جحود لنعم الله مبين ظاهر الكفران ثم أنكر عليهم هذا فقال تعالى:

قال الله تعالى:

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿16﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿17﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿18﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿19﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿20﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿21﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿22﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿23﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ هذا استفهام توبيخ وانكار يقول: اتخذ ربكم لنفسه البنات واصطفاكم بالبنين أي واختصكم

---

(1) يراجع الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: 4: 407.

وكذا ابن منظور في اللسان «جزء». والزمخشري في تفسيره «الكشاف»: 3: 481. وابن خالويه: في إعراب القراءات السبع وعللها: 2: 294 ـ تحقيق د. العثيمين ط 1 ـ 1992م.

بهم والمعنى: كيف اختار لنفسه أدون قسمي الولد، واختار لكم أعلى القسمين والحكمة لا توجب أن يختار الحكم الأدون لنفسه، والأعلى لغيره، ثم وصف كراهتهم للبنات فقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ أي وإذا أخبر أحدهم بما وصف للرحمن من إضافة البنت إليه صار وجهه مسوداً متغيراً يعرف فيه الحزن وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني يتردد حزنه في جوفه وقد تقدم تفسيره في سورة النحل قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ زيادة في الإنكار عليهم والمذمة لهم كأنه قال: أو يختار لنفسه مع استغنائه عن الخلق كلهم من ينشأ في الحلية أي من يربى في حلية الذهب والفضة وهو في الكلام غير ثابت الحجة قال المبرد تقدير الآية: أو تجعلون له من ينشأ في الحلية يعني البنت تنبت في الزينة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي وهو عند المخاصمة غير مبين للحجة قال قتادة: قلَّما تتكلم امرأة بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها لضعف رأيها ونقصان عقلها[1]، ويستدل من هذه الآية على ثبوت الترخيص للنساء في التزين بحلية الذهب والفضة كما قال ﷺ وقد أخذ الذهب بإحدى يديه والحرير بالأخرى، وقال: «**هذان محرمان على ذكور أمتي حل لأناثهم**»[2]. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ معناه: ووصفوا الملائكة الذين هم عباد الرحمٰن أنهم بنات الله وقرىء عند الرحمٰن[3]، والكل صواب، وقد جاء القرآن بالأمرين جميعاً وذلك قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾[5] وفي قوله: ﴿عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ دلالة على رفع المنزلة والقربة من الكرامة، وقوله تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ معناه: أحضروا عند خلقهم فعلموا ذلك، والشهادة هاهنا من الحضور

---

(1) الطبري في تفسيره: 13: 74 ـ رقم 23808.
(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 5: 133 رقم 6083 ـ باب في الملابس.
(3) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها: 2: 256.
(4) سورة الأنبياء: 21 الآية: 26.
(5) سورة الأنبياء: 21 الآية: 19.

وبخهم الله على ما قالوا ما لم يشاهدوه، وقرأ نافع ﴿أو شهدوا خلقهم﴾ بهمزة الاستفهام وتخفف الهمزة الثانية على معنى أأحضروا خلقهم حتى علموا أنهم[1] إناث وهذا كقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿150﴾﴾[2]. قال ابن عباس: أحضروا وعاينوا خلقهم، قال الكلبي: لما قالوا هذه المقالة سألهم النبي ﷺ فقال: «ما يدريكم أنهم إناث؟» قالوا سمعنا من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا أنهم إناث فقال الله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها في الآخرة[3] قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ يعني بني ملح من خزاعة كانوا يعبدون الملائكة، وقالوا لو شاء الرحمٰن ما عبدناهم أي ما عبدنا الملائكة وإنما عبدناهم بمشيئة الله، وإنما كانوا يقولون هذا القول إبداء لعذرهم عند سفلتهم يقول الله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني ما لهم بقولهم أن الملائكة بنات الله من علم، وأنهم كذبوا في ذلك وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما هم إلا يكذبون فيما قالوا ولم يتعرضوا لقولهم: لو شاء الرحمٰن ما عبدناهم بشيء لأن هذا القول حق وإن كان من الكفار وهذا كقوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾[4] ولو جعلت قوله: ما لهم بذلك من علم رداً لقولهم: لو شاء الرحمٰن ما عبدناهم كان المعنى أنهم قالوا: إن الله قدرنا على عبادتهم فلم يعاقبنا لأن رضى ذلك منا وهو أكذب منهم لأن الله تعالى وإن قدر كفر الكفار لا يرضاه وتقدير الكفر على الكافر لا يكون رضى من الله له.

قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي هل أعطيناهم كتاباً من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي آخذون بما فيه، ثم اعلم الله تعالى أنهم اتبعوا آباءهم في الضلالة فقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي على سنة وملة ودين، ومن قرأ على إمة بكسر[5] الهمزة فمعناه على

---

(1) الكشف نفسه.

(2) سورة الصافات: 37 الآية: 150.

(3) البغوي في معالم التنزيل: 5: 95 بلفظه تقريباً.

(4) سورة النحل: 16 الآية: 35.

(5) يراجع الفراء في معاني القرآن: 3: 30. والنحاس في إعراب القرآن: 4: 104. والقرطبي في تفسيره: 16: 74.

طريقة أي ليس لهم حجة إلا هذا القول ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي ليس لهم حجة إلا تقليد آبائهم قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ أي ملوكها وأغنياؤها ورؤساؤها ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ بهم، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ:

قال الله تعالى:

﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (24) فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ (25) وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ (26) إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (28) بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ (29) وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ (30)﴾.

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ معناه: أتتبعون دين آبائكم وتكفرون مثلهم ولو جئتكم بأرشد مما وجدتم عليه آباءكم فأبوا أن يقبلوا ذلك، وقالوا: إنا بما أرسلتم به أيها الرسل كافرون، ثم ذكر ما فعل بالأمم المكذبة تخويفاً لهم فقال: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ يعني ما صنع بقوم نوح وعاد وثمود قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ (26)﴾ معناه: واذكر يا محمد إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه حين خرج من السرب وهو ابن سبع عشرة سنة رأى أبوه وقومه يعبدون الأصنام، فقال لهم: إنني براء مما تعبدون من دون الله إلا الذي خلقني فإنه سيحفظني ويرشدني لدينه وطاعته وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ أي وجعل براءته عن عبادة غير الله وهي كلمة التوحيد لا إلٰه إلا الله باقية في عقبه لكي يرجعوا إلى التوحيد، ويدعو الخلق إليه فلا يزال في ولده من يوحد الله، ومعنى الآية ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ﴾ أي وجعل كلمة التوحيد وهي لا إلٰه إلا الله، كلمة باقية في ذرية إبراهيم ونسله، فلا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده لعلهم يرجعون أي لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين، ويرجعون إلى دينك دين إبراهيم إذ كانوا من ولده.

وقال السدي: لعلهم يتوبون ويرجعون عما هم عليه إلى عبادة الله، ثم ذكر

نعمته على قريش فقال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ يعني المشركين متعتهم بأنفسهم، وأموالهم، وأنواع النعم، ولما أعاجلهم[1] بعقوبة كفرهم بل أمهلتهم زيادة في الحجة، وقطعاً للمعذرة ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآن، ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ للحجج وهو النبي ﷺ يبين لهم الأحكام والدين وكان من حق الأنعام أن يطيعوا الرسول بإجابته ولم يجيبوه وعصوا وهو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي ولما جاءهم الرسول والقرآن نسبوا القرآن إلى السحر وجحدوا به.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ أي قال كفار مكة هلاَّ نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين؟ عنوا بالقريتين مكة والطائف، وعنوا بالرجلين إما الوليد بن المغيرة من مكة وإما ابن مسعود الثقفي من أهل الطائف[2] ظنوا بجهلهم أن استحقاق النبوة إنما يكون بشرف الدنيا مع اعترافهم بأن النبي ﷺ من أرفعهم نسباً فقال الله تعالى رداً عليهم، وإنكاراً لما قالوا: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ﴾ يعني النبوة التي هي من أعظم النعم، وذلك أنهم اعترضوا على الله بقولهم: لِمَ لم ينزل هذا القرآن على غير محمد؟ فبين الله تعالى أنه هو الذي يقسم النبوة لا غيره قال مقاتل يقول الله تعالى: أبأيديهم

---

(1) في النسخة: ك ـ أعالجهم.

(2) يراجع المراد بالرجلين في تفسير الطبري: 13: 84، والبغوي: 5: 97، والقرطبي: 16: 83. وفي النسخة: ك: «مسعود الثقفي».

مفاتيح الرسالة فيضعوها حيث شاءوا؟ ثم بين الله تعالى أنه لم يجعل أمر معايشهم مع قلة خطر ذلك إلى رأيهم بل رفع بعضهم فوق بعض في الرزق على ما توجبه[1] الحكمة. فقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي قسمنا الرزق في المعيشة وليس لأحد أن يتحكم في شيء من ذلك فكيف يجعل أمر النبوة مع عظم قدره، ورفعة شأنه إلى رأيهم؟ قال قتادة: في معنى ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ تلقى الرجل ضعيف الحيلة عن اللسان وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتر عليه[2] وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ يعني الفضل في الغناء والمال ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً أي ليستخدم بعضهم بعضاً فيتسخر الأغنياء بأموالهم الفقراء ليلتئم قوام أمر العالم، وقال قتادة: معناه: ليملك بعضهم بمالهم بعضاً فيتخذوهم عبيداً ومماليك، والسخرى بالكسر من الاستهزاء، وبالضم من التسخير[3]، وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي وما خصك الله به من النبوة خير لك مما يجمعون من المال، وقيل معناه: ورحمة ربك يعني الجنة للمؤمنين خير مما يجمع الكفار من الأموال قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ معناه: ولولا أن تميل بالناس الدنيا فيصير الخلق كلهم كفاراً لأعطى الله الكافر في الدنيا غاية ما يتمنى فيها لهوانها، وقلتها عند الله، ولكنه لم يفعل ذلك لعلمه أن الغالب على الخلق حب العاجلة وقوله تعالى: ﴿سَقْفًا﴾ من قرأه بالوحدان فهو على معنى جعلنا لكل بيت سقفاً من فضة، ومن قرأ سقفاً بضمتين فهو جمع سقف مثل رهن ورهن، ومن قرأ سقفاً بضم السين وجزم القاف فعلى تخفيف سقف مثل رهن[4] قوله تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعني الدرج عليها يرفعون ويعلون واحدها معرج ويقال: معراج ومعاريج ومعارج مثل مفاتيح

(1) يراجع قول مقاتل: في البغوي نفسه.

(2) الطبري في تفسيره: 13: 86.

(3) الفراء في معاني القرآن: 3: 31. والزجاج في معاني القرآن وإعرابه: 4: 410.

(4) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها: 2: 258 ـ والنحاس في إعراب القرآن: 4: 108.

ومفاتح في جمع مفتاح والمعنى: وكذلك جعلنا لهم معارج من فضة عليها يصعدون قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿34﴾﴾ أي ولبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة على سرر الفضة يجلسون ويتكئون وقوله تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ الزخرف هو الذهب كأنه قال: ولجعلنا أمتعتهم من الذهب هكذا في التفاسير أن المراد بالزخرف الذهب إلا أن في اللغة الزخرف كمال الزينة كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾[1] ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ عطفاً على قوله: ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ كأنه قال: من فضة وزخرف إلا أنه لما قال: من جعل نصباً، وهذا إنما يكون على قول الكوفيين.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من قرأ لمّا بالتشديد فالمعنى: وما كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، ومن قرأ بالتخفيف فما صلة زائدة المعنى: وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا يتمتع بهما إلى حين ثم يفنى وثواب الآخرة عند ربك للمتقين الكفر والفواحش، والذي قرأ لمّا بالتشديد حمزة جعله في معنى[2] إلا، وحكى عن سيبويه: نشدتك الله لمّا فعلت يعني إلا فعلت، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى: لولا أن يجزع عبدي المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من حرير، ولصببت الدنيا عليه صباً**»[3]، قال مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿33﴾﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿36﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿37﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿38﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿39﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿40﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ

(1) سورة يونس: 10 الآية 24.
(2) ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات: 586.
(3) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ بسنده.

فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾ أي ومن يعرض عن ذكر الرحمٰن نسبب له شيطاناً يضله نجعل ذلك جزاؤه ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ لا يفارقه في الدنيا والآخرة يقال: عشا إلى النار بالليل إذا تنورها فقصدها، وعشا عنها إذا أعرض عنها قاصداً لغيرها، ونظير هذا: مال إليه ومال عنه. قال الشاعر:

مـتَـى تَـأْتِـهِ تَـعْـشُـو إلـى ضَـوْءِ نَـارِهِ ∴ تَـجِـدْ خَـيْـرَ نَـارٍ عِـنْـدَهَـا خَـيْـرُ مُـوقِـدِ[1]

ومن قرأ يعس بالسين فهو من عسى يعسى إذا لم يبصر بالليل والمعنى: ومن يعمى عن ذكر الرحمٰن. قال الزجاج معنى الآية: ومن يعرض عن القرآن وما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلين نعاقبه بشيطان نقيضه له حتى يضله ويلازمه قريناً له فلا يهتدي مجازاة له حين آثر الباطل على الحق البين وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ أي صاحب له يزين له العمى، ويخيل إليه أنه على الهدى وهو على الضلالة، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ معناه: وأن الشياطين ليمنعونهم عن سبيل الهدى، ويحسب الكفار أنهم مهتدون.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ يعني الكافر إذا جاء يوم القيامة قال لقرينه وهو الشيطان الذي يجعل معه في سلسلة واحدة يا ليت بيني وبينك بعد المشرق والمغرب إذ كنا في الدنيا فلم أرك ولم ترني فبئس القرين كنت لي، وإنما سمى المشرق والمغرب بالاسم الواحد للازدواج كما يقال للشمس والقمر القمران وفي تكنية أبي بكر وعمر العمرين قال الشاعر:

أَخَـذْنـا بـآفَـاق الـسَّـمَـاءِ عَـلَـيْـكُـمُ ∴ لـنـا قَـمَـراهَـا والـنُّـجُـومُ الـطَّـوَالِـعُ[2]

---

(1) هذا البيت للحطيئة من قصيدة مدح فيها «بغيض بن عامر التميمي» ومطلعها:

آثَـرْتُ إدْلاَجِـي عَـلَـى لَـيْـلِ حُـرَّةٍ ∴ هَـضِـيـمِ الـحَـشـا حُـسَّـانَـةِ الْـمُـتَـجَـرَّدِ

من شواهد النحو، يستشهد به في جوازم الفعل المضارع: خزانة الأدب للبغدادي: 3: 662، ابن منظور في اللسان: عشا ـ ديوان الحطيئة: 161.

(2) البيت من الطويل ـ للفرزدق في دايونه: 1: 419 دار صادر بيروت، والكامل للمبرد: 1: 143.

وقرىء حتى إذا جاءنا[1] يعني الكافر إذا يوم القيامة وشيطانه يبعثان يوم القيامة في سلسلة واحدة وروي أن الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبره أخذ بيده شيطانه فلم يفارقه حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار فذلك حين يقول: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت أيها الشيطان[2]، ويقول الله في ذلك اليوم للكافرين: ولن تنفعكم اليوم إذ ظلمتم أي إذ أشركتم في الدنيا إنكم في العذاب مشتركون قال المفسرون: لا يخفف عنهم الاشتراك شيئاً من العذاب لأن لكل واحد منهما الحظ الأوفر من العذاب ولا يستأنس بعضهم ببعض قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ أي أفأنت تسمع الكفار الذين يتصامون عن الحق ويتعامون عنه ومن كان في ضلال مبين وقد ظهرت ضلالته وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي نميتك قبل أن تقع النقمة في كفار مكة ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ بالقتل بعدك أو نرينك في حياتك ما وعدناهم من الذل والقتل ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بيّن الله تعالى أنه قادر على عقوبتهم في حال حياة النبي ﷺ وبعد وفاته والأصل في إمّا إن ما فحرف الشرط وما صلة ومتى دخلت ما في الشرط للتوكيد دخلت النون الثقيلة المؤكدة في الفعل المذكور بعدها، ومعنى الآية أن الله قال مطيباً لقلب النبي ﷺ: إن ذهبنا بك انتقمنا لك ممن كذبك بعدك أو نرينك في حياتك ما وعدناهم من العذاب فإنا قادرون عليهم متى شئنا عذبناهم ثم أراه ذلك يوم بدر.

قال الله تعالى:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿43﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ
وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿44﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً
يُعْبَدُونَ ﴿45﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿46﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿47﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ
مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿48﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا

(1) ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات: 586.
(2) ذكره الطبري في تفسيره بسنده: 13: 95 ـ رقم 23873.

عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿49﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿50﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ أي استمسك بالقرآن ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني الإسلام ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي القرآن مشرف لك ولهم ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عن شكر هذه النعمة يعني ما أعطاه الله من الحكمة وقومه المؤمنين من الهدى بالقرآن إلى إدراك الحق وقال مجاهد: القوم هاهنا العرب. والقرآن لهم شرف إذ نزل بلغتهم[1]. قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وذلك أنه لما أسري بالنبي ﷺ بعث الله آدم وجميع المرسلين، وأذن جبريل، ثم أقام، وقال يا محمد تقدم فصل بهم، فلما فرغ من الصلاة قال له جبريل: سل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا هل أرسلنا عليهم جواز عبادة غير الله، فقال النبي ﷺ: «**لا أسأل قد اكتفيت**»، وقيل معناه: سل أمم من أرسلنا قبلك يعني مؤمني أهل الكتاب سلهم هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد فلم يشك ولم يسأل، ومعنى الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسول ولا كتاب بعبادة غير الله، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي يهزأون ويضحكون منها جهلاً وغفلةً قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ يعني ما ترادف عليهم من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس، وكانت كل آية من هذه الآيات أكبر من التي قبلها وهي العذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ لأنهم عذبوا بهذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ قال الكلبي: يا أيها العالم وكان الساحر فيهم عظيماً يعظمونه ولم تكن صفة ذم وكان علماؤهم في ذلك الوقت السحرة فكانوا يوقرونه بهذا القول ولم يريدوا شتمه[2] وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي سل ربك بما عهد عندك فيمن آمن بك ليكشف العذاب عنا، والمعنى: بما عهد عندك فيمن آمن به من كشف العذاب عنه إننا لمهتدون مؤمنون بك، فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 5: 102.

(2) القرطبي في تفسيره: 16: 97.

كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿50﴾﴾ العهد الذي عاهدوا موسى معناه: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ عهودهم.

قال الله تعالى:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿51﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿52﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿53﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿54﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿55﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿56﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿57﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿58﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿59﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿60﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿61﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿62﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ يعني أنهار النيل ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ أي من تحت قصوري وفي بساتيني، وقال الحسن: بأمري[1] فعلى هذا معناه: من تحت أمري ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عظمتي وشدة ملكي وفضلي على موسى قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي بل أنا خير من هذا الذي هو ضعيف حقير يعني موسى، وإنما وصفه بهذا لأن موسى كان يقوم بأمر نفسه ولم يكن له أحد يقوم بأمره، ومن ذلك المهنة وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي لا يكاد يبين الكلام يعني أنه كان بلسانه لثغة من أثر العقدة التي كانت وكان مع ذلك بليغاً مبيناً قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ معناه: قال فرعون: هلا ألقي على موسى أساورة من ذهب إن كان رسولاً كما تسور الملوك رسلهم تعظيماً لهم وكانوا آل فرعون يلبسون الأساور والأسورة: جمع السوار والأساورة جمع الأسورة[2] وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ

(1) البغوي في تفسيره: 5: 103.

(2) النحاس في إعراب القرآن: 4: 114، الفراء في معاني القرآن: 3: 24.

﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي متتابعين يعينونه على أمره الذي بعث له ويشهدون له بصدقه، والمعنى إن فرعون قال: هلا جاء معه الملائكة متعاونين يمشون معه فيدلون على صدق نبوته قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي استخف فرعون عقول قومه القبط فوجدهم خفاف العقول فأطاعوه على تكذيب موسى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن أمرنا وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي فلما أغضبونا انتقمنا منهم وجازيناهم على معاصيهم، والأسف: هو الغضب في هذه الآية، وأصله في اللغة الحزف إلا أن الحزف لا يجوز في صفة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا﴾ أي متقدمين، وقيل: سلفا إلى النار، ومثلاً للآخرين متمثل لهم في الهلاك إلى آخر الدهر، وقرأ حمزة سُلُفاً بالضم في السين واللام جمع[1] سلف وهو الماضي مأخوذ من سلُف بضم اللام يَسْلَف إذا تقدم فهو سليف، ومن قرأ سُلَفا بضم السين وفتح اللام فهو جمع سُلْفَةٍ وهي الفرقة التي قد مضت[2] قوله تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿57﴾﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[3] الآية قرأها النبي ﷺ عليهم فقال ابن الزبعري: أخاص هذا أم عام، فقال عام، فقال ابن الزبعري فإن عيسى يعبده النصارى فهو والنصارى في النار، وعزير تعبده اليهود، وخزاعة تعبد الملائكة فإن كان هؤلاء في النار فما آلهتنا خير منهم، فأنزل[4] الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ والمعنى: لما شبهوه بآلهتهم ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ يعني قومه الكفار كانوا يضجون ضجيج المجادلة حيث خاصموه، وقالوا: رضينا أن تكون آلهتنا بمنزلة عيسى وهو قولهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي ليست آلهتنا خيراً من عيسى فإن كان عيسى في النار بأن يعبد من دون الله فكذلك آلهتنا قرىء ﴿يَصُدُّونَ﴾ بكسر الصاد وضمها، قال الفراء، والزجاج، والأخفش، والكسائي: هما لغتان معناهما يضجّون وقيل: يصدون يعرضون، ومن قرأ بكسر الصاد

---

(1) ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات: 587.

(2) ابن خالويه في إعراب القراءات السبع وعللها: 2: 301.

(3) سورة الأنبياء: 21 الآية: 98.

(4) الواحدي في أسباب النزول: 314، والطبري في تفسيره: 13: 110 رقم 23919.

فمعناه: يضجون[1] قوله تعالى: ﴿أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ﴾ أي ما وصفوا لك ذكر عيسى إلا ليجادلوك به لأنهم قد علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من الموات ذكر أنهم أصحاب خصومات، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي جدلوه بالباطل، وعن أبي أمامة الباهلي أنه قال: ما ضلّ قوم إلا أوتوا الجدل[2] ثم قرأ هذه الآية. قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ فيه بيان أن عيسى عليه السلام عبد مثلهم إلا أنه تعالى فضله بالنبوة والرسالة والمعنى: أنعمنا عليه بالنبوة، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي جعلنا خلقه بغير الأب آية تدلهم على وحدانية الله تعالى، وقدرته على ما يريد، ثم خاطب كفار مكة فقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً﴾ أي لو نشاء أهلكناهم، وجعلنا بدلاً منكم ملائكة في الأرض يخلفونكم يكونون خلفاً منكم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي لا تشكن في القيامة أنها قائمة ولا تكذبوا بها، وقل لهم اتبعوني على التوحيد، وهذا الذي أنا عليه صراط مستقيم، أي دين قيم لا عوج فيه ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ﴾ أي لا يصرفنكم عن هذا الدين ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة.

قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (64) فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66) ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۢ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ (67) يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (68) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ (69) ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات، وقال قتادة: يعني الإنجيل، وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي بالإنجيل، وقيل: بالنبوة،

---

(1) يراجع الفراء في معاني القرآن: 3: 36، الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: 4: 416، والأخفش في معاني القرآن: 2: 690.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 6: 341 رقم 8438 ـ باب في حسن الخلق.

وجئتكم لأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فيما بينكم قال مجاهد: من أحكام التوراة[1]، فإن قيل: فهلا بيّن لهم جميع ما اختلفوا فيه، وقد أرسل إليهم قلنا قد اختلفوا فيه قال بعضهم: إن الذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه وقد بين لهم من خير الإنجيل ما احتاجوا إليه، وقال بعضهم معناه: لأبين لكم بعض الكتاب الذي تختلفون فيه إذ كانوا مختلفين في بعض التوراة، وقال بعضهم: معنى لأبين لكم أمر دينكم لأنهم كانوا مختلفين في أمر دينهم ودنياهم والمقصود من إرسال الرسل بيان الدين فكان ذلك بعض ما اختلفوا فيه، وقد يذكر البعض أيضاً بمعنى الكل كما قال الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته ∴ وقد يكون مع المستعجل الزلل[2]

وأراد بالبعض الكل لأن المستحيل أيضاً قد يدرك البعض قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ يعني اليهود والنصارى، وقيل أراد به فرق النصارى على ما تقدم ذكره من الاختلاف فيما بينهم في عيسى عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي هل ينظرون إلا القيامة أن تأتيهم فجأة على غرة منهم من غير تأهب ولا استعداد ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقت مجيئها، فإن قيل كيف تسمى القيامة الساعة، وهي تشتمل على خمسين ألف سنة؟ قلنا إنما سميت ساعة لسرعة مجيئها ولأنها في حين ما وراءها ساعة وهي سريعة الانقضاء على المؤمنين قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿67﴾﴾ يعني الأخلاء في الدنيا يومئذ أي يوم تأتي الساعة بعضهم لبعض عدو.

يعني إذا كانت الخلة على المعصية والكفر صارت عداوة يوم القيامة ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني المؤمنين الذين يخالل بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى فإن خلتهم لا تصير عداوة وفي الحديث: «**إن الأخلاء أربعة مؤمنان وكافران، فإذا سأل المؤمن عن خليله قال: ما علمته إلا أماراً بالمعروف نهاء عن المنكر،**

(1) تراجع هذه الأقوال في تفسير الطبري: 13: 118.

(2) تقدم تخريجه عند تفسير الآية: 28 من سورة غافر.

ويسأل المؤمن الثاني عن خليله فيقول مثل ذلك، ويثني كل واحد منهما على صاحبه خيراً فتزداد مخاللتهما في الآخرة على التي كانت في الدنيا، ثم يسأل أحد الكافرين عن خليله، فيقول بئس الأخ ما علمته إلا أماراً بالمنكر نهاء عن المعروف اللهم أضلله كما أضللتني، ويقول الآخر مثل ذلك، ويثني كل واحد منهم على صاحبه شراً وتنقلب مخاللتهما عداوة لأنها لم تكن في ذات الله»[1]

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ أي يقال للمتقين يا عبادي لا خوف عليكم من أهوال القيامة وما بعدها ولا أنتم تحزنون إذا حزن الناس قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في موضع نصب على النعت لعبادي لأن عبادي منادى مضاف وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ أي خاضعين منقادين يقال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿70﴾﴾ أي أنتم وحلائلكم المؤمنات تكرمون غاية الإكرام بالتحف والهدايا، ويقال معنى تحبرون: تسرون والحبور: السرور.

قال الله تعالى:

﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿71﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿72﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿73﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿74﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿75﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿76﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿77﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿78﴾ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿79﴾ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿80﴾ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿81﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿82﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿83﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾ أي يطوف عليهم خدمهم بقصاع من ذهب فيها من أنواع الأطعمة اللذيذة الشهية وواحد الصحاف: صحيفة

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 13: 121 بسنده.
وكذا الثعلبي في تفسير ـ خ ـ بسنده.

وهي القصعة الواسعة العريضة وقوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي وأكواب من ذهب والأكواب: جمع كوب وهو إناء مستدير مدور الرأس لا عروة له وقيل الأكواب هي الأباريق التي لا خراطيم لها ولا آذان.

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾، أي في الجنة ما تتمنى الأنفس وتستحسنه الأعين ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ من الأعمال الصالحة لكم فيها ألوان الفاكهة الكثيرة ومنها تأكلون قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ولا يفتر عنهم، أي لا يرفه عنهم، ولا يهون عليهم ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي آيسون من الروح والراحة والإبلاس: هو الإياس من الخير، والمبلس: هو الساكت المقطع لإياسه من الفرح، وما ظلمناهم بهذا العذاب ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي. وفي قراءة ابن مسعود: الظالمون بالرفع على لغة تميم يُعْمِلون المضمر قبله أمّا على القراءة التي كتبت في المصحف فهم زيادة وفصل لا موضع لها من الإعراب[1] بمنزلة ما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2] قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ وذلك أنهم إذا اشتد عليهم العذاب وقل صبرهم تمنوا الموت فنادوا مالك خازن جهنم يا مالك ادع لنا ربك يقضي علينا الموت فنستريح من العذاب فيجيئهم بعد أربعين سنة أنكم ماكثون مقيمون دائمون، وعن ابن عباس إنهم ينادون مالكاً ألف سنة فيجيئهم إنكم ماكثون في العذاب[3]، وقرأ علي وابن مسعود: يا مال بالترخيم[4] قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي لقد أرسلنا إليكم يا معشر قريش محمد رسولنا بالحق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي بل أحكموا عند أنفسهم أمراً في كيد محمد ﷺ، والمكر به فإنا محكمون أمراً إلى مجازاتهم شراً بشر قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ

---

(1) النحاس في إعراب القرآن: 4: 121. والفراء في معاني القرآن: 3: 37

(2) سورة آل عمران: 3 الآية: 159.

(3) ذكره الطبري في تفسيره: 13: 126.

(4) النحاس نفسه، وابن عطية في تفسيره: 14: 276.

وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿80﴾﴾ السر ما يعتقده الإنسان في نفسه ويضمره بقلبه، والنجوى ما يحدث به غيره في الخفية وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي نسمع سرهم ونجواهم ﴿وَرُسُلُنَا﴾ وهم الحفظة عندهم يكتبون عليهم ذلك، ويقال: إن هذه الآية نزلت في ثلاثة نفر من المشركين وهم: صفوان بن أمية، وربيعة بن عمرو، وأخيه حبيب بن عمرو وكانوا يمكرون في قتل النبي ﷺ فقالوا: أخبرنا أن محمداً يقول لأصحابه: إن الله يعلم السر يكون بين الاثنين، أفترونه الآن يعلم ما نقول؟ قال ربيعة: أراه يعلم بعض ما نقول، ولا يعلم بعضاً. فقال صفوان: ولا كلمة واحدة، ولو علم بعضه لعلم كله، فأنزل الله هذه الآية[1].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿81﴾﴾ وذلك أن المشركين لما قالوا لله ولد، ولم يرجعوا عن مقالتهم أنزل الله هذه الآية، والمعنى قل لهم يا محمد: إن كان للرحمٰن ولد في زعمكم فأنا أول من عبد الله وحده وكذبكم بما تقولون هكذا روي عن مجاهد، وقال قتادة والحسن معناه: ما كان للرحمٰن ولد، وأنا أول من عبد الله تعالى من أهل هذا الزمان[2]، وقيل معناه: إن كان للرحمٰن ولد كما تزعمون فأنا أول من غضب للرحمٰن، فعلى هذا القول العابدين من العَبَد بمعنى الغضب قال الفراء: عَبَد عليه أي غضب، وقيل معناه: فأنا أول الآمنين يقال عبد يعبد إذا أذن وغضب قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نزه الله نفسه مما يقول المشركون أي تنزيهاً لخالق السماوات والأرض وخالق العرش عما يضيفون إليه من الولد وقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أمر بتركهم على وجه التوبيخ أي اترك يا محمد كفار مكة يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم بمقالتهم حتى يعاينوا يوم القيامة.

قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿84﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي

(1) يراجع الطبري في تفسيره: 13: 129، وابن عطية في تفسيره: 14: 279، والقرطبي في تفسيره: 16: 119.

(2) ذكر الطبري هذه الأقوال في تفسيره: 13: 139 وما بعدها.

لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿85﴾ وَلَا يَمْلِكُ
ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿86﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ
خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿87﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿88﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ
وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿89﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي هو معبود من في السماوات ومن في الأرض لا معبود غيره، ولا إلٰه إلا هو وهو الحكيم في أمره وقضائه العليم بخلقه وتدبيرهم قوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي تعالى ودام الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وعنده قيام الساعة لا يعلم وقتها أحد غيره ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿86﴾﴾ أي لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي من شهد أنه لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وهم يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم، والمعنى: إلا من شهد بكلمة التوحيد، وعلم بقلبه أنها حق.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي ولئن سألت هؤلاء الذين عبدوا غير الله من خلقهم؟ وخلق معبودهم؟ ليقولن الله خلقهم فمن أين يصرفون عن عبادة الله مع اعترافهم بأنه الخالق، والخالق أولى بالعبادة من المخلوق قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿88﴾﴾ من قرأ بنصب[1] اللام فمعناه: يعلم قيام الساعة، ويعلم قيل محمد يا رب لأن معنى ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: ويعلم قيام الساعة، وقيل: انتصب عطفاً على قوله: ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ كأنه قال: أم يحسبون أنا لا نعلم سرهم ونجواهم، وقيله يا رب في شكواه منهم إلى ربه ـ قال المبرد: العطف على المنصوب حسن، وإن

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 589. وابن خالويه: إعراب القراءات السبع وعللها: 2: 304. والقرطبي في تفسيره: 16: 123.

تباعد المعطوف من المعطوف عليه، ومن قرأ وقيله بكسر اللام[1] فهو على معنى: وعنده علم الساعة، وعلم قيله. والقيل مصدر كالقول يقال قلت قولاً وقيلاً وقالاً، ولو قرأ وقيله بالرفع على معنى وقيل محمد ﷺ هذا كان جائزاً في الكلام[2] قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي اعرض عنهم إلى أن تؤمر فيهم بشيء ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ قال عطاء: يريد مداراة حتى ينزل حكمي ومعناه: المتاركة أي سلام هجران وترك لا سلام تحية ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم، وماذا ينزل بهم فيندمون حين لا ينفعهم الندم، ومن قرأ تعلمون فعلى الأمر للنبي ﷺ بأن يخاطبهم[3] بهذا. قال مقاتل: فسخ السيف الإعراض والسلم ـ والله الموفق.

٥٧ ـ ٥٢

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) المرجع السابق نفسه.

(3) تراجع هذه القراءة في الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: 2: 263. والقرطبي نفسه.

سُورَةُ الدُّخَانِ

قال الإمام الحداد رحمه الله:

سورة الدخان مكية، وهي ألف وأربعمائة وواحد وثلاثون حرفاً، وثلاثمائة وست وأربعون كلمة، وتسع وخمسون آية، قال ﷺ: «**من قرأها ليلة الجمعة غفر له**»[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾
فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرۡتَقِبۡ
يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا
ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ
مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا
مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ أول السورة قسم، وجوابه ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ وقيل جوابه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ لأنه ليس من عادة العرب أن

---

(1) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره ـ خ ـ وذكره الزمخشري في تفسيره: 3: 508 من غير سند.

يقسموا بنفس الشيء الذي يخبرون عنه فعلى هذا يكون قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ معترضاً بين القسم والجواب، والليلة المباركة: هي ليلة القدر أنزل الله فيها القرآن إلى السفرة في السماء الدنيا، فوضعوه في بيت العزة ثم كان جبريل ينزل به على النبي ﷺ شيئاً بعد شيء على مقدار الحاجة هكذا روي عن ابن عباس، وقد قدمنا ذلك في قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[1] وسميت هذه الليلة: مباركة لأن فيها الرحمة، ومغفرة الذنوب، وفيها يقدر الله الأشياء من أرزاق العباد، وآجالهم، وغير ذلك من الأمور ويقال إنما سميت مباركة: لأنه لا يقدر فيها شيء من المكاره كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ⑤﴾[2]، وعن عكرمة أنه كان يقول: الليلة المباركة: هي الليلة النصف من شعبان[3]، فيها يقضى كل أمر فيه حكمة، وفيها ينسخ لجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت جميع ما هم موكلون عليه من سنة إلى سنة، وكان ابن عباس يقول: إنك لتلقى الرجل في السوق، وقد كتب اسمه في الموتى.

والصحيح أن الليلة المباركة: هي ليلة القدر، وعليه أكثر المفسرين قوله تعالى: ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾ انتصب بيفرق بمنزلة يفرق فرقاً لأن أمراً بمعنى فرقاً[4]، وفيه بيان أن الذي يفرق في هذه الليلة لا يكون إلا من عند الله تعالى وتدبيره كأنه تعالى قال: بأمر من عندنا وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ أي مرسلين محمداً ﷺ، ومن قبله من الأنبياء ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي رأفة مني بخلقي ونعمة عليهم، وانتصب على أنه مفعول له على تقدير الرحمة، وقال الزجاج تقديره: إنا أنزلناه في ليلة مباركة للرحمة إنه هو السميع لما يقوله المحق والمبطل العليم بأفعال العباد ومجازاتهم وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ قرأ الكوفيون بالخفض[5] على البدل من قوله: رحمة من ربك، وقوله تعالى: وما

(1) سورة البقرة: 2 الآية: 185.
(2) سورة القدر: 97 الآية: 5.
(3) ذكره البغوي في تفسيره: 5: 111.
(4) التبيان في إعراب القرآن: 2: 347.
(5) الكشف عن وجوه القراءات: 2: 264، والنشر في القراءات العشر: 2: 371.

بينهما من الهواء والخلق وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ معناه: إن الذي دبر السماوات والأرض هو الذي ذكر بإرسال الرسل رحمة منه فإن كنتم موقنين بتدبيره في السماوات والأرض فأيقنوا بما هو مثله واليقين: هو ما يثلج الصدر بالعلم، ولذلك يقال وجد برد اليقين، ولا يجوز في صفات الله تعالى موقن، ويجوز عليم وعالم، وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ يعني الكفار في شك من هذا القرآن يلعبون أي يهزءون به لاهين عنه قوله تعالى ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿10﴾﴾ وذلك أن المشركين بالغوا في إيذاء النبي ﷺ، ويئس من إيمانهم به ودعا عليهم فقال: «**اللهم أشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**» فأنزل الله هذه الآيات، ثم أخذتهم السنة حتى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المحرقة من الجوع، وارتفع القطر، وأجدبت الأرض وكانوا إذا نظروا إلى السماء رأوا دخاناً بين السماء والأرض للظلمة التي غشيت أبصارهم من شدة الجوع، ويقال ليبس الأرض وانقطاع الغيث والمعنى: فانتظر يا محمد يوم تأتي السماء بدخان مبين، فجاء أبو سفيان، فقال: يا محمد جئت تأمرنا بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم[1]، فقال ﷺ: «**اللهم دعوتك فأجبتني، وسألتك فأعطيتني اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً هنيئاً مريئاً طبقاً عاجلاً غير رايث نافعاً غير ضار**» فما برح النبي ﷺ حتى أنزل الله المطر.

وجاء الناس يشتدون، فقالوا: الغرق الغرق، فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿15﴾﴾ فكشف الله عنهم الشدة، ثم عادوا إلى الكفر، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ وذلك يوم بدر، وهذا التأويل إنما يستقيم على قول ابن مسعود فإنه كان يقول: خمس قد مضين: الدخان، والروم، والبطشة، واللزام، وانشقاق القمر[2]، وكان يذهب إلى أن البطشة الكبرى هي التي أصابتهم يوم بدر وذلك أعظم من الجوع الذي أصابهم بمكة، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالدخان في هذه الآيات: الدخان الذي

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 9: 544 رقم 4824 ـ كتاب التفسير، وذكره الطبري في تفسيره: 13: 144 رقم 24013 ـ بسنده.

(2) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 114.

ينزله الله تعالى عند قيام الساعة، ثم يغشاهم عذاب أليم بعد ذلك كما روي عن مسروق أنه قال: إذا كان يوم القيامة نزل دخان من السماء فأخذ بأسماع الكفار والمنافقين، وأبصارهم حتى تصير رؤوسهم كالرأس الحنيذ[1]، ويأخذ المؤمنين بمنزلة الزكام[2]، فعلى هذا القول يكون معنى قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي من أين ينفعهم إيمانهم ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ في الوقت الذي كانوا مكلفين فيه، ثم أعرضوا عن الإيمان به ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي هو معلّم يعلمه الجن ويعترضون له، وقيل معناه: يعلمه بشر مجنون بادعائه النبوة، ويكون معنى قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ أي عذاب الدنيا بعد مجيء الرسول إلى وقت الدخان يمهلهم لكي يتوبوا ولن يتوبوا، والمراد بالبطشة الكبرى على هذا القول: يوم القيامة، وأما على القول الأول فقوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أين التذكر والاتعاظ يقول كيف يتذكرون ويتعظون وحالهم أنه قد جاءهم رسول مبين ظاهر الصدق والدلالة ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ أي أعرضوا عنه، ولم يقبلوا قوله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني عذاب الجوع قليلاً أي زماناً يسيراً قال مقاتل: يوم بدر ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ في كفركم وتكذيبكم، وفيه إعلام أنهم لا يتعظون وأنه إذا رفع عليهم العذاب عادوا إلى طغيانهم وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي واذكر لهم ذلك اليوم يعني يوم بدر.

قال الله تعالى:

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿17﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿18﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿19﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿20﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿21﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿22﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿23﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿24﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿25﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿26﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿27﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿28﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿29﴾﴾.

---

(1) الحنيذ: الحنذ استواء اللحم بالحجارة المسخنة، أو الحنيذ: ما حفرت له في الأرض ثم غممته: الحنيذ: من الشواء النضيج وهو أن تدسه في النار ـ اللسان: حنذ.

(2) البغوي نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي كلفنا قبل أهل مكة قوم فرعون من الطاعة ما اشتد عليهم، وجاءهم موسى رسول كريم الأخلاق، كريم على الله[1]، وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي بأن أدوا إلى بني إسرائيل وهذا من قول موسى لفرعون يقول: اطلقوا بني إسرائيل من العذاب والتسخير فإنهم أحرار إني لكم رسول من الله أمين على الرسالة ليس بخائن، ولا كاذب، ولا كاتم شيئاً مما أوحي إليّ ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا تتجبروا عليه بترك طاعته ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة بينة ظاهرة تدل على صدقي، فلما قال موسى هذه المقالة توعدوه بالقتل بالحجارة، فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿20﴾﴾ أي اعتصمت بخالقي وخالقكم من أن تقتلوني بالحجارة ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿21﴾﴾ وإن لم تصدقوني فاتركوني لا معي ولا علي فلا أقل من أن تكفوا شركم عني، فأبوا أن يقبلوا منه ولم يؤمنوا به ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿22﴾﴾ أي مشركون، ولم يدع إلا بعد أن أذن له في الدعاء عليهم، فلما دعا عليهم قال الله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ حتى تقطع بهم البحر ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه، فيكون ذلك سبباً لغرقهم، فسار موسى بمن آمن معه من بني إسرائيل حتى أتى بهم البحر فضربه بعصاه بأمر الله تعالى، فانفلق ودخله وأصحابه ثم عطف موسى ليضرب البحر بعصاه ليلتئم، وتختلط الطرق التي جعلها الله لبني إسرائيل حتى لا يعبر فيها فرعون وقومه، فقيل له: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي ساكناً منفتحاً على ما هو عليه حتى يدخله فرعون وجنوده ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ في حكم الله تعالى.

وقال ابن عباس معنى قوله: ﴿رَهْوًا﴾ أي اتركه طريقاً، والرهو يكون بمعنى الفرجة بين الشيئين ونظر أعرابي إلى فالح فقال: سبحان الله رهو بين سنامين فيكون المعنى على هذا: واترك البحر ذا رهو أي ذا فرجة، وهي الطريق التي أظهرها الله في الماء[2] قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿25﴾﴾ أي كم ترك

---

(1) وعلى عباده المؤمنين، أو كريم في نفسه لأن الله لم يبعث رسولاً إلا من سراة قومه وكرامهم، يراجع الزمخشري في الكشاف: 3: 502.

(2) يراجع القرطبي في تفسيره: 16: 137.

فرعون وقومه بعد الغرق من بساتين عامرة ملتفة الأشجار وعيون ظاهرة عذبة فيها وزروع ومساكن شريفة حسنة، ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ أي وعيش لين رغد ﴿كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ أي ناعمين معجبين كذلك كانت حالهم، وقيل: كذلك أفعل بمن عصاني، وأورثنا ما تركوه قوماً آخرين، وهم بنو إسرائيل رجعوا بعد هلاك فرعون إلى مصر فصارت أموال قوم فرعون ونعيمهم لهم من غير كلفة ولا مشقة كالميراث الذي ينتقل من المورث إلى الوارث من غير مشقة تلحق الوارث وهذا من غاية أنعام الله على بني إسرائيل قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي ما بكت على فرعون وقومه أي كانوا أهون من أن يبكي عليهم أحد من أهل السماء إنهم كانوا في مقام الخزي قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم إلا وله بابان: باب يصعد فيه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه**»(1)، وكذلك مصلاه الذي كان يصلى فيه من الأرض فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وعن مجاهد أنه قال: إذا مات المؤمن بكت عليه الأرض أربعين صباحاً(2)، وعن السدي قال: لما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما بكت السماء عليه، وبكاؤها حمرة أطرافها(3) والمعنى على هذا لم يكن لفرعون وقومه موضع طاعة في الأرض ولا مصاعد طاعات في السماء فتفقدهم وتبكي عليهم بخلاف المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي لم ينظروا ولم يجهلوا حين أخذهم العذاب لتوبة ولا لغيرها.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿30﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿31﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿32﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿33﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿34﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿35﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿36﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

(1) رواه أبو نعيم في الحلية: 8: 327 ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(2) ذكره أبو نعيم في الحلية: 3: 297، والطبري في تفسيره: 3: 161.
(3) ذكره الطبري في تفسيره: 13: 160 رقم 24072 «قال وبكاؤها: حمرتها».

أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (37) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (41) إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30)﴾ أي خلصناهم مما كان فرعون يفعل بهم من ذبح الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في الأمور الشاقة وقوله تعالى[1]: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا﴾ أي متكبراً ﴿مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي من المتجاوزين عن الحد حتى ادعى الإلهية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32)﴾ أي اخترنا بني إسرائيل بكثرة الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم على عالمي زمانهم، وآتيناهم من الآيات من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى وغير ذلك ﴿مَا فِيهِ بَلَاؤٌا مُّبِينٌ﴾ أي نعمة ظاهرة قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى﴾ رجع إلى ذكر كفار مكة كانوا يقولون ما الموتة الأولى موتة نموتها في الدنيا ثم لا نبعث بعدها ومعنى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي بمبعوثين وهذا ذم لهم على الجهل وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ أي قالوا فأحيي يا محمد آباءنا الذين ماتوا حتى نسألهم أحق ما تقول أم باطل؟ وروي أنهم كانوا يقولون إن كان ما تقوله حقاً فأت بقصي بن كلاب ليخبرنا عنك فإنه كان صدوقاً فيما[2] بيننا. قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ خوفهم الله مثل عذاب الأمم الخالية فقال: أهم خير أم قوم تبع أي ليسوا خيراً منهم يعني أقوى وأشد وأكثر والمعنى: أهم خير في القدرة والقوة والمال أم قوم ملك اليمن، والذين من قبلهم، وخص ملك اليمن بالذكر لأنه كان أقرب إلى زمانهم، وتبع اسم لكل من كان من ملوك اليمن كما أن فرعون اسم ملك مصر، وقيصر اسم ملك الروم، وكسرى اسم ملك العجم، وإنما سمي ملك اليمن بهذا الاسم لكثرة تبعه، وجاء في التفسير: أن ملك اليمن

---

(1) «من فرعون» بدل «من العذاب» بإعادة الجار أي من عذاب فرعون ـ التبيان: 2: 349.

(2) يراجع ابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز» 14: 296 ـ ط: أوقاف المغرب: 1989م.

الذي كان أقرب إلى زمانهم كان مؤمناً وكان اسمه أسعد بن ملكي كرب، وكان قومه كفاراً كما روي عن عائشة أنها قالت كان تبع رجلاً صالحاً[1] ألا ترى أن الله ذم قومه ولم يذمه، وروي أنه وجد مكتوب على قبر من ناحية حمير هذان قبرا رضوى وحضيا ابني تبع ماتا لا يشركان بالله شيئاً قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿38﴾﴾ أي لم يخلقهما غانيين ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي للحق أي للثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية ولكن أكثر المشركين لا يعلمون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿40﴾﴾ معناه: إن يوم الفصل بين الخلائق ميعادهم أجمعين يأتوا في يوم القيامة الأولون والآخرون، ثم نعت ذلك اليوم فقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾ أي لا ينفع فيه صديق صديقاً، ولا قريب قريباً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ولا يمنعون من عذاب الله ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ وهم المؤمنون فإنه يشفع بعضهم لبعض قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل من أمتي ليشفع لأكثر من ربيعة ومضر**»[2] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿43﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿44﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿45﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿46﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿47﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿48﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿49﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿50﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿51﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿52﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿53﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿54﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿55﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿56﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿57﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿58﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿59﴾﴾.

---

(1) الثعلبي في تفسيره ـ خ. والطبري في تفسيره: 13: 166 عن قتادة.

(2) رواه أبو نعيم في الحلية: 1: 305.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ قد تقدم تفسير شجرة الزقوم، والأثيم: هو أبو جهل قال أهل اللغة: الأثيم كثير الإثم[1]، وعن ابن مسعود أنه كان يلقن رجلاً ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ فكان الرجل يقول طعام اليتيم فقال له: قل طعام الفاجر[2]، وقوله تعالى: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ المهل دردي الزيت، وعكر القطران وهو أسود غليظ، وقيل المهل: كل ما يمهل في النار من نحاس أو فضة[3] أو غير ذلك حتى يذوب، وينماع، ويشتد حره، وقوله تعالى: ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ أي في بطون الكفار. وقرىء: يغلي بالياء يعني الطعام، واختاره أبو عبيد[4] لأن المهل مذكر، وقرىء بالتاء يعني الشجرة قال أبو علي الفارسي: لا يجوز أن يحمل الغلي على المهل لأن المهل إنما ذكر للتشبيه به في الذوب ألا ترى أن المهل لا يغلي في البطون إنما يغلي ما شبه به قوله تعالى كغلي الحميم يعني الماء الحار إذا اشتد غليانه، وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي يقال للزبانية خذوه يعني الأثيم فاعتلوه أي قودوه بالعنف دفعاً وسحباً إلى وسط الجحيم يقال عتله يعتِله ويعتُله إذا جره وذهب به إلى وسط الجحيم مكروه وقال مجاهد معناه: فادفعوه على وجهه إلى سواء الجحيم أي وسط الجحيم، وقيل للوسط سواء لاستواء المسافة بينه وبين أطرافه المحيطة به.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿48﴾﴾ قال مقاتل: إن خازن النار يضربه على رأسه فيثقب رأسه عن دماغه ثم يصب فيه ماءً حميماً قد انتهى حره[5] ويقول له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿49﴾﴾ وذلك أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: بأي شيء تهددني فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً وإني لمن أعز أهل هذا الوادي وأكرمهم، فيقول له الملك ذق العذاب

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 13: 169 رقم 24095 ـ عن ابن زيد. والزجاج في معاني القرآن وإعرابه: 4: 428.

(2) نسب الطبري في تفسيره: 13: 168 وما بعدها ـ هذا التعليم «لأبي الدرداء، وأسند القرطبي في تفسيره 16: 149 هذا التعليم لابن مسعود مع أبي الدرداء أيضا.

(3) يراجع الطبري نفسه.

(4) كتاب السبعة لابن مجاهد: 592، والنحاس: إعراب القرآن: 4: 134.

(5) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 120.

أيها المعتز المتكرم في زعمك كما كنت تقوله[1] وقرأ الكسائي أنك بالفتح على تقدير ذق بأنك أو لأنك[2] أنت العزيز الكريم، أو بهذا القول الذي قلته في الدنيا قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي يقول لهم الخازن: إن هذا العذاب الذي كنتم تشكون فيه في الدنيا، وتكذبون به قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ الأمين: هو المقام الذي آمنوا فيه الغير من الموت والحوادث، والمقام: هو المجلس، وقرىء مُقام بضم الميم يريد موضع الإقامة، ومعنى القراءتين[3] واحد، وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السندس: ما لطف من الديباج، والاستبرق: ما غلظ منه مع دقة السلك وهو نوعان من الحرير وقوله تعالى: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي يقابل بعضهم بعضاً في المجالس بالتحية والمحبة قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي كذلك حالهم في الجنة، وقرناهم بحور عين والحوراء: الشديدة بياض العين، الشديدة سوادها البيضاء البشرة، والعين جمع العيناء وهي واسعة العين الحسنة قال مجاهد: الحور هنّ اللواتي يحار الطرف فيهن يرى مخ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في صدر إحداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون[4] قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ فيه بيان أن بساتين الجنة تشتمل على كل الفواكه في كل وقت من الأوقات بخلاف بساتين الدنيا قوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي آمنين من الانقطاع والنقصان، وآمنين عما يخلف من الفواكه من التخم والأمراض والأسقام. قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي لا يموتون سوى الموتة التي ذاقوها في الدنيا ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي ودفع عنهم ربهم عذاب النار مع ما أعطاهم من النعيم المقيم وقوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فعل الله ذلك بالمتقين تفضلاً منه عليهم، وسمى الثواب فضلاً لأن الله تعالى لم يكلفهم لحاجته، ولكن ليصلوا إلى ذلك الثواب

---

(1) الواحدي في أسباب النزول: 315، والقرطبي في تفسيره: 16: 151.

(2) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: 2: 264، ومعالم التنزيل نفسه.

(3) الكشف نفسه.

(4) الطبري في تفسيره: 13: 177 ـ رقم 24111.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي أنزلنا القرآن بلغتك ولغة قومك ليسهل عليهم ولعلهم يتعظون فيؤمنوا به، ولولا تيسير الله حفظه ما قدر أحد على حفظه لعظم أمره، وجلال قدره وقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (59)﴾ أي انتظر بالكفار ما وعدناهم من العذاب إنهم منتظرون هلاكك، قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة الدخان في ليلة الجمعة إيماناً واحتساباً، وتصديقاً بها أصبح مغفوراً له، وإن قرأها في سائر الليالي كانت له نوراً يوم القيامة**».

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

سورة الجاثية مكية، وهي ألفان ومائة، وواحد وتسعون حرفاً، وأربعمائة، وثمان وثمانون كلمة وسبع وثلاثون آية، قال رسول الله ﷺ: «**من قرأها ستر الله عورته، وسكن روعته عند الحساب**»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿1﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿2﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿3﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿4﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿5﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿6﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿7﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿8﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿9﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿10﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿11﴾﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ﴿1﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿1﴾﴾ (حم) مبتدأ وخبره تنزيل[2] قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره - خ - بسنده، وذكره الزمخشري في الكشاف: 3: 514.

(2) النحاس في إعراب القرآن: 4: 139.

﴿لَأيَٰتٍ﴾ أي لدلالات على الحق تدل بخلقها على أن لها خالقاً قديماً لا أول له، وتدل بعظمها وبقائها من علاقة فوقها، ولا عماد تحتها على قادر لا يعجزه شيء وقوله تعالى: ﴿لَأيَٰتٍ﴾ في موضع نصب لأنه اسم[1] إن كما يقال: إن في الدار لزيداً قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أي وفي خلقكم حالاً بعد حال من نطفة إلى أن تصير إنساناً ثم يصير فيه العقل، والحواس ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ أي وفيما يفرق من دابة على وجه الأرض على اختلاف أجناس الدواب، ومنافعها وصورها، وما يقصد من منافعها في ذلك دلالات واضحة على وحدانية الله تعالى لقوم يطلبون علم اليقين، ويوقنون أنه لا إلٰه غيره، وقرأ حمزة ﴿ءَايَٰتٍ﴾ ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ﴾ بالكسر على أنهما منصوبان نسقا على قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على معنى: وإن في خلقكم آيات، ومن رفع فعلى[2] الاستئناف بعد أن تقول العرب: إن لي عليك مالاً، وعلى أخيك مال ـ ينصبون الثاني ويرفعونه قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي في ذهابهما ومجيئهما، وما يحدث في كل واحد منهما من الزيادة والنقصان من غير أن يكونا جميعاً أزيد من أربع وعشرين ساعة.

وفي ما أنزل الله من السماء من المطر فأحيا به الأرض بعد يبسها، وفي تقليب الرياح شمالاً وجنوباً، وقبولاً ودبوراً، وعذاباً ورحمة آيات لقوم يعقلون الدلالة ويتدبرونها قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي تلك التي سبق ذكرها دلائل الله لعباده يتلوها عليك جبريل بأمرنا نقصها عليك بالحق فبأي حديث بعد كتاب الله وآياته يؤمنون إن لم يؤمنوا بهذا القرآن ومن قرأ بالتاء فعلى تأويل قل لهم يا محمد فبأي حديث[3] يؤمنون قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يعني النضر بن الحارث كان يروي من أحاديث العجم للمشركين يستملحون حديثه، وكان إذا سمع آيات القرآن استهزأ بها، فجعل الله له العذاب مرتين: مرة أليماً ومرة مهيناً،

---

(1) النحاس نفسه.

(2) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: 2: 267. والفراء في معاني القرآن: 3: 45.

(3) الكشف نفسه.

وقد ذكرنا تفسير الآية في سورة لقمان ومعنى الآية: ويل لكل كذاب فاجر كثير الإثم يسمع القرآن يقرأ عليه ولا يتدبره، ولا يخشع لاستماعه بل مقيماً على كفره متعظماً عن الإيمان بالله كأن لم يسمع آيات الله، فخوفه يا محمد بعذاب وجيع يخلص وجعه إليه، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي إذا سمع من آيات القرآن شيئاً اتخذها هزؤاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي لهم من بعد موتهم جهنم ولا ينفعهم ما كسبوا من الأموال والأولاد ولا ما اتخذوا من دون الله أرباباً في دفع شيء من عذاب الله ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ كل ذلك للنضر وأمثاله[1] قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ أي هذا القرآن بيان للحق من الباطل في كل ما يحتاج إليه من أمر الدين والدنيا والذين كفروا بآيات ربهم، أي جحدوا دلائل الله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب من عذاب وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم، وقرىء أليمٌ بالرفع على نعت العذاب، وبالكسر على نعت[2] الرجز. ٦٤

قال الله تعالى:

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿12﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿13﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿14﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿15﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿16﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي هو الذي ذلل لكم البحر بتسهيل السبيل إلى سلوكها باتخاذ السفن وإصلاحها، وباقي الآية قد تقدم تفسيرها وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم، ومطر وثلج وبرد ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر ونبات وثمار وأنهار، ومعنى تسخيره لنا: هو أنه خلقها لانتفاعنا بها على الوجه الذي نريده قوله

(1) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 123.
(2) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 594. والنحاس في إعراب القرآن: 4: 142.

تعالى: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي كل ذلك رحمة منه، وبفضله ومنّه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنع الله وإحسانه، فيوحدونه قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه رجل من بني غفار بمكة، فهم أن يبطش به، فأمره الله بالعفو والتجاوز[1] والمعنى: قل للذين آمنوا اغفروا، ولكنه شبهه بالشرط والجزاء كقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يخافون عقاب الله من إيذائكم فتجاوزوا عنهم ليوفيهم الله عقاب سيئاتهم بما عملوا، ويجوز أن يكون المعنى: تجاوزوا عن الذين لا يرجون ثواب الله للمؤمنين ليجزي الله للمؤمنين يوم الجزاء بما كانوا يعملون من الخيرات، وقيل: إن الآية نزلت في أصحاب النبي ﷺ كانوا في أذى شديد من أهل مكة قبل أن يؤمروا بقتالهم، فأمر الله المؤمنين بترك مكافآتهم[3] ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾[4] وقال الحسن: لم تنسخ هذه الآية، وهي على الاستحباب في العفو ما لم يؤد إلى الإخلال بحق الله، وإلى إذلال الدين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة والإنجيل ﴿وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي والفهم في الكتاب، وفصل الأمور، وجعلنا فيهم الأنبياء والرسل ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي من الحلال ومن لذيذ الأطعمة كالمن والسلوى وغيرهما ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم بكثرة النبيين فيهم، وفضل الله أمة نبينا محمد ﷺ بكثرة العلماء فيهم، والقائمين بالحق منهم كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[5].

قال الله تعالى:

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا

(1) أسباب النزول للواحدي: 316، والقرطبي في تفسيره: 16: 161.

(2) سورة إبراهيم: 4 الآية: 31.

(3) يراجع البغوي في تفسيره: 5: 124.

(4) سورة الحج: 22 الآية: 39.

(5) سورة آل عمران: 3 الآية: 110.

بَيْنَهُمْۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿17﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿18﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿19﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿20﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿21﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿22﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِۖ﴾ يعني العلم بمبعث محمد ﷺ، وما بين لهم من أمره ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ الآية قد تقدم تفسيرها قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ أي ثم أكرمناك يا محمد بعد اختلافهم، فجعلناك على طريقة مستقرة من الدين فاستقم عليها، وادع الخلق إليها، ولا تعمل بأهواء الذين يخالفونك في أمر الدين، والقبلة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله قيل: يعني كفار قريش قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ﴾ أي لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئاً إن اتبعت أهواءهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۖ﴾ يعني المشركين أنصار بعضهم بعضاً ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي ناصر المؤمنين المتقين الشرك وهم أمة محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ أي هذا القرآن عظات وعبر للناس، وبيان لهم من الضلالة، ونجاة من العذاب لقوم يوقنون أنه من الله قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت[1] في ثلاثة نفر من المشركين أنصار بعضهم بعضاً وهم: عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة بارزوا علياً، وحمزة، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم يوم بدر كانوا يقولون لهم لئن كان ما يقول محمد حقاً في الآخرة لنفضلنَّ عليكم في الآخرة كما فضّلنا عليكم في الدنيا، ومعنى الآية: أحسب الذين اكتسبوا المعاصي أن نجعلهم في الآخرة كالذين آمنوا بمحمد ﷺ، والقرآن، وعملوا الصالحات من الصلاة والزكاة، وتم الكلام، ثم قال: سواء

---

(1) يراجع القرطبي في تفسيره: 16: 165، والبغوي في معالم التنزيل: 5: 125.

محياهم ومماتهم ارتفع[1] سواءٌ على أنه خبر مبتدأ مقدم تقديره: محياهم ومماتهم سواء، والضمير فيهما يعود إلى القبيلتين المؤمنين والكافرين، يقول المؤمن: مؤمن في محياه ومؤمن في مماته، والكافر: كافر في محياه وفي مماته، والمعنى: أن المؤمن يموت على إيمانه، ويبعث عليه، والكافر يموت على كفره، ويبعث عليه يريد أن محيا القبيلتين ومماتهم سواء، ومن قرأ سواء[2] بالنصب جعله مفعولاً ثانياً لجعل على تقدير أن نجعل محياهم ومماتهم سواء يعني أحسبوا أن حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين، وموتهم كلاً وقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس ما يقضون حين يرون أن لهم في الآخرة ما للمؤمنين.

قال الله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿23﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿24﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿25﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿26﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿27﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿28﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ وذلك أن أهل مكة كانوا يعبدون الحجر والخشب، فإذا رأوا ما هو أحسن منه رموا بالأول وعبدوا الثاني، فهم يعبدون ما تهواه أنفسهم قال قتادة: هو الكافر لا يهوى شيئاً إلا ركبه[3] يبنون العبادة على الهوى لا على الحجة، فأنزل الله هذه الآية[4]: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة: 595، والكشف عن وجوه القراءات: 2: 268. والطبري في تفسيره: 13: 193، والنحاس في إعراب القرآن: 4: 145.
(2) المراجع المذكورة نفسها.
(3) الطبري في تفسيره: 13: 196.
(4) الطبري نفسه.

هَوَىٰهُ﴾ قال الحسن: اتخذ إلٰهه هواه لا يعرف إلٰهه بعقله وإنما يعرفه بهواه[1]. وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي خذله الله على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، وختم على سمعه فلم يسمع الهدى، وعلى قلبه فلم يعقل الهدى، وجعل على بصره غشاوة أي ظلمة فهو لا يبصر الهدى قوله تعالى ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي من يهديه من بعد إضلال الله له ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ فتصرفوا قدرته على ما يشاء وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي نموت نحن ويحيا آخرون ممن يأتون بعدنا، وقال الزجاج معناه: نحيا ونموت والواو[2] للاجتماع والقائلون لهذا زنادقة قريش وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ إلا طول العمر واختلاف الليل والنهار وما لهم بذلك من علم أي لم يقولوه عن علم علموه بل قالوا ضلالاً شاكين وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وكان هذا القول من زنادقتهم الذين كانوا ينكرون الصانع الحكيم، ويزعمون أن الزمان، ومضي الأوقات هو الذي يحدث هذه الحوادث يموت قوم ويحيا قوم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه بيان أنهم كانوا يتعلقون بالحجج الباطلة، ولو تأملوا لعلموا أن دلائل معجزات النبي ﷺ أوكد مما كانوا يظنون.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي وترى أهل كل دين باركة على الركب متهيئة للحساب والجزاء مترقبة لما يصنع بها كما يجثى بين يدي الحاكم ينتظر القضاء وقوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي إلى صحائف أعمالها يقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في دار الدنيا من الخير والشر.

قال الله تعالى:

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ

(1) البغوي في معالم التنزيل: 5: 126.
(2) معاني القرآن وإعرابه: 4: 434.

وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (33)﴾.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (29)﴾ يعني كتاب الحفظة يقرأونه فيدلهم على ما عملوا، فكأنه ينطق كما يقال: نطق الكتاب بتحريم الخمر، وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي بالعدل فيه حسناتهم وسيئاتهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ أي نأمر الملائكة بنسخ ما عملتم، ونبينه بياناً شافياً ونثبته عليكم، وما بعد هذا ظاهر المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني البعث والساعة لا ريب فيها أي القيامة كائنة بغير شك ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أنكرتموها وأظهرتم الشك فقلتم ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ ومن قرأ والساعة بالنصب فهو عطف على وعد[1] ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ في الآخرة سيئات ما عملوا في الدنيا أي ظهر لهم قبائح أعمالهم حين عاينوا ذلك في كتابهم الذي أحصى عليهم كل قليل وكثير.

قال الله تعالى:

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (34) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (36) وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (37)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ أي نترككم في النار، ونترك مراعاتكم وحفظكم فلا نحفظكم من العذاب كما لم تحفظوا حق الله، وتركتم الإيمان، والعمل للقاء هذا اليوم والنسيان ضد الحفظ وقد يكون للترك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي ذلك العذاب عليكم بسبب أنكم اتخذتم كتاب الله ورسوله استهزاء، وغرتكم الحياة الدنيا حتى قلتم لا بعث ولا حساب فاليوم لا تخرجون من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ولا يطلب رضاهم، ولا يقالون إن

---

(1) ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات: 595، ومكي في الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: 2: 169. والنحاس في إعراب القرآن: 4: 154.

استقالوا، وقد انقطعت المعاتبة فلا يجابون، ولا يقبل لهم في ذلك اليوم عذرٍ ولا توبة قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿36﴾﴾ أي لله الشكر على عظيم نعمائه على الخلائق كلهم، وهو المختص بالكبرياء في أهل السماوات والأرض، وله العظمة والجبروت فيهما، وهو العزيز في ملكه وسلطانه الحكيم في قضائه وأمره، والكبرياء: استحقاق التعظيم له وحده في أعلى مراتب التعظيم لأنه سبحانه لا تجوز عليه صفة النقص قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى الكبرياء ردائي، والعظمة أزاري فمن نازعني واحدة منهما ألقيته في جهنم**»[1].

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 6: 281 رقم 8158 فصل في التواضع.

سُورَةُ الأَحْقَافِ

سورة الأحقاف مكية، وهي ألفان وخمسمائة وتسعون حرفاً، وستمائة وأربع وأربعون كلمة، وخمس وثلاثون آية، من قرأها أعطي من الأجر بعدد كل رمل في الدنيا عشر حسنات[1]، ومحى عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات[2]، هكذا قال ﷺ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿1﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿2﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿3﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ
هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿4﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن
لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿5﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ
أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿6﴾﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ﴿1﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿1﴾﴾ قد تقدم تفسيره وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ظاهر المعنى ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ينتهي إليه، وهو يوم القيامة تنتهي إليه

(1) ذكره الزمخشري في تفسيره: 3: 528.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ.

السماوات والأرض، وهذا إشارة إلى فنائها وانقضائها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي معرضون عما خوفوا به من القرآن لا يتدبرون ولا يتفكرون، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الملائكة، والأصنام، وتزعمون أنها آلهة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أخبروني ما خلقوا من الأرض لأن الخالق هو الذي يستحق العبادة، أم لهم نصيب في خلق السماوات والأرض، فلذلك أشركتموهم في عبادة الله ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ القرآن فيه برهان ما تدعون ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ معناه: أو ائتوني ببقية من علم المتقدمين ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في مقالتكم، وقيل: الأثارة والأثرة بإسكان الثاء، والأثرة بفتحها معناها: الرواية عن العلماء يقال فلان يأثر الحديث عن فلان، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[1]، والعلم المأثور هو المروي.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي من أبعد ذهاباً عن الصواب ممن يدعو من دون الله من لا يجيب دعاءه، ولو دعاه إلى يوم القيامة يعني الأصنام وهم عن دعاء من دعاها غافلون لأنها جماد لا تسمع ولا تبصر. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ معناه: وإذا جمع الناس يوم القيامة صارت الأصنام أعداء لمن عبدها في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[2] وقال: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[3].

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑦ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑧ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ⑨ قُلْ

(1) سورة المدثر: 74 الآية: 24.
(2) سورة فاطر: 35 الآية: 14.
(3) سورة القصص: 28 الآية: 63.

أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿10﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي القرآن لما جاءهم ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ويقولون: إن محمداً أتى به من قبل نفسه وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لا تقدرون أن تردوا عني عذابه، فكيف أفترى على الله من أجلكم، وأنتم لا تقدرون على دفع عقابه عني إن افتريت عليه شيئاً وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي الله تعالى أعلم بما تقولون في القرآن، وتخوضون فيه، من التكذيب به، والقول فيه إنه سحر وكهانة ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ إن القرآن جاء من عند الله ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في تأخير العذاب عنكم حين لم يعجل عليكم بالعقوبة، قال الزجاج: هذا دعاء لهم إلى التوبة معناه: إن من أتى من الكبائر بمثل ما آتيتم به من الافتراء على الله ثم تاب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور له[1] رحيم به قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي ما أنا أول رسول إلى الناس قد بعث قبلي كثير من الرسل، والبدع من كل شيء: المبتدع ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أيتركني في مكة أو يخرجني منها أو يخرجكم. وقيل معناه: لا أدري أموت أم أقتل، ولا أدري أيها المكذبون أترمون بالحجارة من السماء أم يخسف بكم وهذا إنما هو في الدنيا.

فأما في الآخرة فقد علم أنه في الجنة، وأن من كذبه في النار ألا تراه يقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ وقد أوحى إليه بما يصير إليه الكافر والمؤمن في الآخرة، وقيل معناه: وما أدري ماذا أومر به في الكفار من حرب أو سلم، وما أدري ماذا يفعل الله بهم أيعاجلهم الله بالعقوبة أو يؤخرها عنهم؟ وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي ما أتبع إلا القرآن، ولا أبتدع من عندي شيئاً ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذركم وأبين لكم الشرائع، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ

---

(1) يراجع معاني القرآن وإعرابه: 4: 429.

﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ اختلفوا في المراد بالشاهد في هذه الآية. قال من ذهب إلى أن هذه السورة كلها مكية أن المراد به (ابن يامين)[1] فإن عبد الله بن سلام ممن أسلم بالمدينة وهذا الشاهد قدم مكة فآمن، وقيل: إن المراد بالشاهد موسى عليه السلام كان من بني إسرائيل، وكانت شهادته للنبي ﷺ ما في التوراة من تصديق القرآن ومثل القرآن هو التوراة[2]، وقال ابن عباس: الشاهد هو عبد الله بن سلام، روى أنه قدم من الشام فأتى النبي ﷺ ليلاً، وشهد أن بعثه مكتوب في التوراة، وآمن به، ثم قال: أخبئني في بيت ثم أحضر اليهود، واسألهم عني فإنهم سيزكونني عندك، ويخبرونك بمكاني من العلم، ففعل ذلك رسول الله ﷺ، واستخبر اليهود، وقال لهم: «**ما تقولون في عبد الله بن سلام؟**» فقالوا: عالمنا وابن عالمنا، وسيدنا وابن سيدنا، وبقية المتقدمين منا، فقال ﷺ: «**أرأيتم إن آمن بي أتؤمنون أنتم؟**» قالوا: إنه لا يفعل ذلك فكرر عليهم النبي ﷺ مرة بعد أخرى حتى قالوا: نعم، فخرج عليهم عبد الله بن سلام، وقال لهم: ألم يأتكم في التوراة عن موسى عليه السلام إذا رأيتم محمداً ﷺ، فأقرأوه مني السلام، وآمنوا به، ثم جعل يوقفهم في التوراة على مواضع منها فيها ذكر النبي ﷺ، وصفته، وكانوا يستكبرون ويجحدون فقال عبد الله بن سلام للنبي ﷺ: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأنك رسول الله أرسلك بالهدى ودين الحق[3].

فقالوا له: ما كنت أهلاً لما أثنينا عليك، ولكنك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك، ومعنى الآية: أخبروني ماذا تقولون إن كان القرآن من عند الله أنزله وكفرتم أيها المشركون، وشهد شاهد من بني إسرائيل عبد الله بن سلام على صدق النبي ﷺ في نبوته على مثله أي عليه أنه من عند الله، والمثل: صلة، وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ﴾ يعني الشاهد، واستكبرتم أنتم عن الإيمان به، وجواب إن محذوف تقديره: أليس قد ظلمتم[4] أن الله لا يهدي القوم الظالمين، وقيل تقدير

---

(1) يراجع الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» ـ خ.
(2) يراجع القرطبي في تفسيره: 16: 188.
(3) يراجع الطبري في تفسيره: 13 ـ 15 رقم 24176.
(4) التبيان في إعراب القرآن: 2: 356.

الجواب: قل أرأيتم إن كان من عند الله، وكفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله، فآمن واستكبرتم أتأمنون عقوبة الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين يعني المعاندين للإيمان بعد الوضوح والبيان فحرمهم الله الهداية.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿11﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿12﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿13﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿14﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي قال الكفار من بني أسد، وغطفان، وأشجع لمن أسلم من جهينة، وأسلم، وغفار: لو كان هذا يعنون الإسلام خيراً مما نحن عليه لما سبق إليه رعاء الشاة ونحن أرفع منهم، وإذ لم يهتدوا بهدي الله مع ظهوره ووضوحه، فسيقولون مع ذلك هذا القرآن كذب متقادم اتبعه محمد وأحياه في عصره، يقول الله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي ويشهد للقرآن كتاب موسى قبله إمام يقتدى به، ونجاة من العذاب لمن آمن به، وهذا القرآن مصدق لما في التوراة، وقوله تعالى: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي بلسان عربي يعقلونه، ويجوز أن يكون منصوباً على الحال[1]، ويكون لساناً توكيداً كما يقال: جاءني زيد رجلاً صالحاً يريد جاءني زيد صالحاً، وقال الزجاج: قوله تعالى: ﴿إِمَامًا﴾ نصب على الحال[2] تقديره: تقدمه كتاب موسى إماماً، وفي الكلام محذوف تقديره: إماماً ورحمة، فلم يهتدوا به يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ وذلك أن المشركين لم يهتدوا بالتوراة، فيتركوا عبادة الأصنام، ويعرفوا منها صفة النبي ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ غير الكتب التي قبله لساناً عربياً

(1) التبيان نفسه. والنحاس في إعراب القرآن: 4: 162.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 4: 440. والنحاس نفسه.

منصوب على الحال، مصدقاً لما بين يديه عربياً، ومعنى قوله: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا﴾ أي يقتدى به يعني التوراة ورحمة من الله للمؤمنين به قبل القرآن، وعن أبي الزناد[1] عن أبيه قال: كانت زِنِّيرة[2] امرأة ضعيفة البصر فلما أسلمت كان الأشراف من مشركي قريش يستهزءون بها، ويقولون: والله لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا إليه زِنِّيرة، فأنزل الله فيها، وفي أمثالها هذه الآية[3] ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي أساطير الأولين قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي أنزلناه لنخوف به الذين ظلموا يعني مشركي مكة، ومن قرأ بالياء أسند الفعل إلى الكتاب[4] وقوله تعالى ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ أي وهو بشرى للمحسنين أي للموحدين يعني الكتاب.

قال الله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿15﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿16﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿17﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿18﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿19﴾﴾.

---

(1) أبو الزناد عبد الله بن ذكوان القرشي المدني محدث، قال الليث: رأيت أبا الزناد، وخلفه ثلاثمائة تابع من طالب فقه وعلم وشعر وكان ثقة في الحديث عالماً بالعربية فصيحاً توفي سنة مائة وثلاثون هجرية ـ تذكرة الحفاظ: 1: 126، تهذيب ابن عساكر: 7: 382.

(2) زِنِّيرة: امرأة رومية كانت من السابقات في الإسلام، وعذبت في سبيل اعتناقها للإسلام فأنقذها أبو بكر الصديق رضي الله عنه من التعذيب.

(3) يراجع تفسير القرطبي: 16: 189.

(4) كتاب السبعة في القراءات: 596، والنحاس في إعراب القرآن: 4: 162.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ في الآية دليل على أنها نزلت في رجل بعينه لأن الناس كلهم لا يكون حملهم ووضعهم ثلاثون شهراً، ولا يقولون إذا بلغوا أربعين سنة: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ وجاء في التفسير أنها نزلت في أبي بكر الصديق[1] رضي الله عنه، وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أي على كلفة ومشقة، وأراد به الحمل في البطن إذا ثقل عليها الولد [وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ يريد شدة الطلق ومشقة الوضع، قرأ أهل الكوفة[2]: إحساناً وهي قراءة ابن عباس][3].

قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ أي حمله ستة أشهر، ورضاعه أربعة وعشرون شهراً وروى عكرمة عن ابن عباس قال: إذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعته واحداً وعشرين شهراً[4] وقال مقاتل، وعطاء، والكلبي: هذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وكان حمله وفصاله هذا القدر ويدل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ إلى آخر الآية، وقرأ الحسن ويعقوب: وفصله بغير ألف[5]، قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال ابن عباس: الأشد بضع وثلاثون سنة وقال عطاء: ثماني عشرة سنة، وذلك أن أبا بكر صحب النبي ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة، والنبي ﷺ ابن عشرين سنة في تجارته إلى الشام، وكان لا يفارقه في أسفاره، وحضوره، فلما بلغ أربعين سنة، ونبى رسول الله ﷺ دعا ربه، فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أي ألهمني أشكر نعمتك علي بالهداية والإيمان حتى لم أشرك بك، وعلى والدي: أبي قحافة عثمان بن عمرو، وأمي أم الخير بنت صخر بن عمرو وقال علي رضي الله عنه: نزلت هذه الآية في أبي بكر أسلم أبواه جميعاً، ولم يجتمع لأحد من الصحابة والمهاجرين أبوان غيره، وأوصاه الله بهما[6] قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ

---

(1) أسباب النزول للواحدي: 318، والبغوي في معالم التنزيل: 5: 136.

(2) كتاب السبعة نفسه.

(3) ما بين المعقوفتين ساقط من غير ترك بياض في النسخة: ك.

(4) القرطبي في تفسيره: 16: 193.

(5) ابن خالويه: إعراب القراءات السبع وعللها: 2: 316، والقرطبي في تفسيره نفسه.

(6) يراجع البغوي في تفسيره معالم التنزيل: 5: 136.

﴿صَٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ﴾ فأجابه الله فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله، ولم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه، واستجاب الله في ذريته حين قال: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ فلم يبق له ولد ولا والد إلا آمنوا بالله وحده، قال موسى بن عقبة[1]: لم يدرك أربعة النبي ﷺ هم وأبناؤهم إلا هؤلاء: أبو قحافة، وأبو بكر، وابنه عبد الرحمٰن، وأبو عتيق بن عبد الرحمن بن أبي بكر، قال البخاري: أبو عتيق أدرك النبي ﷺ - قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي اجعل أولادي كلهم صالحين، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ أي إني أقبلت إلى كل ما تحب، وأسلمت لك بقلبي ولساني، وإني من المخلصين، فأسلم أبوه، وأمه، ولم يبق له ولد إلا أسلم.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أي أهل هذه الصفة هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا وهو الطاعات، ويتجاوز عنهم سيئاتهم التي سبقت في الجهل وقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ أي يدخلون في أصحاب الجنة وعداً صدقاً من الله كانوا يوعدون به في الدنيا على ألسنة الرسل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ نزلت[2] في عبد الرحمن بن أبي بكر قال لأبيه وأمه قبل أن يسلم حين كانا يدعوانه إلى الإسلام ويخبرانه بالبعث بعد الموت، وهو يأبى، ويسيء القول لهما، فقال لهما: أف لكما أي قذراً لكلامكما يقال أف عند شم الرائحة الكريهة ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أي أتخوفانني أن أخرج من القبر ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ أي وقد مضت القرون من قبلي، ولم يخرج أحد منهم من قبره أين عبد الله بن جدعان، أين فلان بن فلان، وهما يستغيثان الله يعني والديه يدعوان الله له بالهدى، ويقولان له: ﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾ أي صدق بالبعث إن وعد الله حق بالبعث، فيقول لهما ما هذا الذي تقولان إلا أكاذيب

(1) أبو محمد موسى بن عقبة بن أبي عياش الأسدي - عالم بالسيرة النبوية، من ثقات رجال الحديث له كتاب المغازي، قال الإمام بن حنبل: عليكم بمغازي ابن عقبة فإنه ثقة من أهل المدينة، ومولده ووفاته بها سنة مائة وإحدى وأربعون هجرية - الطبقات الكبرى: 5: 425، الأعلام: 7: 325.

(2) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 137، والثعلبي في تفسيره - خ. والقرطبي في تفسيره: 16: 197.

الأولين والاستغاثة بالله: دعاء الله ليغيثك على ما بك والجار محذوف تقديره: يستغيثان بالله، قرأ الحسن والأعمش: أن اخرج بفتح الألف وضم الراء[1] قال ابن عباس: فلما ألحّ عليه أبواه في دعائه إلى الإيمان قال لهم: أحيوا لي عبد الله بن جدعان، فإنه كان شيخاً صدوقاً، وأحيوا لي عامر بن كعب ومشايخ من قريش حتى أسألهم عما تقولان واخرجا لي بعض آبائي وأجدادي من قبورهم لأسألهم فإن صدقوكما آمنت فقال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم﴾، أي وجبت عليهم كلمة العذاب في أمم قد مضت من قبلهم من كفار الجن والإنس ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ بترك الإيمان، ثم أسلم عبد الرحمن وحسن إسلامُه، وكان من أفاضل المؤمنين، وذهب الحسن: إلى أن الآية نزلت في كافر عاق لوالديه مكذب بالبعث[2] مات على كفره قال: لأن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ إعلام بأنهم لا يؤمنون وإلى هذا القول ذهب الزجاج رحمه الله[3]، ويروى أن معاوية كتب إلى مروان لتأخذن على الناس البيعة ليزيد فكره ذلك عبد الرحمٰن وقال تأخذون البيعة لأبنائكم.

قال مروان هذا الذي يقول الله فيه: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ فبلغ ذلك عائشة، فقالت كذب مروان، والله ما هو به، وإنما أنزل الله ذلك في رجل من بني أمية، ولو شئت أن أسميه لسميته لكم[4] ولكن أشهد أن رسول الله ﷺ لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض[5] من لعنة الله.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ أي ولكل الفريقين من الكافرين والمؤمنين منازل بما عملوا وليوفيهم جزاء أعمالهم وهم لا يظلمون أي لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد في سيئاتهم.

---

(1) يراجع ابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز»: 15: 27، والنحاس في إعراب القرآن: 4: 166.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 13: 26 رقم 24192.

(3) معاني القرآن وإعرابه: 4: 444.

(4) الثعلبي في تفسيره ـ خ، وكذا القرطبي في تفسيره: 16: 197.

(5) الفضض: اسم ما انقطع من الشيء وتفرق منه، أرادت أنه قطعة من لعنة الله وطائفة منها، اللسان «فضض».

قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا
فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (20)
۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا
تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ
وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا
بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا
يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي أنذرهم يوم يعرض كفار مكة على النار، ويقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ أي أذهبتم أموالكم، وقيل: قوتكم وشبابكم في لذاتكم في الدنيا لا في طلب رضى الله بل في وجوه محرمة، وانتفعتم بطيباتكم في الدنيا، فليس لكم اليوم هاهنا حسنات وإنما تجزون عذاب الهون أي الهوان الشديد باستكباركم في الأرض بالباطل، وخروجكم من أمر الله إلى معاصيه، وعن ابن عباس رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: ادع الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع الله على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله[1] تعالى، فقال ﷺ: «**أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا**»[2]، وروى أن عمر رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت حفصة، وإنه لمضطجع على خصفة، وإن بعضه لعلى التراب، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً، فسلمت ثم جلست، فقلت يا رسول الله أنت نبي الله وصفوته وخيرته من خلقه، وكسرى وقيصر على سرر الذهب، وفرش الديباج والحرير[3]، فقال ﷺ: «**يا عمر إنّ**

(1) ذكره البغوي في معالم التنزيل: 5: 138.

(2) ذكره القرطبي في تفسيره: 16: 201.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 2: 166، 1449، فصل في زهد النبي ﷺ.

أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم، وهي وشيكة الانقطاع، وإنا أخرت لنا طيباتنا».

وعن سالم بن عبد الله أن عمر رضي الله عنه كان يقول: والله ما نعبأ بلذات العيش بأن نأمر بصغار المعز فتسمط لنا، ونأمر بلباب الحنطة فتخبز لنا، ونأمر بالنبيذ فينبذ لنا حتى إذا صار مثل عين اليعقوبي أكلنا هذا وشربنا هذا، ولكنا نريد أن نستبقي طيباتنا[1] لأنا سمعنا الله عز وجل يذكر قوماً، فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: رأى عمر رضي الله عنه في يدي لحماً مغلظاً، فقال: ما هذا يا جابر؟ قلت: اشتهيت لحماً فاشتريته، فقال عمر: أو كلما اشتهيت يا جابر اشتريت؟ أما تخاف هذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ - وعن محمد بن ميسرة قال: قال جابر بن عبد الله: اشتهى أهلي لحماً فاشتريته، ومررت بعمر فقال: ما هذا يا جابر؟ قلت: اشتهى أهلي اللحم فاشتريت هذا اللحم بدرهم، فقال: أوكلما اشتهى أحدكم شيئاً جعله في بطنه أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية[2]: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ - وعن عمارة بن القعقاع[3] عن أبي زرعة[4] قال: دخل عتبة[5] بن فرقد على عمر رضي الله عنه وهو يكدم كعكاً شامياً، ويتفوق لبناً حاذراً فقال: يا أمير المؤمنين لو أمرت أن يصطنع لك طعام ألين من هذا قال: يا ابن فرقد: أترى أحداً من العرب أقدر على ذلك مني؟ فقال: ما أحد أقدر على ذلك منك يا أمير المؤمنين فقال عمر: سمعت الله تعالى عير قوماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ والله لو شئت أن أكون أطيبكم طعاماً، وأحسنكم ثياباً لفعلت، ولكن أستبقي دنياي لأخرتي وعن حفص بن أبي العاص قال: كنت أتغدى مع عمر رضي الله عنه، فجيء بخبز متقطع يابس غليظ

---

(1) الثعلبي في تفسيره - خ.

(2) القرطبي في تفسيره: 16: 202.

(3) عمارة بن القعقاع بن شبرمة الضبي. الطبقات الكبرى: 6: 337 رقم 2557.

(4) أبو زُرعة بن عمرو بن جرير بن عبد الله البجلي روى عن جده وعن أبي هريرة، الطبقات الكبرى: 6: 300 رقم 2358.

(5) عتبة بن فرقد صحب النبي ﷺ، الطبقات الكبرى: 6: 114 رقم 1901.

فجعل يأكل منه ويقول لتأكلوا، فجعلنا نعتذر، فقال: ما بكم لا تأكلون؟ قلنا لا تأكله والله يا أمير المؤمنين ما نستطيعه لكنا نرجع إلى طعام ألين من طعامكم هذا، فقال يا ابن العاص ما ترى إني قادر أن آمر بدقيق أن ينخل بخرقة ويخبز في تنور، وآمر بعناق سمينة فيسمط عنها شعرها ثم تخرج صلاً كأنها كذا وكذا، أما ترى أني أقدر أن أعمد إلى صاع أو صاعين من زيت فاجعله في سقاء ثم انش عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال قال: قلت: والله يا أمير المؤمنين لجاد ما فعلت العيش قال: أجل والله الذي لا إله إلا هو لولا أني أخاف أن تنقص حسناتي يوم القيامة لشاركتكم في[1] العيش ولكني سمعت الله تعالى يقول: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ وكان عمر رضي الله عنه يقول: لا تنخلوا الدقيق، فإنه كله طعام، وكان عمر رضي الله عنه يتغذى اللبن والخبز[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حدثني عبد الله بن عبيد الله عن ابن عباس رضي الله عنهما عن عمر أنه حدثه أنه دخل على رسول الله ﷺ، فوجده على سرير مرمول قد أثر الشرائط في جنبه متوسداً وسادة من أدم حشوها ليف قال عمر: فالتفت في البيت، فوالله ما رأيت شيئاً يرد البصر إلا أهبا يعني جلوداً معطونة، قد سطع ريحها، فبكيت وقلت: يا رسول الله إنك خيرة الله من خلقه، وهذا كسرى وقيصر في الديباج والحرير، فاستوى رسول الله ﷺ جالساً، وقال: «**أوفي تشك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا**»[3]، وروي أن عمر رضي الله عنه قدم من الشام، فصنع له طعام طيب، فقال: هذا لنا فما لنفوس المسلمين الذين ماتوا، وهم لا يشبعون من خبز الشعير. فقال خالد بن الوليد: لهم الجنة يا أمير المؤمنين، فاغرورقت عينا عمر بالدموع، وقال: لئن كان حظنا في الحطام[4]، وهم في رياض الجنان لقد باينونا بوناً بعيداً، ورروي

(1) الثعلبي في تفسيره: خ، والقرطبي في تفسيره: 16: 206.

(2) القرطبي نفسه، وفي النسخة ك: اللبن والدقيق.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب: 2: 166 رقم 1449 ـ فصل في زهد النبي ﷺ.

(4) الطبري في تفسيره: 13: 27 رقم 24196: الحطام: أي الدنيا.

عن النبي ﷺ أنه دخل على أهل الصفة[1]، فرآهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعاً، فقال: «**أنتم خير من قوم يغدو أحدهم في حلة، ويروح في أخرى، ويغدي عليه بجفنة[2]، ويراح عليه بأخرى**»[3] قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ يعني يوم القيامة تجزون العذاب الذي فيه ذلكم وخزيكم، بما كنتم تستكبرون في الأرض عن عبادة الله، والإيمان به، وبما كنتم تفسقون.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك أهل مكة أخا عاد، وهو هود عليه السلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أي إذ خوف قومه وحذرهم عذاب الله إن لم يؤمنوا بالأحقاف وهو جمع حقف، وهو المستطيل المعوّج من الرمل، قال عطاء: رمال بلا شجر، وقال مقاتل: هي باليمن في حضرموت، وقال ابن عباس: هو واد بين عُمان ومَهْرة، وإلى مهرة تنسب الجمال المهرية، وقال قتادة: ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشحر، وكانوا من قبيلة إرم، وقال ابن زيد الأحقاف[4]: ما استطال من الرمل، وأشرف كهيئة الجبل، ولم يبلغ أن يكون جبالاً، وجمعه حقف، والأحقاف: جمع الجمع.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده إلى قومهم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لم أبعث رسولاً قبل هود ولا بعده إلا بالأمر بعبادة الله وحده، وهذا كلام اعترض بين إنذار هود وكلامه لقومه ثم عاد إلى كلام هود لقومه بقوله: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، وتقدير الكلام: إذ أنذر قومه بالأحقاف، فقال: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، ويحتمل أن يكون المراد بهذا العذاب عذاب الدنيا، ويحتمل عذاب الآخرة - قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي قالوا يا

---

(1) أهل الصفة: فقراء المهاجرين من لم يكن له منهم منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد الرسول ﷺ بالمدينة يسكنونه.

(2) الجفنة: أعظم ما يكون من القصاع، أي الجفنة: كالقصعة.

(3) الطبري نفسه.

(4) تراجع هذه الأقوال في الأحقاف في تفسير البغوي: 5: 141.

هود أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا بالإفك فأتنا بما تعدنا من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أن العذاب نازل بنا، قال لهم هود: إنما العلم بمجيء العذاب عند الله يعلم متى يأتيكم العذاب وأنا أبلغكم ما أرسلت به إليكم من الوحي والإنذار، والمعنى: إنما أنا مبلغ، والعلم بوقت العذاب عند الله ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ أمر الله وعقابه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ معناه: فلما رأوا العذاب الذي خوفوا به عارضاً كهيئة السحاب يستقبل أوديتهم التي كانوا إذ رأوا الغيم من نواحيها كانت سنتهم سنة خصب ظنوه سحاب خير فقالوا: هذا عارض ممطرنا أي هذا الذي وعدتنا به سحاب قد عرض في السماء ممطرنا فقال لهم هود: بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم أي ريح الدبور جاءت من قبل المغرب فيها عذاب وجيع لكم قال المفسرون: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً فساق الله إليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من واد لهم يقال له: المغيث، فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا غيم فيه مطر، فقال هود: بل ما استعجلتم به، ثم بين ما هو، فقال: ريح فيها عذاب أليم، قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ أي تهلك كل شيء مرت به من الناس والدواب، والأموال، فأصبحوا يعني عاداً لا ترى إلا مساكنهم، قال الزجاج معناه: لا ترى شيئاً إلا مساكنهم[1]، والمعنى: لا ترى أيها المخاطب إلا مساكنهم لأن السكان، والأنعام نادت بالريح، قال ابن عباس: فلم يبق إلا هود ومن آمن معه.

وعن ابن عباس قال: لما دنا العارض قاموا فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرعاة والمواشي تطير بها الريح بين السماء والأرض، ورأوا الفساطيط والصعان ترفعها الرياح كأنها جراد، فدخلوا بيوتهم، فأغلقوا على أنفسهم الأبواب فجاءت الريح فقلعت أبوابهم، واحتملتهم إلى عنان السماء، ثم صرعتهم، وأهالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام حسوماً لهم أنين، ثم أمر الله الريح بعد ذلك، فاحتملتهم فرمت بهم

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 4: 446.

٦٩

في البحر قرأ الأعمش، وحمزة، وعاصم، ويعقوب: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بياء مضمومة بالرفع[1]، أي لا يرى الناس لأنهم كانوا تحت الرمل وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي هكذا نجزي من أجرم جرمهم بمثل ما جازيناهم، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى الريح فزع، وقال: «**اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما أرسلت به**»[2]، وكان يقوم ويقعد، ويتغير لونه، فنقول له: مالك يا رسول الله؟ فيقول: «**إني أخاف أن يكون مثل قوم هود حيث قالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**».

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿26﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿27﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿28﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿29﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿30﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ الخطاب لأهل مكة والمعنى: ولقد مكنّا عاداً فيما لم نمكنكم فيه من البسط في المال والولد وزيادة القوة وطول العمر والقامة وشدة الأبدان.

قال المبرد: ما في قوله: فيما بمنزلة الذي، والذي بمنزلة ما وتقديره:

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 598. وكذا الفراء في معاني القرآن: 3: 55. وكذا النحاس في إعراب القرآن: 4: 170.

(2) أخرجه البيهقي في الشعب: 4: 315 رقم 5235 ـ باب في حفظ اللسان.

ولقد مكناهم في الذي مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة[1] وقلوب يعقلون بها فلم ينفعهم ذلك من عذاب الله إذ نزل بهم بسبب أنهم كانوا يجحدون دلائل الله ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي نزل بهم عقاب استهزائهم بالرسل أخبر الله تعالى أنهم أعرضوا عن قبول الحجج والتفكر فيما يدلهم على التوحيد مع ما أعطاهم الله من الحواس التي بها تدرك الأدلة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ هذا زيادة تخويف لأهل مكة، والمعنى: ولقد أهلكنا ما حولكم من أهل القرى مثل عاد وقوم تبع باليمن وقوم صالح بالحجر، وقوم لوط على طريقكم بالشام أراد القرى المهلكة باليمن والشام وقوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وبينا لكم الآيات في كل وجه لكي ترجعوا من الكفر إلى الإيمان وقيل معناه: وبينا الآيات لعل أهل القرى يرجعون وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ أي فهلا حين نزل بهم العذاب أعانهم الذين عبدوهم من دون الله ليقربوهم إلى الله في زعمهم وقوله تعالى: ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي بل ما نفعوهم وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ وافتراؤهم يعني اتخاذهم الآلهة من دون الله هو كذبهم وافتراؤهم على الله أنها آلهة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ معناه: واذكر إذ وجهنا نفراً من الجن، وذلك أن رسول الله ﷺ لما أيس من إسلام أهل مكة خرج إلى أهل الطائف ليدعوهم إلى الإسلام، فلما انصرف إلى مكة راجعاً ووصل ببطن نخلة قام يقرأ القرآن في صلاة الفجر، فمر به نفر من أشراف جن نصيبين من اليمن فاستمعوا لقراءته قال ابن عباس: كانوا تسعة نفر، وقال الكلبي ومقاتل كانوا سبعة صرفوا إلى النبي ﷺ ليستمعوا منه وينذروا قومهم وهو قوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فلما انتهوا إلى النبي ﷺ قال بعضهم لبعض: اسكتوا حتى تستمعوا قراءته، وإنما قالوا ذلك لأنهم سمعوا شيئاً لم يسمعوا مثله فلما فرغ من القراءة والصلاة انصرفوا إلى قومهم محذرين إياهم عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا وهذا قول سعيد بن جبير وجماعة من أئمة الخير[2].

---

(1) النحاس في إعراب القرآن: 4: 170.

(2) يراجع تفسير الطبري: 13: 39 وما بعدها.

وقال آخرون: بل أمر رسول الله ﷺ أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله، فقرأ عليهم القرآن فصرف الله نفراً من الجن وجمعهم له، فقال ﷺ لأصحابه: «**إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فأيكم يتبعني**» فأطرقوا فقال لهم مرة ثانية فأطرقوا فقال لهم مرة ثالثة فاتبعه عبد الله بن مسعود، قال ابن مسعود: ولم يحضر معه أحد غيري[1] فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل النبي ﷺ شعباً يقال له شعب الحجون، وخط لي خطاً ثم أمرني أن أجلس فيه، وقال لي لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن فجعلت أرى أمثال النسور تهوى وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على رسول الله ﷺ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما سمعت صوته ثم طفقوا يتقطعون أمثال قطع السحاب ذاهبين ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر فقال: «**أنمت؟**» قلت لا والله ولقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول اجلسوا، فقال: «**لو خرجت لم آمن أن يختطفك بعضهم**» ثم قال: «**هل رأيت شيئاً؟**» قلت نعم رأيت رجالاً سوداً، قال: «**أولئك جن نصيبين سألوني المتاع فمتعتهم بكل عظم حايل وروثة وبعرة**»، فقالوا: يا رسول الله يقذرها الناس علينا، فنهى النبي ﷺ أن نستنجي بالعظم والروث، فقلت: يا رسول الله، وما يغني ذلك عنهم، قال: «**إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبّها يوم أكلت**»، فقلت يا رسول الله سمعت لغطاً شديداً كثيراً قال: «**إن الجن تدارأت**[2] **في قتيل قتل منهم، فتحاكموا إليّ، فقضيت بينهم**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**هل معك ماء؟**» قلت: يا رسول الله معي نبيذ تمر في إداوة فاستدعاها فصببت على يديه فتوضأ به، وقال: «**ثمرة طيبة وماء طهور**»، وعن رسول الله ﷺ قال: «**الجن على ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون**»[3] قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ أي قال بعضهم لبعض انصتوا فانصتوا، واستمعوا القرآن حتى كان يقع بعضهم على

---

(1) الطبري في تفسيره: 13: 41.

(2) تدارأ القوم: أي تدافعوا في الخصومة ونحوها واختلفوا.

(3) ذكره البغوي في معالم التنزيل: 5: 147.

بعض من شدة رغبتهم في استماع القرآن وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي فرغ من تلاوة القرآن، وقرأ لاحق بن حميد: قضى بفتح القاف[1] والضاد يعني النبي ﷺ.

ثم جعل النبي ﷺ أولئك النفر من الجن رسلاً إلى قومهم، وأسماء أولئك النفر شاصر، وماصر، ومنشى، ورماشى، والأحقب، وعمرو بن جابر، وزوبعة، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يمشون إذ رفع لهم إعصار ثم جاء إعصار أعظم منه ثم انقشع فإذا حية قتيل، فعمد رجل منا إلى ردائه فشقه، وكفن الحية ببعضه ودفنها، فلما جن الليل إذا امرأتان تسألان: أيكم دفن عمرو بن جابر فقلنا: ما ندري من عمرو بن جابر؟ فقالتا إنكم ابتغيتم الأجر فقد وجدتموه إن فسقة الجن اقتتلوا مع مؤمنيهم فقتل عمرو بن جابر وهو الحية التي رأيتم وهو من النفر الذين استمعوا للقرآن[2]، وروي أن حية دخلت على رجل من التابعين وهي تلهث عطشاً فسقاها ثم إنها ماتت فدفنها فأتى من الليل فسلم عليه، وأخبر أن تلك الحية كانت رجلاً من جن نصيبين اسمه زوبعة، وبلغنا في فضائل عمر بن عبد العزيز أنه كان يمشي بأرض فلاة فإذا حية ميتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها، فإذا قائل يقول: يا شرق أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول لك: ستموت بأرض فلاة فيكفنك ويدفنك رجل صالح، فقال من أنت رحمك الله؟ فقال: رجل من الجن الذين سمعوا القرآن من رسول الله ﷺ لم يبق منهم إلا أنا وهذا شرق قد مات، وقد قتلت عائشة رضي الله عنها حية رأتها في حجرتها تستمع وعائشة تقرأ فأتيت في المنام، فقيل لها: إنك قتلت رجلاً مؤمناً من الجن الذين قدموا على رسول الله ﷺ، فقالت: لو كان مؤمناً ما دخل على حرم رسول الله ﷺ فقيل: لها ما دخل عليك إلا وأنت متقنعة وما جاء إلا ليستمع الذكر فأصبحت عائشة فزعة واشترت عائشة رقاباً فأعتقتهم[3]، ويقال إن الجن الذين جاءوا يستمعون القرآن كانوا يهوداً فأسلموا ولذلك قال الله تعالى: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

(1) ذكر القرطبي في تفسيره: 16: 216 هذه القراءة.
(2) القرطبي في تفسيره: 16: 213 وما بعدها، الثعلبي في تفسيره: خ.
(3) القرطبي في تفسيره: 13: 215.

قال الله تعالى:

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿31﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿32﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿33﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿34﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿35﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فاستجاب لهم من قومهم نحو من سبعين رجلاً من الجن فرجعوا إلى رسول الله ﷺ، فوافقوه بالبطحاء فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم، واختلف العلماء في مؤمني الجن، فقال بعضهم: ليس لمؤمني الجن ثواب إلا نجاتهم من النار، وتأولوا فيه قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وعن الليث أنه قال: الجن ثوابهم أن يجاروا من النار، ثم يقال لهم: كونوا تراباً مثل البهائم، وقال آخرون: إذا كان عليهم العقاب في الإساءة وجب أن يكون لهم الثواب في الإحسان مثل الإنس، وعن الضحاك قال: الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون[1] قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يعجز الله ولا يفوته، وليس له من دونه أولياء يمنعونه من دون الله أولئك الذين لا يجيبون الرسل في ضلال مبين قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي ولم يضعف عن إبداعهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير والمعنى: أليس الله بقادر على إحياء الموتى فيما ترون يا أهل مكة فإن خلق السماوات والأرض بما فيهما من العجائب والبدائع أعظم من إعادة الحياة في الميت بعدما كانت فيه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا

بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ الآية ظاهرة المعنى قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وهم خمسة أولوا الكتب والشرائع محمد ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى صلوات الله عليهم، وقيل: إنهم رسل سلخوا من جلودهم فلم يجزعوا. وقيل: أراد بأولي العزم الأنبياء كلهم، وحرف «من» على هذا القول لتبيين الجنس كما في قوله تعالى؛ ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾[1] وقال ابن زيد: كل الرسل كانوا أولي العزم، وقال بعضهم: كل الأنبياء أولوا عزم إلا يونس عليه السلام ألا ترى أن نبينا ﷺ نهى عن أن يكون مثله لخفة وعجلة ظهرت منه حين ولّى مغاضباً لقومه فابتلاه الله بالحوت فابتلعه، وقيل أولوا العزم نجباء الرسل المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر[2] قال الله تعالى فيهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[3] وقال مقاتل: أولوا العزم ستة: نوح صبر على أذى قومه كانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم صبر على النار، وإسحاق صبر على الذبح ويعقوب على فقد ولده، وذهاب بصره، ويوسف صبر على البئر والسجن وأيوب صبر على ضره[4] قال ابن عباس: العزم الصبر، وقال القرطبي: الرأي والصواب، وقال الحسن: أولوا العزم أربعة: إبراهيم، وموسى، وداود وعيسى أما إبراهيم فعزمه أنه قيل له: أسلم فقال: أسلمت لرب العالمين وابتلي في ولده، وماله، ونفسه فوجد صادقاً وافياً في جميع ما ابتلي به.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾[5] وقال تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾[6] وأما موسى فإن عزمه أن قومه لما قالوا له: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[7] وأما داود فعزمه أنه أخطأ خطيئة فبكى

(1) سورة الحج: 22 الآية: 30.
(2) في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ﴾ الآيات: 83 ـ 84 ـ 85 ـ 86.
(3) سورة الأنعام: 6 الآية: 90.
(4) القرطبي في تفسيره: 13: 220.
(5) سورة البقرة: 2 الآية: 124.

عليها أربعين سنة، وأما عيسى فعزمه أنه لم يصنع لبنة على لبنة زهداً في الدنيا، فكأن الله تعالى قال لنبيه ﷺ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل أي كن صادقاً فيما ابتليت به مثل صدق إبراهيم، وكن واثقاً بنصر مولاك مثل ثقة موسى، مهتماً بما سلف من هفواتك مثل اهتمام داود، زاهداً في الدنيا مثل زهد عيسى[1]، وقال الشاعر:

أولوا العزم نوح والخليل كلاهما ∴ وموسى وعيسى والنبي محمد

فلما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «**والله لأصبرن كما صبر أولوا العزم من الرسل وأجهد كما جهدوا ولا قوة إلا بالله**» قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ وذلك أن النبي ﷺ ضجر بعض الضجر من كفرهم، وأحب أن يتولى العذاب بمن أبى منهم الإسلام، فأمر بالصبر وترك الاستعجال، ثم أخبر أن العذاب منهم قريب بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار أي إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم في الدنيا والقبور كأنها ساعة من نهار لأن ما مضى كأنه لم يكن وإن كان طويلاً وتم الكلام ثم قال تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي هذا القرآن، وما فيه من البيان بلاغ عن الله إليكم، والبلاغ بمعنى التبليغ بلغكم محمد عن الله عز وجل قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي لا يقع العذاب إلا بالعاصين الخارجين عن أمر الله تعالى، وقيل معناه: ما يهلك إلا مشرك أو منافق.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

سورة محمد[1] ﷺ مدنية، وهي ألفان وثلاثمائة وتسعة وأربعون حرفاً، وخمسمائة وتسع وثلاثون كلمة، وثمان وثلاثون آية، قال ﷺ: «**من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة**»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (1) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ (3) فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6)﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (1)﴾ معناه: الذين كفروا بتوحيد الله تعالى، وصدوا الناس عن الإسلام يعني كفار مكة أضل أعمالهم أي أبطلها وأذهبها فلا أجر لهم فيها، وكأنها لم تكن، وأراد

بأعمالهم: إطعامهم الطعام، وصلتهم الأرحام. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، أي وصدقوا بالقرآن الذي نزل على محمد وهو الحق أي الصدق من ربهم ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي غفرها لهم فلا يحاسبون عليها ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي أصلح حالهم قال المبرد: البال الحال[1]، وقال ابن عباس: عصمهم أيام حياتهم حتى لم يعصوا[2] وقيل معناه: وأظهرهم على أعدائهم، وقواهم من ضعفتهم قال ابن عباس: الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله: أهل مكة، والذين آمنوا وعملوا الصالحات: الأنصار قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي ذلك الإضلال، والإصلاح باتباع الكفار: الشرك، واتباع المؤمنين التوحيد والقرآن فالشرك: هو الباطل، والتوحيد: هو الحق والقرآن وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ يعني أن من كان كافراً أضل الله عمله، ومن كان مؤمناً كفر الله سيئاته، وأصلح باله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي إذا لقيتموهم في القتال فاضربوا رقابهم أي اقتلوهم، والمعنى: فاضربوا الرقاب ضرباً وهذا مصدر[3] أقيم مقام الأمر كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، وقيل: انتصب قوله: فضرب على الإغراء.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي حتى إذا أكثرتم فيهم القتل وغلبتموهم وبالغتم في قتلهم فاستوثقوهم بالأسر، ولا يكون الأسر إلا بعد المبالغة في القتل كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[4] والمعنى: حتى إذا قهرتموهم وغلبتموهم، وصاروا أسارى في أيديكم، فشدوا وثاقهم كيلا يهربوا يقال: أوثقه إيثاقاً وثاقاً إذا شد أسره كيلا يفلت قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ معناه: فأما أن تمنوا عليهم بعد أن تأسروهم فتطلقوهم بغير فداء، وإما أن تطلقوهم تفدون بأسراكم عندهم أو بمال والمعنى فأما بعد أن تأسروهم إما مننتم عليهم مناً

(1) القرطبي في تفسيره: 16: 224.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 151.
(3) التبيان في إعراب القرآن: 2: 261.
(4) سورة الأنفال: 8 الآية: 67.

فأطلقتموهم بغير عوض، وإما أن تفدوهم فداء، وعن ابن عباس: أنه قال هذه الآية منسوخة[1] بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[2] وإليه ذهب أبو حنيفة قال: لا يجوز المن على الأسير، ولا الفداء بالمال، ولا بغير المال من الأسارى، ولا يباع السبي من أهل الحرب ولم يختلف أهل التفسير أن التوبة نزلت بعد سورة محمد، ولا خلاف بين العلماء في جواز قتل الأسير، وجواز قسمة الأسارى بين المسلمين إذا لم يكن الأسارى من العرب، وإنما اختلفوا في جواز المن عليهم، وفي مضاداتهم بالمال أو النفس، قال الشافعي: يجوز المن عليهم لأن النبي ﷺ منَّ على أبي عزة الشاعر يوم بدر على أن لا يقاتله، فرجع إلى مكة، ثم عاد بعد ذلك للقتال فأسر فأمر النبي ﷺ بقتله، فأجاب أصحابنا عن هذا أنه إنما منّ عليه لأنه كان من العرب، وكان لا يجوز استرقاقه، وقال أبو يوسف ومحمد: يجوز مفاداة الأسير[3] بالأسير. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي حتى يضع أهل الحرب أسلحتهم، والأوزار في اللغة الأثقال، وقيل المراد بالأوزار هنا: الآثام، قال ابن عباس معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي لا يبقى أحد من المشركين، وقال مجاهد: حتى لا يكون دين إلا الإسلام، وقيل: حتى يضع قتالكم أوزار المشركين، وقبائح أعمالهم بأن يسلموا فلا يبقى دين غير دين الإسلام، ولا يعبد وثن، وقال الفراء معناه: حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم[4]، وقيل معناه: حتى تضع الحرب آلتها، وعدتها، وآلتهم: أسلحتهم فيمسكوا عن الحرب، والحرب: القوم المحاربون كالركب والشرب، ويقال للكراع أوزار قال الشاعر وهو الأعشى:

وأَعــددتَ لــلْــحَــرْبِ أوزَارَهــا ∴ ريــاحــاً طِــوَالاً وَخَــيْــلاً ذُكُــوراً[5]

---

(1) يراجع ابن العربي في الناسخ والمنسوخ: 2: 372.

(2) سورة التوبة: 9 الآية: 5.

(3) القرطبي في تفسيره: 16: 226، والجصاص في أحكام القرآن: 3: 391.

(4) معاني القرآن: 3: 57.

(5) قال ابن منظور في اللسان: وزر، صواب إنشاده: فأعددت، وفتح التاء لأن الشاعر يخاطب «هوذة بن علي الحنفي» وقبله:

ولـمـا لُـقِـيـتَ مع الـمُـخْـطِـريـن   وَجَـدْتَ الآلٰـه عـلـيـهـم قَـديـراً

ومعنى الآية: أثخنوا المشركين بالقتل والأسر حتى يظهر الإسلام على الأديان كلها ويدخل فيه أهل مكة طوعاً وكرهاً، ويكون الدين كله لله فلا تحتاج إلى قتال ولا إلى جهاد، وعند نزول عيسى عليه السلام من السماء، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويلقى الذئب الشاة فلا يتعرض لها، ولا تكون عداوة بين اثنين قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي ذلك الذي أمرتم به من الجهاد ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي من الكفار من غير أن يأمركم بقتالهم المعنى لو يشاء الله لانتصر من الكفار بإهلاكهم أو تعذيبهم بما شاء ولكن يأمركم بالحرب ليبلوا بعضكم بعضاً قال ابن عباس: يريد من قتل من المؤمنين صار إلى الثواب، ومن قتل من المشركين صار إلى العذاب يعني ولكن ليتعبدكم بالأمر بالقتال تعريضاً للثواب[1] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قراءة العامة، والذين قاتلوا في سبيل الله، وقرأ أبو عمرو: قُتِلوا بضم القاف وكسر التاء مخففاً، وقرأ الحسن بضم القاف وكسر التاء مشددة، وقرأ عاصم الجحدري قتلوا بفتح القاف والتاء، والوجه قراءة العامة لأنها تشتمل من قاتل قتل أو لم يقتل، وقراءة أبي عمرو يخص المقتولين[2]، ولأن الله تعالى قال ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ قال ابن عباس: سيهديهم إلى أرشد الأمور، ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا وهذا لا يحسن في وصف المقتولين، ومعنى الآية، والذين قتلوا في سبيل الله يوم بدر فلن يبطل الله ثواب أعمالهم كما أبطل ثواب أعمال الكفار سيهديهم إلى ثوابه وجنته ويصلح حالهم في النعيم قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ أي يبينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال، وذلك أنهم إذا دخلوا الجنة تفرقوا إلى منازلهم، فكانوا أعرف بها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم، وقيل معناه: طيبها لهم من العرف وهي الرائحة الطيبة، وطعام معرف أي مطيب.

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 5: 154.

(2) التيسير في القراءات السبع: 200، والكشف عن وجوه القراءات السبع: 2: 276 والنشر في القراءات العشر: 2: 374 والنحاس في إعراب القرآن: 4: 180.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ⑦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ⑧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ⑨ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ⑩ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ⑪ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ⑫ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ⑬ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ⑭﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ﴾ دين ﴿الله﴾، ونبيه ﷺ ينصركم بالتوفيق والكفاية، والإظهار على الأعداء، ويثبت أقدامكم عند القتال بتقوية قلوبكم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ أي فمكروهاً لهم وسوءاً، والتعس في اللغة: الانحطاط والعثور يقال: تعس يتعس إذا انكبّ وعثر قال ابن عباس: يريد في الدنيا العثرة، وفي الآخرة التردي في النار وانتصب قوله: ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ على الدعاء أي أتعسهم الله تعساً، قال الفراء: هو نصب على المصدر[1]، وأصل التعس في الدواب والناس، وهو ما يقال للعاثر تعساً إذا لم يريدوا قيامه وضده لعاً إذا أرادوا قيامه قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي أحبطها وأبطلها لأنها كانت في طاعة الشيطان قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي ذلك التعس والإضلال بأنهم كرهوا ما أنزل الله على نبيه عليه السلام، وبين من الفرائض من الصلاة والزكاة فأحبط أعمالهم لأنها لم تكن في إيمان قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني يا أهل مكة فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من الأمم المكذبة دمّر الله عليهم منازلهم وأهلكهم بالعذاب والتدمير: الهلاك، ثم توعد مشركي مكة فقال: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ إن لم يؤمنوا أي أمثال عقوبتهم، وأشباه عقوبات من كان قبلهم وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي ذلك النصر للمؤمنين والهلاك للكافرين بأن الله مولى المؤمنين يلي أمرهم ويتولى

(1) معاني القرآن: 3: 58.

نصرهم، وأن الكافرين لا مولى لهم أي ليس لهم ولي يعينهم ولا ناصر ينجيهم من العذاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ ظاهر المعنى، والذين كفروا يتمتعون في الدنيا، ويأكلون كما تأكل الأنعام، تأكل وتشرب ولا تدري ما في غد كذلك الكفار لا يلتفتون إلى الآخرة ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ أي منزلهم ومقامهم ومصيرهم، وأراد بالتمتع: التعيش في الدنيا بالجهل، وشبه أكل الكافر بأكل الأنعام لأنهم يأكلون للشبع لا يهمهم ما في غد والمؤمن همته مصروفة إلى أمر دينه يأكل للقيام بعبادة الله لا للشبع، ويكون قصده من التمتع إعفاف نفسه وزوجته، وابتغاء ما كتب له من الولد، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، فإن كان ولا بد فثلثاً للطعام، وثلثاً للشراب، وثلثاً للنفس**»[1] وقال الحسن رضي الله عنه: إنكم إذا شبعتم عصيتم شئتم أو أبيتم.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ هذا تخوين لأهل مكة يقول: كم أهلكنا من أهل قرية ممن كان أكثر عُدواً وعُدداً، وأبسط ملكاً ويداً من أهل قريتك يعني مكة التي أخرجك أهلها فلم يكن لهم ناصر ينجيهم من عذاب الله فحذر قومك يا محمد مثل حالهم قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ معناه: أحال من كان على بصيرة من ربه ويقين كحال من زين له قبح عمله، فعبدوا الأوثان، واتبعوا أهواءهم في عبادتها.

قال الله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 5: 28 رقم 5649 ـ باب في المطاعم والمشارب.

ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿18﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿19﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي صفة الجنة التي وعد المتقون الشرك والكبائر فيها أنهار من ماء غير آسن أي غير متغير طعمه وريحه يقال: أسن الماء يأسن أسناً وأسونا إذا تغير وهو الذي لا يشربه أحد من نتنه فهو آسن مثل: حذر وحاذر، وقيل: إن الآسن ما هو بعرض أن يتغير، والأسن بالقصر ما قد تغير في الحال، وقرأ ابن كثير أسن[1] بالقصر قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي لم يحمض كما تتغير ألبان الدنيا لأنه لم يخرج من ضروع الأنعام ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بخلاف خمر الدنيا فإنها لا تخلو من المرارة، وعما يحدث منها من أنواع المرض، ومن العقوبة في الدنيا والآخرة قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي مصفى من الأقذار من العكر والكدر بخلاف عسل الدنيا الذي يكون من بطون النحل فإنه لا يخلو من الشمع وغيره، قال مقاتل: أنهار الجنة المذكورة تتفجر من الكوثر إلى الجنة[2]، ويقال: إنها تتفجر من تحت شجرة طوبى.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ولهم في الجنة من جميع أنواع الثمرات والفواكه مما علموه وما لم يعلموه، ومما سمعوه وما لم يسمعوه ظاهرها مثل باطنها لا يخالطها قشر ولا رذال ولا نوىً وقوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم المقيم مغفرة من ربهم لذنوبهم فلا يذكر شيء من معاصيهم في الجنة لأنه قد سترها عليهم فهي بمنزله ما لم يعمل وقوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ أي من كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار، وسقوا ماءً حميماً شديد الحر تستعر عليه جهنم منذ خلقت فقطع أمعاءهم في الجوف من شدة الحر والأمعاء: جميع ما في البطن من

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 600.
(2) الثعلبي في تفسيره - خ.

الحوايا واحدها معًى كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾[1] وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا شربه صاحبه فقطع أمعاءه حتى تخرج من دبره**»[2]، وعن محمد بن عبد الله الكاتب قال: قدمت من مكة فلما صرت إلى طين قاباذ ذكرت بيت أبي نواس:

كطين قاباذ كلما مررت به ∴ إلا تعجبت ممن يشرب الماء

فهتف بي هاتف أسمعه ولا أراه:

في الجحيم حميم ما تجرعه ∴ حلق فأبقي له في البطن أمعاء

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ وذلك أن النبي ﷺ خطب يوم الجمعة، وعاب المنافقين في خطبته فلما خرج المنافقون من المسجد قالوا لعبد الله بن مسعود: ماذا قال محمد على المنبر الساعة؟ فقد سمعنا قوله ولم نفهمه كأنهم كانوا يسمعون سماع تهاون واستخفاف ـ والأنف: الساعة من قولك: استأنفت الشيء إذا ابتدأته، والمعنى: من هؤلاء الكفار من يستمع إليك وهم المنافقون يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه تهاوناً منهم بذلك وتغافلاً، فإذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم من الصحابة: ماذا قال محمد الآن؟ وذلك أنهم سألوا ابن مسعود، وابن عباس عما قال النبي ﷺ استهزاءً وتهاوناً[3]، وهذا كالرجل يستمع إلى غيره استخفافاً ثم يقول بعد ذلك لأصحابه إيش الذي كان يقوله فلان.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم الله عليها بالكفر فلا يعقلون الإيمان. والطبع: هو الختم على القلب بسمة يعلمها الملائكة بأن صاحبه لا يفلح أبداً، واتبعوا أهواءهم في الكفر والنفاق قوله تعالى؛ ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(1) سورة الحج: 22 الآية: 20.

(2) رواه أحمد في المسند: 8: 117 رقم 22348.

وذكره القرطبي في كتابه: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: 2: 565 ـ الطبعة الأولى 1986م دار ابن زيدون ـ بيروت.

(3) يراجع القرطبي في تفسيره: 16: 240.

﴿ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ معناه: والذين اهتدوا بالإيمان بك، والاستماع إلى خطبتك زادهم الله بصيرة في دينهم، وألهمهم ترك المعاصي، واجتناب المحارم ويجوز أن يكون زادهم إعراض المنافقين هدى، وأعطاهم الله ثواب تقواهم في الآخرة قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي ما ينظرون هؤلاء الكفار والمنافقون إلا أن تأتيهم الساعة فجأة على غرة منهم، فقد جاء أشراطها أي علاماتها، ومن أشراطها خروج نبينا محمد ﷺ فإن بعثه في آخر الزمان قال ﷺ: **«بعثت أنا والساعة كهاتين»**[1]، ومن أشراطها أيضاً بَيْع الحكم، وقطيعة الرحم قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾، أي من أين لهم التوبة ومن أين لهم أن يتذكروا ويتوبوا إذا جاءتهم الساعة حين لا ينفعهم ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به غيره والمعنى: فإذا جاءت الساعة فاعلم أنه لا قاضي حينئذ إلا الله، ولا مفزع يومئذ إلا إليه، والنبي ﷺ قد كان علم ذلك ولكن هذا الخطاب يدخل فيه الناس، والمعنى: من علم أن لا إلٰه إلا الله فليقم على العلم ويثبت عليه. قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أي استعظم من مواقعة ذنب يوجب الاستغفار، ويقال معناه: استغفر لصغائرك فإنه لا صغيرة مع الإصرار، واستغفر لذنوب المؤمنين والمؤمنات وهذا إكرام من الله لهذه الأمة حتى أمر نبيهم أن يستغفر لهم، وهو الشفيع المجاب فيهم وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي متصرفاتكم في الدنيا في أول ما تنقلبون من ظهر إلى بطن إلى أن تخرجوا من دنياكم إلى قبوركم ويعلم أين مقامكم في الآخرة، وقال عكرمة معناه: والله يعلم متقلبكم من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، ومثواكم مقامكم في الأرض، وقال مقاتل معناه: والله يعلم منشركم بالنهار ومأواكم بالليل والمعنى: إنه عالم بجميع أحوالكم لا يخفى عليه شيء منها[2].

قال الله تعالى:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا

---

(1) أخرجه البخاري في [illegible] الباري: 13: 150 رقم: 6504، كتاب الرقاق [illegible]

ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿20﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿21﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿22﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿23﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿24﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ قال ابن عباس: إن المؤمنين سألوا ربهم أن ينزل سورة فيها ثواب القتال في سبيل الله وقيل: إن المؤمنين كانوا يشتاقون إلى تواتر نزول القرآن، وكانوا يستوحشون إذا أبطأ الوحي وهو قولهم: لولا نزلت سورة أي هلاّ نزلت سورة يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ أي بالأحكام التي لا يجري عليها النسخ يعني لم ينسخ منها شيء، قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد السور على المنافقين، والمعنى: إن المؤمنين قالوا هلاّ أنزلت سورة تأمرنا بالجهاد[1] قال الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي إيجاب القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون، ينظرون إليك عند ذكر القتال كنظر من هو في غشيان الموت كراهة منهم للقتال مخافة أن يقتلوا في الحرب قال الزجاج معناه: رأيت المنافقين يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون إليك نظراً شديداً شزراً بتحديق شديد كراهة منهم للجهاد كنظر المغشي عليه من الموت[2] قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ كلمة وعيد لهم ومعناه: وليهم المكروه والعقاب أولى لهم وهذا كما قال تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿34﴾﴾ قال الأصمعي معنى قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ أي وليك وقارنك ما تكره، وقوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ ابتداء وخبره محذوف تقديره: طاعة وقول معروف أمثل وأحسن من كراهة القتال[3]، والمعنى على هذا أن الله تعالى قال: لو أطاعوه وقالوا قولاً معروفاً كان أمثل

(1) البغوي في معالم التنزيل: 5: 160.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 5: 12.

(3) التبيان في إعراب القرآن: 2: 363.

وأحسن، ويجوز أن يكون هذا متصلاً بما قبله على معنى فأولى لهم طاعة وقول معروف لله ولرسوله، وقول معروف بالإجابة والطاعة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي فإذا جدّ الأمر ولزم فرض القتال نكلوا وكذبوا فيما وعدوك من أنفسهم، فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم أي لو صدقوا الله في إيمانهم وجهادهم لكان خيراً لهم من المعصية والكراهة والمخالفة وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي فلعلكم إن انصرفتم عن محمد ﷺ، وعن ما يأمركم به أن تعودوا إلى مثل ما كنتم عليه من الكفر والإفساد في الأرض من وأد البنات، ومن قتل بعضكم بعضاً كفعل الجاهلية، وقيل معناه: لعلكم إن توليتم أمر هذه الأمة بعد النبي ﷺ أن تفسدوا في الأرض بالقتال، وتقطعوا أرحامكم بالبغي فيقتل قريش بني هاشم، وبنو هاشم قريشاً.

ذهب كثير من الناس إلى أن هؤلاء بنو أمية والمعنى: فلعلكم إن أعرضتم عن الإيمان والقرآن، وفارقتم أحكامه أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفساد، وقتل بعضكم بعضاً وتقطعوا أرحامكم بسفك الدماء بعدما جمعكم الله بالإسلام والألفة فتعودوا إلى ما كنتم عليه في جاهليتكم من القتل وقطيعة الرحم، وقال المسيب بن شريك[1] معناه: فهل عسيتم إن توليتم أمر الناس أن تفسدوا في الأرض بالظلم نزلت في بني أمية، وبني هاشم[2] قرأ يعقوب وأبو حاتم، وتقطعوا مخففاً من القطع[3] اعتباراً بقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾[4] وقرأ الحسن: وتقطعوا بفتح الحروف مشدداً[5] اعتباراً بقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾[6] وقراءة الكافة وتقطعوا بضم التاء وتشديد الطاء

(1) أبو سعيد المسيب بن شريك، ولد بخراسان، ونشأ بالكوفة، وسمع الحديث من الأعمش وغيره وكان ضعيفاً في الحديث لا يحتج به، ثم قدم بغداد، وتولى بيت المال، وتوفي سنة ست وثمانين هجرية الطبقات الكبرى: 7: 239 ـ 3490.

(2) يراجع تفسير القرطبي: 11: 245.

(3) النشر في القراءات العشر: 2: 274.

(4) سورة البقرة: 2 الآية: 27.

(5) تفسير القرطبي: 16: 246.

(6) سورة المؤمنون: 23 الآية: 53.

وكسرها من التقطيع على التكثير[1] لأجل الأرحام، ثم ذم الله تعالى من يريد ذلك فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ فلا يسمعون الحق ولا يهتدون للرشد يعني المنافقين الذين يفسدون في الأرض، ويقطعون أرحامهم، ونسبهم الله إلى الصمم والعماء لإعراضهم عن أمر الله تعالى، وأما في مشاهدتهم فإنهم لم يكونوا صماً ولا عمياناً ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[2] قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فيعرفوا ما أعد الله للمتمسك بالقرآن أم على قلوب أقفالها يعني الطبع على القلب، وهذا استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الإسلام والقرآن فكان على قلوبهم أقفالاً تمنعهم من الاستدلال.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب كفروا بمحمد ﷺ، وهم يعرفونه، ويجدون صفته في كتابهم ونعته مكتوباً[3] عندهم فمعناه: إن الذين رجعوا كفار من بعد ما ظهر لهم أمر النبي ﷺ بنعته وصفته في كتابهم ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾، أي زين

---

(1) الثعلبي في تفسيره ـ خ.

لهم القبيح وأملى لهم الله أي أمهلهم موسعاً عليهم ليتمادوا في طغيانهم ولم يعجل عليهم بالعقوبة ويحسن الوقوف على قوله: ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ لأنه فعل الشيطان والإملاء: فعل الله تعالى وعلى قول الحسن لا يحسن الوقوف لأنه يقول في تفسيره: وأملى لهم مدّ لهم الشيطان في العمل، وقرأ أبو عمرو: وأُملي لهم على ما لم يُسم فاعله وهو حسن للفصل بين فعل الشيطان وفعل الله، ويعلم يقيناً أنه لا يؤخر أحد مدة أحد ولا يوسع فيها إلا الله، وقرأ مجاهد: وأُملي بضم الهمزة وإسكان الياء على معنى وأنا أملي لهم[1] قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ معناه: ذلك الإملاء لليهود بأنهم قالوا للمشركين سنطيعكم في بعض الأمر للتعاون على عداوة محمد ﷺ قالوا ذلك سراً فيما بينهم، فأخبر الله به عنهم، وأعلم أنه يعلم ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ وقرىء بكسر الألف على المصدر أي إسرارهم[2] والمعنى: والله يعلم أسرار اليهود والمنافقين قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي كيف يكون حالهم إذا قبضت أرواحهم الملائكة يضربون وجوههم وظهورهم بمقامع من الحديد عند قبض الأرواح، ثم ذكر سبب ذلك الضرب فقال: ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله أي اتبعوا ما فيه سخط الله بما كتموا من التوراة وكفروا بمحمد ﷺ، وكرهوا ما فيه رضوان الله وهو الطاعة والإيمان ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي ما كان لهم من بر وصلة وخير عملوه في غير الإيمان بكفرهم قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي ظن المنافقون ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ معناه: أن لن يبتلوا بشيء يظهر فيه حقدهم للمسلمين، وضغنهم عليهم، فأمرهم الله بالقتال والنفقة فبخل المنافقون بالمال فظهر نفاقهم، والضغن: هو الحقد يضمره الإنسان بقلبه ولا يظهره لغيره.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي لعرفناكهم، وأعلمنا لهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي بالعلامة القبيحة التي يظهرها عليهم قال الزجاج معناه: لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة وهي السيمياء فلعرفتهم بتلك العلامة[3] قوله تعالى:

---

(1) كتاب السبعة في القراءات: 600 وما بعدها، الفراء في معاني القرآن: 3: 63.
(2) كتاب السبعة نفسه، والنشر: 2: 374.
(3) معاني القرآن وإعرابه: 5: 15.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾ أعلم الله النبي ﷺ أن يطلعه على نفاقهم في فحوى كلامهم فكان لا يتكلم بعد نزول الآية منافق عند النبي ﷺ إلا عرفه بكلامه وبما يعتذر إليه من المعاذير الكاذبة[1] قال المفسرون معنى قوله: في لحن القول أي في فحوى القول، ومعناه ومقصده، ويقال: فلان لحن بحجته، ولاحن في كلامه وفي الحديث: «**لعل بعضكم ألحن بحجته**» أي أذهب بها في الجهات لقوته على تصريف الكلام، وإذا قيل: لحن في كلامه أو ألحن فمعناه: ذهب بالكلام إلى خلاف جهة الصواب ولحن القارىء إذا ترك الإعراب بالصواب، وعدل عنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي يعلم ظواهرها وبواطنها قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي لنعاملنكم معاملة المختبر فيما نأمركم به من الجهاد حتى نميز المجاهدين منكم من غيرهم والصابرين في القتال من الذين لا يصبرون وإنما كنّا بالعلم عن التمييز لأنه يتوصل بالعلم إلى التمييز وكان الله عالماً بكل منهم قبل أن خلقهم ولكن أراد بالعلم في هذه الآية العلم الذي يجب فيه الجزاء، وهو علم الشهادة لا علم الغيب وقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي نخبر بما أمركم به وتنهاكم أخياركم وأحوالكم حتى يظهر للناس، وكان الفضيل بن عياض: إذا أتى على هذه الآية بكى، وقال: إنك إن بلوت أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا[2] قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني قريظة والنضير من بعد ما تبين لهم الهدى في التوراة لن يضروا الله شيئاً بتركهم الهدى إنما يضرون أنفسهم وسيحبط أعمالهم فلا يرون لها في الآخرة ثواباً.

قال الله تعالى:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿33﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿34﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿35﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿36﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ

(1) يراجع الثعلبي في تفسيره ـ خ.

(2) الثعلبي نفسه.

وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37) هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (38)﴾.

قال الإمام الحداد:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33)﴾ أي أطيعوا الله في الفرائض، وأطيعوا الرسول في السنن، ولا تبطلوا ثواب أعمالكم بالشرك والرياء فإن الشرك يحبط العمل. قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1]، والرياء يحبط العمل كما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾[2] وقيل معناه: لا تبطلوا أعمالكم بالمعصية، وقيل بالعجب، وقال عطاء بالشك والنفاق. وقال الحسن بالمعاصي والكبائر[3]، ويستدل بظاهر هذه الآية على أن من شرع في قربة نحو الصلاة والصوم والحج لم يجز له الخروج منها قبل إتمامها لما فيه من إبطال عمله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ إنما ذكر الموت على الكفر لأن الكافر قبل الموت يعرض عليه أن يؤمن فيغفر له وإذا مات على كفره حبط عمله حبوطاً لا يلحقه التدارك والتلافي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي لا تضعفوا عن قتال الكفار وتدعوهم إلى الصلح وأنتم الأعلون بما وعدكم الله من النصر في الدنيا والثواب والكرامة في الآخرة قال الزجاج: منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح، وأمرهم بحربهم حتى يسلموا[4] ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي الغالبون قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي بالعون والنصر على عدوكم يتولى حفظكم ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز للإمام أن يدعو الكفار إلى الصلح، ولا أن يجيبهم إلى الصلح في حال ما تكون الغلبة للمسلمين فإن الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ واو الحال كما يقال:

---

(1) سورة الزمر: 39 الآية: 65.

(2) سورة البقرة: 2 الآية: 264.

(3) تراجع هذه الأقوال في تفسير البغوي: 5: 163.

لا تسلم على فلان وأنت راكب أي في حال ما كنت راكباً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي الدنيا بما فيها من زينتها باطل وغرور تفنى وتزول عن قريب، واللعب: العمل الذي لا يتعلق به فائدة، واللهو: هو الفرح الذي لا يبقى قوله تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي إن تؤمنوا بمحمد ﷺ، والقرآن، وتتقوا الفواحش، والكبائر يؤتكم ثواب أعمالكم كاملاً وافياً ولا يسألكم أموالكم كلها في الإنفاق في سبيله بل يأمركم بالإيمان والطاعة ليثيبكم الجنة، ونظيره: قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿57﴾﴾[1] ولا يسألكم محمد ﷺ أموالكم، وقيل معناه: لا يسألكم الله ورسوله أموالكم كلها إنما يسألكم ربع العشر فطيبوا بها نفساً وقروا بها عيناً.

قوله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿37﴾﴾ معناه: إن يجهدكم في المسألة ويلح عليكم ويسألكم جميع أموالكم تبخلوا بها وتمنعوا الواجب وقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ أي ويظهر الله أضغانكم التي تحدث في القلوب بسبب البخل قال قتادة: قد علم الله أن في مسألة المال خروج الأضغان[2] وقوله تعالى: ﴿أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ أي بغضكم وعداوتكم لله ولرسوله، ولكنه فرض عليكم يسيراً وهو: ربع العشر والإحفاء في المسألة هو: الإلحاح والتشديد فيه، وقيل معنى الآية: ولا يسألكم أموالكم لنفسه بل يسألكم ليؤتيكم أجوركم قوله تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني ما فرض الله عليهم في أموالهم من الزكاة منكم من يبخل بذلك، ومن يبخل بذلك فإنما عاقبة بخله تعود عليه في العقاب، فيصير بخله على نفسه، والله هو الغني، عن ما عندكم من الأموال، وعن أعمالكم، وأنتم المحتاجون إلى الله، وإلى ما عنده من الجزاء والرحمة والمغفرة لم يأمركم بالإنفاق لحاجته، ولا لجر منفعة، ولا لدفع مضرة، وإنما يأمركم بذلك لمصالحكم قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي وإن تعرضوا عن طاعة الله يستبدل بكم قوماً لا يعصون، ويفعلون ما يؤمرون، وقيل معناه: وإن تعرضوا عن الإسلام، وعن ما أفرض عليكم من حق

---

(1) سورة الذاريات: 51 الآية: 57.

(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 165.

نستبدل قوما غيركم أطوع لله منكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ بل يكونوا أمثل منكم وأطوع، قال الكلبي: هم كندة، والنخع، وقال الحسن: هم العجم، وقال عكرمة: فارس والروم[1]، وعن رسول الله ﷺ أنه سئل عن هذه الأمة، فقيل: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب رسول الله ﷺ في صدر سلمان الفارسي، وقيل على فخذه، وقال: «**هذا وأصحابه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس**»[2]، قال الكلبي: في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ قال لم يتولوا، ولم نستبدل بهم.

(1) البغوي نفسه. والثعلبي في تفسيره ـ خ.

(2) الطبري في تفسيره: 13: 86. والقرطبي في تفسيره: 16: 258.

سُورَةُ الفَتْح

سورة الفتح مدنية، وهي ألفان وأربعمائة وثمانية وثلاثون حرفاً، وخمسمائة وستون كلمة، وتسع وعشرون آية، قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة الفتح كان كمن بايع محمداً ﷺ تحت الشجرة**»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (1) لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (2) وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى
قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا (4) لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5)﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (1)﴾ وذلك أن النبي ﷺ خرج إلى مكة يريد العمرة، وتجهز معه ناس كثير من أصحابه، ومعهم الهدايا يسوقونها مع أنفسهم فبلغ ذلك قريشاً فاستعدوا ليصدوه وأصحابه، فلما نزل رسول الله ﷺ بالحديبية فزع المشركون بنزوله ﷺ فبعثوا إليه «عروة بن مسعود الثقفي»[2] ليأتيهم بالخبر فلما أتاهم عروة أبصر قوما عماراً لم يأتوا للقتال، فرجع

إلى قريش، وأخبرهم بذلك، وهو كاره لصدهم رسول الله ﷺ عن الكعبة، فشتموه واتهموه، ثم بعثوا رجلين آخرين، فقال ﷺ: «**ابعثوا الهدايا في وجوههما، ولبوا**»، فلما رجع الرجلين إليهم قالا لهم مثل ما قال عروة فبعثوا «سهيلاً بن عمرو» أحد بني عامر بن لؤي فقال ﷺ حين أبصره: «**هذا رجل فاجر**»، ولما رأى الأول قال: سهل أمركم فلما أتاهم سهيل تذاكروا المهادنة والموادعة، فلما كان وسط النهار أمر النبي ﷺ بالبيعة، فنادى مناديه في القوم: ألا أن روح القدس جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فأمره بالبيعة.

فأتوا رسول الله ﷺ، وقد جلس تحت الشجرة فبايعه المسلمون[1]، وكبرت تلك البيعة في صدور المشركين، فلما أمسوا وهم على ذلك رمى رجل من المشركين بالليل في أصحاب رسول الله ﷺ، فثار المسلمون عليهم بالحجارة فرموا أعداء الله حتى أدخلوهم البيوت وهزموهم بإذن الله، وأقبل أشرافهم إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا محمد هذا لم يكن عن رضى منا، ولا ممالأة، وإنما فعله سفهاؤنا وعرضوا الصلح على النبي ﷺ فقبله، ولم يعطهم المشركون الصلح حتى قهرهم المسلمون في غير قتال بالرمي بالحجارة، فاصطلح الفريقان على أن يتوادعوا سنين، على أن يرجع النبي ﷺ، وأصحابه في تلك السنة، فمن لحق بالنبي ﷺ من المشركين لم يقبله حتى تنقضي المدة، ومن لحق بالمشركين من أصحاب النبي ﷺ فهو منهم، على أن المسلمين إذا شاءوا اعتمروا في العام القابل في هذا الشهر الذي صدهم المشركون فيه، على أن لا يحملوا بأرضهم سلاحاً فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك، وكتبوا كتاب القضية بين النبي ﷺ وبينهم، فوجد رجال من المسلمين من ذلك الشرط وجداً شديداً، فقالوا: يا رسول الله من لحق بنا منهم لم نقبله، ومن لحق بهم منا فهو منهم، فقال ﷺ: «**أما من لحق منا بهم، فأبعدهم الله، وأما من أرادنا منهم، فسيجعل الله له**

استأذن الرسول ﷺ أن يرجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فقال: أخاف أن يقتلوك، فأذن له فرجع فدعاهم إلى الإسلام فخالفوه، ورماه أحدهم بسهم فقتله سنة تسع هجرية ـ الطبقات الكبرى: 6: 45 رقم 1661.

(1) يراجع القرطبي في تفسيره: 16: 276. والبغوي في معالم التنزيل: 5: 173

مخرجاً، وإن يعلم الله منه الصدق سينجيه منهم»، فلما فرغوا من كتاب القضية أقبل «أبو جندل بن سهيل» وهو يرسف في قيوده وكان أبوه قد وثقه حين خشي أن يذهب إلى رسول الله ﷺ، فجاء حتى وقع بين ظهراني المسلمين، وقال: إني منكم، وإني أعوذ بالله أن ترجعوني إلى الكفار، فأراد رجال من المسلمين أن يمنعوه، وناشدهم سهيل بن عمرو العهد والميثاق، فقال ﷺ: «**خلوا بينهم وبينه، فسينجيه الله منهم**»[1]، فانطلق به أبوه، وكان ماء الحديبية قد قل من كثرة من مع رسول الله ﷺ من الناس، فأتى بدلو من الماء، فتوضأ رسول الله ﷺ، وتمضمض، ثم مجَّه في الدلو ثم أمرهم أن يجعلوه في البئر، فامتلأت البئر ماء حتى جعلوا يغرقون منه وهم جلوس على شفة البئر وكان هذا شأن الحديبية، ولبث رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية شهراً ونصفاً فوعدهم الله «خيبر» أن يفتحها لهم، فلما رجع النبي ﷺ إلى المدينة نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ والفتح المبين ما كان من استعلاء المسلمين عليهم حتى غلبوهم بالحجارة، وأدخلوهم بيوتهم، وتَيَسُّر الصلح أيضاً من الفتح المبين، وظهور النبي ﷺ على خيبر من الفتح، قال: وأنجى الله أبا جندل بن سهيل من أيديهم وخرج منهم، واجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً كرهوا أن يقعدوا مع المشركين وعلموا أن رسول الله ﷺ لا يقبلهم حتى تنقضي المدة، فجعلوا يقطعون الطريق على المشركين فأرسل المشركون إلى النبي ﷺ يناشدونه أن يقبضهم إليه، وقالوا: أنت في حل ممن اختارك علينا يا محمد، فإنهم إن يكونوا معك كان أهون علينا، فلحقوا بالنبي ﷺ. وعن قتادة قال: بُشِّر رسول الله ﷺ في ذلك الوقت بفتح مكة، ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ يعني صلح الحديبية كان صلحاً بغير قتال[2]، قال الفراء: والفتح يكون صلحاً[3] ومعنى

---

(1) القرطبي نفسه.

(2) يراجع الطبري في تفسيره: 13: 90 وما بعدها. أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 9: 556 رقم: 4834 ـ كتاب التفسير. يراجع الواحدي في أسباب النزول: 320، والثعلبي في تفسيره ـ خ.

(3) معاني القرآن: 3: 64.

الفتح في اللغة: فتح المغلق، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً متعذرّاً حتى فتحه الله قال جابر: ما كنا نعد فتح مكة إلا يوم الحديبية[1]، وقال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، وسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام في قلوبهم، ويجوز أن يكون معنى الفتح: الإكرام بالنبوة والإسلام، والأمر بدعوة الخلق إليهما، وقيل معنى فتحنا لك: أي قضينا لك بالنصر، ومنه الفتاح، وهو القاضي، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾[2]، أي اقض بيننا، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآية: فتح مكة بالغلبة والقهر لأن الصلح[3] لا يسمى فتحاً على الإطلاق قال الشعبي: بويع النبي ﷺ في ذلك الوقت بيعة الرضوان فأظهره الله على خيبر في منصرفه، وظهرت الروم على فارس في ذلك الوقت، والفتح في اللغة: هو الفرح المزيل للهم.

قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال ابن الأنباري[4] سألت أبا العباس عن اللام في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ فقال هي لام كي، معناها: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح، فلما انضم إلى المغفرة شيء حادث واقع حسُن معنى كي[5]، وقوله: ما تقدم من ذنبك وما تأخر المراد بالذنب هاهنا: الصغائر، فأما الكبائر فالأنبياء معصومون منها أبداً لأنهم الأمناء على الوحي والرسالة، وعن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقوم حتى ترم رجلاه، فقيل: يا رسول الله تصنع هذا، وقد جاءك من الله أن قد

(1) يراجع تفسير الطبري: 13: 93.

(2) سورة الأعراف: 7 الآية: 89.

(3) يراجع تفسير القرطبي 16: 260.

(4) أبو بكر محمد بن هاشم الأنباري، من أعلم أهل زمانه باللغة والأدب، ومن أكثر الناس حفظاً للشواهد والأخبار كان يحفظ ثلاثمائة ألف شاهد في القرآن من مؤلفاته: إيضاح الوقف والابتداء في القرآن توفي ثمان وعشرون وثلاثمائة هجرية.

غاية النهاية في طبقات القراء: 2: 230، الأعلام: 6: 334.

(5) الزمخشري في الكشاف 3: 541.

غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[1]، قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي بالنبوة والمغفرة، والمعنى: ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية إلى صراط مستقيم وهو الإسلام، قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ أي ينصرك بالحجة والسيف على عدوك نصراً قوياً لا ذلّ معه، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل السكينة هي ما أسكن الله في قلوبهم من التعظيم لله ولرسوله، والوقار لئلا تنزع نفوسهم لما يرد عليهم. قوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ ليزدادوا تصديقاً إلى تصديقهم السابق، قال الكلبي: كلما نزلت آية من السماء فصدقوها ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم، قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي جموع أهل السماوات وأهل الأرض يعني: الملائكة، والجن، والإنس، والشياطين، وكان الله عليماً بمصالح خلقه حكيماً فيما يأمرهم به، وينهاهم عنه قال ابن عباس: فلما نزل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله ما أعطاك الله فما لنا؟ فأنزل الله تعالى[2] قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ أي نجاة عظيمة من النار، وظفر بالجنة.

قال الله تعالى:

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 9: 558 رقم 4836 ـ كتاب التفسير.

(2) الواحدي في أسباب النزول: 321، الطبري في تفسيره: 13: 95.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ معناه: ليدخل الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ويعذب المنافقين من الرجال والمنافقات من النساء وهم الذين أظهروا الإيمان باللسان وأسروا الكفر من أهل المدينة والمشركين والمشركات من أهل مكة ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ ومعنى ظنهم السوء أنهم ظنوا أن محمداً ﷺ لا ينصر عليهم وأنهم هم الذين ينصرهم الله على رسوله وذلك قبيح لا يجوز في صفة الله، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي العذاب والهلاك ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي وطردهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ لمن صار إليها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليس على وجه التكرار لأن الأول في إعانة المؤمنين، وهذا متصل بذكر المنافقين في الانتقام منهم، ومعنى ذلك أن في الأول: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالله قادر على أن يسخرهم لينتقم بهم من أعدائه من كل ما مرّ ودرج من ذلك حتى البعوض والعقرب لأن الله تعالى لم يأمر المسلمين بالقتال لأجل إهلاك المشركين، وإنما أمرهم بالقتال ليعرضهم بذلك لجزيل الثواب الذي لا ينال إلا بالقتال وهاهنا متصل بذكر الانتقام من المنافقين قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي لم يزل منيعاً بالنقمة من الكفار والمنافقين حكيماً في أمره وقضائه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ معناه: إنا أرسلناك يا محمد شاهداً على أمتك بتبليغ الرسالة، وقيل: شاهد على أقوالهم وأفعالهم فإنها تعرض عليه، ومبشراً بالجنة للمطيعين ونذيراً أي ومخوفاً بالنار لمن عصى الله تعالى قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ قرىء بالتاء في الأربعة على معنى قل لهم لتؤمنوا بالله ورسوله، وقرىء بالياء في الأربعة أيضاً يعني من أمر به وصدقه[1] قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ راجع إلى النبي ﷺ أي تعينوه وتنصروه بالسيف واللسان، وقرأ محمد بن السميقع وتعززوه بزائين[2] وقوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي وتعظموه وتبجلوه وهذا وقف تام، وقوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي وتسبحون الله تعالى بكرة وأصيلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ

(1) الكشف عن وجوه القراءات السبع: 2: 280، إعراب القراءات السبع وعللها: 2: 327.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يعني بيعة الرضوان بالحديبية بايعوا النبي ﷺ على أن لا يفروا ويقاتلوا بايعهم النبي ﷺ تحت شجرة استظل بها بالحديبية وكانوا الذين بايعوا نحواً من ألف رجل وخمسمائة رجل بايعوه على النصرة والفتح والسمع والطاعة، وأن لا يفروا من الغزو[1].

ومعنى الآية: إن الذين يبايعونك يا محمد بالحديبية على أن لا يفروا إنما يبايعون في ذات الله لست أنت المراد بذلك بل المراد به القيام بعبادة الله، وقيل المراد بذلك أنهم باعوا الله أنفسهم بالجنة وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي نعمة الله في الهداية فوق أيديهم في الطاعة يعني أحسان الله إليهم بأن هداهم للإيمان أبلغ وأتم من إحسانهم إليك بالنصرة والبيعة، وقال ابن كيسان معناه: قوة الله ونصرته فوق أيديهم ونصرتهم أي ثق بالله ونصرته لك لا بنصرتهم وإن بايعوك[2] وقيل معناه: يد الله في الثواب والوفاء لهم فوق أيديهم في الوفاء فإنهم لو وفوا بما ضمنوا فالله تعالى أوفى بمن ضمن، وأقدر على ذلك، واليد هاهنا هي القدرة قوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي فمن نقض عقد البيعة فضرر نقضه عائد عليه، وليس له جنة ولا كرامة، ومن أوفى بما عاهد عليه الله من البيعة فتم على ذلك واستقام فسيعطيه الله في الآخرة ثواباً عظيماً في الجنة، وروى أن هؤلاء المبايعين لم ينقض أحد منهم البيعة لأنهم كانوا مخلصين، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ والرضاء عنهم دليل على أنهم كانوا مؤمنين على الحقيقة أولياء الله أهل البصيرة، والذي لم يدخل معهم في البيعة يومئذ رجل من المنافقين يقال له: «جد بن قيس» اختبأ يومئذ تحت شجرة ربط بعيره، ولم يدخل في بيعتهم، فأماته الله على نفاقه.

قال الله تعالى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ

(1) في النسخة: ك: العدو.
(2) يراجع تفسير القرطبي: 16: 268.

بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿11﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿12﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿13﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿14﴾».

قوله تعالى: «سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا» أخبر الله النبي ﷺ أنه إذا رجع من الحديبية إلى المدينة أتاه الأعراب الذين تخلفوا عنه بغير عذر ولم يخرجوا معه وهم: مُزَيْنَة، وجُهَيْنَة، وأَشْجَع، وغطفان، وقوم من الدِّيل.

قال أبو بكر الحداد:

فيقولون له شغلتنا أموالنا وأهلونا عن الخروج معك يا محمد أي شغلتنا النساء والذراري فلم يكن لنا من يخلفنا فيهم قوله تعالى: «فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا» أي استغفر لنا من التخلف عنك يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم أي يسئلون المغفرة بألسنتهم ما ليس في قلوبهم يعني أنهم لا يبالون استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وقد كان النبي ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية استنفر من حول المدينة من الأعراب، وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يحاربوه، ويصدوه عن البيت، وأحرم عليه السلام بالعمرة، وساق الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتثاقل عنه كثير من الأعراب، وقالوا نذهب معه إلى قوم قد جاءوا يقتلون أصحابه فيقاتلهم فتخلفوا عنه واعتلوا بالشغل، فأنزل[1] الله تعالى: «سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا» الآية قوله تعالى: «قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا» معناه: من يمنعكم من عذاب الله إن أقمتم على الكفر والنفاق «بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا» معناه: بل كان الله عالماً بتخلفكم عن القتال من غير عذر قرأ حمزة والكسائي وخلف ـ

(1) القرطبي في تفسيره: 16: 268. والبغوي في معالم التنزيل: 5: 170.

ضُرًّا - بضم الضاد وهو سوء الحال وقرأ الباقون ضَرًّا[1] بفتح الضاد لأنه قابله بالنفع وأراد بالنفع الضمة، وذلك أنهم ظنوا أن تخلفهم عن النبي ﷺ يدفع عنهم الضر، ويجعل لهم النفع بالسلامة في أنفسهم وأموالهم، فأخبرهم الله أنه إذا أراد لهم شيئاً لم يقدر واحد على دفعه عنهم قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أظهر الله نفاقهم، وبين أن تخلفهم عنه لم يكن بسبب أموالهم وأهليهم ولكن كانوا يقولون فيما بينهم يستأصل محمداً وأصحابه عدوهم في هذه الكرة فلا يرجعون إلى المدينة أبداً فنستريح منهم قوله تعالى: ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي زين الشيطان لكم ذلك الظن في قلوبكم ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي ظننتم بنبي الله وأصحابه أنهم لم يرجعوا من سفرهم، وأنهم سيهلكون قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي هلكى فاسدوا القلوب لا تصلحون لخير، والبوار: الهلاك وما بعد هذا ظاهر المعنى.

قال الله تعالى:

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿15﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿16﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿17﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني هؤلاء المخلفين سيقولون لرسول الله ﷺ وأصحابه إذا انطلقتم إلى مغانم خيبر ذرونا نخرج معكم، فأمر الله النبي ﷺ أن يمنعهم من بعد ذلك بعد تخلفهم عن غزوة الحديبية، فلما رجع النبي ﷺ من الحديبية وانطلق إلى خيبر قال هؤلاء المخلفون ذرونا نتبعكم، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي أن الله تعالى خص أهل الحديبية

بمغانم خيبر، وأمر النبي ﷺ أن لا يأذن للمنافقين أن يخرجوا معهم إلا متطوعين ليس لهم من الغنائم شيء فأراد المنافقون أن يشاركوا فيها ليبطلوا حكم الله تعالى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يعني أمر الله نبيه عليه السلام أن لا يسير معه منهم أحد، ومعنى قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي قال الله ذلك بالحديبية قبل خيبر وقبل مرجعنا إليكم أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي سيقولون للنبي ﷺ: لم يأمركم الله بذلك، ولكن تحسدوننا أن نشارككم في الغنيمة قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي قل لهؤلاء المخلفين عن الحديبية ستدعون بعد موت النبي ﷺ إلى قتال قوم أولى بأس شديد أي أهل شجاعة وقوة قال الزهري: هم أهل اليمامة بني حنيفة أتباع[1] مسيلمة قاتلهم أبو بكر رضي الله عنه قال رافع بن خديج[2] كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم؟ حتى دعا أبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم[3]، وقال ابن جريج: عمر رضي الله عنه سيدعوكم إلى قتال فارس والروم[4] تقاتلوهم أو يسلمون معناه: تقاتلونهم أو يكون منهم الإسلام.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ أبو بكر وعمر ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ في الجنة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ عن طاعتهما ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم﴾ عن طاعة محمد ﷺ في المسير إلى الحديبية يعذبكم في الآخرة عذاباً أليماً قرأ أبي أو يسلموا بحذف النون[5] أي حتى يسلموا وكقول امرىء القيس: أو نموت فتعذرا[6]، وقرأ الكافة بإثبات النون

---

(1) يراجع الطبري في تفسيره: 13: 108.

(2) رافع بن خديج بن رافع الأنصاري الأوسي صحابي كان عريف قومه بالمدينة وشهد أحداً والخندق توفي بالمدينة سنة 74 أربع وسبعين هجرية، الإصابة: 2: 186.

(3) يراجع القرطبي في تفسيره: 16: 272.

(4) القرطبي نفسه، والثعلبي في تفسيره - خ.

(5) النحاس في إعراب القرآن: 4: 200.

(6) وتمام البيت:

فَقُلْتُ لَهُ لاَ تَبْكِ عَيْنُكَ إنَّمَا نُحَاوِلُ مُلْكاً ....

ديوان امرىء القيس: 66، الكتاب: 1: 427.

في محل الرفع عطفاً على يقاتلونهم[1] قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليس على هؤلاء إثم في قعودهم عن القتال لعجزهم عنه ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عائد إلى من يلزمه الجهاد ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن الجهاد مع قدرته عليه ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

قال الله تعالى:

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19) وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (20) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا (21) وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (23)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يعني بيعة الرضوان بالحديبية وإنما سميت بيعة الرضوان بهذه الآية، وكان سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما سار يريد مكة، فلما بلغ الحديبية، وقفت ناقته فزجرها فلم تنزجر وبركت فقال رسول الله ﷺ: «**ما هذا لها بعادة، ولكن حبسها حابس الفيل**»، ودعا عمر رضي الله عنه ليرسله إلى مكة، فيأذنوا له بأن يدخل مكة، ويحل من عمرته، وينحر هديه، فقال عمر: يا رسول الله مالي بها حميم، وليس بمكة من [بني] عدي بن كعب أحد يمنعني، وإني أخاف قريشاً على نفسي لأنها قد علمت شدة عداوتي إياها، ولكن أدلك على رجل هو أعزّ بها مني «عثمان بن عفان» قال: صدقت، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فأرسله فجاء الشيطان، وهاج في عسكر رسول الله ﷺ بأن أهل مكة قتلوا عثمان، فقام رسول الله ﷺ

(1) يراجع الزمخشري في الكشاف: 3: 545، وابن عطية في تفسيره: المحرر الوجيز: 15: 102، والثعلبي في تفسيره: خ.

إلى الشجرة فاستند إليها، وبايع الناس على قتال[1] أهل مكة.

قال عبد الله بن مغفل: كنت قائماً على رأس رسول الله ﷺ ذلك اليوم، وبيدي غصن من الشجرة أذبه عنه، وهو يبايع الناس[2]، وكان أول من بايع رجلاً من بني أسد يقال له: أبو سنان بن وهب[3]، واختلفوا في عدد أهل البيعة، فقال قتادة: كانوا خمس عشرة مائة، وقال ابن عباس: كانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرون، وقال جابر: كانوا ألفاً وأربعمائة[4]، قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي فعلم الله ما في قلوبهم من الصدق والوفاء والإخلاص والعزم على القتال، فأنزل الله السكينة عليهم يعني: الطمأنينة والصبر والرضا حتى بايعوا على أن يقاتلوا ولا يفروا، وأثابهم فتحاً قريباً أي وأعطاهم فتح خيبر قوله تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ معناه: ومغانم كثيرة يأخذونها من أموال يهود خيبر، وكانت خيبر ذات عقار وأموال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي غالباً ﴿حَكِيمًا﴾ في أمره حكم لهم بالغنيمة ولأهل خيبر بالسبي والهزيمة وعن أنس رضي الله عنه قال كنت رديف أبي طلحة يوم أتينا خيبر، فصبحهم رسول الله ﷺ وقد أخذوا مساحبهم وفؤوسهم وغدوا على حروثهم، فلما رأونا ألقوا ما بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر ضربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»[5]، وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه[6] قال: **خرجنا مع رسول الله ﷺ**

---

(1) يراجع الطبري في تفسيره: 13: 110 وما بعدها، والقرطبي في تفسيره: 16: 274 وما بعدها. والثعلبي في تفسيره ـ خ ـ السيرة النبوية لابن هشام: 3: 315.

(2) يراجع الثعلبي في تفسيره ـ خ.

(3) قال ابن سعد في طبقاته: 3: 69 رقم: 21: سنان بن أبي سنان بن محصن بن حرثان بن قيس بن مرة، شهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية، وهو أول من بايع النبي ﷺ بيعة الرضوان، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين هجرية، يراجع السيرة النبوية لابن هشام: 3: 316.

(4) يراجع تفسير الطبري: 13: 113 ـ 114 ـ أرقام: 24400 ـ 24401 ـ 24402.

(5) السيرة النبوية لابن هشام: 3: 329.

(6) أبو عبد الله بريدة بن الحصيب أسلم حين مر به النبي ﷺ في الهجرة، وهاجر إلى الرسول ﷺ بعد أحد، وحضر معه بقية الغزوات، ثم خرج في الفتح إلى خراسان ومات بمرو ـ الاستيعاب: 1: 185 ـ أما ابنه عبد الله بن بريدة بن الخصيب الأسلمي ـ ولد في خلافة عمر بن الخطاب الطبقات الكبرى: 7: 165 ـ رقم 3112.

إلى خيبر يسير بنا ليلاً، وعامر بن الأكوع[1] معنا وكان شاعراً فقال له رجل من القوم ألا تسمعنا شيئاً يا عامر، فنزل يحدو بالقوم يرتجز ويقول:

اللهُمَّ لَوْلاَ أنت ما اهتدَيْنَا .·. وَلاَ تَصَدَّقنا ولاَ صَلَّيْنَا

إن الَّذين هم بَغَوا علَيْنا .·. ونَحن عَن فضلك ما استغنينا

فَاغْفِر بفَضْلِك ما آتيْنا .·. وَثَبِّت الأقدام إن لاقَيْنَا

وَأَلِقين سَكِينَةً علينا .·. ....

فقال ﷺ: «**من هذا؟**» قالوا: عامر بن الأكوع، قال: «**قد غفر لك ربك يا عامر**» فقال رجل: لو متعتنا به يا رسول الله، وإنما قال ذلك لأن رسول الله ﷺ ما استغفر لرجل قط إلا استشهد[2].

قال: فلما قدمنا خيبر، وتصافّ القوم خرج يهودي، فنزل إليه عامر بن الأكوع يقول:

قد عَلِمَتْ خَيْبَر أنِّي عَامِرُ .·. شَاكي السِّلاَحِ بَطلٌ مُغَامِرُ

واختلفا بضربتين، فوقع سيف اليهودي في ترس عامر، ووقع سيف عامر على ركبة نفسه وساقه فمات منها، قال سلمة بن الأكوع: فمررت على نفر من الصحابة وهم يقولون: بطل عمل عامر فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي، فأخبرته بذلك، فقال: «**كذب من قال ذلك بل له أجره مرتين**» ثم دعا رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه، وكان حينئذ أرمد وقد عصب عينيه بشق برد قال سلمة بن الأكوع فجئت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما لك يا علي؟**» قال رمدت يا رسول الله، قال: «**أدن مني**»، فدنا منه، فتفل في عينيه،

---

(1) عامر بن سفيان الأكوع بن عبد الله بن بشير الأسلمي شاعر له صحبة عاش إلى يوم خيبر، فضرب رجلاً من اليهود فقتله، وجرح نفسه خطأ فمات من جراحته. الطبقات الكبرى: 4: 227 ـ وفيه رجزه مع بعض الاختلاف.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 8: 238 رقم 4196 ـ كتاب المغازي ـ وأخرجه مسلم

فبرىء من ساعته، وما وجعت عيناه بعد ذلك أبداً حتى مضى لسبيله ثم أعطاه رسول الله ﷺ الراية، فنهض بها، وعليه حلة حمراء، فأتى مدينة خيبر، فخرج صاحب الحصن، وعليه مغفر وحجر قد نقبه مثل البيضة على رأسه وهو يقول:

قد عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ∴ شَاكي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
أطعن أحياناً وحينا أَضرب ∴ إذَا الْحُرُوبُ أقبلت تَلَهَّب
كان حماي مانعاً لا يقرب

فبرز إليه علي رضي الله عنه وقال:

أنا الذي سَمَّتْني أمِّي حَيْدَرَهْ ∴ كَلَيْثِ غَابَاتٍ شديد قسورة
أكيلكم بالسيف كيل السندرة

فاختلفا بضربتين، فبدره علي رضي الله عنه بالضربة فقدَّ الحجر والمغفر، وفلق رأسه فوقع ميتاً[1] وكان الفتح على يديه، ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أنِّي ياسر ∴ شاكي السلاح بطل معاقر
إذا الليوث أقبلت نبادر ∴ إن سلاحي فيه موت حاضر

فخرج إليه الزبير بن العوام رضي الله عنه، وهو يقول:

قد علمت خيبر أني الزَّبَّار ∴ قِرْم لقوم غير نكس ضرار
ابن حماة أمجد ابن أخيار ∴ ياسر لا يغررك جمع الكفار
فجمعهم مثل أسراب الجبار

فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب أيقتل ابني يا رسول الله؟ قال: «**بل ابنك يقتله إن شاء الله**» ثم التقيا فقتله الزبير رضي الله عنه، ثم لم يزل رسول

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 12: 184 ـ غزوة خيبر. ويراجع الثعلبي في تفسيره ـ خ. وكذا البغوي في معالم التنزيل: 5: 174 وما بعدها.

الله ﷺ يفتح الحصون حصناً حصناً، ويحوز الأموال، فلما أمسى الناس أوقدوا نيراناً كثيرة، فقال ﷺ: «**على أي شيء توقدون؟**» قالوا: على لحم الحمر الإنسية، فقال ﷺ: «**أهريقوها، واكسروا القدور**»، فقالوا نهرق القدور، ونغسلها[1] فقال: هي أو ذاك، ثم أتي رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب، وبأخرى معها، أتى بهما «بلال» رضي الله عنه، فلما رأت المرأة التي مع صفية القتلى من اليهود، صرخت، وصكت وجهها، وحثت التراب على رأسها، فقال ﷺ: «**اعزلوا عني هذه الشيطانة**»، وأمر بصفية، فأجلست خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ اصطفاها لنفسه[2]، وكانت صفية قد رأت في المنام، وهي عروس بكنانة بن الربيع أن قمراً وقع في حجرها، فقصت رؤياها على زوجها فلطم وجهها لطمة اخضرت عيناها منها، وقال: إنك تمني ملك الحجاز محمداً، فلما رأى رسول الله ﷺ خضرة عينيها سألها عن ذلك، فأخبرته[3] الخبر، فأتى بزوجها «كنانة بن الربيع» وكان عنده كنز بني النضير، فسأله إياه فجحده، [وأنكر] أن يكون عالماً بمكانه فجاء يهودي إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني قد رأيت كنانة يطوف بهذه الخربة كل غداة فقال ﷺ لكنانة: «**أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك**» قال: نعم، فأمر رسول الله ﷺ بالخربة، فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله ما بقي، فأبى أن يؤديه فأمر رسول الله ﷺ، فضرب عنقه[4] قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ أي وعدكم الله في المستقبل من الزمان غنائم كثيرة تأخذونها.

قال مقاتل: مع النبي ﷺ، ومن بعده إلى يوم القيامة، فعجل لكم هذه يعني غنيمة خيبر، وكفّ أيدي الناس عنكم أي منع أسداً، وغطفان من قتالكم وكانوا حلفاء لأهل خيبر، وذلك أن النبي ﷺ لما قصد خيبر، وحاصر أهلها همت قبائل من أسد، وغطفان أن يغيروا على عيال المسلمين، وذراريهم

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 8: 238 ـ 4196 كتاب المغازي.

(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 176.

(3) البغوي نفسه. والثعلبي في تفسيره ـ خ.

(4) البغوي والثعلبي أنفسهما.

بالمدينة، فكف الله أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم، وقوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولتكون غنيمة خيبر دلالة للمؤمنين على صدقك يا محمد حيث إن الله تعالى أخبر أنهم يصيبونها في المستقبل ثم وُجد المخبر على وفق الخبر، وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ويثبتكم على دين الإسلام، ويرشدكم إلى الأدلة في الدين قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ أي وعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها حتى يفتحها عليكم، قال الفراء حفظها لكم ومنعها من غيركم حتى تفتحوها، واختلفوا فيها: قال ابن عباس، وابن أبي ليلى، والحسن، ومقاتل: هي فارس والروم، وكانت العرب لا تقدر على قتال فارس، والروم وفتح مدائنها حتى قدروا عليها بالإسلام، وقال قتادة: هي مكة، وقال عكرمة[1]: هي حنين[2] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي أحاطت قدرته بها وبأهلها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من فتح القرى والنصر وغير ذلك ﴿قَدِيرًا﴾. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ يعني أسداً وغطفان الذين أرادوا نهب ذراري المسلمين لأنهزموا عنكم لأن الله ينصركم عليهم وثم لا يجدون ولياً ولا نصيرا، قال ابن عباس: من تولى غير الله خذله الله، ولم ينصره ـ قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي لسنته التي قد مضت من قبل في نصر أوليائه، وقهر أعدائه أي هذه سنتي وحكمها في أهل طاعتي وأهل معصيتي أنصر أوليائي وأخذل أعدائي، ولن تجد لحكم الله تغييراً.

قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿24﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

(1) تراجع هذه الأقوال في تفسير الثعلبي ـ خ. والبغوي في معالم التنزيل: 5: 180، ومعاني القرآن: 3: 67.

(2) وفي النسخة: ك = خيبر.

مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿25﴾ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿26﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أول هذه الآية يدل على أن الله تعالى منع أيدي أهل مكة يوم الحديبية عن قتال المسلمين بالرعب، ومنع أيدينا عن قتالهم بالنهي، وقيل: إن المؤمنين لم ينهوا عن قتالهم يومئذ، ولكن لم يقدر الله ذلك للمؤمنين اتقاء على المؤمنين المستضعفين الذين كانوا بمكة في أيدي المشركين كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ قال أنس: وذلك أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم عند صلاة الفجر متسلحين يريدون غرَّة النبي ﷺ عام الحديبية فأخذهم رسول الله ﷺ، وأعتقهم، فأنزل الله هذه الآية(1): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وقال ابن عباس: بعثت قريش أربعين رجلاً أو خمسين رجلاً منهم، وأمروهم أن يطبقوا بعسكر رسول الله ﷺ عام الحديبية ليصيبوا بهم من أصحابه أحداً فأخذوا فأتى بهم رسول الله ﷺ، فعفى عنهم ثم خلّى سبيلهم، وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل فأنزل الله هذه الآية(2) قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ أي هم الذين كفروا بمحمد والقرآن يعني كفار مكة، وصدوكم عن المسجد الحرام أن تطوفوا به للعمرة وتحلوا من عمرتكم وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا﴾ أي وصدوا الهدي ممنوعاً أن يبلغ محله الذي إذا صاروا إليه حل نحره وهو الحرم، وكان النبي ﷺ ساق في ذلك العام سبعين بدنة إلى مكة والمعكوف في اللغة: هو الممنوع عن الذهاب في جهته بالإقامة في مكانه فقال: عكف على الأمر عكوفاً، واعتكف في المسجد إذا أقام به،

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 12: 187 ـ كتاب الجهاد والسير. وذكره الطبري في تفسيره: 13: 122 ـ رقم 24426. وكذا الواحدي في أسباب النزول ص: 322.

(2) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 181. ويراجع الثعلبي في تفسيره ...

ومعنى الآية: هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام، وصدوا الهدي وهي البدن التي ساقها رسول الله ﷺ معه، وكانت سبعين بدنة معكوفاً أي محبوساً أن يبلغ محله أي منحره وفي هذه الآية دلالة على أن محل الهدي الحرم لأنه لو كان محله غير الحرم لما كان معكوفاً عن بلوغ محله.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ معناه: ولولا أن تطأوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات مقيمين بمكة لم تعلموهم فتقتلوهم فتصيبكم من قتلهم معرة أي عيب ومسبة في العرب بأنكم قتلتم أهل دينكم، ويقال: أراد بالمعرة: الغم والجزع وجواب لولا محذوف تقديره: لولا ذلك لدخلتم على أهل مكة[1] وبيتموهم ليلاً ولوطئتم رقاب المشركين بنصرنا إياكم ولكن الله منع ذلك كراهة وطىء المؤمنين المستضعفين الذين كانوا بمكة والمؤمنات بالقتل لأنهم لو دخلوا مكة لم يتميز لهم المؤمنون من الكفار فلم يأمنوا أن يقتلوا المؤمنين، وقيل المراد بالمعرة الإثم والدية والكفارة إلا أن الصحيح ما ذكرناه من قبل لأنه لا خلاف بين العلماء أن المسلمين إذا قصدوا حصناً من حصون الكفار، وقاتلوهم فأصابوا من في الحصن من أطفال الكفار، ومن أسارى المسلمين أنه لا إثم عليهم في ذلك ولا دية ولا كفارة ولقد حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف، ورماهم بالمنجنيق مع نهيه عن قتل النساء والولدان وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ موضعه التقديم تقديره: لولا أن تطأوهم بغير علم ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ اللام متعلقة بمحذوف دل عليه معنى الكلام على تقدير حال بينكم وبينهم ليدخل الله في رحمته من يشاء يعني من أسلم من الكفار بعد الصلح، ورحمة الله جنته قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ معناه: لو تميز المؤمنون عن الكفار لعذبنا الكفار عذاباً أليماً يعني بالقتل والسبي بأيديكم قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ قال مقاتل: وذلك أن النبي ﷺ لما قدم الحديبية ومعه الهدي قال كفار مكة: قتل محمد أبناءنا وإخواننا ثم أتانا يدخل علينا في منازلنا

فتتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفنا واللات والعزى لا يدخل علينا بهذه الحمية حمية الجاهلية التي دخلت قلوبهم فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين[1] حتى لم يدخلوا ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي: لا إله إلا الله الكلمة التي يتقي بها من الشرك ـ والحمية في اللغة: هي الأنفة التي تحمي الإنسان كأنّ قلوبهم حميت بمعصية الله تعالى فأنزل الله بدل ذلك على قلب نبيه عليه السلام، وعلى قلوب المؤمنين الطمأنينة، والسكون، والوقار، والهيبة وألزمهم توحيد الله والإيمان برسوله.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾ أي كانوا أحق بكلمة التوحيد من كفار مكة وكانوا أهلها في علم الله تعالى مستحقين لها في الدنيا، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ من أمرهم، وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً من قلبه إلا حرم على النار**» فقال عمر رضي الله عنه أنا أحدثك بها هي كلمة الإخلاص التي ألزمها الله محمداً وأصحابه وهي كلمة التقوى، وقال عطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وعن علي رضي الله عنه أنه سئل عن كلمة التقوى فقال: هي لا إله إلا الله، والله أكبر، وهو قول ابن عمر، وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير[2] ـ وقيل: إن الحمية التي جعلها الكفار في قلوبهم هي ما روي أن المشركين لما سألوا النبي ﷺ أن يكتب لهم كتاب الصلح قال لعلي رضي الله عنه: اكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم، فقال المشركون: أما الرحمٰن فلا ندري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم، فقال المسلمون: والله ما نكتبها إلا بسم الله الرحمٰن الرحيم، فقال ﷺ لعلي: «**أكتب: باسمك اللهم، ثم اكتب هذا ما صالَحَ عليه محمد رسول الله**»، فقال سهيل بن عمرو: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب باسمك،

واسم أبيك، فقال ﷺ: «**والله إني لرسول الله، ولو كذبتموني**»، وقال لعلي: «**أمح رسول الله**»، فقال علي: لا أمحوك يا رسول الله، فمحاه النبي ﷺ، ثم قال: «**اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو على وضع الحرب على الناس يكف بعضهم على بعض، وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر والشام فهو آمن على دمه وماله**» فهذه الحمية التي في قلوبهم يعني الأنفة من الاستفتاح بسم الله الرحمٰن الرحيم، ومن قوله محمد رسول الله.

قال الله تعالى:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿27﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿28﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ رأى في المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصروا فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم ذلك، وقالوا: إن رؤيا النبي ﷺ حق، فلما رجع هو وأصحابه من الحديبية، ولم يدخلوا مكة قال المنافقون: والله ما حلقنا ولا قصرنا، ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1]، وأخبر أنه رأى رسوله الصدق في منامه، وأنهم يدخلون فقال تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ يعني العام المقبل إن شاء الله قال أبو عبيدة: إن بمعنى: إذ، يعني إذ شاء الله حيث أرى رسوله ذلك في المنام، وقال أبو العباس أحمد بن يحيى: استثنى الله فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون[2]، وقيل معناه: بمشيئة الله، وقال بعضهم: هذا اللفظ حكاية

(1) الطبري في تفسيره: 13: 139.

(2) القرطبي في تفسيره: 16: 290 ـ بلفظه.

الرؤيا التي رآها النبي ﷺ وذلك أنه رأى في المنام أن ملكاً ينادي لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، وقيل: إنما قال ذلك تأديباً للعباد ليُدخلوا كلمة الاستثناء فيما يخبرون عنه في المستقبل في نفي وإثبات، وقوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي آمنين من العدو، وقوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ فيه بيان أنهم يدخلون مكة إلى أن يبلغوا آخر النسك لا يخافون أبداً بخلاف عام الحديبية، وفيه دليل أن الحلق والتقصير قربة في الإحرام من حيث أن الإحلال يقع بهما وفيه دليل على أن المحرم بالخيار عند التحلل من الإحرام إن شاء حلق وأن شاء قصّر. وفي الحديث أن النبي ﷺ دعا للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة[1] قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي لا تخافون من المشركين فعلم الله ما في تأخير الدخول عام الحديبية من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي من قبل الدخول ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني فتح خيبر قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي أرسل رسوله بالطريق المؤدي إلى الجنة ودين الإسلام ليظهر دين الإسلام على الأديان كلها بالحجة والغلبة، واكتف بالله شهيداً على نبوتك ورسالتك إن لم يشهد سهيل وأمثاله.

قال الله تعالى:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿29﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ هذا مبتدأ وخبره[2] قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ

---

(1) ذكره الجصاص في تفسيره «أحكام القرآن»: 3: 396 وما بعدها من رواية جابر وأبي هريرة رضي الله عنهما. أخرجه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني فتح الباري: 4: 386 رقم 1728 كتاب الحج.

(2) التبيان في إعراب القرآن: 2: 368.

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ معناه: والذين معه من المؤمنين أشداء على الكفار غلاظ عليهم، والأشداء جمع الشديد وهو القوي في ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾ القوي على أعداء الله كانوا لا يميلون إلى الكفار لقرابة ولا غيرها بل أظهروا لهم العداوة في الدين، وكانوا على الكفار كالأسد على فريسته. قوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي متوادون فيما بينهم، متعاطفون على أنهم كان بعضهم لبعض كالوالد لولده، والعبد لسيده ـ قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي راكعين ساجدين يكثرون الصلاة لله تعالى، يبتغون بذلك فضلاً من الله ورضواناً يعني الجنة ورضي الله تعالى وقوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي علامة التهجد ظاهرة على وجوههم من كثرة سجودهم بالليل والمعنى: يتبين في وجوههم أثر السهر قال الضحاك: إذا سهر الرجل أصبح مصفراً[1]، وقال عطية: مواضع السجود أشد وجوههم بياضاً يوم القيامة، وقال مجاهد: يعني: بالأثر: الخشوع، والتواضع، والسمت الحسن وقال عكرمة: هو التراب على الجباه لأنهم يسجدون على التراب لا على الثياب، قال الحسن في وصفهم إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما بالقوم مرض، ويقول لعلهم خولطوا في عقولهم والله لقد خالطهم أمر عظيم يريد بذلك ما في قلوبهم من خوف الآخرة، وقال بعضهم معنى قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ هو نور يجعله الله في وجوههم يوم القيامة يعرفون بتلك العلامة أنهم سجدوا في الدنيا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[2] وقال ﷺ: **«تحشر أمتي يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء»**.

وقال منصور[3] سألت مجاهداً عن قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ قال: ليس هو الأثر الذي يكون في جبهة الرجل مثل ركبة البعير، فقد يكون برجل هو أقسى قلباً من الحجارة، ولكن هو نور في وجوههم من

---

(1) تراجع هذه الأقوال في السيما في معالم التنزيل: 5: 190، والقرطبي في تفسيره: 16: 293 - 294.

(2) سورة آل عمران: 3 الآية: 106.

(3) أبو عتاب منصور بن المعتمر السلمي من أهل الكوفة محدثا عالماً عابداً توفي سنة مائة واثنتين وثلاثين ـ الطبقات الكبرى 6: 328، حلية الأولياء: 5: 40.

الخشوع[1]، وقال ابن جريج هو الوقار، وقال سمرة: هو البهاء، وقال سفيان: يصلون بالليل، فإذا أصبحوا عرف أثر ذلك في وجوههم بيانه قوله ﷺ: «**من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار**»[2]، وروي في بعض الأخبار أن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا نار انضحي، يا نار احرقي، وموضع السجود، لا تقربي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي ذلك الذي ذكر في القرآن من وصفهم هو ما وصفوا به في التوراة أيضاً ثم ذكر الله صفتهم في الإنجيل فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي سنبله، وقال ابن زيد: أولاده، والشطأ فراخ الزرع يقال: أشطأ الزرع فهو مشطىء إذا أفرخ من جوانبه، وقال الفراء إشطاء الزرع أن يخرج سبعاً أو ثمانياً أو عشراً وهذا مثل ضربه الله لأصحاب النبي ﷺ يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ويقوون[3] وقال قتادة: مكتوب في الإنجيل: إنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر قرأ العامة شطأه بإسكان الطاء، وقرأ بعض أهل مكة، والشام بفتحها، وقرأ يحيى بن وثاب شطاه مثل عصاه، وقرأ الجحدري شطه بلا همز وكلها لغات[4] قوله تعالى: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي أعانه الشطأ وقواه وشدّه مأخوذ من المؤازرة وهي المعاونة والأزر الظهور والوزير: المعين، وإعانة الشطأ الزرع أن يخرج من الشطأ ثمان وتسع وعشر قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي غلظ ذلك الزرع وتقوى ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي قام على قصبه وساوى الصغار والكبار حتى استوى بعضه مع بعض، وصار الفرع مثل الأم، والسوق جمع ساق، وهو قصبة الزرع وسلق الشجر حاملة الشجر ويجوز أن يكون المراد بالساق الكعب، وكلما ازداد الزرع كعباً ازداد قوة. قوله تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي يصير بحال يعجب الحراث، وهذا مثل ضربه الله لمحمد وأصحابه، فالزرع محمد ﷺ، والشطأ أصحابه والمؤمنون حوله وكانوا في ضعف وقلة كما كان أول الزرع دقيقاً ثم

(1) الثعلبي في تفسيره: خ، وكذا القرطبي في تفسيره: 16: 294.
(2) أخرجه ابن ماجه في سننه: 1: 422 رقم 1333 كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها.
(3) معاني القرآن: 3: 69.
(4) كتاب السبعة في القراءات: 604، وتفسير الثعلبي نفسه ـ خ.

غلظ وقوي وتلاحق فكذلك المؤمنون قوى بعضهم بعضاً حتى استغلظوا واستووا على أمرهم ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ إنما كثرهم وقواهم ليكونوا غيظاً للكافرين قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ قال الزجاج منهم للجنس، وليس يريد بعضهم لأنهم كلهم مؤمنون والأجر العظيم هو الجنة[1].

(1) معاني القرآن وإعرابه: 5: 29.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

سورة الحجرات مدنية، وهي ألف وأربعمائة وستة وسبعون حرفاً، وثلاثمائة وثلاث وأربعون كلمة، وثماني عشرة آية، قال ﷺ: «**من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع الله، ومن عصاه**»[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ
بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ
رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ
إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ أي لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله، ولا تعجلوا بهو وعن عائشة رضي الله عنها في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾، قالت: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم عليه السلام، واتقوا الله في تضييع حقه، ومخالفة أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٞ﴾ بأفعالكم، وقال جابر: نزل قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ في النهي عن الذبح يوم الأضحى قبل الصلاة[2]، وقالت عائشة: نزلت

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره: عن أبي بن كعب، وذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف: 3: 572.

(2) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 195.

في النهي عن صوم يوم الشك، وعن مسروق قال: دخلت على عائشة في يوم الشك، فقالت للجارية: اسقيه عسلاً، فقلت إني صائم، فقالت: قد نهى الله عن صوم هذا اليوم، وفيه نزل[1]: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وعن الحسن البصري: قال نزلت هذه الآية في الذبح يوم الأضحى كأنه قال: لا تذبحوا قبل ذبح النبي ﷺ وذلك أن ناساً من المسلمين ذبحوا قبل صلاة النبي ﷺ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح[2].

وعن ابن عباس قال: سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً من أصحابه وهم أربعون رجلاً[3] [في قول ابن اسحاق] إلى بئر معونة[4]، وأمّر عليهم «المنذر بن عمرو» وأمرهم أن يسيروا إلى بني عامر بن صعصعة، وأن يمروا على بني سليم، وهم يومئذ صلح للنبي ﷺ، فساروا حتى أتوا بني سليم، فباتوا عندهم، فلما كان عند الرحيل أضل أربعة من المسلمين بعيراً لهم، فاستأذنوا المنذر أن يتخلفوا عنه حتى يطلبوه، فأذن لهم، وسار المنذر بمن بقي معه، وكانت بنو سليم وشت إلى بني عامر خبر أصحاب النبي ﷺ، فاستعدوا لقتالهم، واجتمعوا لهم، فسار أصحاب النبي ﷺ إلى بئر معونة، فاقتتلوا قتالاً شديداً وقتل المنذر وأصحابه، وقتل أحد الأربعة، ورجعت الثلاثة إلى المدينة، فتلقوا رجلين خارجين من المدينة، فقالوا ممن أنتما قالا من بني عامر، فقالوا: إنهما من عدونا فقتلوهما، وأخذوا سلبهما، وجاءوا به إلى رسول الله ﷺ، وذكروا له القصة، فقال لهم عليه السلام: **«بئسما فعلتم: إنهما من أهل ميثاقي من بني سليم وهذا الذي معكم من سلبهما من كسوتي»**، وجاء المسلمون يطلبون القود، فقال لهم النبي ﷺ: **«إن صاحبيكم اغتربا إلى عدونا فلا قود فيهما، ولكنا نؤدي إليكم الدية»** فأمر عليه السلام أن يقسم ديتهما على أهل

---

(1) البغوي نفسه، والجصاص في أحكام القرآن: 3: 397.

(2) يراجع القرطبي في تفسيره: 16: 301، والكيا الهراسي في أحكام القرآن: 4: 381.

(3) السيرة النبوية لابن هشام: 3: 184 ـ وفي الصحيحين كانوا سبعين وهم القراء ـ وفي النسخة: ك ـ سبعة وعشرون رجلاً.

(4) اسم ماء من مياه بني سليم بين أرض بني عامر، وحرة بني سليم، وهي إلى حرة بني سليم أقرب ـ وذلك البعث كان في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة.

ميثاقه، فأنزل الله[1] هذه الآية والمعنى: لا تتقدموا بقول ولا فعل حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يأمركم في ذلك وقيل: إن أناساً كانوا يقولون لو أن الله تعالى أمر بكذا ونهى عن كذا، فقيل لا تقدموا بين يدي الله ورسوله، فإن الله أعلم بصلاح خلقه، وقرىء: لا تقدموا بفتح التاء والدال ويجوز أن يكون معناهما واحداً يقال: قدمت في كذا، وتقدمت فيه كما يقال: عجلت في الأمر، وتعجلت فيه بمعنى واحد، ويجوز أن يكون معنى الضم: لا تُقدّموا كلامكم[2] ولا فعلكم، وما أنتم صانعون في أمر من الأمور قبل أن يأمركم الله ورسوله به، ومعنى قراءة الفتح لا تقدموا بأمر ولا فعل بحضرة النبي ﷺ حتى يأمركم به. ٧٨

وقيل إنها نزلت في قوم كانوا يحضرون مجلس النبي ﷺ، فإذا سئل الرسول عن شيء خاضوا فيه، وتقدموا بالفتوى، والقول، فنهوا عن ذلك، وزجروا من أن يقول أحد في شيء من دين الله قبل أن يقول رسول الله ﷺ، وقيل معنى الآية: لا تمشوا بين يدي رسول الله ﷺ، وكذلك بين يدي العلماء فإنهم ورثة الأنبياء[3]، ودليل هذا التأويل ما روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: رآني رسول الله ﷺ أمشي أمام أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال: «**أتمشي أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة؟ ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين خير من أبي بكر**»[4]. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ روي أن رهطاً من بني تميم قدموا على النبي ﷺ منهم: الأقرع بن حابس، وعطارد بن الحجان، والحرث بن عمرو، وغيرهم، فقاموا على باب المسجد، فنادى الأقرع بن حابس: يا محمد أتأذن لي في الكلام؟ فوالله إن حمدي لزين، وذمي لشين، فقال ﷺ: «**كذبت ذلكم الله تعالى**»، ثم أذن لهم

(1) يراجع القرطبي في تفسيره: 16: 301.

(2) يراجع تفسير الثعلبي ـ خ.

(3) يراجع تفسير القرطبي: 16: 304.

فدخلوا، فقال يا محمد أتأذن لخطيبنا؟ فقال ﷺ: «**ليتكلم صاحبكم**»، فتكلم، فقال عليه السلام: «**أجبه يا ثابت**»، فأجابه، فقال الأقرع: أتأذن لشاعرنا يا محمد؟ فقال ﷺ: «**ادع إليَّ القارعة**» يعني حسان، فلما جاء حسان، قال ﷺ: «**ليتكلم شاعركم**»، فلما تكلم، قال ﷺ: «**أجبه يا حسان**»، فأجابه، فقال عطارد للأقرع: والله إن محمداً لمؤتى له أي أعطي كل شيء، وإن خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وعلت الأصوات، وكثر اللغط، وكان أشدهم صوتاً وأعلاهم ثابت بن قيس، وكان به صمم لا يكاد يسمع إلا أن يصاح به، فيجيب بمثله، فأنزل الله هذه[1] الآية، ونهوا أن يرفعوا أصواتهم على صوت النبي ﷺ تعظيماً له لأن رفع الصوت على الإنسان يوهم الاستخفاف به في ظاهر الحال.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما جاء بنو تميم إلى رسول الله ﷺ، فنادوا على الباب أخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زين، وذمنا شين، قال فخرج إليهم، وقال: «**إنما ذلكم الله الذي مدحه زينٌ، وذمه شينٌ**»، قالوا: نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا، وخطيبنا لنشاعرك، ونفاخرك، فقال ﷺ: «**ما بالشعر بعثت، ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا**»، فقالوا لشاب من شبابهم: قم يا فلان فاذكر فضلك، وفضل قومك فقام، فقال: الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه، فآتانا أموالاً ففعل فيها وأنشأ، فنحن من خير أهل الأرض، وأكثرهم عدَّةً وسلاحاً ومالاً فمن أنكر علينا قولنا فليأت بقول هو أحسن من قولنا، وفعال هي خير من فعالنا، فقال ﷺ لثابت بن قيس وكان خطيب رسول الله ﷺ: «**قم**» فقام، فقال: الحمد لله أحمده، وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله دعا المهاجرين من بني عمه أحسن الناس وجوهاً، وأعظمهم أخلاقاً فأجابوه، والحمد لله الذي جعلنا أنصاره، ورِدْءاً لرسوله، وعزًّا لدينه، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فمن قالها منع منا ماله

(1) يراجع القرطبي نفسه، والواحدي في أسباب النزول: 325.

ونفسه، ومن أباها قتلناه، وكان قتله في الله علينا هيناً أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم للمؤمنين والمؤمنات. فقالوا للشاب منهم: قم يا فلان فقل أبياتاً تذكر فيها فضلك وفضل قومك فقام الشاب وقال:

نَحْنُ الكِرَامُ فلا حَيَّ يُعَادِلُنا ∴ مِنَّا الْمُلُوكُ وفينا تُنصَبُ البَيَعُ[1]

وَنُطعِمُ النَّاسَ عِندَ القَحْطِ كُلِّهُمُ ∴ من السَّدِيفِ[2] إذا لم يُؤنَس القَزَعُ[3]

إذَا أَبَيْنا فلا يَأْتي لنا أحدٌ ∴ إنَّا كذلك عند الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ

فقال ﷺ: **«أجبه يا حسان»** فقال:

إنَّ النَّوَائب مِن فِهْرٍ وإخوتهم ∴ قد بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ

يَرْضَى بِهم كلُّ من كانتْ سَرِيرَتُه ∴ تَقْوى الإلٰه وَكُلَّ الخير يَصْطَنِعُ[4]

ثم قال حسان أيضاً:

نَصَرْنا رَسُولَ الله والدِّينَ عنوة ∴ على رَغم عات من بعيدٍ وحاضر

بضرْبٍ كأفواه المخاضِ مسافةً ∴ وطعن كأفواه اللِّقاح المصادر

وسل أحداً يوم استقلت جموعهم ∴ تقوم لنا مثل الليوث الخوادر

ألَسْنا نخوض الموتَ في حومة الْوَغَى ∴ إذا طاف ورد الموت بين العساكر

ونَضْربُ هام الدارعين وننتمي ∴ إلى حسب من جرم غسان قاهر

فلولا حياء الله قلنا تكرما ∴ على الناس بالحقين هل من منافر

فأحياؤنا من خير من وطىء الحصى ∴ وأمواتنا من خير أهل المقابر[5]

---

(1) البيَعُ: مواضع العبادات والصلوات. مفردها: بيعة. ويروى: وفينا نقسم الربع.

(2) من السديف: أي من لحم السنام ـ اللسان: سدف.

(3) القزع: قطع من السحاب الرقيق. اللسان: قزع، يريد إذا لم يمطروا، فأجدبت أرضهم.

(4) ويروى: يرضى بها.......... .... وبالأمر الذي شرعوا. تراجع السيرة النبوية لابن هشام: 4: 563 ـ 564 ـ 565.

(5) الواحدي في أسباب النزول: 327 ـ في النسخة: ك: من في المقابر.

فقال الأقرع بن حابس: والله لقد جئت لأمر ما جاء له هؤلاء، وإني قلت شعراً فاسمعه فقال: هات، فقال:

أَتَيْناك كَيْما يَعْرِفَ النَاسُ فَضْلَنا ∴ إذا فاخرونا عند ذكر المكارم

وَإِنَّا رؤوس النَّاسِ في كُلِّ مَعْشرٍ ∴ وأن ليس في أرض الحجاز كدارم

وإن لَنَا الْمِرْبَاعَ[1] في كُلِّ غَارَةٍ ∴ تكُونُ بنَجْدٍ أو بأَرْضِ التَّهَائم[2]

فقال ﷺ: «**أجبه يا حسان**» فقال:

بني دَارِمٍ لاَ تَفْخَرُوا إنَّ فَخْرَكم ∴ يَعُودُ وبالاً عند ذِكْر المكَارم

هَبِلْتُمْ عَلَينا تَفْخَرون وَأَنتُمُ ∴ لَنَا خَوَلٌ من بَيْن ضِئر وخَادِمِ؟

فقال ﷺ: «**لقد كنت غنياً يا أخا بني دارم أن يذكر منك ما قد ظننت أن الناس قد نسوه**» قال: فكان قول رسول الله ﷺ أشد عليه من قول حسان، ثم رجع حسان إلى شعره فقال:

وَأَفْضَل ما نِلْتم من المجد والْعُلى ∴ ردافَتُنا من بعد ذِكْر الأكَارِم

فَإن كنتم جِئْتم لحقْنِ دِمائكم ∴ وأمْوالِكم أن تُقْسِمُوا في الْمَقاسِمِ

فلا تجعلوا لِلَّهِ نِدًّا وَأَسْلِمُوا ∴ ولا تَفْخَرُوا عند النَّبي بدارم

وإلاَّ وربِّ البَيْتِ مالَتْ أكُفُّنا ∴ على هامكم بالمرهفات[3] الصوارم

قال فقام الأقرع بن حابس، وقال: إن محمداً لمؤتى له، والله ما أدري ما هذا الأمر تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أحسن شعراً ثم دنا من النبي ﷺ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال ﷺ: ما يضرك ما كان قبل هذا ثم أعطاهم رسول الله ﷺ، وكساهم،

---

(1) المرباع: أخذ الربع من الغنيمة يريد أنهم رؤساء.
(2) السيرة النبوية لابن هشام: 4: 565.
(3) الواحدي نفسه، وكذا السيرة النبوية.
المرهفات الصوارم: السيوف القاطعة.

وكان قد تخلف في ركابهم «عمرو بن الأهتم» وكان«قيس بن عاصم» يبغضه لحداثة سنه، فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطى القوم فازدرى به قيس بن عاصم، وقال فيه أبيات شعر، وارتفعت الأصوات وكثر اللغط عند رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية[1]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والله لا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ[2]، وعن الزبير رضي الله عنه أنه قال: ما حدث عمر رضي الله عنه عند رسول الله ﷺ بعد ذلك فيسمع كلامه حتى يستفهمه من شدة خفض صوته[3]، وكان ثابت بن قيس في أذنه صمم، وكان جهوري الصوت، وكان إذا حكم إنساناً جهر بصوته، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ، فينادي بصوته، فلما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي كيلا تحبط أعمالكم يعني تبطل حسناتكم جعل «ثابت» يبكي على قارعة الطريق فمر به «عاصم بن عدي» فقال: ما يبكيك يا ثابت، فقال: أخاف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ فأخاف أن يحبط عملي، وأن أكون من أهل النار، فمضى عاصم إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك، فقال: «**اذهب وادعه لي**»، فدعاه لرسول الله ﷺ، فقال له: «**ما يبكيك يا ثابت؟**» فقال: أنا عصيت يا رسول الله، وأخاف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ، فقال ﷺ: «**أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، ويدخلك الله الجنة**»[4]، قال: رضيت يا رسول الله، والله لا أرفع صوتي بعدها أبداً عليك يا رسول الله، فأنزل[5] الله تعالى

(1) يراجع السيرة النبوية لابن هشام: 4: 567.

(2) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 197. والقرطبي في تفسيره: 16: 308

(3) يراجع البغوي نفسه، والقرطبي نفسه.

(4) الطبري في تفسيره: 13: 153.

(5) البغوي في معالم التنزيل: 5: 197.

فيه، وفي أبي بكر، وعمر، وأمثالهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي أخلصها واصطفاها، واختبرها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصاً، وقال ابن عباس معناه: أولئك الذين أكرم الله قلوبهم للتقوى وقيل: أذهب الشهوات عنها، قال الزجاج: أمرهم الله بتبجيل نبيه، وأن يغضوا أصواتهم عنده، ويخاطبوه بالسكينة والوقار لئلا تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون[1] بذلك، قال فلما كان يوم اليمامة في حرب مسيلمة قاتل ثابت بن قيس، وسالم مولى أبي حذيفة قتالاً شديداً حتى قتلا، واستشهد ثابت وعليه درع، وقوله تعالى: ﴿يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾ الغض: النقص من كل شيء قال الله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[2] قوله تعالى: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي أخلصها للتقوى قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي في الجنة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ وذلك أن قوماً من بني العنتر وهم حي من بني تميم بعث النبي ﷺ إليهم سرية، وأمر عليهم «عيينة بن حصن الفزاري» فهربوا فسبى ذراريهم ونساءهم، وجاء بهم إلى النبي ﷺ، فجاء رجالهم لينادوا ذراريهم، فدخلوا المدينة عند القيلولة، ورسول الله ﷺ نائم فلما أبصرهم العيال بكوا عليهم فنهضوا وعجلوا قبل أن يخرج النبي ﷺ، وجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا وكان ﷺ حينئذ نائماً، فتأذى بأصواتهم، ولم يعلموا في أي حجرة هو فجعلوا يطوفون على جميع حجراته، وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ﷺ حجرة وبيت، فطافوا على جميع الحجرات وهم ينادون اخرج إلينا، وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وصفهم بالجهل وقلة العقل، وقلة الصبر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يعني أنهم لو صبروا حتى تخرج إليهم للصلاة لخلّى سبيلهم بغير فداء، فلما نادوه وأيقظوه أعتق نصف ذراريهم وفادى نصفهم لقوله: ولو صبروا كنت[3] تعتق كلهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب منهم.

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 5: 32.

(2) سورة لقمان: 31 الآية: 19.

(3) يراجع القرطبي في تفسيره: 16: 309 وما بعدها.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿6﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿7﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿8﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ بعث «الوليد بن عقبة»[1] مصدِّقاً إلى بني المصطلق، وكان بينه وبينهم إحنة، فلما اتصل خبره بهم وسمعوا به اجتمعوا وخرجوا ليتلقوه ففرَّ منهم، وكرّ راجعاً إلى المدينة، وقال لرسول الله ﷺ: إنهم قد منعوا الزكاة، وارتدوا عن الإسلام، وقصدوا قتلى، فبعث إليهم النبي ﷺ «خالد بن الوليد» في جيش، وقال له: «**انزل بساحتهم ليلاً فإن رأيت ما يدل على الإسلام من الأذان للصلاة والتهجد أمسك عن محاربتهم وطالبهم بصدقاتهم**»، فلما سار إليهم خالد ليلاً سمع فيهم الأذان والتهجد فكف عنهم إلى أن دخل عليهم لا على وجه القتال، وقالوا قد استبطأنا رسول الله ﷺ في الصدقات، وسلموها إليه، فأنزل الله هذه الآية[2]، وسمى الوليد فاسقاً لكذبه الذي وقع به الإغراء، والفاسق: الخارج عن طاعة الله بارتكاب كبيرة من الذنوب، وقيل الفاسق الذي لا يستحي من الله وقيل: هو الكذّاب المعلن بالكذب، والنبأ: الخبر عن ما يعظم شأنه فيما يعمل عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ قد ذكرنا القراءتين في سورة النساء قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي لئلا تصيبوا قوماً وهم مسلمون ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ

(1) أبو وهب الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي، وال من فتيان قريش وشعرائهم وأجوادهم فيه ظرف ومجون أسلم في فتح مكة وولاه الرسول ﷺ صدقات بني المصطلق، وولاه عمر صدقات بني تغلب، وولاه عثمان الكوفة، واعتزل الفتنة ومات بالرقة سنة إحدى وستين هجرية. الإصابة: ترجمة رقم 9149، الطبقات الكبرى: 6: 101.

(2) الطبري في تفسيره: 13: 160 رقم 24539، والواحدي في أسباب النزول ص: 328، القرطبي في تفسيره: 16: 311.

نَـٰدِمِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ معناه: واعلموا أن رسول الله مقيم فيكم لو يجيبكم في كثير مما سألتموه لوقعتم في العنت وهو الإثم والمشقة وقيل معناه: اتقوا أن تكذبوا رسول الله وتقولوا باطلاً فإن الله يخبره فتصبحوا ثم قال لو يطيعكم الرسول في كثير مما تخبرونه فيه بالباطل لعنتم أي لوقعتم في العنت وهو الإثم والهلاك ثم خاطب المؤمنين الذين لا يكذبون فقال: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ أي جعله أحب الأديان إليكم ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ حتى اخترتموه ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ﴾ أي بغَّض هذه الأشياء إليكم فالكفر ظاهر المعنى والفسوق: الكذب والخروج عن أمر الله، والعصيان: جمع معاصي الله ثم عاد إلى الخبر عنهم فقال أولئك هم الراشدون، أي المهتدون إلى محاسن الأمور ثم بين أن جميع ذلك تفضلاً من الله فقال: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾ أي تفضلاً من الله عليهم ورحمة والله عليم بما في قلوبهم حكيم فيهم بعلمه.

قال الله تعالى:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿9﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿10﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿11﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ﴾ نزل ذلك في الأوس والخزرج بسبب الكلام الذي جرى بين «عبد الله بن أبي» رأس المنافقين و«عبد الله بن رواحة» لما استبا جاء قوم هذا وقوم هذا، فاقتتلوا بالنعال والترامي بالحجارة، ولم يكن بين الطائفتين سيف، وسبب اختصامهما أن رسول الله ﷺ وقف ذات يوم على مجلس من مجالس الأنصار وهو على حماره، فبال حماره وهي أرض سبخة فأمسك عبد الله بن أبي بأنفه، وقال: إليك[1] عني فوالله لقد

---

(1) إليك عني: اسم فعل أمر بمعنى: ابتعد عني.

آذاني نتن حمارك، فقال عبد الله بن رواحة: والله إن حمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله ابن أبي رجل من قومه، وغضب لابن رواحة رجل من قومه فاستبوا وتحامل أصحاب كل واحد مع أصحاب الآخر فتجالدوا بالأيدي والجريد والنعال، فأنزل الله هذه الآية[1] فقرأها رسول الله ﷺ، فاصطلحوا وكفّ بعضهم عن بعض، وأقبل «بشر بن النعمان الأنصاري» مشتملاً على سيفه، فوجدهم قد اصطلحوا، فقال عبد الله بن أبي: أعليَّ تشتمل بالسيف يا بشر؟ قال: نعم والذي أحلف به لو جئت قبل أن تصطلحوا لضربتك حتى أقتلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ أي بالدعاء إلى حكم الله تعالى والرضاء بما في كتاب الله لهما وعليهما ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ أي طلبت ما ليس لها ولم ترجع إلى الصلح ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي حتى ترجع عن البغي إلى كتاب الله، والصلح الذي أمر الله به والبغي: هو الاستطالة والعدول عن الحق، وعما عليه جماعة المسلمين، والطائفة الباغية هي التي تطلب ما ليس لها أن تطلب.

قوله تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي حتى ترجع إلى طاعة الله ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ أي وأعدلوا في الإصلاح بينهما وفي كل حكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي يحب الذين يعدلون في أهليهم وحكمهم وما ولوا والإقساط في اللغة: العدل يقال: أقسط الرجل إذا عدل وقسط إذا جار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾[2]، وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «**يا ابن أم عبد هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟**» قال: الله ورسوله أعلم قال: «**لا يُجْهَز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيئها**»[3].
قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ يعني في الدين والولاية ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ يعني بين كل مسلمين تخاصما، وتقاتلا، واختلفا ـ قرأ ابن سيرين بين إخوتكم

(1) الطبري في تفسيره: 13: 165 رقم 24550، والقرطبي في تفسيره: 16: 315 والواحدي في أسباب النزول: 329، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) سورة الجن: 72 الآية: 15.

(3) ذكره أبو بكر الجصاص في تفسيره أحكام القرآن: 3: 402 ـ باب الحكم في أسرى أهل البغي. وذكره الزمخشري في الكشاف: 3: 563 ـ 564، والقرطبي في تفسيره: 16: 320.

بالجمع، وقرأ الحسن بين إخوانكم بالألف والنون[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي أطيعوه ولا تخالفوا أمره ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يشتمه، ولا يعيبه، ولا يخذله، ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف له منه، ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى أولاد جاره إلا أن يطعموهم منها**»[2] ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي لا يستهزىء الرجل من أخيه، فيقول: إنك رديء المعيشة، لئيم الحسب، وأشباه ذلك مما ينقصه به، ولعله خير منه عند الله، وقيل معناه: لا يعير قوم قوماً لعل المسخور منه أفضل عند الله من الساخرين، ولا يعير نساء نساء لعل المسخورة منهن أفضل من الساخرات، وقيل معناه: لا يسخر غني من فقير لفقره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا تعيبوا إخوانكم الذين هم كأنفسكم ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾، أي لا يدع بعضكم بعضاً باللقب الذي يكرهه صاحبه لأن عليه أن يخاطب أخاه بأحب الأسماء إليه.

وقال قتادة معناه: لا تقل لأخيك المسلم يا فاسق ويا منافق، ولا يقال لليهودي بعد أن آمن يا يهودي[3]، وذلك معنى قوله: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ وقال عطاء: هو كل شيء أغضبت به أخاك كقولك: يا كلب، يا خنزير، يا حمار[4] قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي من لم يتب من التنابز فأولئك هم الظالمون، وقال أنس نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ في نساء رسول الله ﷺ عيرت أم سلمة بالقصر، ويقال نزلت في عائشة أشارت بيدها في أم سلمة إنها قصيرة، وروى عكرمة عن ابن عباس أن صفية بنت حيي

---

(1) ذكر القرطبي في تفسيره: 16/ 323 ـ قراءتي الحسن، وابن سيرين.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 16: 120 باب تحريم ظلم المسلم. وأبو داود في سننه بشرح عون المعبود: 13: 255 باب تحريم ظلم المسلم. والبيهقي في الشعب: 5: 280 ـ باب في تحريم أعراض الناس.

(3) ينظر القرطبي في تفسيره: 16: 328.

(4) ينظر البغوي في معالم التنزيل: 5: 203.

ابن أخطب أتت رسول الله ﷺ، فقالت: إن النساء يعيرنني، ويقلن يا يهودية بنت يهوديين، فقال ﷺ: «**هلا قلت: إن أبي هٰرون وعمي موسى، وإن زوجي محمد**» فأنزل الله هذه الآية[1]: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي لا يعب بعضكم بعضاً، ولا يطعن بعضكم في بعض، وقيل اللمز: العيب في المشهد، والهمز في المغيب وقال محمد بن يزيد[2] اللمز: يكون باللسان والعين والإشارة، والهمز لا يكون إلا باللسان[3]، قال الشاعر:

إذَا لَقيتُك عَن قُربٍ فَكاشِرُني ∴ وإن تغَيَّبتُ كنتَ الهامِزَ الْمُلْمِز[4]

قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ (12) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ (13) ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (14)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما، ويهيء لهما طعامهما وشرابهما ليصيب من طعامهما، فضم سلمان إلى رجلين من أصحابه في بعض أسفاره.

---

(1) يراجع الواحدي في أسباب النزول: 330.

(2) في النسخة: ك ـ محمد بن زيد.

(3) النحاس في إعراب القرآن: 5: 213.

(4) ورد في اللسان: همز ـ غير منسوب:

إذا لَقيتُك عن شَحطٍ تُكاشِرُني ∴ وإن تَغَيَّبتُ كنت الهامَز اللُمَزَهْ

وورد أيضاً في النحاس نفسه ـ منسوباً ـ لزياد الأعجم، وورد في تفسير القرطبي: 20: 182 عند تفسيره سورة الهمزة بعد أن ذكر بيتاً نسبه إلى زياد الأعجم قال: وقال آخر:

إذا لقيتكَ عن شُحطٍ تُكاشِرُني ∴ وإن تَغيَّبتُ كنتُ الهامِزَ اللمزَهْ

فتقدم سلمان معهما فاتفق ذات يوم أنه لم يعد لهما شيئاً غلبته عيناه فنام فلما قدما قالا له: ما صنعت شيئاً؟ قال: لا، قالا: لم؟ قال: غلبتني عيناي، فقالا: انطلق إلى النبي ﷺ، واطلب لنا منه طعاماً وإداماً، وقيل: إنهما قالا له: انطلق إلى النبي ﷺ، واسأله لنا فضل إدام إن كان عنده، فسأل، فقال عليه السلام: «**انطلق إلى الخازن فليعطك إن كان عنده**»، وكان الخازن يومئذ «أسامة بن زيد» فانطلق إليه فلم يجد عنده شيئاً، فرجع إليهما فأخبرهما بذلك فقالا: إنه بخيل يأمره رسول الله ﷺ ويبخل هو علينا، وقالا في سلمان: لو بعثناه إلى بئر سُمَيْحة[1] لقال ليس فيها ماء ثم جعلا يتجسسان هل كان عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ من الإدام؟ فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «**مالي أرى حمرة اللحم في أفواهكما**» قالا: يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحماً، فقال: «**ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة**»، فأنزل الله هذه الآية[2]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ والظن الذي هو الإثم: أن يعرض بقلب الإنسان في أخيه ما يوجب الريبة فيحققه من غير سبب يوجبه كما روى في الخبر: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ التجسس: البحث عن عيب أخيه الذي ستره الله عليه، ومعنى الآية: خذوا ما ظهر ودعوا ما ستر الله، ولا تتبعوا عورات الناس، وقال ﷺ: «**لا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تنابزوا وكونوا عباد الله إخواناً**»[3]. وروي أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب قال له: إن فلاناً يواظب على شرب الخمر، فقال: إذا علمته شربها فأعلمني فأعلمه فذهب معه حتى انتهى إلى داره، فدخل عليه، فقال: أنت الذي تشرب الخمر؟ فقال: وأنت الذي تتجسس عن عيوب المسلمين، فقال عمر: تبت لا أعود فقال الرجل: وأنا تبت ولا أعود.

---

(1) بئر سُمَيْحة: بئر قديمة معروفة في المدينة بكثرة الماء.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ وكذا القرطبي في تفسيره: 16: 330 ـ 331.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 12: 106 رقم 1066 ـ كتاب الأدب. وأخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي، 16: باب تحريم الظن والتجسس، والبيهقي في الشعب: 5:

وروى زيد بن أسلم: أن عمر رضي الله عنه خرج ذات ليلة ومعه عبد الرحمن بن عوف يمشيان إذ تبينت لهما نار، فأتيا الباب، فاستأذنا ففتح لهما، فدخلا، فإذا رجل وامرأة تغني وعلى يد الرجل قدح فقال عمر للرجل: وأنت بهذا يا فلان؟ فقال: وأنت بهذا يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: فمن هذه معك؟ قال امرأتي، قال ما في القدح؟ قال: ماء زلال فقال للمرأة: وما الذي تغنين؟ فقالت أقول:

تَطَاول هذا اللَّيل وازوَّر جانبهُ ∴ فأرَّقني أن لا خليلَ ألاعبُه

فوالله لولا خشيةُ اللَّهِ والتُّقَا ∴ لَزُعْزِعَ من هذا السَّرِير جَوَانبُه

ولكنَّ عقلي والحياءُ يَكُفُّني ∴ وأُكْرِمُ بَعْلي أن تُنال مَرَاكِبُه

ثم قال الرجل: يا أمير المؤمنين: قال الله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ قال صدقت: وانصرف[1]. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ أي لا يتناول بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوءه مما هو فيه. فإن تناوله بما ليس فيه فهو بهتان، وسئل رسول الله ﷺ عن الغيبة فقال: «**أن تذكر من الرجل ما يكرهه إذا سمعه**»، فقيل: يا رسول الله وإن كان حقاً، فقال: «**وإن كان حقاً وأما إن كان باطلاً فهو البهتان**»[2]، وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**إن الرجل يزني ويتوب، فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه**» وقال ﷺ: «**إذا اغتاب أحدكم أخاه، فليستغفر له، فإن ذلك كفارة له**»[3]، وعن ابن عمر قال: جاء ماعز إلى النبي ﷺ، فقال: إني زنيت، فأعرض عنه حتى أمَرّ أربع مرات، فأمر برجمه، فمرّ النبي ﷺ على رجلين يذكران ماعزاً، فقال أحدهما:

---

(1) يراجع تفسير القرطبي: 16: 334 ـ فقد ذكر هذه الأبيات هنا في تفسيره لسورة الحجرات مع بعض الاختلاف عن الذي ذكره الإمام الحداد، وذكر الإمام القرطبي هذه الأبيات نفسها عند تفسيره للآية: 226 من سورة البقرة مع بعض الاختلاف أيضاً عن الذي ذكره في الحجرات.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 16: 142 ـ باب تحريم الغيبة.

(3) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين: 3: 150 ـ بيان كفارة الغيبة.

هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رجم كرجم الكلب، فسكت عنهما، حتى مرا معه على جيفة حمار فقال ﷺ: «**انزلا، فأصيبا منه**»، قال:ا يا رسول الله أنأكل من هذه الجيفة؟ قال: «**فما أصبتما من لحم أخيكما أعظم عليكما، أما إنه الآن في أنهار الجنة ينغمس فيها**»[1].

وقال ﷺ: «**لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم**»[2]، وقال رجل لابن سيرين: إني قد اغتبتك، فاجعلني في حل، قال: إني أكره أن أحل ما حرم الله[3]، والغيبة في اللغة: هي ذكر العيب بظهر الغيب فأما ذكر عيب الفاسق المصر على فسقه بمعنى يرجع إلى قبائح أفعاله على وجه التحقير له فليس بغيبة كما ورد في الحديث: «**اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس**»[4]، وكان الحسن يقول في صفة الحجاج: جاءنا أُخَيْخِش أُعَيْمش يخرج إلينا بناناً قصيرة والله ما عَرِق فيها غبار في سبيل الله، يرجل جُمَّته، ويَخطِر في مِشْيَته ويصعد المنبر فَيَهْذِر حتى تفوته الصلاة، لا من الله يتّقي، ولا من الناس يستحي، فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل، ثم جعل الحسن يقول: هيهات! والله حال دون ذلك السيف والسوط[5]، قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ أي كما كرهتم أكل لحم الميت طبعاً فاكرهوا غيبة الحي عقلاً فإن العقل أحق أن يتبع من الطبع ووجه تشبيهه بأكل لحم أخيه ميتا أن الاغتياب ذكر له بالسوء من غير أن يحسَّ هو بذلك فهو بمنزلة الأكل من لحمه وهو ميت[6]، وعن ابن عباس أنه دخل الكعبة، فقال: ما أطيب ريحك،

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ، والجصاص في أحكام القرآن: 3: 408.
(2) أخرجه البيهقي في الشعب: 5: 299 ـ رقم 6716 باب في تحريم أعراض الناس.
(3) يراجع ابن عطية في تفسيره: 15: 150.
(4) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين: 3: 149 ـ بيان الأعذار المرخصة في الغيبة.
(5) يراجع القرطبي في تفسيره: 16: 339 ـ بتصرف، والجصاص في أحكام القرآن: 3: 404.
(6) ينظر ابن عطية نفسه.

وأعظم حرمتك، ولحرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمتك إنما جعلك الله تعالى حراماً، وحرَّم من المؤمن دمه، وعرضه، وماله، وأن يظن به ظن السوء[(1)] - وعن الحسن أنه قيل له: إن أقواماً يحضرون مجلسك، ويحفظون عليك سقط كلامك، ثم يعيبونك، فقال: طمّعت نفسي في جوار الرحمن، وحلول الجنان، والنجاة من النيران، ومرافقة الأنبياء عليهم السلام، ولم أطمع نفسي في السلامة من الناس إنه لو سلم من الناس أحد لسلم منهم خالقهم الذي خلقهم، فإذا لم يسلم منهم خالقهم فالمخلوق أجدر أن لا يسلم[(2)]، قوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ أي فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتقوه في الغيبة إن الله تواب على من تاب رحيم بهم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ نزلت في نفر من قريش قالوا حين سمعوا آذان بلال: أما وجد محمد مؤذناً غير هذا الغراب[(3)]، والمعنى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من آدم وحواء كلكم متساوون في النسب لأن كلكم يرجع إلى أب واحد، وأم واحدة، ومعنى الآية: الزجر عن التنافر بالأنساب، قال ﷺ: «**إنما أنتم من رجل واحد، وامرأة واحدة ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى**»، ثم ذكر أنه إنما فرق أنساب الناس ليتعارفوا لا ليتفاخروا، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ الشعوب جمع شعب بفتح الشين: وهو الحي العظيم مثل: ربيعة ومضر، والقبائل دونها، وهم كبكر ابن ربيعة، وتميم بن مضر هذا قول جماعة المفسرين، وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال: يريد بالشعوب الموالي، وبالقبائل العرب، وإلى هذا ذهب قوم، فقالوا: الشعوب من العجم فهم من لا يعرف لهم أصل نسب كالهند والترك، والقبائل من العرب، وقيل معناه: وجعلكم متشعبين متفرقين نحو العرب وفارس

(1) ذكره البغوي في معالم التنزيل: 5: 205 عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(2) الجصاص في أحكام القرآن: 3: 408 - بتصرف.
(3) الواحدي في أسباب النزول: 331.
القرطبي في تفسيره: 16: 341.

والروم والهند، وقبائل نحو قبائل العرب وبيوتات العجم، والشِّعب بكسر الشين: الطريق في الجبل، وجمعه: شعاب، والحاصل أن الشعوب: رؤوس القبائل مثل ربيعة ومضر، والأوس والخزرج، والقبائل: دون الشعوب، وهم كبكر من ربيعة، وتميم من مضر ودون القبائل: العماير واحدتها: عَمارة بفتح العين وهي: كشيبان من بكر، ودارم من تميم، ودون العماير: البطون واحدها: بطن وهم كبني غالب ولؤي من قريش، ودون البطون الأفخاذ واحدها: فخذ وهم كبني هاشم وبني أمية من لؤي، ثم الفصائل واحدها: فصيلة وعشيرة.

قوله تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي ليعرف بعضكم بعضاً في النسب لا لتفاخروا فيما بينكم كما أن الله تعالى خالف بين خلقكم وصوركم ليعرف بعضكم بعضاً، وقرأ الأعمش ـ ليتعارفوا[1]، وقرأ ابن عباس: ليَعرفوا بغير ألف[2] ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ﴾ بفتح الألف وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ معناه: إن أكرمكم في الآخرة أتقاكم لله في الدنيا، وقال ﷺ: «**إن الله تعالى قد أذهب نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**»، وقال ﷺ: «**من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله**»، وقال: «**أكرم الرجل دينه وتقواه وفضله وعقله وحسبه خلقه**»، وقال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**[3]، **وإنما أنتم بنو آدم أكرمكم عند الله أتقاكم**» وقال ابن عباس: كرم الدنيا: الغنى، وكرم الآخرة: التقوى[4] وقال الشاعر:

مـا يَـصْـنَـعُ الـعَـبْـدُ بِـعِـزِّ الـغِـنـى ∴ والـعِـزِّ كـل الـعِـزِّ لـلـمُـتَّـقِـي[5]

---

(1) ابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز» 15: 154، ونسبها الفراء في معاني القرآن: 3: 76 إلى عبد الله.

(2) ابن عطية نفسه، وابن جني في المحتسب: 2: 280 أي: لتعرفوا ما أنتم محتاجون إلى معرفته.

(3) أخرجه ابن ماجه في سننه: 2: 1388 رقم 4143 ـ كتاب الزهد. والبيهقي في الشعب: 7: 328 ـ 329 ـ رقم 10477 ـ باب في الزهد وقصر الأمل.

(4) البغوي في معالم التنزيل: 5: 207، والزمخشري في الكشاف: 3: 569.

(5) ذكر القرطبي البيتين في تفسيره: 16: 346 من غير نسبة، أما الثعلبي في تفسيره قال: أنشدنا عمرو بن الفرحان.

من عَرَف الله فلم تُغْنِه ∴ معرفةُ اللَّهِ فذاك الشَّقِي

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ نزلت في نفر من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ المدينة في سنة جدبة، وأظهروا شهادة أن لا إله إلا الله، ولم يكونوا مؤمنين في السر، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها، وكانوا يزعمون أنهم مخلصون في إيمانهم، ولم يكونوا كذلك، وكانوا يقولون للنبي ﷺ: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وجئناك بالأثقال، والعيال، والذراري يمنون على رسول الله ﷺ، ولم نقاتلك كما يقاتلك بنو فلان وبنو فلان يريدون بذلك الصدقة، ويقولون: أعطنا، فأنزل الله هذه الآية[1] والمعنى أنهم يقولون صدقت بالألسن والقلوب قل لهم يا محمد: لم تؤمنوا أي لم تصدقوا بقلوبكم كما صدقتم بألسنتكم، ولكن قولوا استسلمنا، وأنقذنا مخافة السبي والقتل ولم يدخل الإيمان في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله في السر أي لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً إن الله غفور لمن تاب رحيم لمن مات على التوبة، ومن قرأ لا يألتكم بالهمزة فهو من ألت يألت ألتا إذا نقص، ويقال: لات يليت ليتاً بهذا المعنى، وكلا القراءتين بمعنى واحد[2].

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿15﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿16﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿17﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿18﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي هم الذين أقروا وصدقوا بوحدانية الله ونبوّة رسوله ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي ثم لم يشكوا في دينهم

(1) الواحدي في أسباب النزول: 332. والطبري في تفسيره: 133: 182.

(2) يراجع النحاس في إعراب القرآن: 5: 216، وابن عطية في تفسيره: 15: 156.

بعد الإيمان ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ العدو ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ في طاعة الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في الإيمان فلما نزلت هذه الآية جاء القوم يحلفون لرسول الله ﷺ: أنهم مؤمنون في السرِّ والعلانية، وقد علم الله منهم غير ذلك، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: كيف تعلمون الله بالدين الذي أنتم عليه، وهو العالم بكل شيء من كل وجه، وكيف يجوز أن يعلم من كان بهذه الصفة، وقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾ وذلك أن هؤلاء المنافقين كانوا يقولون للنبي ﷺ: قاتلك العرب بأسيافهم ونحن جئناك بالأهل والذراري والأثقال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان[1] وبنو فلان، فقال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾ يا محمد بأن أسلموا قل لا تمنوا علي بإسلامكم، فإن إجابتكم إلى الإسلام لم تكن إلا لإحسانكم إلى أنفسكم لا أنكم أنعمتم على من دعاكم إلى ذلك، ومن المعلوم أن حق الداعي إلى الهداية أعظم من حق المطيع بالإجابة فليس للمطالب أن يطالب بالحق الذي له وينسى الحق الأعظم الذي عليه، ولذلك قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ وأخرجكم من الضلال ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مقالتكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿18﴾﴾ فيه بيان أنه لا ينفع المنافق عند الله كتمان الكفر لأنه تعالى عالم به، فإن قيل كيف يجوز المنة من الله، والمنة مما تكدر الصنيعة، قيل إن المنة ممن يستغني عنه تكدر الصنيعة، وأما الله تعالى فليس من أحد إلا وهو محتاج إليه، فليس في منته تكدير النعمة لاستحالة أن يستغني بغيره عنه، وقد يقال إذا كفرت النعمة حسنت المنة وبالله التوفيق.

(1) يراجع الواحدي في أسباب النزول: 333، والقرطبي في تفسيره: 16: 350، والطبري في

سُورَةُ قٓ

قال أبو بكر الحداد:

سورة ق مكية، وهي ألف وأربعمائة وأربعة وتسعون حرفاً، وثلاثمائة وسبع وخمسون كلمة، وخمس وأربعون آية، قال ﷺ: «**من قرأها هوّن الله عليه سكرات الموت**»(1).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ
عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا
كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا
رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾
رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿قٓۚ﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء الله،

أقسم الله به وقال القرظي: هو افتتاح اسمه: قدير وقادر وقريب وقاهر وقابض، وقال عكرمة والضحاك، وجماعة المفسرين، هو اسم جبل محيط بالدنيا زبرجد أخضر خضرة السماء منه، وهو وراء الحجاب الذي تغيب فيه الشمس من ورائه بمسيرة سنة، وليس في الأرض بلد إلا وتحتها عرق من عروق ذلك الجبل، فإذا أراد الله أن يزلزل تلك الأرض حرك عرقه ذلك فزلزل، وإذا أراد الله بأهل مدينة هلاكاً أمره فحرك عرقه فخسف بهم قال وهب: إن ذا القرنين أتى على جبل قاف فسأله: هل وراءك شيء؟ فقال: ورائي أرضاً مسيرة خمسمائة عام في عرض خمسمائة من جبال الثلج يحطم بعضها بعضاً، ومن وراء ذلك أيضاً أرض مثلها من البر، ولولا ذلك الثلج والبرد لاحترقت من حر جهنم[1]، وقال بعضهم معنى قوله تعالى: ق قضي الأمر أو قضي ما هو كائن[2]، وقال أبو بكر الوراق معناه: قف عند أمرنا ونهينا ولا تعدهما[3] وقيل معناه: قل يا محمد قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أي الشريف الكريم على الله الكثير الخير، واختلف العلماء في جواب القسم فقال أهل الكوفة جوابه: بل عجبوا، وقال الأخفش جوابه: محذوف تقديره: والقرآن المجيد لتبعثن، وقيل جوابه: ما يلفظ من قول، وقيل جوابه: قد علمنا ـ كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾ إلى أن قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ فذلك جواب القسم إلا أن اللام حذفت منه، ويجوز أن توضع بل في جواب القسم[4] موضع القدر وجوابات القسم سبعة: إنَّ الشديدة كقوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[5] إلى أن قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾، وما في النفي كقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾[6] واللام المفتوحة كقوله:

---

(1) تراجع هذه الأقوال في قوله تعالى «ق» في تفسير القرطبي: 17: 2 ـ 3.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 5: 41.

(3) القرطبي نفسه.

(4) تراجع هذه الأقوال في جواب القسم في: معاني القرآن للأخفش: 2: 696، والفراء: في معاني القرآن: 3: 75، والزجاج في معاني القرآن وإعرابه: 5: 41 ـ والنحاس في إعراب القرآن 4: 219.

(5) سورة الفجر: 89 الآية: 1 ـ 14.

(6) سورة الضحى: 93 الآية: 1 ـ 3.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾[1]، وإنْ الخفيفة كقوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا﴾[2]، ولا كقوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[3] وقد كقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾[4]، وبل كقوله: ﴿قٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾[5]، أي مخوف يعرفون حسبه ونسبه، وصدقه وأمانته، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ عجبوا من كون محمد رسولاً إليهم فأنكروا رسالته، وأنكروا البعث بعد الموت وهو قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي أنبعث إذا متنا قالوا ذلك متعجبين أنهم إذا ماتوا وصاروا تراباً كيف يبعثون بعد ذلك وقوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي ردٌ إلى الحياة بعيد غير كائن أبداً استبعدوا بجهلهم أن يبعثوا بعد الموت قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي ما تأكل الأرض من لحومهم ودمائهم وأشعارهم والمعنى: لا يخفى علينا شيء مما تأخذ الأرض من أبدان بني آدم فمن علم ذلك فهو قادر على إعادة ذلك الخلق بعينه إلى الحياة وقوله تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أراد به اللوح المحفوظ حفيظ من الزيادة والنقصان معناه: كتاب حافظ لعدتهم وأسمائهم قد أثبتنا فيه ما يكون من جميع الأشياء المقدرة قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي كذبوا بالقرآن لما جاءهم بدلائل الله ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي مختلط ملتبس عليهم لا يثبتون على شيء واحد: مرة يشكون، وأخرى يجحدون، ومرة يقولون في النبي ﷺ إنه ساحر، ومرة يقولون هو شاعر، ومرة يقولون: هو معلم مجنون وتارة يقولون في القرآن هو سحر يؤثر، وتارة يقولون هو أساطير الأولين، وتارة يقولون: هو سحر مفترى، قال الحسن: ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم، وقال قتادة: من ترك الحق مرج عليه رأيه، والتبس عليه دينه[6] ومن ذلك المرج لاختلاط أشجارها بعضها من بعض،

---

(1) سورة الحجر: 15 الآية: 92.

(2) سورة الشعراء: 26 الآية: 97.

(3) سورة النحل: 16 الآية: 38.

(4) سورة الشمس: 91 الآية: 1 ـ 9.

(5) سورة ق: 50 الآية: 1 ـ 2.

(6) يراجع قولي الحسن وقتادة: عند البغوي في معالم التنزيل: 5: 212.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ دلهم بهذا على قدرته على البعث بعظيم خلقه فقال: أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها بغير عمد، وزيناها بالكواكب، ومالها من فتوق وشقوق وصدوع.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي بسطناها، وألقينا فيها رواسي أي جبالاً، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج أي من كل لون حسن منظره قوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿8﴾﴾ أي فعلنا ذلك الذي ذكرناه ليبصر به ويتذكر به فهو تذكير وعظة وتنبيه لكل عبد منيب يرجع إلى الله ويتفكر في قدرته قال أبو حاتم قوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً﴾ منصوب على المصدر(1) يعني تبصيراً وتذكيراً وتنبيهاً له لأن من قدر على خلق السماوات والأرض والنبات قدر على بعثهم قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ يعني المطر فأنبتنا به جنات أي بساتين وحب الحصيد يعني الزرع الذي من شأنه أن يحصد حصد أم لم يحصد، وذلك مثل البر والشعير، وسائر الحبوب التي تحصد وتدخر وتقتات، وأضاف الحب إلى الحصيد وهما واحد لاختلاف اللفظين كما يقال: مسجد الجامع وربيع الأول، وحق اليقين، وحبل الوريد، ونحوهما قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿10﴾﴾ معناه: وأنبتنا النخل طوالاً يقال: بسقت النخلة بسوقاً إذا طال والطلع النضيد هو الكُفُرَّى ما دام في أكمامها فهو منضود بعضه فوق بعض، وإذا خرج من أكمامها فليس بنضيد وقوله تعالى: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ انتصب على وجهين: أحدهما: رزقناهم هذه الأشياء رزقاً، والثاني: أنبتناها للرزق فهو منصوب لأنه مفعول له أو لأنه مصدر فعل محذوف(2) قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي أحيينا بالمطر مكاناً ميتاً لا نبات فيه، فكما أحيينا هذه الأرض الميتة بالماء وأنبتنا هذه الأقوات من حبوب يابسة ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي كذلك تنبتون بالمطر في قبوركم ثم تخرجون للبعث والقدرة على إعادة النبات دليل على القدرة على إعادة الحياة إلى الميت.

---

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 6.

(2) التبيان في إعراب القرآن: 2: 372، ومعاني القرآن وإعرابه: 5: 43.

قال الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15) وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ (20) وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ فيه تسلية للنبي ﷺ يقول إن هؤلاء الكفار سلكوا في التكذيب طريقة من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم وقد رأيتم كيف كان إنكاري عليهم، وكيف أهلكناهم والرس[1] بئر دون اليمامة نبيهم «حنظلة بن صفوان» وأصحاب الأيكة قوم شعيب والأيكة: الغيظة، وأما قوم تبع فقد تقدم أن تبع اسم ملك حمير وقد ذكرنا ذلك في قوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي كل من هؤلاء المذكورين كذب الرسل ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي فوجب عليهم عذابي وحقت عليهم كلمة العذاب، وسمى تبع لكثرة أتباعه وكان يعبد النار، فأسلم ودعا قومه إلى الإسلام وهم حمير فكذبوه وقال أبو حاتم عن الرقاشي: كان أسعد الحميري من التتابعة آمن بالنبي ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة وقال في ذلك: شهدت على أحمد أنه رسول من الله باريء القسم، فلو مدَّ في عمري إلى عمره لكنت وزيراً له، وابن عم، قال قتادة: ذم الله قوم تبع ولم يذمه فكان من ملوك اليمن فسار بالجيوش وافتتح البلاد، وقصد مكة ليهدم البيت، فقيل له: إن لهذا البيت رباً يحميه، فندم

---

(1) قال الزجاج: والرس بئر، ويروى أن الرس ديار لطائفة من ثمود، ويروى أن الرس قرية باليمامة يقال لها فلج، ويروى أنهم قوم كذبوا نبيهم ورسوه في بئر أي دسوه فيها حتى مات ـ معاني القرآن وإعرابه: 4: 68.

(2) سورة الدخان: 44 الآية: 37.

وأحرم ودخل مكة، وطاف بالبيت، وكساه، وهو أول من كسى البيت[1] قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ هذا جواب لقولهم: ذلك رجع بعيد والمعنى: أعجزنا حين خلقناهم أولاً ولم يكونوا شيئاً؟ فكيف نعجز عن بعثهم، وهذا تقرير لهم لأنهم اعترفوا: بأن الله الخالق، وأنكروا البعث ثم ذكر أنهم في شك من البعث فقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي بلِ هم في شك من البعث قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي ولقد خلقنا ابن آدم، ونعلم ما يحدث به قلبه أي نعلم ما يخفي ويُكنُّ في نفسه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ بالعلم بأحواله وما في ضميره ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وهو عرق في باطن العنق بين العليا والحلقوم، وهما وريدان عن يمين ثغرة النحر ويسارها يتصلان من ناحية الحلق إلى العاتق ينبضان أبداً من الإنسان، وقال الحسن: الوريد الوتين وهو عرق معلق به القلب[2] والله تعالى أقرب إلى العبد من قلبه، ومعنى الآية: ونحن أقرب إليه أي أعلم به وأقدر عليه من بعضه، وإن كان بعضه له حجاب فلا يحجبنا شيء أي لا يحجب علمنا عنه شيء.

ثم ذكر أنه مع علمه وكل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله لزاماً للحجة قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿17﴾﴾ قال مقاتل: هما ملكان يتلقيان عمل ابن آدم ومنطقه أي يأخذان ذلك، ويثبتانه في صحائفهما أحدهما: عن اليمين يكتب الحسنات، والثاني عن الشمال يكتب السيئات فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ولم يقل قعيدان لأنه أراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فاكتفى بأحدهما عن الآخر كقول الشاعر[3]:

نَحْنُ بما عِنْدنا وأنتَ بما ∴ عندك راض والرَّأيُ مختلِفُ[4]

أي نحن بما عندنا راضون، والقعيد مثل: القاعد كالسميع والعليم والقدير،

---

(1) يراجع البغوي في معالم التنزيل: 5: 117.

(2) القرطبي في تفسيره: 17: 9.

(3) أبو يزيد قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية له ديوان مطبوع توفي قبل الهجرة بسنتين ـ خزانة الأدب: 3: 168 ـ الأغاني: 2: 154.

(4) في ملحق ديوانه: 239، وسيبويه الكتاب: 1: 75.

وقال أهل الكوفة: أراد قعوداً روى أن الله تعالى وكل بالإنسان ملكين بالليل، وملكين بالنهار يحفظان عليه عمله أحدهما يكتب الحسنات، والثاني: يكتب السيئات، وإذا تكلم العبد بحسنة كتبها الذي على اليمين عشراً، وإذا تكلم بسيئة قال صاحب اليمين للآخر: أنظره فينظره ست ساعات أو سبعاً فإن تاب واستغفر لم يكتبها، وإن لم يتب كتب عليه سيئة واحدة[1] وهكذا قال ﷺ، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى وكل بعبده ملكين يكتبان عليه، فإذا مات العبد قالا يا رب قد قبضت عبدك أفتأذن لنا أن نصعد إلى السماء؟ فيقول الله تعالى: سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحونني فيقولان أنقيم في أرضك؟ فيقول: إن أرضي مملوءة من خلقي يعبدونني، فيقولان: أين نذهب؟ فيقول: أقيما: على قبر عبدي فكبراني وهللاني، واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة**»، وقوله تعالى: ﴿قَعِيدٌ﴾ أي رصيد حافظ حاضر ملازم لا يبرح وقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿18﴾﴾ أي معتدلة قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي جاءت غمرات الموت وأهواله وشدته التي تغشي الإنسان، وتغلب على عقله بالحق قال مقاتل: يعني أنه حق كائن، وقيل معنى قوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما يصير إليه من أمر الآخرة من شقاوة أو سعادة تحق عليه بالموت، ويقال له: ذلك الذي كنت منه تحيد أي تميل وتهرب وتكره قد أيقنت به الآن يقال: حاد عن الشيء يحيد عنه حيداً إذا مال وزاغ ونكص وهرب، وقرأ أبو بكر الصديق رضي الله عنه: وجاءت سكرة الحق بالموت[2].

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿20﴾﴾ يعني يريد نفخة البعث تكون يوم القيامة وهو يوم يتحقق فيه الوعيد، وهو اليوم الموعود للأولين والآخرين يجتمعون فيه. وقيل معناه: ذلك الذي وعد الله الكفار أن يعذبهم فيه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿21﴾﴾ أي سائق يسوقها إلى المحشر وشاهد يشهد عليها بما عملت وقال الكلبي: السائق هو الذي يكتب السيئات،

(1) أخرجه البيهقي في الشعب: 1: 229 رقم 333.

والشهيد هو الذي يكتب الحسنات[1]، والمراد بالنفس هاهنا نفس الكافر يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي يقال له: لقد كنت في غفلة من هذا اليوم في الدنيا ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الذي كان في الدنيا يغشي قلبك وسمعك وبصرك ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي فأنت اليوم عالم نافذ البصر تبصر ما كنت تنكر في الدنيا، وقيل معناه: فبصرك اليوم حديد أي فعلمك نافذ وهو من البصارة لا من بصيرة العين كما يقال: فلان بصير بهذا الأمر أي عالم به وقيل معناه: فبصرك اليوم شاخص لما ترى من الهول.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿23﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿24﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿25﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿26﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿27﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿28﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿29﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿30﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿23﴾﴾ يعني الملك الذي كان يكتب عمله السيء في الدنيا يقول هذا كتبته من عمله معد محفوظ محصى يعني أن الملك يقول لربه هذا الذي وكلتني به قد أحضرته، فيقول الله تعالى لقرينه: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ أي اطرحا فيها كل كفار بالله، وبنعمته معرض عن الإيمان والقرآن إعراض المضاد له، وهذا خطاب للواحد بلفظ التثنية على عادة العرب[2] يقولون للواحد ارجلاها وازجراها، وقيل: الخطاب لخازن النار.

ومخاطبة الواحد بلفظ الاثنين من فصيح كلام العرب، ومنه قولهم للواحد في الشعر: خليليَّ، قال امرؤ القيس:

---

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 14.

(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 215.

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلى أُمِّ جُنْدَبِ ∴ نُقَضِّ لُبَانَاتِ الْفُؤادِ الْمُعَذَّبِ[1]

وقال:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنزِلِ ∴ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ[2]

وقال آخر:

فإن تَزْجُرَاني يا ابن عَفَّانَ أَنْزَجِرْ ∴ وإن تَدعاني أَحم عِرْضاً مُمَنَّعَا[3]

ومنه قول الحجاج: يَا حَرَسى اضربا عنقه، وقال الزجاج تثنيته على الحقيقة[4]، والخطاب للمتلقيين معاً، والسائق والشهيد جميعاً، وقرأ الحسن: أَلقيَن بنون التوكيد الخفيفة[5] كقوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾[6] قوله تعالى: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أي لا يبذل خيراً، ولا يعطي شيئاً من حق الله قوله تعالى: ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي ظالم لا يقر بتوحيد الله، وقوله تعالى: ﴿مُرِيبٍ﴾ أي شاكٍ في البعث والتوحيد، قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي شريكاً ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ أي اطرحاه في النار. قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي شيطانه، ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أي ما أغويته، وما أضللته أي لم أقل ذلك من نفسي ولكنه كان في ضلال عن الحق بعيد، وما أكرهته على الضلال، وإنما دعوته فاستجاب لي، وقيل معناه: قال قرينه الذي يشهد عليه من الملائكة ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أي ما عجلت عليه في الكتابة وما كتبت عليه إلا ما قال وفعل، ولكن كان في خطأ بعيد عن الصواب، وإنما يقول الملك هذا القول بعدما يقول الكفار يا رب كتب علي ما لم أقل وما لم أفعل، وما أنظرني، ولكن عجل في الكتابة علي.

---

(1) ينظر ديوان امرىء القيس: 41 ـ نقَضِّ لُبانَات، النحاس إعراب القرآن: 4: 228. والقرطبي في تفسيره: 17: 16.

(2) أول معلقة امرىء القيس.

(3) قال الفراء في معاني القرآن: 3: 78 وأنشدني أبو ثروان، والقرطبي نفسه.

(4) يراجع قول الحجاج، والزجاج في معاني القرآن وإعرابه، 5: 46.

(5) القرطبي نفسه.

(6) سورة العلق: 96 الآية: 15.

قوله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَیَّ﴾ أي يقول الله تعالى لا تختصموا عندي كما تختصمون عند ملوك الدنيا، فإني ملك لا يكرر الكلام عندي، وقد قدمت إليكم على ألسنة الرسل بالوعد والوعيد فلا ينفعكم الاختصام بعد أن قد أخبرتكم على ألسنة الرسل بالعذاب في الآخرة لمن كفر قوله تعالى: ﴿مَا یُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَیَّ﴾ أي الخلف لوعدي ووعيدي وقد قضيت ما أنا قاضٍ عليكم من العذاب فلا تبديل له، وقيل معناه: لا يُكْذَب عندي ولا يغير القول عن جهته لأني أعلم الغيب، وأعلم كيف ضلوا، وكيف أضللتموهم، ولا يقدر أحد أن يُشْقِي أحداً ممن أَسْعَدْتَهُ، ولا يُسْعِدُ أحداً ممن أشْقيتُه.

قوله تعالى: ﴿وَمَاۤ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمࣲ لِّلۡعَبِیدِ﴾ أي لا أعاقب أحداً من غير جُرْم، ولا آخذ أحداً من غير ذنب ومن عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها قوله تعالى: ﴿یَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِیدࣲ﴾ قرأ نافع: يقول بالياء على معنى يقول الله[1]، والمعنى: أنذرهم يوم يقول لجهنم هل امتلأت قال لها: كما وعدتك فتقول: هل من مزيد أي لم يبق في موضع لم يمتلىء فلا مزيد على هذا قال المفسرون: أراها الله تصديق قوله: لأملأن جهنم ـ فلما امتلأت قال لها: هل امتلأت، فتقول: هل من مزيد على هذا الامتلاء وهذا استفهام إنكار أي قد امتلأت ولم يبق في موضع خال، وهذا قول عطاء ومجاهد ومقاتل، وقال ابن عباس في رواية أبي صالح إنها تستزيد إلى ما فيها، ووجه هذا القول أن هذا السؤال في قوله: هل امتلأت؟ كان قبل دخول جميع أهلها فيها. ويجوز أن يكون المعنى أنها طلبت أن تزاد في سعتها لتضايقها بأهلها[2].

قال الله تعالى:

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِینَ غَیۡرَ بَعِیدٍ ۝٣١ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِیظࣲ ۝٣٢ مَّنۡ خَشِیَ ٱلرَّحۡمَـٰنَ بِٱلۡغَیۡبِ وَجَاۤءَ بِقَلۡبࣲ مُّنِیبٍ ۝٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَـٰمࣲۖ ذَ ٰلِكَ یَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا یَشَاۤءُونَ فِیهَا وَلَدَیۡنَا مَزِیدࣱ ۝٣٥ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشࣰا فَنَقَّبُوا۟ فِی ٱلۡبِلَـٰدِ هَلۡ مِن

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 607، والكشف عن وجوه القراءات السبع 2: 285.

(2) يراجع الطبري في تفسيره: 13: 218.

﴿مَّحِيصٍ ۝٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾ أي قربت وأدنيت الجنة للمتقين الشرك غير بعيد ينظرون إليها قبل دخولها، ويقال لهم عند تقربها: هذا الذي ترونه ما توعدون في الدنيا على ألسنة الرسل لكل أواب حفيظ أي لكل رجاع عن معاصي الله إلى طاعة الله حافظ لحدود الله متحفظ من الخروج إلى ما لا يجوز قال مجاهد الأواب: الذي يذكر ذنبه ويستغفر منه، وقيل: هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، وقيل: الأواب: المسبح من قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[1] وقيل: هو الذاكر لله، وقال مقاتل: المطيع، وقيل: هو الذي لا يقوم من مجلسه حتى يستغفر الله، وقال أبو بكر الوراق: هو المتوكل على الله في السَّراء والضَّراء[2] لا يهتدي إلى غير الله، وقيل: هو الذي لا يشتغل إلا بالله.

قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ صفة للأواب الحفيظ والمعنى: من خاف الله وخاف عذابه، وأطاعه ولم يعصه، وعبده حيث لا يراه إلا الله، وهو معنى قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي جاء بقلب مخلص راجع عن معاصي الله إلى طاعته، والقلب المنيب: هو النائب وموضع من خشي: الخفض على نعت الأواب[3] وقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ يقال لهم: ادخلوا الجنة بسلام يعني بسلامة من الهموم والعذاب، وأمان من كل مكروه ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ في الجنة إنه لا موت فيها ولا فناء، ولا انقطاع ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ من أنواع النعيم ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي ونزيدهم من عندنا ما لم يسألوه ولا خطر على قلوبهم ولا بلغته أفهامهم، وقال جابر: المزيد: هو النظر إلى وجه الله الكريم بلا كيف قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ هذا تخويف لأهل مكة أي كم أهلكنا قبل أهل مكة من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد أي

(1) سورة سبأ: 34 الآية: 10.

(2) القرطبي في تفسيره: 17: 20.

(3) التبيان في إعراب القرآن: 2: 374، والنحاس في إعراب القرآن: 4: 230.

ساروا وتقلبوا وطافوا في البلاد، وأصله: من النقب، وهو الطريق كأنهم سلكوا كل طريق فلم يجدوا مخلصاً عن أمر الله قال الزجاج: لم يروا محيصاً من الموت كأنهم ضربوا في الأرض مع شد شوكتهم وبطشهم، وفي هذا إنذار لأهل مكة أنهم على مثل سبيلهم لا يجدون مفراً من الموت، يموتون فيصيرون إلى عذاب الله[1] قرأ الحسن: فنَقَبُوا بالتخفيف، وقرأ السلمي: فنَقِّبُوا على لفظ الأمر على التهديد[2] والوعيد أي قلِّبوا في البلاد، وأدبروا يا أهل مكة، وتصرفوا فيها كل متصرف، وسيروا في الأرض فانظروا هل من محيص من الموت قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي فيما صنع بهم من هلاك القرى لعبرة وعظة لمن كان له عقل، وجزم، وبصيرة ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي استمع ما يقال له على وجه التفهيم تقول العرب: ألق سمعك إليّ أي استمع ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد القلب حاضر غير غافل ولا ساهٍ.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿38﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿39﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿40﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿41﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿42﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿43﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿44﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿45﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿38﴾﴾ وذلك أن اليهود لعنهم الله قالوا: خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة فأعيا، واستراح يوم السبت فلذلك لا نعمل فيه شيئاً فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ واللغوب: هو اللغب وسبحان الله أن يوصف بتعب أو نصب[3] قوله تعالى:

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 5: 47.
(2) القرطبي في تفسيره: 17: 22.
(3) القرطبي في تفسيره: 17: 24.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر يا محمد على ما يقولون من الأذى والتكذيب وهذا قبل أن يؤمر بالقتال وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صَلِّ بأمر ربك واحمُدْهُ قبل طلوع الشمس وقبل الغروب أراد بذلك صلاة الفجر، وصلاة العصر، وقيل معنى قوله: ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ الظهر والعصر ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء، وسميت الصلاة تسبيحاً: لما فيها من التسبيح سبحان ربي العظيم، وسبحان ربي الأعلى وقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ يعني الركعتين بعد المغرب، وقيل: الوتر، وقيل التسبيح في أواخر الصلوات: يسبحون الله ثلاثاً وثلاثين، ويحمدونه ثلاثاً وثلاثين، ويكبرونه ثلاثاً وثلاثين، وعن رسول الله ﷺ أنه كان يقول في آخر صلاته عند انصرافه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180)﴾ إلى آخر السورة[1]، وعن الشعبي، والأوزاعي أنهما قالا أدبار السجود: الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم: الركعتان قبل الفجر، وقال ابن زيد معنى قوله: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ هي النوافل أدبار المكتوبات[2] قرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وعاصم والكسائي وابن عامر: وأدبار بفتح الألف جمع الدبر، وقرأ الباقون بالكسر على المصدر من أدبر يُدبر إدباراً[3] قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (41)﴾ أي استمع يا محمد صيحة القيامة والبعث والنشور يوم النداء هو يوم صيحة إسرافيل وهو يوم النفخة الأخيرة يقوم فيه على صخرة بيت المقدس فينفخ في الصور للبعث والصخرة أقرب مكان من الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً كذا قال الكلبي.

وفي الحديث: «**إنه ينادي أيتها العظام البالية، والعروق الممزقة، والشعور المتفرقة: اخرجي لفصل القضاء فيكن، فيخرجون على وجه الأرض**»[4]، وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالبعث، وقيل: إنها كائنة حقاً ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور إلى أرض المحشر وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أي نحيي الأموات،

---

(1) أي سورة الصافات: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الآيات: 180 - 181 - 182.

(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 219.

(3) كتاب السبعة في القراءات: 607. الثعلبي في تفسيره - خ.

(4) القرطبي في تفسيره: 17: 27.

ونميت الأحياء ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ في الآخرة للجزاء وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ﴾ أي تتصدع الأرض عنهم فيخرجون مسارعين، والمعنى: يوم تشقق الأرض عنهم خارجين سراعاً يسرعون إلى الداعي ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي هيّن سهل وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ يا محمد من مكذبيك في أمر البعث وغير ذلك يعني كفار مكة ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ﴾ أي بمسلَّط قهّار تخبرهم على الإسلام إنما بعثت مذكراً محذراً، وذلك قبل أن يؤمر بالقتال قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أي عظ به ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وإنما خص الخائفين بالوعظ لأنهم هم الذين ينتفعون بذلك والمعنى: ذكر بالقرآن من يخاف ما أوعدتُ من عصاني من العذاب.

سورة الذاريات

سورة الذاريات مكية، وهي ألف ومائتان وتسعة وثلاثون حرفاً، وثلاثمائة وستون كلمة، وستون آية، قال ﷺ: «**من قرأ الذاريات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا**»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1)﴾ يعني الرياح تذرو التراب، وتهشم النبت أي تُفرِّقه وهي مخفوضةٌ على القسم[2] وقوله تعالى: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2)﴾ يعني السحاب تحمل ثقلاً من ماء المطر، فتصير كالموقور به، والوِقْرُ بكسر الواو: الحَمْلُ، والوَقْرُ بفتح الواو: الثقل في الأذن، وقوله تعالى: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3)﴾ يعني السفن تجري في الماء جرياً سهلاً مع عُظَمها، وقوله

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ. والزمخشري في الكشاف: 4: 22

(2) معاني القرآن وإعرابه: 5: 51.

تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ يعني الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به من الأرزاق وغيرها، أقسم الله بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على صنعته وقدرته، وجوابه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ يعني إن الذين توعدون من الثواب والعقاب لصادق وإن الدين أي الجزاء لواقع كائن يوم القيامة، وعن علي رضي الله عنه أنه قال ذات يوم في خطبته: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء من القرآن إلا وسأخبركم فقال رجل: يا أمير المؤمنين ما الذاريات ذرواً؟ قال: الرياح، قال: ما الحاملات وقراً؟ قال: السحاب، قال: ما الجاريات يسراً؟ قال: السُّفن، قال: ما المقسمات أمراً؟ قال: الملائكة[1].

وعن الأعرج قال: بلغنا أن مساكن الرياح تحت أجنحة الكروبيين حملة العرش فتهيج من ثَمَّ فتقع بعجلة الشمس ثم تهيج من عَجَلَة الشمس، فتقع برؤوس الجبال، ثم تهيج من رؤوس الجبال، فتقع في البر، فأما الشمال فإنها تمرُّ بجنة عدن، فتأخذ من عرف طيبها فتمرُّ على أرواح الصديقين ثم يكون مَهبها من كرسيّ بنات نعش إلى مغرب الشمس، وتهبُّ الدَّبُور من مغرب الشمس إلى مطلع سهيل، وتهبُّ الصبا من مطلع الشمس إلى مغرب بنات نعش لا تدخل هذه في حدِّ هذه، ولا هذه في حدِّ هذه[2] قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ هذا قسم آخر، ومعناه: والسماء ذات الخلْق الحسَنِ المستوي هذا قول عكرمة[3] قال: ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب، فأجاد نسجه قيل: ما أحْسَنَ حُبُكَهُ، وبه قال ابن عباس وقتادة والربيع، وقال سعيد بن جبير معناه: والسماء ذات الزينة، وقال مجاهد: والسماء ذات البنيان المتقن، وقال الضحاك: ذات الطرق التي ترى فيها كحبك الماء إذا ضربته الرياح، وحبك الرمل: إذا سفته الرياح، وحبك الشعر الجعد، وحبك الثوب الحسن النسج ـ والمحبوك في اللغة: ما أجيد عمله، وواحد الحبك، حِبَاك مثل: مثال ومُثُل، ويجوز أن يكون واحده:

(1) ذكره القرطبي في تفسيره: 13: 241. والقرطبي في تفسيره: 17: 29.
(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ.
(3) الطبري في تفسيره: 13: 244.

حبيكة مثل: طريقة وطُرق، وقيل الحبك: طريق الملائكة، وقال الحسن: حبكها زينها بالنجوم[1]، وقيل ذات الحبك أي ذات الخلق الشديد قال الله تعالى: ﴿وبنينا فوقكم شبعاً شداداً﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ هذا جواب القسم الثاني، والمعنى: إنكم يا أهل مكة لفي قول مختلف من بين مصدق بالنبي ومكذب به، ومتوقف في أمره، وبعضكم يقول في محمد هو شاعر، وبعضكم يقول هو مجنون وفي القرآن يقول بعضكم هو سحر، وبعضكم يقول هو كهانة، وبعضكم يقول هو أساطير الأولين، قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ أي يصرف عن الإيمان من صرف حتى يكذب به يعني بذلك من حرمه الله الإيمان بمحمد ﷺ، والقرآن.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ أي لعن الكذابون، وقال ابن عباس: المرتابون، والقتل: إذا أخبر به عن الله كان بمعنى اللعنة لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك كما قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾[2] أي لعن والخراصون: هم الكذابون قال الفراء: والمراد بهم هاهنا الذين قالوا: محمد شاعر وكذاب ومجنون وساحر، والخارص: هو الذي يقطع في الأمور، ويحكم في مقداره بالتخمين يعني من غير علم ومنه خارص النخل الذي يقطع في مقداره بغير[3] حقيقة قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١﴾ نعت لهم والغمرة: الجهل ومنه الغمر الذي غمره الجهل، والساهي: هو الغافل عن أمر الآخرة، والمعنى: الذين هم في غفلة، وعمى وجهالة عن أمر الآخرة ساهون لاهون وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي يسألون متى يكون الجزاء على وجه الإنكار يقولون يا محمد متى يوم الجزاء تكذيباً منهم واستهزاءً فأجيبوا بما يسوءهم فقيل: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾ أي يحرقون وينضجون ويعذبون بها يقال: فتنت الذهب إذا أحرقت الغش الذي فيه، والكفار غش كلهم فيحرقون، وتقول لهم خزنة النار: ذوقوا فتنتكم أي حريقتكم وعذابكم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ

(1) البغوي في معالم التنزيل: 5: 222.

(2) سورة عبس: 80 الآية: 17.

(3) معاني القرآن: 3: 83.

تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا تكذيباً به، وإنما لم يقل فتنتكم هذه لأن الفتنة هاهنا بمعنى العذاب فردّا الإشارة إلى المعنى.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿15﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿16﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿17﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿18﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿19﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿20﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿21﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿22﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿23﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي قابلين ما أعطاهم ربهم من كرامة في الجنة، وقيل معناه: عاملين بما أمرهم ربهم في الدنيا، والأول: أقرب، قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي كانوا قبل دخولهم الجنة محسنين في الدنيا في أعمالهم. وقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿17﴾﴾ أي ما ينامون هذا هو بيان إحسانهم في الهجوع في النوم بالليل دون النهار[1] وما زائدة، والمعنى: كانوا يهجعون قليلاً من الليل، ويصلون أكثر الليل وقيل معناه: قَلَّ ليلة أتت عليهم هجوعاً كلها، وقال مجاهد: كانوا لا ينامون كل الليل[2] واختار قوم الوقف على قوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا﴾ على معنى: كانوا من الناس قليلاً وهو قول الضحاك ومقاتل ثم ابتدأ فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وهذا على نفي النوم عنهم ألبتة وقيل معناه: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة، وقال أنس بن مالك: يصلون ما بين المغرب والعشاء، وعن جعفر بن محمد أنه قال: من لم يهجع ما بين المغرب والعشاء حتى شهد العشاء فهو منهم، وعن أبي الدرداء قال: سألت رسول الله ﷺ أي صلاة الليل أفضل؟ قال: «**في نصف الليل، وقليل فاعله**» ـ قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿18﴾﴾ قال الحسن: كانوا يَمُدُّون الصلاة إلى السحر، ثم يأخذون في الاستغفار بالأسحار[3] قوله تعالى:

---

(1) التبيان في إعراب القرآن: 2: 376.

(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 223.

(3) القرطبي في تفسيره: 17: 27.

﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ يعني بذلك الحق: الزكاة فليس عليه حق سواها والسائل: هو الذي يسأل الناس، والمحروم: هو الذي لا يسأل فحرم نفسه بترك سؤاله، ويحرمه الناس بترك عطائه، وقال إبراهيم: المحروم هو الذي لا سهم له في الغنيمة، وقال زيد بن أسلم: هو المصاب في ثمره، أو زرعه، أو نسل ماشيته، ويقال: هو صاحب الجائحة بذهاب ماله بدليل قوله: ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾(1)، وعن أبي قلابة قال: كان رجل من أهل اليمامة له مال، فجاء سيل، فذهب بماله، فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: هذا المحروم، فأقسموا له، وقال قتادة والزهري: هو المتعفف الذي لا يسأل، وقد ذكره النبي ﷺ فقال: «**الذي لا يجد غني يغنيه، ولا يفطن لحاجته فيتصدق عليه**»، وعن عبد الله بن عمرو الشعبي والحسن ومجاهد إنهم قالوا: في المال حق واجب سوى الزكاة، وهو الحقوق التي تلزم عندما تعرض من الأحوال من النفقة على الوالدين إذا كانا فقيرين وعلى ذي الرحم المحرم، وما يجب من إطعام المضطر، وحمل المنقطع ونحو ذلك(2) قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾ آيات الأرض: جبالها، وأنهارها، واختلاف نباتها وبحارها، وأشجارها في ذلك كله دلائل توحيد الله لمن أيقن.

قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ معناه: وفي أنفسكم آيات إذ كانت نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً إلى أن نفخ فيه الروح، وقال عطاء يعني من اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع وقال ابن الزبير: هو أن يأكل ويشرب من مكان واحد، ثم يخرج بعد ذلك من مكانين مكان الغائط، ومكان البول حتى أنه لو شرب لبناً مخيضاً خرج ماء(3) قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي أفلا تنظرون بقلوبكم نظر من كان يرى الحق بعينه ـ قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ يعني المطر الذي هو سبب النبات، والنبات هو مما قسمه الله تعالى للعباد، وكتبه في

---

(1) سورة الواقعة: 56 الآية: 66 ـ 67.

(2) تراجع هذه الأقوال في المحروم في تفسير ابن عطية، وتفسير الثعلبي.

(3) الثعلبي في تفسيره ص 354.

السماء أخبر الله تعالى أن أرزاق العباد حيث لا تأكله السوس، ولا تناله اللصوص، فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ «واصل بن حيان الأحدب»[1] قرأ هذه الآية فقال: إني أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض، فدخل خرابة، فمكث فيها ثلاثاً لا يصيب شيئاً، فلما كان اليوم الرابع إذ هو «بقوصرة» من رطب فلم يزل كذلك[2] حتى مات. قوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال عطاء معناه: وفي السماء ما توعدون من الثواب والعقاب مكتوب، وقال الكلبي: وما توعدون من الخير والشر، وقال مجاهد: الجنة والنار، قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أقسم الله بنفسه إن الذي بينه من أمر الرزق وغيره لَصِدق كما أن نطقكم الذي هو الصدق من كلمة التوحيد ونحوها حق، قرأ أهل الكوفة ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ﴾ برفع مثل على أنه صفة لقوله: ﴿لَحَقٌّ﴾ وقرأ الباقون: بالنصب[3] على التوكيد على معنى: إنه يحقُّ حقاً ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ وقيل تقديره: كمثل ما أنكم تنطقون، وقال بعض الحكماء معنى قوله: مثل ما أنكم تنطقون أيْ كما أن كل إنسان لا ينطق بلسان غيره فكذلك لا يأكل كل إنسان رزق غيره الذي قدر له، ولا يأكل إلا رزق نفسه كما لا يتكلم إلا بلسان نفسه قال الحسن: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله أقواماً، أقسم لهم ربهم بنفسه فلم يصدقوه**»، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو أن أحدكم فَرَّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت**»[4]، وقال الشاعر:

أَسْعَى لِأَطْلُبَ رِزْقي وَهْو يَطْلُبُني ∴ والرِّزْق أَكْثَرُ لي منِّي لَهُ طَلَبا[5]

قال الله تعالى:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ (24) إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ

---

(1) واصل بن حيان الأحدب الأسدي الكوفي روى عن أبي وائل وشريح القاضي، وإبراهيم النخعي وغيرهم وعنه أبو إسحاق الشيباني، والثوري وشعبة وآخرون ـ تهذيب التهذيب: 11: 103.

(2) الثعلبي نفسه.

(3) كتاب السبعة في القراءات: 609، ومعاني القرآن: 3: 85.

(4) أخرجه البيهقي في الشعب: 2: 72 رقم 1193 ـ باب التوكل والتسليم.

(5) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ.

مُنكَرُونَ ﴿25﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿26﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿27﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿28﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿29﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿30﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿24﴾﴾ أي قد أتاك يا محمد خبر أضياف إبراهيم عليه السلام الذين أكرمهم بخدمته لهم وقيامه بين أيديهم قال ابن عباس، ومقاتل معنى الآية: قد أتاك ولم يكن إذ ذاك أتاه، وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ يعني عند الله، وذكر ابن عباس: أن أضياف إبراهيم إسرافيل وجبريل وميكائيل، وقال مقاتل يعني بقوله: ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي أكرمهم إبراهيم فأحسن عليهم القيام، وكان لا يقوم على رأس ضيف، فلما رأى هيئتهم حسنة قام هو، وامرأته سارة بخدمتهم، وقال الكلبي: أكرمهم بالعجل قال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**»[1]، وقوله تعالى؛ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ وهم جبريل، ومن معه من الملائكة قال ابن عباس ومقاتل: كانوا اثني عشر ملكاً، وقال محمد بن كعب: كانوا سبعة ما خلا جبريل، وقال عطية: كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل[2] قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ معناه: سلموا عليه سلاماً، وقيل: قالوا أسلم سلاماً كأنهم نسوه من الوجل فقال سلام منكم أي أمنت بما جاء من السلام قوله تعالى: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي إنه لم يعرفهم لأنه ظن أنهم من الأنس. قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي عدل ومال إلى سارة من حيث لم يعلم أضيافه لأي شيء عدل فجاء بعجل سمين أي كثير الشحم فوضعه بين أيديهم، قال قتادة: وكان عامة مال إبراهيم البقر فقربه إليهم ليأكلوه فلم يأكلوه، فقال: ألا تأكلون من طعامي فأوجس منهم خيفة أي فأضمر في نفسه خوفاً منهم حين لم يأكلوا من طعامه ظن أنهم يريدون به سوءاً فلما علموا خوفه قالوا: لا تخف إنا رسل ربك وبشروه بغلام حليم في صغره عليم في كبره وهو إسحاق عليه السلام قوله

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 12: 59 رقم 6018 كتاب الأدب.
أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 2: 18 باب الحث على إكرام الجار والضيف.

(2) تفسير القرطبي: 17: 44.

تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي في ضجة وصيحة أي أخذت تولول تقول: يا ويلتنا، وقيل: الصرة جماعة النساء مأخوذة من الصر التي هي مجمع الدراهم ومنه الشاة المصراة.

قوله تعالى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ قال مقاتل والكلبي: جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجباً ومعنى الصك: ضرب الشيء بالشيء العريض، والصرة: مأخوذة من الصر وهو الصوت كأنها جاءت بشدة صياح فلطمت وجهها[1] وهي تقول: أتلد عجوز عاقر؟ وكانت يوم البشرى بنت ثمان وتسعين سنة، وكان إبراهيم أكبر منها بسنة، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ تقديره: أتلد عجوز عقيم عاقر وكانت سارة لم تلد قبل ذلك، وكان بين البشارة والولادة سنة فولدت سارة[2] وهي بنت تسع وتسعين سنة وإبراهيم يومئذ ابن مائة سنة قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي كما قلنا لك قال ربك: إنك ستلدين غلاماً عليماً إنه هو الحكيم العليم يحكم بالولد من العقيم وغير العقيم العليم بمصالح العباد، والعقيم من النساء: هي التي لا تأتي بالولد، وفي الرياح: هي التي لا تأتي بالمطر، ولا يكون فيها الخير.

قال الله تعالى:

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (33) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (37) وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (38) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (57)﴾ أي قال إبراهيم: ما شأنكم؟ وفيما أرسلتم؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم كافرين، لنهلكهم بكفرهم وعملهم الخبيث أرادوا بذلك قوم لوط وقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 46 ـ 47.

(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ.

طِينٍ﴿33﴾ أراد به الحجارة المطبوخة كالآجر، والمسومة: الْمُعَلَّمة. رُوِيَ أنها كانت مخططة بسواد في حُمْرةٍ، وكان على كل حجر اسم من جعل إهلاكه به، والمسرف: هو الخارج من الحق والشرك: أسرف الذنوب وعظمها قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴿35﴾﴾ أراد به لوطاً ومن آمن معه وهما ابنتاه: عورا وريثا أمرهم الله بالخروج بقطع في الليل ومعنى قوله: ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي في قريات لوط وذلك قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أمر الله لوطاً بأن يَخْرُجَ هو ومن معه من المؤمنين لئلا يصيبهم العذاب وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴿36﴾﴾، أي غير أهل بيت من المسلمين يعني: لوطاً وبنتيه وصفهم الله بالإيمان والإسلام جميعا لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم، والمراد بالإسلام هاهنا: الإيمان قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أي وتركنا في مدينة قوم لوط علامة للذين يخافون العذاب الأليم تدلهم على أن الله أهلكهم فيجافون مثل عذابهم فإن اقتلاع البلدان لا يقدر عليه أحد إلا الله وقوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴿38﴾﴾ أي وفي خبر موسى وقصته مع فرعون آية أيضاً وقوله تعالى: ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة ظاهرة وهي: اليد والعصا قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي أعرض فرعون عن الإيمان به بجمعه وجنده الذين كان يتقوى بهم كالركن الذي يقوي البنيان[1]، ونسب موسى إلى السحر والجنون مع ظهور حجته عليه وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي فعاقبناه وجموعه فطرحناهم في البحر، وأغرقناهم وهو مليم أي مستوجب الملامة لأنه أتى بما يلام عليه حين ادعى الربوبية وكذب الرسل.

قال الله تعالى:

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴿41﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴿42﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴿43﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴿44﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴿45﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴿46﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴿47﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ

---

(1) الثعلبي في تفسيره ـ خ، والقرطبي في تفسيره: 17: 49.

ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿48﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿49﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿50﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿51﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿41﴾﴾ أي وفي خبر قوم هود آية أيضاً حين أرسلنا عليهم الريح الدبور، والعقيم: التي لا خير فيها ولا بركة، ولا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً.

إنما هي ريح الإهلاك وكانت تلك الريح التي أهلكت بها عاد: ريح الدبور قال ﷺ: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**»[1] قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿42﴾﴾ معناه: ما تترك من شيء مرت عليه من أنفسهم وأنعامهم إلا جعلته كالحطيم البالي المنسحق، ويقال الرميم: هو الورق اليابس المتحطم مثل الهشيم الذي يصير كالهباء بأيسر ما تجري عليه قال قتادة معناه: إلا جعلته كرميم الشجر، وقال أبو العالية: كالتراب المدقوق، وقال ابن عباس: كالشيء الهالك[2]، وفي الحديث: «**إن تلك الريح كانت تتبع مسافريهم وما شد من متاعهم فتحمله فتلقيه في وادي صنعاء، ولم تضر غريباً ليس منهم**» قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿43﴾﴾ أي في خبر ثمود وهلاكهم آية أيضاً إذ قيل لهم تمتعوا إن أطعتم الله إلى آجالكم فأعرضوا عن قبول أمر الله فأخذهم العذاب المحرق وهم ينظرون إلى أنفسهم وإلى قومهم يحترقون في العذاب، وقيل معناه: لما عقروا الناقة قال لهم صالح: تمتعوا ثلاثة أيام وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ والتمتع: التلذذ بأسباب اللذة من المناظر، والروائح الطيبة، وأشباه ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ يعني بعد مضي ثلاثة أيام، والصاعقة: كل عذاب مهلك وقرأ الكسائي: الصعقة[3] وهي الصوت الشديد وهم ينظرون ذلك عياناً ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ أي ما قدروا على النهوض من مقامهم حين غشيهم العذاب فيردوه ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ أي ما كانت لهم قوة يمتنعون

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 8: 157 رقم 4105 ـ كتاب المغازي. الصبا بفتح المهملة، وتخفيف الموحدة: الريح الشرقية، والدبور: الريح الغربية.

(2) راجع معنى قوله: (كالرميم) في تفسير البغوي: 5: 227 وما بعدها، والطبري في تفسيره 13: 7.

(3) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها 2: 288.

بها منا ولا كانوا طالبين ناصراً لهم يمنعهم من عذاب الله قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ فيه قراءتان قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف: وَقَوْمِ بالخفض أي ومع قوم نوح وهلاكهم بالطوفان آية أيضاً، وقرأ الباقون: بالنصب[1] على معنى: وأهلكنا قَوْمَ نُوحٍ من قبل عاد وثمود، وقيل نصب على تقدير: واذكر قَوْمَ نوح من قبل عاد وثمود وقوم فرعون ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله وقيل: انتصب قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ على قراءة النصب عطفاً على الهاء والميم في قوله: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ كأنه قال: أغرقنا فرعون وجنوده وأغرقنا قوم نوح من قبل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ أي بقدرة وقوة وإنا لموسعون السماء على الأرض في كل الجهات ونحن نقدر على أكثر من ذلك ولم يكن هذا جهد قوتنا وقال الحسن معناه: وإنا لموسعون الرزق على من فوقها ومن تحتها[2] قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا﴾ أي بسطناها على وجه الماء فنعم الفارشون، والماهد في اللغة: هو الموطىء للشيء المهيء لما يصلح الاستقرار عليه قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي ومن كل شيء خلقنا من الحيوان ذكراً وأنثى، وقيل المراد بالزوجين صنفين ولونين من حلو وحامض وأبيض وأحمر لكي تعتبروا وتتعظوا بذلك وتعلموا أنه ليس مع الله تعالى إلٰه غيره قوله تعالى: ففروا إلى الله أي اهربوا من عقابه إلى رحمته بالإخلاص في طاعته وترك ما يشغلكم عن أوامره، وقيل معناه: ففروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم واهربوا من الكفر إلى الإسلام ومن العصيان إلى الطاعة ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذركم العقاب على الكفر والمعصية، وأخوفكم عذاب الله بلغة تعرفونها إذا تركتم الفرار من الله إلى الله ولا تجعلوا مع الله إلٰهاً آخر أي لا تصفوه بالشريك والولد إني لكم منه نذير مبين أي رسول أخوفكم لتمتنعوا أن تجعلوا مع الله إلٰهاً غيره.

---

(1) كتاب السبعة في القراءات: 609، والنحاس في إعراب القرآن: 4: 248.

(2) يراجع تفسير الطبري: 13: 12. والبغوي في معالم التنزيل: 5: 229.

قال الله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿52﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿53﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿54﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿55﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿56﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿57﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿58﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿59﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿60﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ أي كما نسبك قومك إلى السحر مرة والجنون أخرى هكذا ما أتى الذين من قبل قومك من رسول دعاهم إلى الله إلا قالوا لذلك الرسول هو ساحر أو مجنون يقول الله تعالى ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ﴾ معناه: أتواصوا بهذا القول وتوافقوا عليه وأوصى كل قوم من بعدهم أن يقولوا مثل هذا لرسولهم، وهذا لفظه لفظ الاستفهام ومعناه: التوبيخ والإنكار.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ يعني أهل مكة قوم طاغون قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿54﴾﴾ أي أعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين فما أنت عندنا بملوم لأنك قد بلغت وأنذرت وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين أي وعظ أهل مكة بالقرآن فإن العظة بالقرآن تنفع المؤمنين وتزيدهم صلاحاً يعني تنفع من في علم الله أن يؤمن منهم، وقال الكلبي معناه: عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم[1] قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿56﴾﴾ معناه: ما خلقتهم لجر منفعة ولا لدفع مضرة، ولا لأنس بهم من وحشة، ولا لاستكثر بهم من قلة، وما خلقتهم إلا لآمرهم بعبادتي وأنهاهم عن معصيتي، ولو أنهم خلقوا للعبادة لما عصوا ربهم طرفة عين، وقال ابن عباس: أول هذه الآية خاص لأهل طاعة الله لأنه تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[2] وفي قراءة ابن عباس: وما خلقت الجن والإنس من

(1) البغوي في معالم التنزيل: 5: 230.

(2) سورة الأعراف: 7 الآية: 179.

المؤمنين إلا ليعبدون[1]، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: معنى الآية: وما خلقتهم إلا لآمرهم أن يعبدون وأدعوهم إلى عبادتي قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧﴾، أي لم أكلفهم أن يرزقوا أنفسهم، ولا أحداً من خلقي ولم أكلفهم أن يرزقوني، ولا يعينوني على إعطاء الرزق لعبادي، والمعنى: ما أريد منهم أن يرزقوا أحداً من خلقي، ولا أن يرزقوا أنفسهم، وما أريد أن يطعموا أحداً من خلقي ولا أن يطعموا أنفسهم، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال الله فمن أطعم عيال أحد فقال أطعمه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾ معناه: أن الله هو الرزاق لجميع خلقه ذو القوة والاقتدار على جميع ما خلق ﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ يعني: القوي قراءة العامة: المتين بالرفع نعت ذو وهو الله سبحانه، وقرأ الأعمش: المتين بالخفض على نعت القوة وكان من حقه أن يقول المتينة وإنما ذكره لأنه ذهب به إلى الشيء المبرم[2] المحكم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٥٩﴾ أخبر الله بهذا أن لمشركي مكة من العذاب مثل ما لغيرهم من الأمم الكافرة والمعنى: فإن للذين كفروا نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم الذين هلكوا نحو قوم نوح وعاد وثمود، وأصل الذنوب: الدلو المملوءة ماءً.

قال ابن قتيبة: كانوا يستقون فيكون لكل واحد ذنوب فجعل الذنوب مكان الحظ والنصيب قال الشاعر:

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُم ذَنُوبُ ∴ فَإِنْ أَبَيْتُم فَلَنَا الْقَلِيبُ[3]

وقال آخر:

لَعَمْرُكَ وَالْمَنَايَا غَالِيَاتٌ ∴ لِكُلِّ بَنِي أبٍ مِنَّا ذَنُوبُ[4]

---

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 55.

(2) التبيان في إعراب القرآن: 2: 379. النحاس في إعراب القرآن: 4: 252. الفراء في معاني القرآن: 3: 90.

(3) ذكره الفراء من غير نسبة، وكذا ابن منظور في اللسان: ذنب، والذنوب: السجل يذكر ويؤنث وهو أقل من الدلو، والمراد به هنا: النصيب والحظ، والقليب: هو البئر.

(4) نسبه ابن منظور في اللسان: ذنب إلى أبي ذؤيب الهذلي.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي فلا تستعجلون بالعذاب فإني قد أخرتهم إلى يوم القيامة يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (60)﴾ يعني يوم القيامة.

سُورَةُ الطُّورِ

سورة الطور مكية، وهي ألف وخمسمائة حرف، وثلاثمائة واثنتا عشرة كلمة، وتسع وأربعون آية، قال ﷺ: **«من قرأ سورة الطور كان حقاً على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته»**[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ۝١٢ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢﴾ الطور: هو الجبل الذي كلم الله موسى عليه السلام عليه، وهو بمدين بالأرض المقدسة، واسمه: زبير وكل جبل هو طور بالسريانية، وقال أبو عبيدة الطور: الجبل بالعربية[2] لأن

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» ـ خ، وكذا الزمخشري في تفسيره: «الكشاف» 4: 27.

(2) مجاز القرآن: 2: 230.

الله تعالى قال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ هو اللوح المحفوظ المتضمن لكل الأمور وقوله تعالى: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ يعني به اللوح أيضاً تنشره الملائكة للدراسة، وليعلموا ما فيه.

وقيل الكتاب المسطور: صحائف أعمال بني آدم تنشر يوم القيامة فيعطى كل واحد كتابه بشماله أو بيمينه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾[1]، وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[2] قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ هو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة معمور بحسن البناء، وزيارة الملائكة حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض ما بينه وبين الكعبة إلى تخوم الأرض السابعة حرم يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبداً لو سقط منه حجر لوقع على ظهر الكعبة، ويقال البيت المعمور: هو الكعبة معمور بزيارة الناس إياه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ يعني السماء قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[3] سماها سقفاً لأنها للأرض كالسقف للبيت وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ يعني الموقد المحمى بمنزلة التنور[4] المسجور كأنه قال: والبحر المملوء بالنار الموقدة كما روي عن علي رضي الله عنه قال: هو بحر جارٍ من نار يفتح يوم القيامة في جهنم

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يركبن البحر إلا حاج أو معتمر أو مجاهد في سبيل الله، فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً، وتحت البحر ناراً**» ـ وقال قتادة: المسجور: المملوء، وفي الحديث «**إن الله تعالى: يجعل يوم القيامة البحار كلها ناراً فيسجرها نار جهنم**». وعن ابن عباس قال المسجور: المحبوس، وعن علي رضي الله عنه أنه قال البحر المسجور: بحر فوق السماء السابعة تحت العرش عمقه كما بين السماء السابعة إلى الأرض السابعة، وهو بحر غليظ يسمى الحَيَوان يحيي الله به الخلائق يوم البعث يمطر أربعين صباحاً فينبتون به في

(1) سورة التكوير: 81 الآية: 10.
(2) سورة الإسراء: 17 الآية: 13.
(3) سورة الأنبياء: 21 الآية: 32.
(4) القرطبي في تفسيره 17: 61.

قبورهم أقسم الله بهذه الأشياء لما فيها من الدلالات الواضحة على وحدانية الله تعالى، وعظم قدرته على أن تعذيب المشركين حق وهو قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ أي لكائن في الآخرة واقع بأهله ما له من دافع يدفعه عنهم ثم بين متى يقع بهم ذلك العذاب فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾ أي تدور دوراناً وتضطرب وتتحرك، والمور في اللغة: الذهاب والمجيء والتردد والدوران قيل: إنها تدور كما تدور الرحاء ويموج بعضها في بعض.

قوله تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ أي تسير الجبال على وجه الأرض كما يسير السحاب في الدنيا فتسوى بالأرض، وقيل معناه: تزول الجبال عن أماكنها وتصير هباءً منبثاً قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ أي فشدة عذاب يومئذ للمكذبين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾ يخوضون في حديث محمد بالتكذيب والاستهزاء يلهون بذكره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾ أي يدفعون إلى نار جهنم دفعاً عنيفاً بجفوة قال مقاتل: تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ثم يدفعون إلى جهنم دفعاً على وجوههم حتى إذا دنوا منها قال لهم خزنتها: ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون في الدنيا والدَّعُّ: هو الدفع في شدّة وعنف تدفعهم الملائكة فيلقونهم في النار على وجه الاستخفاف ويقولون لهم: هذه النار التي كنتم بها تكذبون قرأ أبو رجاء العطاردي: يوم يدعون إلى نار جهنم دعا بالتخفيف عن الدعاء[1]، وتقول لهم ملائكة العذاب: أفسحر هذا كما كنتم تزعمون في الدنيا، وتنسبون الأنبياء عليهم السلام إلى ذلك أم قد غطى على أبصاركم وهذا على وجه التوبيخ، والمعنى: أتصدقون الآن أن عذاب الله واقع؟، ويقال لهم: اصلوها أي اصلوا النار يعني الزموها وقاسوا شدتها فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا سواء عليكم الجزع والصبر إنما تجزون ما كنتم تعملون من الكفر والتكذيب.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ

---

(1) يراجع القرطبي في تفسيره:. 17: 64.

ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم
مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا
كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ فاكهين: أي ذوو فاكهة كثيرة، وفاكهين معجبين ناعمين، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم: أي صرفه عنهم.

ثم يقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ أي كلوا أكلاً هنيئاً، واشربوا شرباً هنيئاً تأمنون العاقبة من التخمة والسقم، وقيل انتصب قوله: هنيئاً لأنه في صفة المصدر أي هنئتم هنيئاً وهو أن يكون خالصاً من جميع الآفات[1]، وأسباب التنغيص قال زيد بن أرقم: جاء رجل من أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم: تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون، فقال: «**والذي نفسي بيده: إن الرجل منهم ليؤتى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع**»، قال الرجل: فإن الذي يأكل ويشرب يكون منه الغائط، فقال ﷺ: «**ذلك عرق يفيض مثل ريح المسك، فإذا كان ذلك ضمر له بطنه**». قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ فيه ذكر حالهم معناه: جالسين جلسة الملوك على سرر قد صف بعضها إلى بعض، وقوبل بعضها ببعض ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الحوراء البيضاء نقية البياض من الحسن والكمال، والعين: الواسعات الأعين قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ يعني أولادهم الصغار والكبار لأن الكبار يتبعون الآباء بالإيمان منهم، والصغار يتبعون الآباء بالإيمان من الآباء، والولد يحكم له بالإسلام تبعاً للوالد ألحقنا بهم ذرياتهم يرفعون إليهم لتقرّ بهم أعينهم، وإن كانوا دونهم في العمل تكرمة لآبائهم، وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار**»، وروي أن خديجة بنت خويلد سألت النبي ﷺ عن ولدين لها ماتا في

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 65، التبيان في إعراب القرآن: 2: 380.

الجاهلية، فقال ﷺ: «**هما في النار**» قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ أي لم ننقص الآباء من الثواب حين ألحقنا بهم ذرياتهم[1] قرأ أبو عمرو: واتبعناهم بالألف والنون ذرياتهم بالألف فيهما وكسر التاءين لقوله: ألحقنا وما ألتنا ليكون الكلام على نسق واحد، وقرأ الباقون: واتبعتهم بالتاء من غير ألف، واختلفوا في قوله: ﴿وَذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ فقرأ نافع الأول: ذريتهم بالتاء وضمها بغير ألف، وقرأ الثاني: ذرياتهم بالألف وكسر التاء، وقرأ ابن عامر: ذرياتهم بالألف فيهما وكسر التاء، وقرأ الباقون بغير ألف فيهما، وفتح التاء الثانية[2].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ أي كل امرىء كافر بما عمل من الشرك مرتهن في النار، والمؤمن لا يكون مرتهناً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿38﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿39﴾﴾[3] فاستثنى المؤمنين قوله تعالى: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿22﴾﴾ معناه: يزيدهم في كل وقت من ألوان الفاكهة، ومن كل لحم مما يشتهون من الأنعام والطيور والمطبوخ والمشوي. قوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ أي يتعاطون ويتناولون فيها آنية مملوءة من الخمر هذا من يد ذاك وذاك من يد هذا، ولا يكون الكأس في اللغة إلا إذا كان مملوءاً فإذا كان فارغاً فليس بكأس وقوله تعالى: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾ أي لا يجري بينهم كلامُ لَغْوٍ ولا باطل ولا تخاصم ولا تأثيم أي لا يكون منهم في حال شربها ما فيه إثم كما يكون في خمر الدنيا، وقال ابن قتيبة معناه: لا تذهب بعقولهم فيلغون أو يرفثون كما يكون من خمر الدنيا، ولا يكون منهم ما يؤثمهم والمعنى: إن تلك الكأس لا تجعلهم آثمين.

قال الله تعالى:

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿24﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ

(1) الثعلبي في تفسيره - خ.

(2) كتاب السبعة في القراءات: 612، ومكي في الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها: 2: 290.

(3) سورة المدثر: 74 الآية: 38 - 39.

يَتَسَآءَلُونَ (25) قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ (26) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ
ٱلسَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (28) فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ
بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ (29) أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ (30) قُلۡ تَرَبَّصُواْ
فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ (32) أَمۡ يَقُولُونَ
تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ (33) فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ (34)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي يطوف عليهم بالخدمة والفواكه والأشربة وصفاء كأنهم في الحسن والبياض لؤلؤ مكنون مصون لا تمسه الأيدي قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله هذا الخادم فكيف المخدوم؟ فقال: «**والذي نفسي بيده: إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**»[1] قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة من ينادي الخادم من خدمه فيجيبه ألف كلهم يقولون: لبيك لبيك**».

قوله تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ (27)﴾ أي أقبل بعضهم على بعض في الزيارة يتحدثون في الجنة ويتذاكرون ما كانوا فيه من الدنيا من البعث والخوف ويتساءلون عن أحوالهم التي كانت في الدنيا قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ (26)﴾ معناه: إنهم يقولون: إنا كنا من قبل أن ندخل الجنة خائفين في الدنيا من القيامة وأهوالها ومن النار وعذابها بمعصية وقعت منا أو تقصير في طاعتنا فمن الله علينا بالمغفرة وقبول الطاعة ووقانا عذاب السموم أي ودفع عنا عذاب سموم جهنم لأنا كنا من قبل ندعوه أي نوحده ونعبده في الدنيا إنه هو البر الرحيم أي هو اللطيف بعباده أي الرحيم بهم والسموم: من أسماء جهنم في قول الحسن، وقال الكلبي: عذاب النار[2]، وقال الزجاج: هو لفح جهنم وحرها[3] ومن قرأ إنه هو البر بكسر الهمزة فإنه استأنف الكلام[4] قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ (29)﴾ أي فعظ بالقرآن أهل

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 13: 40 ـ رقم: 25054.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 236.
(3) معاني القرآن وإعرابه: 5: 64.
(4) التبيان في إعراب القرآن: 2: 381.

مكة ولا تترك وعظهم بنسبتهم إياك إلى الكهانة والجنون فلست بحمد الله كما يقولون، والكاهن: هو مبتدع القول الذي يقول معي تابع من الجن والمعنى: فما أنت بنعمة ربك بإنعامه عليك بالنبوة بكاهن وهو الذي يوهم أنه يعلم الغيب، ويخبر بما في غد من غير وحي أي لست تقول ما تقوله كهانة ولا تنطق إلا بوحي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾ أي بل يقولون هو شاعر ينتظر به نوائب المنون فنستريح منه، وريب المنون: حوادث الدهر وصروفه أي ننتظر به حدثان الموت وحدثان الدهر فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء وفي اللغة: مننت الحبل أي قطعته، ومننت الشيء إذا نقضته والموت يقطع الأجل فسمي المنون، والدهر ينقض فسمي المنون، وقد يكون المنون بمعنى المنية قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟﴾ أي انتظروا إلى الموت فإني معكم من المتربصين أي من المنتظرين عذابكم فعذبوا يوم بدر بالسيف، وقيل معناه: قل تربصوا في الدوائر فإني معكم من المتربصين بكم فأهلك الله القوم الذين قالوا للنبي ﷺ هذا القول قبل أن قبض عليه السلام، وكان منهم أبو جهل وكانوا يعلمون أن النبي ﷺ ليس بشاعر كما أنهم علموا أنه ليس بمجنون.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ معناه: أم تأمرهم عقولهم بهذا وذلك أن قريشاً كانوا يعدون في الجاهلية أهل الأحلام ويوصفون بالعقل فأزرى الله بحلومهم حين لم يتميز لهم معرفة الحق من الباطل، وقيل لعمرو بن العاص: ما بال قومكم لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقول؟ فقال: تلك عقول لم يصحبها التوفيق[1] قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي بل هم قوم طاغون حملهم الطغيان على تكذيبك يا محمد وكانوا يزعمون أن أحداً كان لا يوازيهم في عقولهم وأحلامهم، فقيل لهم على وجه التعجيب أتأمرهم أحلامهم بهذا؟ الذي يفعلونه أم طغيانهم وإفراطهم في الكفر قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ معناه: أم يقولون إن محمد اختلق القرآن من تلقاء نفسه، والتقول: تكلف القول لا يستعمل إلا في الكذب بل ليس كما يقولون بل لا يؤمنون استكباراً ثم ألزمهم الحجة

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 73.

فقال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ أي مثل القرآن في عظمه وحسن بيانه إن كانوا صادقين أن محمداً تقوله من تلقاء نفسه، فإن اللسان لسانهم وهم مستوون في البشرية واللغة.

قال الله تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (38) أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (40) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ (35)﴾ معناه: أخلقوا من غير أب وتكونوا من ذات أنفسهم ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فلا يُسألون عن أعمالهم، وقال ابن عباس معناه: أخلقوا من غير أم وأب فهم كالجماد لا يعقلون، ولا يقوموا الله عليهم حجة أليسوا خلقوا من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة[1] وقال ابن كيسان معناه: أخلقوا عبثاً فيتركون سداً لا يؤمرون ولا ينهون أم هم الخالقون لأنفسهم فلا يجب لله عليهم أمر[2].

قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فيكونون هم الخالقين بل ليس الأمر على هذا لا يؤمنون بالحق وهو توحيد الله وقدرته على البعث قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ معناه: أبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاءوا وقيل معناه: أعندهم مقدورات ربك؟ قال الكلبي معناه: خزائن المطر والرزق[3] ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي هم المسلطون على الناس فلا يكونون تحت أمر ولا نهي يفعلون ما شاءوا، ويقرأ المصيطرون بالصاد[4] والأصل هو السين إلا أن

(1) الثعلبي في تفسيره ـ خ.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 238.
(3) البغوي في معالم التنزيل: 5: 238.
(4) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 613.

كل سين بعدها طاء يجوز أن تقلب صاداً، وفي هذه الآية تنبيه على عجزهم وتبيين لسوء طريقتهم. قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي ألهم مصعد ومرقاة يرتقون بها إلى السماء يستمعون فيه الوحي فيعلمون أن ما هم عليه حق فليأت مستمعهم إن كان لهم مستمع بحجة ظاهرة قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ هذا إنكار عليهم وتسفيه لأحلامهم ومبالغة في تجهيلهم حيث يضيفون البنات إلى الله بقولهم الملائكة بنات الله، ويضيفون البنين إلى أنفسهم قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ معناه: أتسألهم يا محمد على ما جئتهم به من الدين والشريعة أجراً أي جعلا ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ أي لثقلهم ذلك الغُرْم الذي سألتهم فمنعهم ذلك عن الإسلام والمعنى: أسألتهم أجرة تثقلهم وتجهدهم وتمنعهم عن الاستماع إلى قولك قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41)﴾ قال قتادة: هذا جواب لقولهم: نتربص به ريب المنون[1] يقول الله تعالى: أعندهم الغيب حتى علموا أن محمداً يموت قبلهم فهم يكتبون، وقيل معناه: أعندهم علم الغيب حتى علموا أن ما يخبرهم به النبي ﷺ من أمر القيامة والبعث والحساب والثواب والعقاب باطل غير كائن وقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42)﴾ أي بل يريدون بك كيداً ومكراً ليهلكوك بذلك المكر وهو كيدهم به في دار الندوة، والذين كفروا هم المجازون على كيدهم، ويحيق ذلك الكيد والمكر بهم فقتلوا يوم بدر وأسروا.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يمنعهم من مكر الله وعذابه ويحفظهم وينصرهم ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الآلهة، وسبحانه عن أن يكون له ولد، وأم في هذه السورة في خمسة عشر موضعاً عشرة منها ليست إلا على وجه الإنكار، وفي خمسة ما يحتمل الإنكار ويحتمل غيره.

قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (44) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا

---

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 76.

عَذَابًا دُونَ ذَالِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (44)﴾ معناه: إن هؤلاء لا يؤمنون حتى لو رأوا قطعا من العذاب ساقطاً عليهم لطغيانهم وعتوهم يقولون سحاب قد رُكِمَ بعضه على بعض فيلبسوا على أنفسهم لغاية جهلهم ما يشاهدون قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي اتركهم حتى يعاينوا يوم موتهم الذي فيه يصعقون أي يهلكون والصعق: الهلاك بما يصدع القلب، وقيل المراد بالصعق هاهنا اليوم الذي فيه النفخة الأولى قرأ الأعمش وعاصم وابن عامر، يُصعقون بضم الياء[1] أي يهلكون من صعقهم الله إذا أهلكهم وذلك اليوم لا ينفعهم كيدهم ولا يمنعهم من العذاب مانع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَالِكَ﴾ معناه: وإن لهؤلاء الكفار عذاباً دون عذاب الآخرة يعني عذاب القبر، وقيل معناه: وإن لكفار مكة عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة يعني القتل ببدر، وقال مجاهد: الجوع والقحط[2] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما هو نازل بهم قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي أصبر لحكم ربك إلى أن يقع بهم العذاب وقيل: اصبر على تبليغ الوحي والرسالة إلى أن يقضي لك ربك فيهم فإنك بأعيننا أي فإنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك وأنهم لا يصلون إلى مكروهك قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ يعني حين تقوم من القوم كما روي أن النبي ﷺ كان إذا انتبه قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور**»[3].

وعن الربيع بن أنس أن المراد بعد القيام في الصلاة، وهو ما يقال عند تكبيرة الافتتاح سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 613.
معاني القرآن للفراء: 3: 94.
(2) القرطبي في تفسيره: 17: 78.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 12: 414 - 415 رقم 6325 كتاب الدعوات. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 4: 94 - رقم 4386 باب في تعديد نعم الله وشكرها.

غيرك، وقيل المراد بهذه الآية صلاة الفجر عند القيام من النوم، ويقال المراد به التسبيح عند القيام من كل مجلس كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كفارات المجلس كلمات جاءني بهم جبريل عليه السلام: سبحانك اللهم، وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك، وأتوب إليك**»[1] فإن كان مجلس ذكر كان كالطابع عليه إلى يوم القيامة، وإن كان مجلس لغو كان كفارة لما كان قبله، والأقرب إلى الظاهر من هذه التأويلات أنه صلاة الفجر لأن الله عقبه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ والمراد به صلاة المغرب، والعشاء، وأما أدبار النجوم فالركعتان قبل فريضة الفجر كما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: أدبار السجود: الركعتان بعد المغرب، وإدبار النجوم: الركعتان قبل الفجر، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها**».

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك: 1: 537، وأحمد في المسند: 2: 494.

سُورَةُ النَّجْمِ

قال أبو بكر الحداد:

سورة النجم مكية، وهي ألف وأربعمائة وخمسة أحرف، وثلاثمائة وستون كلمة، واثنتان وستون آية، قال ﷺ: «**من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد عليه السلام، ومن كذب به**»(1).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (9) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (13) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (14)﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (1)﴾ اختلفوا في القسم الذي في أول هذه السورة: قال بعضهم وهو الأظهر: إن النجم اسم جنس أريد به النجوم كلها إذا هوت للأفول، وفائدة القسم بها: ما فيها من الدلالة على وحدانية الله، لأنه لا يملك طلوعها وغروبها إلا الله عز وجل فالقسم بها قسم بربها.

---

(1) الثعلبي في تفسيره ـ خ، والزمخشري في تفسيره «الكشاف»: 4: 35.

وجواب القسم: ما ضل صاحبكم وما غوى[1] يعني النبي ﷺ أي ما ضل عن طريق الهدى وعن الصواب فيما يؤديه عن الله، وعن مجاهد أنه أراد بالنجم: الثريا إذا سقطت وغابت والعرب تسمي الثريا نجماً وإن كانت في العدد نجوماً قال أبو بكر الدينوري: هي سبعة أنجم فستة منها ظاهرة وواحد منها خفي يمتحن النَّاسُ فيه أبصارَهُم[2]، وقال الضحاك معناه: والقرآن إذ نزل ثلاث آيات، وأربع آيات، وسورة وكان بين أول القرآن وآخره ثلاث وعشرون سنة أقسم الله بالقرآن إذا نزل نجوماً متفرقة على رسول الله ﷺ، وذلك أن كفار مكة قالوا: إن محمداً يقول القرآن من تلقاء نفسه، فأقسم الله بالقرآن ونزوله نجماً بعد نجم إن محمداً لم ينطق به إلا وحي يوحى، وأنه لم ينطق به من هوى نفسه[3] وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ يعني جبريل عليه السلام وهو شديد البنية والخلقة، ومن قوة جبريل أنه أدخل جناحه تحت قريات قوم لوط فقلعها من الماء الأسود ورفعها إلى السماء ثم قلبها فانقلبت تهوي من السماء إلى الأرض، وكان من شدته أيضاً أنه أبصر إبليس وهو يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب الأرض المقدسة فنفخه بجناحه نفخة ألقاه إلى أقصى جبل بالهند وكان من شدته أيضاً أنه أهلك بصيحته ثمود فأصبحوا جاثمين قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ أي جبريل ذو قوة وشدة في خلقه، وقيل ذو منظر حسن، وقال قطرب تقول العرب لكل جزل الرأي حصيف العقل ذو مرّة قال الشاعر:

قَـد كُـنـتُ قَـبْـلَ لِـقَـاكُـمُ ذَا مِـرَّةٍ ∴ عِـنـدي لِـكُـلِّ مُـخَـاصِـمٍ مِـيـزَانُـهُ

وكانت جزالة رأيه وحصافة عقله أن الله تعالى ائتمنه على تبليغ وحيه إلى جميع رسله وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي فانتصب واقفاً على صورة الملائكة التي خلقه الله عليها فرآه النبي ﷺ منتصباً في السماء بعد أن كان مسرعاً فاستوى في أفق المشرق في رأي العين كما روي في الحديث أنه طبق الأفق كله بكلكله له

---

(1) التبيان في إعراب القرآن: 2: 382.

(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ.

(3) البغوي في تفسيره: 5: 243.

ستمائة جناح منها ألوان الزهرة، وتتناثر فيه الدُّرَّ وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ يعني جانب المشرق وهو فوق جانب المغرب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ أي ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى. قال المفسرون: وذلك أن جبريل كان يأتي النبي ﷺ في صورة الأدميين فسأله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي خلق عليها فأراه نفسه مرتين مرة في الأرض ومرة في السماء، فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى يعني أفق المشرق، وذلك أن النبي ﷺ كان بحراء فطلع له جبريل من المشرق فسد الأفق إلى المغرب، فَخرَّ النبي ﷺ مغشياً عليه فنزل جبريل في صورة الأدميين، وضمه إلى نفسه وهو قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ تقديره: ثم تدلى فدنا أي قرب بعد بعده وعلوه في الأفق الأعلى، والمعنى تنزل جبريل بعد استوائه فدنا إلى رسول الله ﷺ، وتدلى عليه بأن نكس رأسه فرآه النبي ﷺ متدلياً كما رآه منتصبا حتى صار بينه وبين النبي ﷺ قدر قاب قوسين من قسي العرب أو أدنى معناه: أو أقرب في رأي العين قال الزجاج: كان بينه وبين رسول الله ﷺ مقدار قوسين[1]، وإنما خص القوس في الآية لأن مقدارها في الأغلب لا يتفاوت بزيادة ولا نقصان، ويقال إن المراد بالقوس هاهنا الذراع وسمي الذراع قوساً لأنه يقاس به الأشياء قال ابن مسعود معناه: فكان قدر ذراعين أو أدنى من ذراعين[2] فأما دخول أو هاهنا في قوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ فمعناه: أو أدنى فيما تقدرون أنتم والله تعالى أعلم بمقادير الأشياء ولكنه يخاطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا ومعنى قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي قدر قوسين يقال قاب قوس وقيب قوس، وقاد قوس وقيد قوس كله بمعنى، والتدلي في اللغة: هو الامتداد إلى جهة السفل، ومنه تدلى القنو، ومنه إدلاء الدلو: وهو إرسالها في البئر ومن الدليل على أن المراد بشديد القوى جبريل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾ وهو مطلع الشمس.

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 5: 71.

(2) ابن عطية في تفسيره: 15: 258.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ أي فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ ما أمر الله أن يوحيه إليه، ويجوز أن يكون معناه: فأوحى الله إلى عبده ما أوحى قال سعيد بن جبير أوحى إليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾[2]، وقيل أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها أنت وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ أي ما كذب فؤاد محمد ﷺ فيما رآه ببصره من صورة جبريل ومن عجائب السماوات بل قبل القلب ذلك وأيقن أن ما رآه حق كما هو لم يشك فيه ولا أنكره ولم يعتقد عن تخيل ولم يخبر عن توهم وقرأ الحسن وأبو جعفر وقتادة وابن عامر ما كذب الفؤاد بالتشديد[3] أي ما كذب قلب محمد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدقه وحققه، وقيل هذا إخبار عن رؤية النبي ﷺ ليلة المعراج ربه قال ابن عباس رأى محمد ربه بفؤاده ولم يره بعينه ويكون ذلك على أن الله جعل بصره في فؤاده أو خلق لفؤاده بصراً حتى رأى ربه رؤية غير كاذبة كما يرى بالعين، وقال عكرمة: إنه رأى ربه بعينه وكان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه ومذهب ابن مسعود وعائشة في هذه الآية أنه رأى جبريل في صورته التي خلق عليها والفؤاد: وعاء القلب فما ارتاب في الفؤاد فيما رأى الأصل وهو القلب قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ من آيات الله قرأ علي وابن مسعود وابن عباس وعائشة ومسروق والنخعي وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب: أفتمرونه بفتح التاء من غير ألف[4] على معنى أفتجحدونه تقول العرب مريت الرجل حقه إذا جحدته وقرأ سعيد بن جبير وطلحة بن مصرف أفتمرونه بضم التاء من غير ألف أي أتشككونه، وقرأ الباقون: أفتمارونه أي أفتجادلونه، وفي الحديث: «**لا تماروا في القرآن، فإن المراء فيه كفر**»، وعن الشعبي عن عبد الله بن الحارث اجتمع ابن عباس وكعب فقال ابن عباس: أما نحن بنو

---

(1) سورة الضحى: 93 الآية: 6 ـ 7 إلى قوله تعالى ـ سورة الشرح: 94 الآية: 4.

(2) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 614، والفراء في معاني القرآن: 3: 96.

(3) المصدر نفسه.

(4) القرطبي في تفسيره: 17: 93.

هاشم فنقول: إن محمداً رأى ربه مرتين، وقال ابن عباس: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ.

قال الشعبي: فأخبرني مسروق أنه قال لعائشة: يا أماه هل رأى محمد ربه عز وجل قط؟ قالت: إنك لتقول قولاً ليقف منه شعري، قال: قلت رويداً، فقرأت عليها: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ فقالت: أين يُذْهَبُ بك إنما رأى جبريل في صورته، من حدثك: إن محمداً رأى ربه، فقد كذب[1]، قال الله تعالى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[2]، وفي رواية قالت عائشة: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله تعالى، ومن حدثك: إنه يعلم الخمس من الغيب فقد كذب قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[3]، ومن حدثك: إن محمداً كتم شيئاً من الوحي فقد كذب قال عبد الرزاق: فذكرت هذا الحديث لمحمد، فقال: ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي رأى محمد جبريل مرة أخرى فسماها نزلة على الاستعارة، وذلك أن جبريل رآه رسول الله ﷺ على صورته التي خلق عليها مرتين مرة في الأرض بالأفق الأعلى، ومرة في السماء عند سدرة المنتهى، ولأنه قال: نزلة أخرى تقديره: لقد رآه نازلاً نزلة أخرى والسدرة شجرة النبوة، وهي هاهنا شجرة في السماء السابعة قيل: إنها شجرة طوبى. قال الكلبي: هي شجرة عن يمين العرش فوق السماء السابعة نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة يخرج من ساقها نهران ظاهران، ونهران باطنان أما الباطنان ففي الجنة وهما: التسنيم والسلسبيل، وقيل التسنيم والكوثر، وأما الظاهران فالنيل والفرات وهي تحمل لأهل الجنة الحلى والحلل، وجميع الثمار، وسميت المنتهى لأنه ينتهي إليها كل ملك مقرب، ونبي مرسل لا يعلم أحد ما وراءها إلا الله سبحانه، وقال ابن مسعود: سميت المنتهى لأنه ينتهي إليها ما يصعد به من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض،

---

(1) الطبري في تفسيره: 13: 67.

(2) سورة الأنعام: 6 الآية: 103.

(3) سورة لقمان: 31 الآية: 34.

والمنتهى موضع الانتهاء، وعن أبي هريرة قال: لما أسري بالنبي ﷺ، وانتهى به إلى السدرة فإذا هي شجرة تخرج من أهلها أربعة أنهار نهر من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمرة لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى[1].

وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها، والورقة الواحدة منها تغطي الأمة كلها، وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت النبي ﷺ يذكر سدرة المنتهى قال: «**يسير الراكب في ظلها مائة عام**»[2]، وقال مقاتل: هي شجرة لو أن ورقة منها وضعت في الأرض أضاءت لأهل الأرض كلهم تحمل الحلى والحلل والثمار وجميع الألوان وهي طوبى التي ذكرها الله في سورة الرعد[3].

قال الله تعالى:

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿15﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿16﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿17﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿18﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿19﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿20﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿21﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿22﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿23﴾ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿24﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿25﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿15﴾﴾ معناه عند سدرة المنتهى جنة المأوى، وهي جنة يأوي إليها جبريل والملائكة، وقال مقاتل والكلبي: جنة يأوي إليها أرواح الشهداء والصالحين[4]، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿16﴾﴾ معناه: إذ يغشى السدرة من النور والبهاء والحسن والصفاء ما ليس لوصفه منتهى، وسئل رسول الله ﷺ عن ما يغشي السدرة فقال: يغشاها جراد من ذهب وروى فراش من ذهب، وعن ابن عباس أنه قال: تغشاها ملائكة أمثال الغربان حتى يقعن على الشجرة، وقال ﷺ: «**رأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله عز وجل**»، وقيل: غشيها نور من جهة الله عز وجل

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 13: 72 رقم 25156.

(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 247.

(3) البغوي نفسه.

(4) الثعلبي في تفسيره: خ.

فاستنارت قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿17﴾﴾ أي ما مال بصر النبي ﷺ يميناً ولا شمالاً ولا طغى أي ولا جاوز ما رأى وهذا وصف أدبه الله في ذلك المقام، إذ لم يلتفت جانباً، ولم يمل بصره ولم يمده أمامه إلى حيث ينتهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿18﴾﴾ أي لقد رأى تلك الليلة من عجائب ربه العجيبة العظمى وهي جبريل على صورته.

وعن ابن مسعود قال: رأى رفرفاً أخضر من الجنة سدَّ الأفق، وقيل هي الآيات العظام التي رآها تلك الليلة قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ قرأ مجاهد وأبو صالح: اللات بتشديد التاء[1]، وقالوا كان رجلاً يلتّ السويق للحاج فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، وروى السدي عن أبي صالح أنه قال: كان رجل بالطائف يقوم على آلهتهم، ويلتّ لهم السويق بالزيت فلما مات عبدوه، وقال الكلبي: هو رجل من ثقيف يقال له: «صرمة بن غنم» وكان يَسْلى[2] السَّمْن فيضعه على صخرة فتأتي العرب فتلت به أسوقتهم، وأما العزى فقال مجاهد: هي شجرة لغطفان يعبدونها، وهي التي بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها وجعل خالد يضربها بالفأس، ويقول:

يا عز كفرانك لا سبحانك ∴ إني رأيت الله قد أهانك

فخرجت من تحتها شيطانة عريانة ناشرة شعرها داعية بويلها واضعة يدها على رأسها قتلها خالد ثم رجع إلى النبي ﷺ وأخبره بذلك، فقال: تلك العزى، ولن تعبد أبداً، وأما مناة فهو صنم لخزاعة[3]، وقال الضحاك مناة صنم لهذيل، وقيل: إن مناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة يعبدونها، وقال بعضهم اللاة والعزى ومناة أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها والمعنى أخبرونا عن الآلهة التي تعبدونها من دون الله هل لها قدرة توصف بها كما يوصف الله بالقدرة

---

(1) الثعلبي في تفسيره: خ.

(2) يَسْلى السَّمْنَ ويأخذ منها الأقط وهو اللبن المجفف، والحيس هو الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن.

(3) القرطبي في تفسيره: 17: 100.

والعظمة وهذه أسماء أصنام يعبدونها، واشتقوا لها من أسماء الله، فقالوا: من الله اللاة، ومن العزيز: العزى، ومن المنان: مناة وكان الكسائي يختار الوقف على مناة بالهاء[1]، وقال الزجاج الوقف عليها بالتاء لاتباع المصحف[2] وكان ابن كثير يقرأ ومناءة بالمد والهمز، والصحيح قراءة العامة بالقصر[3] والثالثة نعت لمناة يعني الثالثة للصنمين في الذكر والأخرى نعت لها أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿21﴾﴾ هذا إنكار عليهم في أنهم كانوا يزعمون أن هذه الأصنام بنات الله، فقيل لهم: كيف جعلتم هذه الأشياء المؤنثة أولاد الله وأنتم لا ترضون لأنفسكم الإناث وتكرهونها.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿22﴾﴾ أي قسمة جائرة غير عادلة يقال: ضَازَه يَضِيزُهُ إذا أنقصه حقه قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ معناه: ما هذه اللاَّت والعُزَّى ومناة إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم الذين مضوا قبلكم ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ وبرهان أي لم ينزل كتاباً لكم فيه حجة بما تقولون أيها الآلهة والمعنى: ما أنزل الله بعبادتها من سلطان ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وهوى الأنفس في قولهم: إنها آلهة، وقولهم: هذه بنات الله وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ معناه: ولقد جاءهم من ربهم الكتاب والرسول والبيان أنها ليست بآلهة، وأن العبادة لا تصلح لها، وإنما تصلح لله عز وجل والمعنى: أنهم يفعلون ذلك بعد أن جاءهم الهدى وذلك أبلغ في الذم قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿24﴾﴾ معناه: أَلِلْإنسان ما تمنى؟ أي ما اشتهى والمراد بالإنسان الكافر وكانت الكفار يعبدون الأصنام ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله ويتمنون على الله الجنة والمعنى أيظنون أن لهم ما يتمنون من شفاعة الأصنام وليس كما يظنون ويتمنون بل لله الآخرة والأولى لا يعطي أحداً شيئاً بالتمني وإنما يعطي بالحكمة وعلى سبيل الاستحقاق، ويزيد الله من فضله ما يشاء ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿25﴾﴾ أي لا يملك فيهما أحدٌ شيئاً إلا بإذنه يعطي من يشاء ويحرم من يشاء.

---

(1) النحاس في إعراب القرآن: 4: 272.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 5: 73.

(3) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 615.

قال الله تعالى:

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿26﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿27﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿28﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿29﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿30﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿31﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ جمع الكناية لأن المراد بقوله: وكم من ملك الكثرة والمعنى لا تغني شفاعتهم أحداً شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة ويرضى بشفاعتهم، ويقال: ويرضى عن المشفوع له وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾[1] قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ يعني أنهم قالوا: إن الملائكة بنات الله تعالى الله عما يقولون. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ أي ما لهم بتلك التسمية من علم وما يستيقنون أنهم إناث ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ أي لا يقوم الظن مقام الحق وهذا يدل أن الظان غير عالم، وأن العبادة بالظن لا تدفع من عذاب الله شيئاً قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ أي أعرض يا محمد عمن أعرض عن القراءات ولم يرد بعلمه إلا الحياة الدنيا وزينتها، وهذه مما نسخته آية القتال. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ أي لم يبلغوا من العلم إلا ظنهم أن الملائكة بنات الله، وأنها تشفع لهم فاعتمدوا ذلك وأعرضوا عن القرآن، وقيل معناه: إن غاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة، وهذا غاية الجهل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي أنه عالم بهم فهو يجازيهم ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي أنه عالم بالفريقين، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إخبار عن قدرته وسعة ملكه ليجزي في الآخرة المحسن والمسيء معناه: ليجزي الذين أساءوا أي أشركوا بما

---

(1) سورة الأنبياء: 21 الآية: 28.

عملوا من الشرك ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أي وحدوا ربهم ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ أي بالجنة ثم نعتهم.

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (32) أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (33) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ (34) أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (36) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (37) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (38) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (39) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (40) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (41) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (42)﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ فكبائر الإثم: هو كل ذنب ختم بالنار، والفواحش: كل ذنب فيه الحد قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ هذا استثناء منقطع ليس من الكبائر والفواحش قال ابن عباس: أشبه شيء باللمم ما قاله أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا وهو يدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه**»(1) فإن تقدم بفرجه كان زانياً وإلا فهو اللمم، وفي هذا دليل أن هذه الأشياء إذا وجدت على التعمد لم تكن من اللمم، ولكن اللمم ما يكون من الفلتات النادرة التي لا يملكها ابن آدم من نفسه لأن الأمة أجمعت على أن متعمد النظر إلى ما لا يحل فاسق، واللمم في اللغة: هو مقاربة الشيء من غير دخول فيه يقال: ألم بالشيء يلم إلماماً إذا قاربه، وعلى هذا يقال: إن اللمم صغار الذنوب كالنظرة والقبلة والغمزة وما كان دون الزنا، وقال ابن عباس: اللمم هو أن تلم بالذنب مرّةً ثم تتوب منه ولا تعود إليه وقيل: هو قول الحسن والسدي، وقال الحسين بن

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 12: 289 رقم 6243 ـ باب زنا الجوارح. أخرجه البيهقي في الشعب: 4: 365 رقم 5427 ـ باب في تحريم الفروج.

الفضل: اللمم النظرة من غير تعمد وهو مغفور، وإن أعاد النظر فليس بلمم[1] وهو ذنب قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي إن رحمة ربك تسع جميع الذنوب ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ معناه: هو أعلم بكم من أنفسكم إذ خلق أباكم آدم من التراب وحين ما كنتم صغاراً في أرحام أمهاتكم علم عند ذلك ما سيحصل منكم، والأجنة جمع جنين والمعنى: علم الله من كل نفس ما هي صانعة، وإلى ما هي صائرة فلا تزكوا أنفسكم بما ليس فيها ولا تبرءوها من العيوب التي فيها، وقيل معناه: لا تزكوا أنفسكم بما علمتم لا يقولن الرجل: عملت كذا، وتصدقت بكذا ليكون أبلغ في الخضوع، وأبعد من الريا، وقيل معناه: لا تبرءوا أنفسكم من الآثام وتمدحوها بحسن عملها هو أعلم بمن اتقى الشرك، وآمن وأطاع وأخلص العمل.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ يعني الوليد بن المغيرة أعرض عن التصديق بالنبي ﷺ، وأعطى قليلاً من الحق بلسانه ثم قطع، وكان الوليد بن المغيرة قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه فعيره بعض المشركين بترك دينه فقال: إني خشيت عذاب الله فضمن الذي عاتبه إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه العذاب ففعل يعني رجع إلى الشرك، وأعطاه ذلك الرجل بعض ما كان ذكر له من المال ومنعه تمامه، فأنزل الله هذه[2] الآية ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ أي أدبر عن إيمانه وأعطى صاحبه قليلاً من المال الذي وعده به وأكدى أي بخل بالباقي. قال المفسرون: أكدى أي قطعه ولم يقم عليه، وأصله من الكدية وهو حجر يظهر في البئر ويمنع من الحفر ويؤس من الماء قال الكلبي: يقول أكدى الحافر وأجبل إذا بلغ في الحفرة الكدية والجبل[3].

قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ معناه: أعند هذا الرجل علم الغيب من أمر العذاب وحمله عن غيره ورفع أثر خطاياه عنه ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي

(1) الثعلبي في تفسيره ـ خ.
(2) الطبري في تفسيره: 13: 92.
الواحدي في أسباب النزول: 335 ـ 336.
(3) الثعلبي في تفسيره: خ.

يعلم أن صاحبه يتحمل عنه عذابه. وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ معناه: ألم يخبر بما كان مكتوباً في صحف موسى يعني التوراة وما في صحف إبراهيم الذي وفى أي تممَّ وأكمل ما أمر به وقيل معناه: وإبراهيم الذي بلغ قومه وأدَّى إليهم ما أمر به، وقيل أكمل ما يجب الله عليه من الطاعة في كل ما أمر به وامتحن به كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[1] وقيل في معنى ذلك أنه كان عاهد أن لا يسأل مخلوقاً قط فوفَّى بذلك حتى قال له جبريل في الوقت الذي أراد قومه أن يلقوه في النار هل لك من حاجة؟ أجابه أما إليك فلا وقيل معناه: وفّى رؤياه، وقدم بذبح ابنه، وقيل: أدّى الأمانة ووفّى شأن المناسك وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هذا بيان لما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفّى، ومعناه: لا تحمل حاملة حمل أخرى أي لا تعذب نفس بذنب غيرها وهذا إبطال لقول من ضمن للوليد أنه يحمل عنه الإثم وهذا عام في كل شريعة.

وعن ابن عباس أنه قال كانوا قبل إبراهيم يأخذون الرجل بذنب غيره، ويأخذون الولي بالولي في القتل حتى إن الرجل ليقتل بابنه وأخيه وأبيه وعمه وخاله، والزوج يقتل بامرأته، والسيد بعبده فلما بُعِثَ إبراهيم عليه السلام نهاهم عن ذلك، وبلغهم عن الله أن لا تزر وازرة وزر أخرى يقال: وزرت الشيء أزره إذا حملته والأوزار الأحمال، ويسمى الإثم وزراً لأن الإثم يثقل صاحبه كما قال تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[2] ويسمى الوزير وزيراً لأنه يحمل ثقل الملك في قيامه بالتدبير قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿39﴾﴾ أي ليس له إلا جزاء ما عمل من خير أو شر وهذا عطف على قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿38﴾﴾ وهو أيضاً مما في صحف إبراهيم وموسى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿40﴾﴾ معناه: وأن عمله سوف يرى في الآخرة في ديوانه وميزانه ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿41﴾﴾ لا ينقص من ثواب عمله شيء قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿42﴾﴾ أي منتهى العباد ومصيرهم وهو مجازيهم بأعمالهم، وقيل

---

(1) سورة البقرة: 2 الآية: 124.

(2) سورة الشرح: 94 الآية: 2 ـ 3.

منه ابتداء المنة وإليه انتهاء الآمال، وعن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴿٤٢﴾﴾ قال: لا فكرة في الرب، والشاهد لهذا الحديث قوله ﷺ: «**إذا ذكر الله فانتهوا**»، وعن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يتفكرون، فقال: «**فيم أنتم تتفكرون؟**» قالوا: نتفكر في الخالق، فقال: «**تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق، فإنه لا يحيط به الفكر**»[1] تفكروا إن الله خلق السماوات سبعاً والأرض سبعاً ثخانة كل أرض خمسمائة عام، وما بين كل أرضين خمسمائة عام، وبين السماء والأرض خمسمائة عام وثخانة كل سماء خمسمائة عام، وما بين كل سماءين خمسمائة عام، وفي السماء السابعة بحر عمقه مثل ذلك كله فيه فلك قائم لم يجاوز الماء كعبيه.

قال الله تعالى:

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ۩﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴿٤٣﴾﴾ أي أضحك من شاء من خلقه، وأبكى من شاء منهم وقال الكلبي: أضحك أهل الجنة فيها وأبكى أهل النار فيها وقال عطاء معناه: وأنه هو أفرح وأحزن، وقال الضحاك: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر، وقيل: أضحك الأشجار بالنوار وأبكى السحاب بالأمطار، وقال ذو النون: أضحك قلوب العارفين بشمس معرفته وأبكى قلوب العاصين بظلمة نكرته ومعصيته، وقال سهل: أضحك المطيع بالرحمة وأبكى العاصي بالسخطة، وسئل طاهر المقدسي: أتضحك الملائكة؟ فقال: ما ضحك

(1) أخرجه البيهقي في الشعب: 1: 120.

من دون العرش منذ خلقت جهنم، وقيل لعمر: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم والإيمان في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي، وقال محمد بن علي الترمذي[1] معنى الآية: أضحك المؤمن في الآخرة وأبكاه في الدنيا، وأضحك الكافر في الدنيا وأبكاه في النار[2] قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ أي أمات في الدنيا وأحيا في العقبى للجزاء، وقيل أمات الآباء وأحيا الأبناء، وقيل أمات الكافر بالنكرة والقطيعة وأحيا المؤمن بالمعرفة والوصلة قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾[3] قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي خلق الصنفين الذكر والأنثى من كل حيوان من نطفة إذ انقذف في الرحم لتقدير الولد والمني: ما يقدر منه الولد قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ يعني بالنشأة الأخرى: الخلق الثاني للبعث يوم القيامة يعيدهم أحياء قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ قال الضحاك معناه: أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال، وأقنى بالإبل والبقر والغنم، وقال الحسن وقتادة معناه: أغنى وأخدم، وقال ابن عباس: أغنى وأرضى بما أعطى، وقيل معناه: أغنى وأفقر وقيل: أغنى أي أكثر وأقنى أي أقلَّ ونظيره قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[4] وقال الأخفش: أقنى أفقر وأحوج وقيل: أغنى بأرباح الأموال وفروعها وأقنى بأصولها. فالأول مثل الذهب والفضة يتصرف فيهما ويربح عليهما، والثاني مثل الضياع والأنعام يستبقي الإنسان أصولها وينتفع بما يحصل له منهما.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ وهو كوكب خلف الجوزاء كان يعبده ناس من خزاعة فقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ يقال للشعرى

---

(1) أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي ـ باحث صوفي عالم بالحديث وأصول الدين من أهل ترمذ أنكروا عليه تصنيفه كتاباً خالف فيه أهل ترمذ، واتبع طريقة الصوفية في الإشارات ـ طبقات السبكي: 2: 20 ـ الأعلام: 6: 272.

(2) يراجع معنى قوله: «أضحك وأبكى» في تفسير الثعلبي ـ خ، وتفسير القرطبي: 17: 116.

(3) سورة الأنعام: 6: الآية: 122.

(4) سورة الرعد: 13 الآية: 26.

مرزم الجوزاء وهما شعريان يقال لأحدهما العبُور والأخرى الغُمَيْصاء وأراد هاهنا الشِّعْرى: العَبُور أعلم الله تعالى أنه رب الشعرى وخالقها، وأنه هو المعبود لا معبود سواه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ معناه: وأنه أهلك قوم هود بريح صرصر وهم أول عاد كانوا وأما عاد الأخرى فاقتتلوا فيما بينهم فتفانوا بالقتل وكانت عاد الأخرى من نسل عاد الأولى قرأ نافع وأبو عمرو ويعقوب ـ عاد الأؤلى مدغماً وهمز الواو نافع وقرأ بإسكان اللام وإثبات الهمز وهي الأصل في الكلام قوله تعالى[1]: ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ (51)﴾ أي وأهلك قوم صالح بالصيحة فما أبقى منهم أحداً. وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي وأهلك قومك نوح من قبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ من غيرهم لأن نوحاً عليه السلام لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فما آمن منهم إلا نفر يسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (53)﴾ معناه: وقرى قوم لوط الأربع رفعها جبريل إلى السماء الدنيا فأسقطها إلى الأرض والمعنى: أهواها جبريل إلى الأرض بعد ما رفعها وأتبعهم الله الحجارة فذلك قوله تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (54)﴾ يعني الحجارة والخزي والنكال وسميت المؤتفكة من قولهم: أفكته أي قلبته والمؤتفكة هي المنقلبة قوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (55)﴾ أي فبأيّ نعم ربك أيها الإنسان تتشكك وترتاب قال ابن عباس يريد فبأيّ نعم ربك التي تدل على وحدانيته تتشكك وتكذب يا وليد يعني الوليد بن المغيرة وذلك أن الله تعالى: لما عدد ما فعله مما يدل على وحدانيته قال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (55)﴾ فإن قيل: ما معنى ذكر النعم هاهنا وقد تقدم ذكر الإهلاك قلنا: إن النعم التي عددت قبل هذه: نعم علينا لما نالنا فيها من المزاجر كي لا يسلك منا أحد مسالكهم ـ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (56)﴾ يعني محمداً ﷺ من النذر الأولى أي من الرسل قبله، والمعنى هذا الرسول نذير لكم مجراه في الإنذار مجرى من تقدمه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ أي دنت القيامة، واقتربت الساعة قوله تعالى:

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 615.
الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها: 2: 296.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي ليس للقيامة إذا غشيت الخلق بشدائدها وأهوالها أحد يكشفها عنهم ولا يردها، وهذا قول عطاء والضحاك وقتادة وتأنيث كاشفة على تقدير: ليس لها نفس كاشفة ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿كَاشِفَةٌ﴾ مصدر كالجابية والعاقبة أي ليس لها من دون الله كشف أي لا يكشف عنها غيره، ولا يعلم متى هي إلا هو وهذا كقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[1] قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ الخطاب لمشركي قريش والمعنى: أفمن هذا القرآن الذي يُمْلَى عليكم تعجبون من إنزاله على محمد تكذيباً، وتضحكون استهزاءً ولا تبكون مما فيه من الوعيد والزواجر والتخويف قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي وأنتم لاهون غافلون عنه يقال: دع عنك سمودك أي لهوك قال أمية:

أَلاَ أَيُّهَا الإنسانُ إنَّكَ سَامِدٌ ∴ كأنك لا تَفْنى ولاَ أنت هَالِكُ

والسمود: هو الغفلة والسهو عن الشيء، وقال الكلبي: السامد الحزين بلسان قريش، وبلسان اليمن اللاهي، وقال الضحاك: سامدون أي أشرون بطرون وقال مجاهد سامدون: أي مبرطمون والبرطمة: أن يدلي الإنسان شفته من الغضب وفي لغة اليمن أيضاً أسمد لنا أي غنِّ لنا، وعن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ بكى أهل الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم فلما سمع النبي ﷺ حنينهم بكى معهم فبكينا، فقال ﷺ: «**لا يلج النار من بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنة مُصِرٌّ على معصية الله، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيغفر لهم**»[2] قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ أي اخضعوا له بالتوحيد واعبدوه ولا تعبدوا أحداً غيره، ويجوز أن يكون السجود هاهنا كناية عن الصلاة، وعن ابن عباس قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة النجم فسجد فيها، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[3].

---

(1) سورة الأعراف: 7 الآية: 187.
(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 1: 489 رقم: 798 باب في الخوف من الله تعالى.
(3) البغوي في معالم التنزيل: 5: 258.

سُورَةُ القَمَرِ

قال الحداد:

سورة القمر مكية، وهي ألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون حرفاً، وثلاثمائة واثنتان وأربعون كلمة، وخمس وخمسون آية، قال ﷺ **«من قرأ سورة القمر بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر»**[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ معناه: دنت القيامة، وحدث علم من أعلامها وهو انشقاق القمر ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ يعني أهل مكة علامة تدلهم على وحدانية الله، ونبوة محمد ﷺ ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ أي يجحدوا ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي شديد قوي من المرة وهي القوة وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي كذبوا الرسل وثبتوا على التكذيب، وعملوا بهوى

---

(1) ذكره الزمخشري في تفسيره «الكشاف» 4: 42.

أنفسهم في عبادة الأصنام وكل أمر مما أخبر الله به من الأمور الماضية والمنتظرة مستقر ثابت لا تلحقه الزيادة والنقصان، والتغيير والتبديل، وسبب نزول هذه الآيات: ما روى أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ آية وهو في المسجد الحرام حين قال أبو جهل: واللات والعزى لئن أتيت بآية كما أتت به الرسل قبلك لنؤمنن بك، فقال ﷺ: «**وماذا عليك لو حلفت بالله العظيم؟**» فقال: ورب هذه الكعبة لئن أتيت بآية كما أتت به الرسل قبلك لآمنا بك وقال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: إن كنت صادقاً، فشق لنا القمر فرقتين؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إن فعلت تؤمنون؟**» قالوا: نعم، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا: فانشق القمر فرقتين، فقال ﷺ: «**يا فلان، ويا فلان، ويا فلان اشهدوا**»[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أشار النبي ﷺ إلى القمر، فانفلق فلقتين فكانت إحداهما فوق الجبل والأخرى أسفل من الجبل حتى رُئي الجبل من فلقتي القمر وقال: «**اشهدوا**»[2]، فقال أبو جهل: إن محمداً سحر القمر، ثم قال أبو جهل لأصحابه: ابعثوا بالرسل إلى البلاد، فإن عاينوا ذلك ما عاينا فهو آية، وإلا فهو سحر فبعثوا الرسل إلى جميع البلاد فإذا الناس يتحدثون بانشقاق القمر، فلما رجعوا إليهم فأخبروهم به، قالوا: إن هذا ساحر داهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ يعني أهل مكة جاءهم من أخبار الأمم المكذبة في القرآن ما فيه منتهى لهم عن ما هم فيه من الكفر والفسوق، وقوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾[3] بدل من «ما» والمعنى: جاءهم حكمة في نهاية الحسن والصواب، وقيل: المراد بالحكمة البالغة القرآن وقوله تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي ما تغني الرسل صلوات الله عليهم عن قوم لا يتدبرون ولا يتفكرون في الأدلة، والنذر جمع نذير قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ

---

(1) الواحدي في أسباب النزول: 337. أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 9: 601 رقم 4865 كتاب التفسير.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 9: 601 رقم 4864 كتاب التفسير.

(3) التبيان في إعراب القرآن: 2: 387.

﴿يَـدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ أي أعرض عنهم فليس عليك إجبارهم على الدين، وإنما عليك الحجة، وقد بالغت فيها وهذه الآية منسوخة بآية القتال، وهذا وقف تام وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَـدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ ابتداء كلام قال مقاتل أراد بالداعي: إسرافيل ينفخ قائماً على صخرة بيت المقدس إلى شيء نكر أي إلى أمر فظيع لم يروا مثله فينكرونه استعظاماً له وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَـدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ منصوب على معنى: واذكر قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ نصب على الحال من يخرجون، وذلك دليل على تقدم الحال على الاسم، ولذلك يقال: راكباً جاء زيدٌ، كما يقال: جاء زيدٌ راكباً، وتقديره: يخرجون من الأجداث خاشعاً أبصارهم قرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف: خاشعاً بالألف، وقرأ الباقون: خُشَّعاً على الجمع[1] قال الفراء: يجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد والجمع والتأنيث[2] يقال: مررت بشبابٍ حسنٍ أوجههم، وحسان أوجههم، وحسنة أوجههم، وفي قراءة عبد الله: خاشعة[3] أبصارهم أي ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب.

قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ أي يخرجون عند النفخة من القبور فزعين لا يهتدون إلى شيء يجول بعضهم في بعض مثل الجراد المنتشر والمعنى: أنهم يخرجون فزعين لا جهة لأحد منهم فيقصدها والجراد لا جهة له تكون أبداً مختلفة بعضها فوق بعض قوله تعالى: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ أي مقبلين إلى صوت إسرافيل ناظرين متحيرين مسرعين إليه يقول الكافرون هذا يوم عسر صعب شديد قال ابن عباس: عسر على الكافرين سهل يسير على المؤمنين كما قال تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ⑩﴾ والإهطاع: الإسراع[4].

قال الله تعالى:

﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ⑨ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 617 ـ 618.

(2) معاني القرآن: 3: 105.

(3) النحاس في إعراب القرآن: 4: 287.

(4) الثعلبي في تفسيره: خ.

مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿10﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿11﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿12﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿13﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿14﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿15﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿16﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿17﴾﴾.

قال الإمام الحداد:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾ أي كذب قبل قومك قوم نوح كما كذبك قومك ونسبوا نوحاً إلى الجنون كما نسبك قومك إلى الجنون فقالوا مجنون وازدجر أي فكذبوا عبدنا نوحاً، وقالوا: هو مجنون وزجروه عن دعائه إياهم إلى الإيمان بالشتم والوعيد فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[1] قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿10﴾﴾ أي فانتقم منهم لدينك، وإنما دعا عليهم بالهلاك بعدما أذن له في الدعاء فأجاب الله دعاءه، فقال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿11﴾﴾ أي بماء سائل منصب انصباباً شديداً لا ينقطع متدفق مع كثرة شديدة قال الكلبي: انصب أربعين يوماً لم ينقطع وقرىء ففتحنا بالتشديد على تكثير الفعل[2]، وذكر الأبواب في الآية على معنى أن إجراء الماء من السماء كان بمنزلة جريانه كأنه فتح عنه باب كان مانعاً له قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي شققنا الأرض عيوناً فالتقى الماء ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضى في اللوح المحفوظ وهو هلاك القوم، وقرأ الجحدري: فالتقى الماءان[3].

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿13﴾﴾ معناه: وحملنا نوحاً، ومن آمن معه على سفينة ذات ألواح وهي خُشْبانُها ودسر يعني المسامير التي يشد بها الألواح واحدها دِسَار والمعنى: على سفينة ذات ألواح ومسامير قوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي تجري بحفظنا ووحينا وأمرنا حتى لا يقع فيها شيء من الماء

(1) سورة الشعراء: 26 الآية: 116.

(2) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 618، الكشف عن وجوه القراءات وعللها: 2: 297.

(3) القرطبي في تفسيره: 17: 132.

ولا تنكسر ولا تغرق قوله تعالى: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي فعلنا ذلك من إنجائه وإغراقهم ثواباً لمن كُفِر به وجُحِد أمره وهو نوح عليه السلام كفره قومه وجحدوا به وقرأ مجاهد جزاء لمن كان كفر بفتح الكاف[1] والفاء يعني كان الغرق جزاء لمن كفر بالله وكذب رسوله. قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً﴾ يعني تركنا هذه الفعلة، ويقال السفينة التي يصنعها الناس على مثال سفينة نوح عليه السلام علامة للناس ليعتبروا، ويستدلوا بها على توحيد الله فهل من متعظ معتبر متذكر متفكر يعلم أن ذلك حق فيعتبر قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿16﴾﴾ معناه: فانظر يا محمد كيف كان عقوبتي من أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا، وهذا استفهام ومعناه: التعظيم لذلك العذاب، وهذا تخويف لمشركي مكة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سهلناه للحفظ والقراءة والكتابة قال سعيد بن جبير: ليس كتاب من كتب الله يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي فهل من ذاكر يذكره وقارىء يقرأه ومعناه: الحث على قراءة القرآن، ودرسه، وتعلمه ولولا تسهيل الله علينا ذلك لم يستطع أحد أن يلفظ به[2].

قال الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿18﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿19﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿20﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿21﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿22﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿23﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿24﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿25﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿26﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿18﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي باردة شديدة البرد وشديدة الهبوب ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي في يوم مشؤوم عليهم دائم الشؤم روي أنه كان يوم الأربعاء الذي في آخر الشهر لا يدور، ويقال معنى قوله: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ استمر بهم العذاب إلى نار جهنم.

---

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 133.

(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 263.

قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿20﴾﴾ أي تقلع الناس من الأرض من تحت أقدامهم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم وتقطع أعناقهم، فتبقى أجسادهم كأنها أعجاز نخل مقطع ويقال في معنى تنزع الناس أنهم ضربوا برجلهم في الأرض فغيبوها إلى قريب من ركبهم وقالوا قل للريح حتى ترفعنا فجعلت الريح تدخل تحت أقدامهم وترفع كل اثنين وتضرب بأحدهما على الآخر في الهواء ثم تلقيها في الوادي والباقون ينظرون إليهم حتى رفعتهم كلهم وصيرتهم في الأرض كأنهم أعجاز نخل منقعر أي ساقط ثم رمت بالتراب عليهم وكان يسمع أنينهم من تحت التراب يقال: قعرت النخلة إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط شبههم في طولهم حين صرعتهم الريح وكبتهم على وجوههم كالنخل الساقطة على الأرض التي ليست لها رؤوس وذلك أن الريح قلعت رؤوسهم أولاً ثم كبتهم على وجوههم قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿16﴾﴾ إنما كرره لأنه لما ذكر في كل فصل نوعاً من الإنذار والتعذيب انعقد التذكير بشيء شيء منه على التفصيل قال ابن الأنباري: سئل المبرد عن ألف مسألة هذه من جملتها وهو أن السائل قال له ما الفرق بين قوله: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[1] ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾[2] وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[3]؟ فقال: كل ما ورد عليك من هذا الباب فلك أن ترده إلى اللفظ تذكيراً، ولك أن ترده إلى المعنى تأنيثاً قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿23﴾﴾ أي بالإنذار الذي جاءهم به صالح عليه السلام ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ أي هو آدمي مثلنا وهو واحد فلا نكون له تبعاً إنا إذا إن فعلنا ذلك لفي ضلال وذهاب عن الحق، وسعر أي وشقاق عنا وشدة عذاب مما يلزمنا من طاعته، وقال عطاء معنى قوله ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي وجنون من قولهم: ناقة مسعورة إذا كان بها جنون من النشاط وهو من تسعر النار إذا التهبت قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أنكروا أن يكون الوحي يأتيه فقالوا كيف خص من بيننا بالنبوة والوحي؟ بل هو

---

(1) سورة يونس: 10 الآية: 22.

(2) سورة الأنبياء: 21 الآية: 80.

(3) سورة الحاقة: 69 الآية: 7.

كذاب فيما يقول أشر أي بطر متكبر يريد أن يتعظم علينا بالنبوة قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ حين ينزل بهم العذاب يعني يوم القيامة ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ أهم أم صالح؟ قرأ حمزة: ستعلمون[1] بالتاء.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (28) فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (30) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (32)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي إنا مخرجو الناقة من الصخرة تشديداً عليهم في التكليف وذلك أنهم تعنتوا صالحاً فسألوه أن يخرج لهم من صخرة ناقة حمراء أو عُشَراء وقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ أي فانتظر ما هم صانعون، واصطبر على أذاهم، ولا تعجل حتى يأتيهم أمري وقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي أخبرهم أن الماء مقسوم بين الناقة وولدها، وبينهم وبين مواشيهم يوم لها ويوم لهم قوله تعالى: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي كل منهم يحضر نوبته فتحضر الناقة وولدها يوم نوبتها، ويحضر القوم يوم نوبتهم، والشِّرب من الماء النصيب، والشُّرب بالضَّم فعل الشارب قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ أي نادوا قُدار بن سالف: عاقر الناقة[2] ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ أي تناول الناقة بالعقر فعقرها وذلك أنهم لما مكثوا على قسمة الماء زماناً ثم ضاق عليهم الأمر وعلى مواشيهم بسبب الناقة غلب عليهم الشتاء فتواطأ نفر منهم على قتلها فنادوا صاحبهم الذي كمن لها وذلك أنه رماها رجل منهم يقال له: «مصدع بن دهر» بسهم فضربها على ساقها فنادوا «قُدار بن سالف» وقالوا له دونك الناقة قد مرَّت بك فاضربها فتعاطى قُدار عقر الناقة فعقرها بأن ضرب ساقها الأخرى فسقطت على جنبها وقطعوا لحمها واقتسموه فعاقبهم الله تعالى بصيحة فأهلكتهم وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ (31)﴾ قال عطاء يريد

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة: 618.

(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ.

صيحة جبريل عليه السلام أسمعهم الله إياها فهلكوا وصاروا كالورق المتهشم الذي يجمعه صاحب الحظيرة إذا يبس غاية اليبس[1]، وتحطم غاية الانحطام.

قال ابن عباس: وهو أن الرجل يجعل الغنمة حضيرة بالشجر والشوك ليحرسها بذلك من السباع فما سقط من ورق ذلك الشجر ويبس وداسه الغنم وتحطم فهو الهشيم، وقال ابن زيد الهشيم: هو الشجر البالي الذي يهشم حتى ذرته الريح، والعرب يسمى كل شيء رطباً فيبس فهو هشيم[2] قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي ريحاً ترميهم بالحصباء وهي الحصى، والحصباء: هي الحجارة التي دون ملء الكف قال ابن عباس: يريد ما حصبوا به من السماء من الحجارة قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ يعني ابنتيه وزوجته المؤمنة نجاهم الله من العذاب بأن أمرهم بالخروج في وقت السحر وكانت نجاتهم نعمة من الله عليهم، وكذلك يجزي الله كل من عرف إنعامه وقابله بالشكر ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أي خوفهم لوط عذابنا فشكوا في الإنذار أي فتدافعوا بالحجاج الباطل ويقال تجادلوا في أمر الرسالة ولم يصدقوه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي طلبوا أن يسلم إليهم أضيافه وهم الملائكة قصداً منهم إلى عملهم الخبيث فأمر الله جبريل أن يصفق بجناحه صفقة فأعماهم فبقوا حيارى، ومعنى فطمسنا أعينهم أي أعميناهم وصيرناهم كسائر الوجه لا يرى له شق فكانوا عمياناً متحيرين لا يهتدون إلى الباب فقيل لهم: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ يقال: فلان مطموس البصر إذا كان موضع عينيه أملس لا أثر فيه للعين من الجفن والحدقة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ أي أتاهم العذاب صباحاً يعني أخذهم عند الصبح عذاب دائم متصل بعذاب الآخرة قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ قد مضى تفسيره.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿41﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿42﴾

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 5: 265.

(2) القرطبي في تفسيره: 17: 143. والبغوي في معالم التنزيل: 55: 265.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿43﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿44﴾ سَيُهْزَمُ
ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿45﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿46﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ
وَسُعُرٍ ﴿47﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿48﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ
بِقَدَرٍ ﴿49﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿50﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ﴿51﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿52﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿53﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ
فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿54﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿55﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿41﴾﴾ قيل إن المراد بالنذر: موسى وهارون واسم الجمع يطلق على الاثنين، وقيل المراد به: الآيات التي فيها الإنذار، وقيل: هي المواعظ.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ التسع ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي فأخذناهم بالعذاب أخذ عزيز غالب في انتقامه مقتدر قادر على إهلاكهم، والعزيز: القوي الذي لا يلحقه ضعف ولا هجر ولا يعتريه منع ولا دفع، قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ معناه: أكفاركم يا أهل مكة أشد وأقوى من أولائكم الذين قصصنا ذكرهم وهذا استفهام ومعناه: الإنكار أي ليسوا أقوى من قوم نوح وعاد وثمود وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ معناه: ألكم براءة من العذاب في الكتب لن يصيبكم ما أصاب الأمم الخالية قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿44﴾﴾ معناه: أم يقولون: نحن جميع يد واحدة متفقون على الانتصار من أعدائنا ووجد المنتصر للفظ الجميع وهو واحد في اللفظ قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿45﴾﴾ أي سيهزم جمع كفار مكة يوم بدر ويقولون الدبر منهزمين ومعنى الآية أن كفار مكة يقولون: نحن جميع منتصر أي جماعة لا نضام ولا نرام ولا يقصدنا أحد بسوء، ولا أحد يفرق جمعنا، وكان من حقه أن يقول: نحن جميع منتصرون إلا أنه تبع رؤوس الآي وقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ قراءة[1] الكافة بالباء على ما لم يسم فاعله، وقرأ يعقوب: بالنور، وكسر الزاي الجمع بالنصب[2]، وإنما وحد الدبر: لأجل رؤوس الآي قال

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 145.

(2) القرطبي نفسه.

مقاتل: ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر، وتقدم الصف، وقال نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه، فهزمهم الله تعالى[1] قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ فيه بيان أن ما نزل بهم من القتل والأسر ببدر لم يكن كافياً في عقوبتهم بل القيامة موعدهم والقيامة أعظم في الدهاء وأشد مرارة من القتل والأسر في الدنيا وكل داهية فمعناها: الأمر الشديد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿47﴾﴾ أراد بالضلال: الذهاب عن الصواب في الدنيا، وبالسعر: عذاب النار في العقبى قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ أي يوم تجرهم الملائكة في النار على وجوههم فيقول لهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ وسقر اسم من أسماء دركات جهنم قال أبو أمامة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن هذه الآية نزلت في القدرية** ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿47﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: «**مجوس هذه الآمة القدرية وهم المجرمون الذين سماهم الله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿47﴾﴾» وعن هشام بن حسان قال سمعت الحسن يقول: والله لو أن قدرياً صام حتى يصير كالجبل ثم صلى حتى يصير كالوتر ثم أخذ ظلماً وزوراً حتى ذبح بين الركن والمقام وأكبه الله عزَّ وجلَّ على وجهه في سقر ثم قيل له: ذق مس سقر قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿49﴾﴾ معناه: كل ما خلقناه فمقدور مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه: وعن رسول الله ﷺ أنه قال: إن الله عزَّ وجلَّ قدر المقادير ودبَّر التدبير قبل أن يخلق آدم عليه السلام بألفي عام وقال عليه السلام: «**الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن**»[3]، وانتصب قوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ بفعل مضمر كأنه قال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿49﴾﴾ وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى منادي يسمعه الأولون والآخرون أين خصماء الله؟ فيقوم القدرية، فيقال لهم: ذوقوا مسَّ سقر**»، قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾

---

(1) الثعلبي في تفسيره: خ.

(2) الطبري في تفسيره: 13: 145.

(3) يراجع القرطبي في تفسيره: 17: 146 ـ 147.

معناه: وما أمرنا بقيام الساعة أو غير ذلك إلا كلمة واحدة لا تثني كطرف البصر بل هو أسرع ومعنى اللمح المنظر بالعجلة. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ معناه: ولقد أهلكنا أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم الماضية وهل من متعظ يتعظ بهم[1] قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ (52)﴾ معناه: وكل شيء فعلوه وقالوه من خير وشر يعني الأشياع مكتوب في اللوح المحفوظ قبل أن يفعلوه ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الذنوب والخلق والأعمار مستطر مكتوب على ما عليه قبل أن يفعلوه وتكتبه الملائكة في ديوانهم ليجزيهم الله على أفعالهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ (54)﴾ معناه: إن الذين يتقون الشرك والكبائر والفواحش في بساتين وأنهار جارية من الماء والخمر واللبن والعسل قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي في مجلس حسن وموضع قرار وأمن من وقوع الحوادث عند مليك مقتدر أي عند مليك قادر على الثواب والعقاب قادر لا يعجزه شيء وهو الله عز وجل ومقعد صدق هو الجنة مدح الله المكان بالصدق ولا يقعد فيه إلا أهل الصدق وإنما قال: ﴿وَنَهَرٍ﴾ موحد لأجل رؤوس الآي كقوله تعالى: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ وقال الضحاك معناه: في قضاء وسعة ونور ومنه النهار ومن ذلك نهرت الطعنة إذا وسعتها، وقرأ الأعرج وطلحة: ونُهُرٍ بضمتين[2] كأنه جمع نهار لا ليل.

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 5: 269.

(2) القرطبي نفسه.

التبيان في إعراب القرآن: 2: 390.

سُورَةُ الرَّحۡمَٰنِ

قال أبو بكر الحداد رحمه الله:

سورة الرحمٰن مكية في قول أكثر المفسرين، وقال الحسن: مدنية، وهي ألف وستمائة وستة وثلاثون حرفاً، وثلاثمائة وإحدى وخمسون كلمة، وثمان وسبعون آية، قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ سورة الرحمٰن رحم الله تعالى ضعفه، وكان مؤدياً شكر ما أنعم الله عليه»**[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ (1) عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ (2) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ (3) عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ (4) ٱلشَّمۡسُ
وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ (5) وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ (6) وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ (7) أَلَّا
تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ (9) وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا
لِلۡأَنَامِ (10) فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ (11) وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ (12) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن
مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ (15) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16) رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ (17) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (18)﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم: قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ (2)﴾ هذا جواب لقول الكفار من قريش حين قالوا: إن محمداً يقول ما يقول من تلقاء

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره عن أبي بن كعب، وذكره الزمخشري في تفسيره: 4: 50.

نفسه، ولم يوح إليه شيء، ومنهم من كان يقول إنما يعلمه بشر، فردّ الله عليهم مقالتهم، وبين أنه الله هو الذي علم محمداً القرآن على لسان جبريل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ قيل المراد به آدم عليه السلام علمه الله تعالى جميع اللغات، وأسماء كل شيء، وكان آدم يتكلم سبعمائة ألف لغة أفضلها العربية[1] ويجوز أن يكون الإنسان هاهنا اسم جنس بمعنى جميع الناس علمهم الله البيان وهو النطق والكتابة والحفظ والفهم والأفهام حتى عرف الإنسان ما يقول وما يقال له، وقيل معنى البيان بيان الحلال والحرام وبيان الخير والشر وما يأتي وما يذر وقال أبو العالية: يعني الكلام الحسن والنطق والتمييز، وقيل الكتابة بالقلم، وقال السدي علَّم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ معناه: إنهما يجريان على حساب مستقيم لا يختلف فيه لأنه على عدد الشهور والسنين والأوقات، فإن الشمس تقطع الفلك في ثلاثمائة وخمسة وستين[2] يوماً.

والقمر يقطع الفلك في ثمانية وعشرين يوماً، وتستتر في يومين وفي جريها دلالة على التوحيد وقيل معناه: إنهما يحسب بهما الأوقات والآجال ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً لو كان الدَّهر كله ليلاً كيف يحسب أو كله نهاراً كيف يحسب، وتقدر الآية الشمس والقمر يجريان بحسبان قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ معناه: والنجم في السماء والشجر في الأرض يسجدان لله تعالى، وقيل معناه: النبات والشجر يسجدان لله، فإن النجم ما نبت على غير ساق في اللغة كما يقال في كل ما طلع إنه قد نجم، ومن ذلك نجم القرآن ومعنى سجودها سجود ظلالها كقوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا﴾[3] وقيل يسجدان لله على الحقيقة إلا أنا لا نقف على سجودها كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 5: 370.

(2) القرطبي في تفسيره: 17: 153.

(3) سورة النحل: 16 الآية: 48.

وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾[1] قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ معناه: رفع السماء فوق الأرض ليستدل بها على وحدانية الله، وكمال قدرته، وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ قال مجاهد معناه: وأمر بالعدل، وقال قتادة والضحاك يعنى الميزان: الذي يوزن به يتوصل به إلى الأنصاف والانتصاف، ولولا الميزان لتعذر الوصول إلى كثير من الحقوق قال بعضهم: أنزل الله الميزان على هيئته في زمن داود عليه السلام، ولم يكن قبل ذلك، وقال بعضهم: عرف الله الناس ذلك على لسان بعض الأنبياء، وقيل إلهاماً ألهمهم كيف يتخذون الميزان ويزنون به[2]. قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ معناه: لئلا تميلوا وتضلوا وتتجاوزوا الحد في الميزان، وقيل معناه: لئلا تظلموا فتأخذوا الأكثر وتعطوا الأقل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي سووا الميزان بالعدل والإنصاف ولا تنقصوا الميزان وقيل معناه: أقيموا لسان الميزان بالقسط ولا تخونوا من وزنتم له ولا تبخسوا الوزن وكل شيء نقصته فقد أخسرته قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ معناه: والأرض بسطها على الماء لجميع الخلق من الجن والإنس يسكنها الأحياء ويدفن فيها الموتى تدل على وحدانية الله تعالى، وقال الشعبي: الأنام: كل ذي روح ـ قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي في الأرض ألوان الفاكهة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أي ذات الأغطية وهي أوعية الثمر وأكمام النخلة ما غطى ثمرها وثمرها يكون في غلف ما لم تنشق، ومن ذلك يقال للقلنسوة الكمة لأنها تغطي الرأس وقال الحسن: أكمامها ليفها، وقال ابن زيد: أكمامها طلعها قبل أن يتفتق، والحاصل أن كل ما يستر شيئاً فهو كم وكمة، ومنه كم القميص قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢﴾ يريد جميع الحبوب ما يحدث في الأرض من الحنطة والشعير وغيرهما، وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ أي ذو الورق الأخضر الذي يصير تبناً وتقتات به البهائم، وسمي ورق الزرع عصفاً لخفته وعصوف الريح به مع ثبوت الحب في مكانه، وقيل

---

(1) سورة الحج: 22 الآية: 18.

(2) القرطبي في تفسيره: 17: 154 ـ 155.

سمي عصفاً لأن الريح تذهب به في وقت حاجتهم إلى تمييز الحب من التبن[1] وقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ يعني الرزق في قول الأكثرين، وقال الحسن: هو ريحانكم الذي يشم[2]، وقال مقاتل: الريحان هو الرزق بلغة حمير كأنه قال: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ والورق، وقال سعيد بن جبير: الريحان الزرع، وقال الضحاك هو الطعام الذي يخرج في الزرع ويكون في السنبل، وإن الحب المذكور في الآية فهو ما يلقى في الأرض من البذر والريحان هو ما يخلق من الحب في السنبل رزقاً للعباد[3]، وقد يذكر الريحان بمعنى الرزق كما يقول العرب خرجنا نطلب ريحان الله في رزقه، والعصف: هو التبن والريحان هو ثمرته، وعن ابن عباس أن الريحان هو خضرة الزرع قرأ العامة والحبُّ ذو العصف والريحان كله بالرفع عطفاً على الفاكهة والمعنى فيها الحب وفيها الريحان ونصبها كلها ابن عامر على معنى خلق الإنسان وخلق هذه الأشياء، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً والريحان بالكسر[4] عطفاً على العصف كأنه قال: والحب ذو العصف وذو الريحان وهو الرزق الذي يخلق في السنبل فالريحان رزق الناس والعصف رزق الدواب وذكر قوت الناس والأنعام ثم خاطب الجن والإنس لأن ذلك فيما يشتمل على الجن والإنس والمعنى فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑬﴾ وإنما كان الخطاب للجن والإنس لأن ذلك الأنام فيما مضى يشتمل على الجن والإنس والمعنى: فبأي نعمة من نعم ربكما تكذبان من هذه الأشياء المذكورة فإنها كلها مما أنعم الله بها عليكم من دلالته إياكم على توحيده، ومن رزقه إياكم ما به قوامكم وإنما خاطب الجن والإنس لأنهما مشتركان في الوعد والوعيد، وإنما كررت هذه الآية في السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع، وقال الحسين بن الفضل: التكرار لطرده

---

(1) الثعلبي في تفسيره: خ.

(2) الطبري في تفسيره: 13: 160 ـ رقم 25484.

(3) القرطبي في تفسيره: 17: 156 ـ 157.

(4) التبيان في إعراب القرآن: 2: 391. النحاس في إعراب القرآن: 4: 304 ـ 305.

الغفلة وتأكيد الحجة[1]، وقيل لما عدد الله نعمه نعمة نعمة بعد نعمة كرر هذا القول ترغيباً في الشكر وتحذيراً من الكفر والتكذيب بنعم الله هذا على الحقيقة ليس بتكرار لأنه ذكر كل واحدة منها عقيب نعمة لم يحدد ذكرها وعن جابر بن عبد الله قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال: «**ما لي أراكم سكوتاً للجن كانوا أحسن منكم ردّاً ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة** ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿13﴾﴾ **إلا قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد والشكر**»[2]، قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿14﴾﴾ أي خلق أصل الإنس وهو آدم من طين يابس إذا نقر صلَّ أي صوت كالفخار وهو الخزف الذي طبخ بالنار يسمع منه الصوت إذا نقر، وإذا اصطك بعضه ببعض والمعنى من طين يابس كالخزف قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿15﴾﴾ معناه: وخلق أصل الجن وهو الجان أبو الجن من مارج من نار وهو الصافي من لهب النار لا دخان فيه، وقيل: من لهب من نار مختلط بسواد النار قيل إنه لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت، وقال مجاهد: هو ما اختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأسود الذي يعلو النار إذا أوقدت وهو من قولهم: مرج إذا اختلط، وقيل إنها نار لا دخان لها يكون بين السماء الدنيا وبين حجاب دونها فأديم السماء يرى من وراء ذلك الحجاب ومن وراء تلك النار تكون الصواعق[3] قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿17﴾﴾ أي رب مشرق الشمس في الشتاء ومشرقها في الصيف ومغربها في الشتاء ومغربها في الصيف والمعنى هو رب المشرقين ورب المغربين، وقيل معناه: هو رب مشرق الشمس والقمر ورب مغربها.

قال الله تعالى:

﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿19﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿20﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿21﴾ يَخۡرُجُ

---

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 160.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 2: 489 ـ 490 رقم 2493 باب في تعظيم القرآن.

(3) البغوي في معالم التنزيل: 5: 272.

مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ (22) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (23) وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ
كَٱلْأَعْلَـٰمِ (24) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (25) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ
وَٱلْإِكْرَامِ (27) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28) يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى
شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (30) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (32)﴾.

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19)﴾ أي أرسل البحرين العذب والمالح بالإجراء في الأرض ومرجت الدابة إذا أرسلتها ترعى ويجوز أن يكون معنى مرج خلط ومنه المزج لاختلاط أشجاره وقوله تعالى: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي يلاقي أحدهما صاحبه بينهما برزخ لا يبغيان أي بينهما حاجز من قدرة الله تعالى لا يبغي العذب على المالح فيكونان عذباً ولا يبغي المالح على العذب فيكونان ملحاً والمعنى أن الله تعالى ذكر عظيم قدرته حيث جعل البحرين العذب والملح يلتقيان، وجعل بينهما برزخ حاجز من قدرته وحكمته لا يبغي أحدهما على صاحبه فلا الملح يبغي على العذب فيفسده ولا العذب يبغي على الملح فيختلط به، وقيل معنى قوله تعالى: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ لا يطغيان على الناس بالغرق[1] قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ (22)﴾ فيه بيان نعم البحر واللؤلؤ معروف وهو الكبار من جنس اللؤلؤ والمرجان صنفان وإنما يخرجان من الملح دون العذب والعذب كاللقاح للملح إلا أنه قال يخرج منهما لأن ذلك لا يوجد إلا بحيث يكون فيه العذب والملح جميعاً وقيل: المرجان ضرب من الجوهر كالعصيان يخرج من البحر وقال ابن عباس: يخلق الله تعالى اللؤلؤ والمرجان من قطر المطر وذلك أن السماء إذا مطرت فتحت الأصداف أفواهها على وجه الماء في البحر الملح فما وقع من المطر في أفواهها نزل إلى صدرها فانعقد لؤلؤاً[2] وقال السدي المرجان: الخزر الأحمر وعن ابن مسعود أن المرجان حجر وذكر أن نواة كانت في جوف صدفة فأصابت قطرة بعض النواة ولم يصب بعضها فكانت حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة وسائرها نواة وأكثر القراء على يخرج بضم الياء

---

(1) يراجع الثعلبي في تفسيره: خ.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 273.

٩٣

وفتح الراء وهو اختيار أبي عبيد، وأبي حاتم لأنه يخرج ولا يخرج بنفسه، وقرىء يخرج بفتح الياء وضم الراء لأنه إذا أخرج خرج هكذا[1] فإن قيل كيف يخرج منهما وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح قيل هذا جائز في كلام العرب أن تذكر شيئاً لم يخص أحدهما بفعل دون الآخر كقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[2] والرسل من الإنس دون الجن قاله الكلبي وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾[3] وإنما هو في واحدة منها، وقيل يخرج من ماء السماء وماء البحر قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ فيه بيان نعم الله تعالى بالسفن العظام التي ينتفع بها للتجارات وغيرها والمنشئات هي المرفوعات الشراع وما لم يرفع منها شراعها فلا تكون منشأة.

٩٤ وقيل المنشئات هي اللواتي ابتدىء بهن في البحرين والأعلام الجبال العظام شبه السفن بها في البحر كالجبال في البر وقرأ حمزة المنشئات بكسر الشين[4] يعني المبتديات في السير اللاتي أنشأن جريهن وسيرهن قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿26﴾﴾ أي كل من على الأرض يفنى وهذه كناية عن غير مذكور ومعنى الآية: كل من دَبّ ودرج على الأرض من حيوان فهو فانٍ هالك، وفي هذا منع عن الركون إلى الدنيا والاعتزاز بها قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فأنزل الله تعالى ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[5] فأيقنت الملائكة بالهلاك وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿27﴾﴾ معناه: ويبقى ربك والوجه يذكر على وجهين أحدهما بعض الشيء كوجه الإنسان، والآخر يقتضي الشيء المعظم في الذكر كما يقال: هذا وجه الرأي ووجه التدبير، ولما ثبت أن الله تعالى ليس بجسم كان المعنى ويبقى الله الظاهر بأدلته كظهور الإنسان بوجهه قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ أي ذو العظمة والكبرياء

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 619، والكشف عن وجوه القراءات: 2: 301. النحاس في إعراب القرآن: 4: 307، والنشر في القراءات العشر: 2: 380

(2) سورة الأنعام: 6 الآية: 130.

(3) سورة نوح: 71 الآية 16.

(4) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 619 ـ 620.

(5) سورة القصص: 28 الآية: 88.

واستحقاق صفة المدح بإحسانه وإنعامه والإكرام كرامة أنبيائه وأوليائه فهو مكرمهم بلطفه مع جلاله وعظمته وعن معاذ بن جبل قال: مر رسول الله ﷺ برجل يصلي وهو يقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال عليه السلام: «**قد استجيب لك**»، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلِظّوا بياذا الجلال والإكرام**» قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يستغني عنه أهل السماء ولا أهل الأرض قال أبو صالح يسأله من في السماوات الرحمة ويسأله من في الأرض المغفرة والرزق والكل ملحون إليه ويسألونه حوائجهم قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ قال المفسرون: من شأنه أنه يحيى ويميت ويرزق ويعزّ، ويذل ويشفي مريضاً ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنباً، ويكشف كرباً إلى ما لا يحصى من أفعاله وأحداثه وفي خلقه ما يشاء وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ قال من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين[1] وقال: مجاهد: من شأنه أن يجيب دعانا، ويعطي سائلنا، ويشفي سقيمنا، ويغفر ذنوبنا ويتوب على قوم، ويشقي آخرين.

وقيل شأنه: أنه يخرج كل يوم ثلاثة عساكر عسكر من أصلاب الآباء إلى الأرحام، وعسكر من الأرحام إلى الدنيا، وعسكر من الدنيا إلى القبور، ثم يرتحلون جميعاً إلى الله عز وجل، وحكي أن بعض الملوك سأل وزيره عن معنى هذه الآية فاستمهله إلى الغد ورجع الوزير إلى داره كئيباً لم يعرف ما يقول فقال له غلام أسود من غلمانه يا مولاي ما أصابك فرجوه، فقال يا مولاي أخبرني فلعل الله يسهل لك الفرج على يدي فأخبره بذلك فقال له: عد إلى الملك فقل له: إن لي غلاماً أسود إن أذنت له فسر هذه الآية لك ففعل ذلك فدعا الملك الغلام فسأله عن ذلك، فقال: أيها الملك شأن الله تعالى أن يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيماً، ويسقم سليماً، ويبتلي معافاً، ويعافي مبتلاً، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزاً، فقال له الملك: أحسنت يا غلام فرجت علي ثم أمر الوزير فخلع ثياب

---

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 2: 35 رقم 1101 ـ باب في الرجاء من الله تعالى.

الوزارة فكساها الغلام فقال يا مولاي هذا شأن الله تعالى[1]. قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ هذا وعيد من الله للخلق بالمحاسبة كقول القائل لأتفرّغَنَّ لك وما به شُغْلٌ، وهذا قول ابن عباس والضحاك، وقال الزجاج: معناه: سنقصد لحسابكم بعد الترك والإمهال ويأخذ في أمركم ويخرجكم على ما فعلتم بعد طول الإمهال[2] وهذا على وجه التهديد على ما جرت به العادة في استعمال مثل هذا اللفظ كما يقول الرجل ما فرغ لفلان يريد ما جعل مهدى له ولا يريد بذلك الفراغ من سفل هو منه قرّاء أي سنفرغ إليكم، وقرأ الأعمش سيفرغ بالياء وضم الراء، وقرأ الباقون بنون مفتوحة وضم[3] الراء قوله تعالى: أيها الثقلان، الثقلان: الجن والإنس يدل عليه قوله تعالى:

﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿33﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿34﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿35﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿36﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿37﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿38﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿39﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿40﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿41﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿42﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿43﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿44﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿45﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ سميا ثقلين لأنهما ثقل على الأرض أحياءً وأمواتاً قال الله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿2﴾﴾[4]، وقال جعفر الصادق: سمي الجن والإنس ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب[5] قوله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ في هذا بيان ضعف الخلائق عن دفع ما ينزل بهم من قضاء الله وعذابه يقول: إن قدرتم

---

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 167.
(2) معاني القرآن وإعرابه: 5: 99.
(3) ابن مجاهد كتاب السبعة: 620.
(4) سورة الزلزلة: 99 الآية: 2.
(5) البغوي في معالم التنزيل: 5: 275 ـ 276.

على الخروج من نواحي السماوات والأرض فاخرجوا هرباً مما ينزل بكم في الدنيا لا تقدرون أن تخرجوا إلا بسلطان يعطيكم الله من قوة وحجة فحيث ما كنتم شاهدتم سلطان الله تعالى وذلك يدلكم على وحدانيته، وقيل معناه: إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السماوات والأرض فاهربوا واخرجوا منها، والمعنى: إنكم حيث ما كنتم أدرككم الموت ولن تستطيعوا أن تهربوا منه قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي لا تنفذون إلا بملكي حيث كنتم وحيث ما توجهتم فثم ملكي وقدرتي، وأقطار السماوات والأرض: أطرافهما ونواحيهما، وقيل معنى هذه الآية: يأمر الله تعالى الملائكة يوم القيامة أن تحف بأقطار السماوات والأرض، ثم يقال للجن والإنس: إن استطعتم أن تنفذوا من أقطارهما هرباً من الحساب والعقاب فاهربوا قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي يرسل عليكما من استحق منكما بمعاصيه لهب من النار، والشواظ: اللهب الذي لا دخان فيه، وقرأ ابن كثير شواظ بكسر الشين[1]، وهو لغة أهل مكة قال حسان يهجو أمية بن أبي الصلت:

هَجَوْتُك فاخْتَضَعْتَ لَها بِذُلٍّ ∴ بِقافِيَةٍ تأَجَّجُ كالشُّواظِ[2]

قوله تعالى: ﴿وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو ـ ونحاس بالخفض عطفاً على النار وقرأ الباقون بالرفع عطفاً على الشواظ[3]، واختلفوا في معنى النحاس قال ابن عباس: هو الدخان وأكثر القراءة فيه بالرفع عطفاً على شواظ والمعنى: يرسل عليكما شواظ، ويرسل نحاس أي يرسل هذا مرة وهذا مرة، ويجوز أن يرسل معاً من غير أن يمتزج أحدهما بالآخر، وقيل النحاس: هو الصفر المذاب يصب على رؤوسهم، وقال مقاتل: هي خمسة أنهار من صفر مذاب تجري على رؤوس أهل النار.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي فلا تمتنعان عما يراد بكما قوله تعالى:

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 621.

(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ.

(3) النحاس في إعراب القرآن: 4: 310 ـ 311. النشر في القراءات العشر: 2: 381.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ ووجه إنعام الله تعالى علينا في إنزال آيات الوعيد أنه تعالى لما حذرنا من العذاب بأبلغ أسباب التحذير حتى تتقي المعاصي خوفاً من عذابه ويرغب في الطاعات طمعاً في ثوابه كان ذلك نعمة منه علينا فلذلك قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ معناه: إذا انشقت وذابت حتى صارت حمراء كلون الوردة الحمراء وكالدهن الأحمر من حر نار جهنم مع عظم السماء وكبرها فكيف بأبدانكم الضعيفة[1] في ذلك اليوم، وهذا كما روي عن علي رضي الله عنه أنه مرَّ على قوم من الحدادين فقال: أما أنتم يا معشر الحدادين أحق الناس بالاتعاظ والاعتبار أما ترون تأثير هذه النار الضعيفة في هذا الحديد الشديد فكيف تأثير تلك النار العظيمة في هذه الأبدان الضعيفة، ويقال في تشبيه السماء بالوردة أنها تتلون في ذلك اليوم قال الحسن: إن السماء أول ما تتسق تحمر ثم تصفر، ثم تخضر كغرس الورد يكون في الربيع ورده إلى الصفرة فإذا اشتد كان وردة حمراء، فإذا كان الخريف كان وردة غبراء، وشبهها بالدهان المختلطة أي يصب بعضها على بعض والدهن والدهان واحد قال قتادة: إن السماء اليوم خضراء وستكون يوم القيامة حمراء كالدهان[2]، وقيل: الدهان جمع الدهن، قال عطاء يعني عصير الزيت، وقال ابن جريج معناه: تذوب السماء كالدهن المذاب، وذلك حين يصيبها حرُّ نار جهنم قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لا يسألون سؤال استفهام لأن الله تعالى يظهر على كل مجرم علامة تدل على معصيته، وعلى كل مطيع علامة تدل على طاعته لأن الله تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي بعلامتهم من سواد الوجوه وزرقة الأعين فتجعل أقدامهم مضمومة إلى نواصيهم من خلف بالغل ويلقون في النار كذلك والناصية: شعر مقدم الرأس، ويقال للمجرمين عندما يقذفون في النار ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يعني المشركين قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ معناه: يطوفون بين طباق النيران وبين ماء جار قد انتهى حره.

---

(1) الثعلبي في تفسيره ـ خ.

(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 278.

إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم الآني، وإذا استغاثوا من الحميم جعل غياثهم النار فيطاف بهم مرة إلى الحميم ومرة إلى النار[1] يقال: أنى يأنى فهو آن إذا انتهى في النضج والحرارة قال قتادة: طبخ منذ خلق الله السماوات والأرض، حدثنا مردويه الصائغ قال: صلى بنا الإمام صلاة الصبح فقرأ فيها سورة الرحمٰن ومعنا علي بن الفضيل فلما قرأ الإمام ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ خرَّ مغشياً عليه حتى فرغنا من الصلاة فقلنا له بعد ذلك يا علي أما سمعت الإمام يقول: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ قال شغلني عنها ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ معناه: ولمن خاف وقوفه في عرصات القيامة بين يدي الله تعالى فترك المعصية رهبة من الله تعالى له جنتان أي بستانان من الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ترابهما الكافور والعنبر وحصاهما المسك الأذفر كل بستان منهما مسيرة مائة سنة في وسط كل بستان دار من نور قال محمد بن علي الترمذي: جنة داخل قصره لخوفه، وجنة خارج قصره لتركه، وفي الحديث: إن هذه الآية نزلت فيمن دعته نفسه إلى المعصية فإذا تمكن منها، وقدر عليها تذكر ما في ارتكابها من العقاب وما في تركها من الثواب فتركها فله جنتان هذه صفتهما قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ أي ذواتا أغصان واحدها فنن وهو الغصن المستقيم طولاً، وقال الزجاج: الأفنان: الألوان والأصناف أي ذواتا

(1) الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: 5: 102.

ألوان وأصناف من الفواكه لا يعدم فيها لون من ألوانها واحدها فن[1]. وجمع عطاء بين القولين فقال: يريد في كل غصن فنون من الفواكه، وفي ذكر الأغصان بيان كثرة الأشجار وكثرة الأشجار تمام حال البستان فإن البستان لا يكمل إلا بكثرة الأشجار والأشجار لا تحسن إلا بكثرة الأغصان[2] قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿50﴾﴾ أي في البساتين عينان تجريان أحدهما السلسبيل والأخرى التسنيم تجريان في غير شق ولا أخدود قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿52﴾﴾ أي نوعان وصنفان حلو وحامض، وأحمر وأصفر، ورطب ويابس ويقال صنفان: صنف شهدوه في الدنيا، وصنف لم يعهدوه، ولا خطر بقلوبهم قوله تعالى ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ أي جالسين جلسة الملوك مكرمين مجللين على فرش بطائنها من استبرق البطانة: هي الصفحة مما يلي الأرض في مقابلة البطانة والاستبرق: هو الديباج المنسوج بالذهب، وإنما ذكر البطائن من الاستبرق ليعرف أن البطائن إذا كانت هكذا فالظاهر لا شك أنها أشرف منها على ما عليه العادة وقال أبو هريرة: هذه البطائن فما ظنكم بالظواهر[3]، وقيل: لسعيد بن جبير: البطائن من استبرق فما الظواهر؟ قال هذا مما قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[4] وقال ابن عباس: وصف البطائن وترك الظواهر لأنه ليس أحد في الأرض يعرف ما الظواهر قوله تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي ثمرها قريب من متناوله يناله القائم والقاعد والمضطجع يأخذه وكيف ما أراد ويدنو إلى أفواههم حتى يتناولونه بالأفواه. قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي في هاتين الجنتين وما حولهما من الجنان حور غاضات الأعين قد قصرت أطرافهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهن ولا يبغين بهم بدلاً، والطرف: جفن العين، ويجوز أن يكون معنى فيهن قاصرات الطرف أي في الفرش التي بطانها من استبرق، قال ابن زيد: إن المرأة من الحور العين القاصرات

(1) الزجاج نفسه.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 280.
(3) البغوي نفسه.
(4) سورة السجدة: 32 الآية: 17.

الطرف تقول لزوجها: وعزة ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك فالحمد لله الذي جعلني زوجك، وجعلك زوجي[1] قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي لم يقبضهن. والطمث: هو النكاح بالتدمية، وامرأة طامث أي حائض.

والطمث: الجارية إذا افترعتها، والمعنى: لم يطمثهن ولم يجامعهن إنس قبلهم ولا جان لأنهن خلقن في الجنة، وقيل: الطمث هو المس، قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿58﴾﴾ أي كأنهن في صفاء الياقوت، وبياض المرجان، والمرجان: هو صغار اللؤلؤ وهو أشد بياضاً من كباره، وعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «**إنّ المرأة من أهل الجنة ليرى بياض مخ ساقها، من وراء سبعين حلة من حرير**»[2].

قال الله تعالى:

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿60﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿61﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿62﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿63﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿64﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿65﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿66﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿67﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿68﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿69﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿70﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿71﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿72﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿73﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿74﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿75﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿76﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿77﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿78﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿60﴾﴾ أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة، قال ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة[3]، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل: «**هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي**

---

(1) الطبري في تفسيره: 13: 195 رقم: 25636.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 13: 197 رقم 25645.

(3) البغوي في معالم التنزيل: 5: 283.

وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي، وقدسي ورحمتي»[1]، قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ معناه: وله جنتان سوى الجنتين الأولتين، وهما دون الأولتين قال بعضهم: أراد بالجنتين الأولتين جنتين في العلو، وأراد بهذين جنتين في السفل قال ﷺ: «**هما جنتان من فضة لبنيهما وما فيهما من فضة**»، وقيل معناه: ومن دونهما جنتان أي أقرب إلى قصره ومجالسه من الجنتين الأولتين، قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي خضراوان بضرب خضرتهما من الري إلى السواد وذلك أحسن ما يكون في الخضرة، والأدهم: الأسود يقال: ادهامّ الزرع إذا علاه السواد ريّاً.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ فوارتان بالماء من الامتلاء ينضح على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور والخير والبركة بخلاف العينين الأولتين والنضخ أكثر من النضح قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ أي فيهما ألوان الفاكهة، وقوله تعالى: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ يستدل لأبي حنيفة أن النخل والرمان ليسا من الفاكهة لأن الشيء لا يعطف على نفسه[2]، وعند أبي يوسف، ومحمد هما من الفواكه، وإنما عطفهما على الفاكهة لزيادة معنى فيهما لا يوجد في سائر الفواكه[3] كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[4] وروي أن نخيل الجنة عروقها من فضة، وجذوعها من ذهب وسعفها حلل، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزبد ليس فيه عَجَم[5] قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ قرأ أبو رجاء ـ خيرات بالتشديد[6] وهما لغتان مثل: هيّن وليّن وعن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ قال: «**خيرات الأحداق حسان الوجوه**»[7]، وقيل خيرات فاضلات مختارات ليس برزيات ولا ذفرات ولا بخرات ولا متسلطات ولا طماحات ولا طوافات في

---

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 183.
(2) أبو بكر الرازي الجصاص في أحكام القرآن: 3: 415.
(3) القرطبي في تفسيره: 17: 186.
(4) سورة البقرة: 2 الآية: 98.
(5) الطبري في تفسيره: 13: 203 رقم 25676 ـ عن سعيد بن جبير، والعَجَم بالتحريك: النوى.
(6) الثعلبي في تفسيره ـ خ.
(7) ذكره البغوي في معالم التنزيل: 5: 285.

الطرق، قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ الحور: البيض الحسان البياض والمقصورات هن المحجوبات المحبوسات المصونات، والخيام جمع خيمة وهي خيمة من درة مجوفة فيها أربعة آلاف مصراع من ذهب طول الخيمة في السماء ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل لها لا يراهم الآخرون قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ يعني أن صفتهن كصفة القاصرات الطرف، وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ قال أبو عبيدة: الرفرف: البسط[1]، وهو قول الضحاك ومقاتل والحسن، وقال الزجاج: الرفرف هاهنا: رياض الجنة، وقيل الرفرف: الوسائد[2]، وأما العبقري فهو البسط من الزرابي وغيرها، وكل ما بولغ في وصفه فهو عبقري، وأصله أن عبقر بلد كان يوشى فيها البسط وكانت العرب تعتقد أن أفضل البسط ما نسج بعبقر فأضافه الله على عادتهم قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (78)﴾ أي عظمت البركة في اسم ربك فاطلبوا البركة في كل شيء يذكر فيه اسمه، قرأ ابن عامر[3] ذو الجلال والإكرام. خ

---

(1) مجاز القرآن 2: 246.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 5: 105.

(3) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 621.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

قال أبو بكر الحداد:

سورة الواقعة مكية، وهي ألف وسبعمائة وثلاثة أحرف، وثلاثمائة وثمان وسبعون كلمة، وست وتسعون آية، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من قرأ سورة الواقعة لم يكتب من الغافلين**»، وقال ﷺ: «**من قرأ سورة الواقعة كل يوم لم تصبه فاقة**»[1]، وعن مسروق قال: من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ الدنيا والآخرة فليقرأ سورة الواقعة[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ
رَجًّا (4) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (5) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (6) وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (7) فَأَصْحَٰبُ
ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (9) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (10)
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (11) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ (14) عَلَىٰ سُرُرٍ
مَّوْضُونَةٍ (15) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (16)﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (1)﴾ قال ابن عباس معناه: إذا

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره: خ - والزمخشري في تفسيره: 4: 60. والقرطبي في تفسيره: 17: 194.

(2) الثعلبي نفسه - والقرطبي نفسه.

قامت القيامة والواقعة اسم القيامة، وقيل معناه: إذا نزلت صيحة القيامة، وتلك النفخة الأخيرة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ ليس لمجيئها وظهورها كاذبة ولا ردّ ولا خلاف، وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ أي تخفض ناساً وتضع آخرين، وقال عطاء: تخفض أقواماً كانوا في الدنيا مرتفعين، وترفع أقواماً كانوا في الدنيا متضعين وقيل تخفض أقواماً إلى النار وترفع آخرين إلى الجنة[1] قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ أي إذا زلزلت الأرض ورجت وتحركت حركة شديدة حتى ينهدم كل جبل وبناء على وجه الأرض. وقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ أي فتتت فتاً فصارت كالدقيق المبسوس وهو المبلول، والبسيسة عند العرب الدقيق والسويق يلتُ ويتخذ زاداً قيل: إن الجبال تصير يومئذ كالدقيق والسويق وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ أي فصارت غباراً متفرقاً كالذي يسطع من حوافر الدواب، ويجول في شعاع الشمس إذا دخل من الكوة وهو الهباء فيقبض القابض عليه فلا يحصل في يده شيء، وقرأ النخعي منبتاً بالتاء أي منقطعاً[2].

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾ معناه: وصرتم يومئذ أصنافاً ثلاثة ثم فسرهم فقال تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ يعني الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، وقيل: الذين يسلك بهم ذات اليمين إلى الجنة قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ هم أصحاب الشؤم والتكذيب، وقيل هم الذين يعطون كتبهم بشمالهم ويسلك بهم طريق الشمال إلى النار ويقال لليد اليسرى الشؤمى، قال الشاعر:

السم والشر في شؤمى يديك لهم ∴ وفي يمينك ماء المزن والطرب

ومنه الشمال واليمين لأن اليمن على يمين الكعبة، والشام على شمالها إذا دخلت الحجر تحت الميزاب وقيل الذين هم على شمال آدم عليه السلام عند إخراج الذرية، وقال الله تعالى: لهم هؤلاء في النار ولا أبالي، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ وما أصحاب المشأمة تعجيب لشأن أصحاب الميمنة في الخير

(1) ابن عطية في تفسيره: 15: 356.
(2) القرطبي نفسه.

والترغيب في طريقهم كما يقال: فقيه وأي فقيه وتعظيم الشر أصحاب المشأمة، والتحذير عن طريقهم قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ⑩﴾ بيان للصنف الثالث والمعنى: والسابقون في الدنيا إلى الطاعات هم السابقون في العقبى إلى الدرجات وقيل: هم الذين سبقوا إلى توحيد الله والإيمان برسوله، وقال ابن سيرين: هم الذين صلوا إلى القبلتين[1] وشهدوا بدراً ويليه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[2] وقال ابن عباس: هم السابقون إلى الهجرة، وقال علي رضي الله عنه: هم السابقون إلى الصلوات الخمس، وقال سعيد بن جبير: هم المسارعون إلى التوبة وإلى أعمال البر[3]، ونظيره ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[4] وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ⑥①﴾[5] قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي هم المقربون إلى كرم الله، وجزيل ثوابه في إعلاء الدرجات ثم أخبر أين محلهم فقال في جنات النعيم قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ⑬﴾ أي جماعة من أوائل الأمم من صدق بالنبيين من لدن آدم إلى زمان نبينا ﷺ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ⑭﴾ أي من هذه الأمة، وذلك أن الذين عاينوا جميع النبيين وصدقوا بهم أكثر ممن عاين نبينا ﷺ ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ⑭⑦﴾[6] هؤلاء من آمن بجميع الأنبياء وصدقهم، والثلة في اللغة: هي القطعة الكبيرة من الناس والجماعة الذين لا يحصى عددهم.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ أي على سرر منسوجة بقضبان الذهب والفضة والجواهر قد دخل بعضها في بعض كما توصف حلق الدرع بعضها في بعض مضاعفة.

---

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 199.
(2) سورة التوبة: 9 الآية: 100.
(3) البغوي في معالم التنزيل: 5: 288.
(4) سورة الحديد: 57 الآية: 21.
(5) سورة المؤمنون: 23 الآية: 61.
(6) سورة الصافات: 37 الآية: 137.

قال الأعشى:

وَمِـن نَـسْـجِ دَاوُدَ مَـوْضُـونَـة ∴ تُـسَـاقُ إلـى الـحـيِّ عِـيـراً فَـعِـيـرَا[1]

وإنما قال على سرر موضونة لأنها إذا كانت على هذه الصفة كانت أنعم وألين من السرر التي تعمل من الخشب قال الكلبي طول كل سرير ثلاثمائة ذراع فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فإذا جلس عليها ارتفعت[2] وقال الضحاك: موضونة أي مصفوفة يقال: أجر موضون إذا صف بعضه على بعض قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿16﴾﴾ أي جالسين عليها جلسة الملوك للراحة[3] متقابلين يقابل بعضهم بعضاً في الزيادة إذا اشتهى أحدهم حديث صاحبه ألقى الله في بطن الآخر مثل ذلك وأمر كل واحد منهم بسريرة فأخرج على باب منزله ثم جلسا على سريريهما يتحدثان سمع كل واحد منهما يحدث صاحبه وإن بعد عنه فإن شاءوا ساءت بهم سررهم إلى حيث يشاءون.

قال الله تعالى:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿17﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿18﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿19﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿20﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿21﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿22﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿23﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿24﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿25﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿26﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي يطوف عليهم للخدمة غلمان لا يهرمون، ولا يتغيرون ولا يموتون خلقوا للخلود وهم دائمون، ويقال يعني مخلدون مقرطون مسرورون، من الجلدة وهي الحلي يقال جلد جاريته إذا حلاها بالخلد وهي القرطة قوله تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ الأكواب جمع كوب وهي الكسان العظام المدورة الرؤوس التي لا آذان لها ولا خراطيم ولا عرى، والأباريق والأواني التي لها عرى وخراطيم واحدها إبريق وهو الذي برق من صفائه وحسنه وبريق لونه.

---

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 201.

(2) القرطبي نفسه.

(3) البغوي في معالم التنزيل: 5: 288.

قوله تعالى: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ الكأس: الإناء الذي فيه الشراب، والمعين: الخمر التي تجري من العيون الظاهرة لا في الأخدود والمعنى: وكأس من خمر جارية قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿19﴾﴾ أي لا يصيبهم من شربها صداع كما في شرب خمر الدنيا، ولا تنزف عقولهم يقال للرجل إذا سكر نزف عقله، والنزيف هو السكران قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿20﴾﴾ ويؤتون بفاكهة مما يختارون ليس لها قشر ولا نوى ظاهرها مثل باطنها وباطنها مثل ظاهرها قوله تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿21﴾﴾ أي ويؤتون بلحم طير مما يتمنون كما روي في الحديث أنهم: «**إذا اشتهوا لحم طير وقع بينهم مشوياً**»[(1)] فيتناولون منه قدر الحاجة ثم يطير كما كان، وهذا لأن الذبح لا يكون إلا بإراقة الدم وذلك لا يكون في الجنة وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لطيراً فيه سبعون ألف ريشة يجيء فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فيخرج من ريشه لون أبيض من الثلج، وألين من الزبد، وأعذب من الشهد ليس فيه لون يشبه الآخر ثم يطير فيذهب**»[(2)] قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿22﴾﴾ قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وحور بالخفض[(3)] على معنى وينعمون بحور عين، ويجوز أن يكون خفضاً على المجاورة لأنه معطوف على قوله: وفاكهة، ولحم طير، والحور: البيض الحسان والعين: الواسعة الأعين حسانها وقرأ النخعي وأشهب العقيلي: وحوراً عيناً بالنصب على معنى ويزوجون حوراً عيناً وقرأ الباقون بالرفع على معنى ولهم فيها حور عين[(4)] قوله تعالى: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿23﴾﴾ معناه: إن صفاءهن كصفاء الدر حين يخرج من صدفة قبل أن يصيبه ندى وهواء وشمس وغبار وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول

---

(1) ذكره الهيثمي في المجمع: 10: 414.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره: خ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(3) كتاب السبعة في القراءات: 622، والفراء في معاني القرآن: 3: 123، والنحاس في إعراب القرآن: 4: 327.

(4) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ وابن جني في المحتسب: 2: 309 ـ والتبيان في إعراب القرآن: 2: 396.

الله ﷺ: «**خلق الحور العين من العصفران**»[1] وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يدخل الجنة إلا وهو يزوج ثنتين وسبعين زوجة ليس منهن امرأة إلا لها قبل شهى، وله ذكر لا ينثني**». وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سطع نور في الجنة**»، فقالوا: ما هذا؟ قالوا: «**ضوء ثغر حور ابتسمت في وجه زوجها**»، ويروى أن الحور إذا مشت سمع تقديس الخلاخل من ساقها، وتمجيد الأساور في ساعديها، وإن عقد الياقوت يضحك في نحرها وفي رجليها نعلان من ذهب شراكها من اللؤلؤ يسيران بالتسبيح والتحميد.

قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فيه بيان أن هذه الأشياء جزاء لهم على أعمالهم الصالحة التي كانوا يعملونها في الدنيا وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿25﴾﴾ أي لا يسمعون في الجنة إلا قولاً لا يسلمون فيه من اللغو والتأثيم، واللغو: الكلام الذي لا فائدة فيه والتأثيم أن يؤثم بعضهم بعضاً ولا يتكلمون بما فيه إثم قوله تعالى: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿26﴾﴾ أي لكن يقولون قيلاً سلاماً ويسمعون قيلاً سلاماً يسلمون فيه من اللغو والإثم قال عطاء: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام على أحسن الآداب وكريم الأخلاق[2] مع كمال النعيم وتقول لهم الملائكة يمنعكم الله تعالى من المكاره وهذا كله نعت السابقين ثم ذكر الصنف الثاني فقال:

قال الله تعالى:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿27﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿28﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿29﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿30﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿31﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿32﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿33﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿34﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿35﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿36﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿37﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿38﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿39﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿40﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿41﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿42﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿43﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿44﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿45﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿46﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿47﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 13: 231 رقم 25809.

(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 290.

ٱلْأَوَّلُونَ ﴿48﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿49﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿50﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿27﴾﴾ وهم عامة المؤمنين دون النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ما ندري ما لهم يا محمد في الجنة من النعيم والسرور قوله تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿28﴾﴾ السدر شجر مثمر مرتفع المنظر طيب الرائحة والمعنى في ظلال سدر قد نزع شوكه وكبر حمله، والخضد عطف العود اللين، ولذلك قيل: لا شوك فيه، والمخضود: منزوع الشوك قد خضد شوكه أي قطع ومنه الحديث: «**لا يحصد شوكها ولا يعضد شجرها**»، وقال مجاهد والضحاك ومقاتل معنى قوله مخضود أي موقر حملاً[1]، ويقال: إن السدر شجر النبق إلا أن ثمرة تلك الشجرة في الآخرة لا تكون مثل ثمرة شجر النبق في الدنيا ولا رائحتها تشبه رائحتها.

قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿29﴾﴾ الطلح: شجر الموز، وقوله: منضود أي متراكب الموز على أغصانها من أولها إلى آخرها فليس لها سوق بارزة، وقال الحسن: الطلح شجر له ظل بارد طيب[2] وقرأ علي رضي الله عنه وطلح منضود بالعين[3] أي محل متراكب الركب على أغصانها كما في قوله تعالى: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[4] قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿30﴾﴾ أي لا تنسخه الشمس قال الربيع يعني: ظل العرش قال عمرو بن ميمون مسيرة سبعين ألف سنة[5]، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ولا يقطعها اقرأوا إن شئتم**[6]: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿30﴾﴾» قوله تعالى: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿31﴾﴾ أي ماء مصبوب عليهم من ساق العرش في أوعيتهم يشربوه على ما يرون من حسنه وصفائه وطيب رائحته، وقيل معناه: وماء مصبوب يجري دائماً

(1) الطبري في تفسيره: 13: 234.
(2) البغوي في معالم التنزيل: 5: 290 ـ 291.
(3) البغوي نفسه.
(4) سورة ق: 50 الآية: 10.
(5) الطبري في تفسيره: 13: 237 رقم 25835.
(6) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 9: 615 رقم: 4881 كتاب التفسير.

في غير أخدود لا ينقطع. قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي وأنواع فاكهة كثيرة لا تنقطع عنهم في وقت من الأوقات بخلاف فواكه الدنيا، ولا تكون ممنوعة ببعد متناول وشوك يؤذي بخلاف ما يكون في الدنيا، وقيل: لا مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان ولا تنقطع ثمرها إذا جنيت بل يخرج مكانها مثلها قال ﷺ: «**ما قطعت ثمرة من ثمار الجنة إلا أنزل الله مكانها ضعفين**» قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿34﴾﴾ قال ﷺ: «**ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام موضوعة بعضها فوق بعض إذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس، ثم ترتفع في الهواء**»، وقال علي رضي الله عنه: مرفوعة على الأسرة، وقيل: إنه أراد بالفرش هاهنا النساء مرتفعات القدر في عقولهن وجسمهن وكمالهن رفعن بالحسن والجمال والفضل على سائر نساء الدنيا ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿35﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿36﴾﴾ وقد سمى المرأة فراشاً ولباساً قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿35﴾﴾ أي خلقناهن لأوليائنا بلا ولادة ولا تنزيه بخلاف نساء الدنيا، وقيل المراد بهذه الآية نساء أهل الدنيا يخلقهن خلقاً بعد خلق كما روي[1] في بعض الأحاديث.

إنهن عجائز كن في الدنيا جعلن صبايا ولم يلبسن من الحسن والجمال أكثر مما يلبسن الحور العين لأنهن عملن في الدنيا والحور لم يعملن قوله تعالى: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ العرب جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها اللاعبة معه انسابة ومحبة له قال المبرد: هي العاشقة لزوجها حسنة التبعل لذيذة الكلام قوله تعالى: ﴿أَتْرَابًا﴾ أي مستويات في السن على ميلاد واحد كلهن في سن ثلاث وثلاثين سنة سنهن مثل سن[2] أزواجهن ومثل هذا يكون أبلغ في اللذة وقوله تعالى: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿38﴾﴾ أي جميع هذا الذي ذكرناه لأصحاب اليمين، وقيل

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 13: 242 رقم: 25853 عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت: قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ قال: هن اللواتي قبضن في الدنيا عجائز رُمْعاً شمطا خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى. ورقم 25875 عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿37﴾﴾ قال: عُرُباً متعشقات متحببات، أتراباً على ميلادٍ واحدٍ.

(2) القرطبي في تفسيره: 17: 211.

معناه: أنشأناهن إنشاء لأصحاب اليمين قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي جماعة من أوائل الأمم، وجماعة من أمة نبينا ﷺ، وروي أنه لما أنزل الله تعالى ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿13﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿14﴾﴾ بكى عمر رضي الله عنه، وقال: يا نبي الله، ومن ينجو من قليل فأنزل الله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿13﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿40﴾﴾ فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، وقال: «**قد أنزل الله فيما قلت فجعل ثلة من الأولين وثلة من الآخرين**»، فقال عمر: رضينا عن ربنا وتصديق نبينا، فقال ﷺ: «**من آدم إلينا ثلة، ومني إلى يوم القيامة ثلة**»[1] وقال مجاهد والضحاك: الثلتان جميعا من هذه الأمة قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿41﴾﴾ يعني الذين يعطون كتبهم بشمائلهم ما تدري يا محمد ما لهم من الهواء في العذاب من حر نار جهنم وريح حارة تدخل في مسامهم وهو قوله تعالى: في سموم وحميم أي في حر النار وماء حار وظل من يحموم أي من دخان شديد السواد لا كبير ظل الدنيا لأنه ظل دخان جهنم، وقال ابن زيد اليحموم: جعل في جهنم قوله تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿44﴾﴾ أي لا بارد المدخل، ولا كريم المنظر، وقيل: لا بارد المنزل ولا حسن المنظر قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿45﴾﴾ فيه بيان سبب العقوبة معناه: إنهم كانوا في الدنيا منعمين متكبرين في ترك أمر الله وكانوا ممتعين من الواجب الذي عليهم طلباً للترفه ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿46﴾﴾ أي وكانوا يقيمون على الشرك بالله تعالى، وسمي الشرك حنثاً لأنهم كانوا يحلفون أن الله تعالى لا يبعث من يموت والحنث: الإثم.

وقال الشعبي: الحنث العظيم اليمين الغموس[2]، وهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون وكذبوا في ذلك ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿47﴾﴾ بيان إنكارهم للبعث وقوله تعالى: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ هذا القول منهم زيادة استبعاد واستكبار يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد إن آباءكم ومن قبلهم، وأنتم ومن بعدكم لمجموعون في قبورهم إلى يوم القيامة.

---

(1) الواحدي في أسباب النزول: 340. البغوي في معالم التنزيل: 5: 294.

(2) القرطبي في تفسيره: 17: 213.

قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (52) فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا
ٱلْبُطُونَ (53) فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ (54) فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ (55) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ (56) نَحْنُ
خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (58) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (59) نَحْنُ
قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا
تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62) أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (63) ءَأَنتُمْ
تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (64) لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66)
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67)﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (52) فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (53)﴾ وذلك أن الله تعالى يلقي عليهم الجموع حتى يضطرهم ذلك إلى أكل الزقوم فيأكلون منه حتى تمتلىء بطونهم ثم يلقي عليهم العطش فيضطرهم ذلك إلى شرب الحميم فيشربون منه شرب الإبل العطاش التي بها الهيام لا تروى وواحد الهيم أهيم والأنثى هيماء ويقال: الهيم في الرمال التي لا يرويها السماء مأخوذ من قولهم كثيب أهيم وكثبان هيم قرأ نافع وعاصم وحمزة شرب بضم الشين، وقرأ الباقون بفتحها[1]، والمعنى فيهما واحد مثل: ضَعْف وضُعْف قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ (56)﴾ أي هذا غذاؤهم وشرابهم يوم الجزاء وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أيها الكفار ولم تكونوا شيئاً فلولا تصدقون أي هلا تصدقون بالبعث اعتباراً بالخلقة الأولى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (58) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (59)﴾ معناه أخبروني يا أهل مكة ما تقذفون من المني وتصبونه في أرحام النساء أنتم تخلقونه ولداً أم نحن نخلقه ونجعله بشراً سوياً.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي نحن كتبناه عليكم وسوينا فيه بين أهل السماء والأرض على مقادير آجالهم في مكان معلوم وفي زمان معلوم فمنكم من يموت صغيراً ومنكم من يموت كبيراً، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي وما نحن بمغلوبين عاجزين على أن نبدل غيركم أطوع وأخشع

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 623. النحاس في إعراب القرآن: 4: 335.

منكم وعلى أن ننشئكم في موضع لا تعلمونه وهو النار، وقيل في صورة لا تعلمونها من سواد الوجوه زرقة الأعين ولو أردنا أن نجعل منكم القردة والخنازير لم نسبق ولا فاتنا ذلك قرأ ابن كثير نحن قدرنا مخففاً[1] وهما لغتان وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي قد علمتم الحلقة الأولى ولم تكونوا شيئاً فخلقناكم من نطفة وعلقة ومضغة فهلا تذكرون أني قادر على إعادتكم كما قدرت على إبدائكم قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿63﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿64﴾﴾ معناه: أخبرونا ما تلقون من البذر في الأرض أأنتم تنبتونه وتجعلونه زرعاً أم نحن الفاعلون. قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أي يابساً متكسراً بعد خضرته لا حب فيه. فأبطلناه ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي فصرتم تعجبون مما نزل بكم في زرعكم وتندمون على ما أنفقتم فيه وتحملتم فيه من المشقة وتقولون إنا لمغرمون أي لحقنا غرم عظيم في هذا الزرع وغرمنا الحب الذي بذرناه فذهب علينا بغير عوض بل نحن محرومون أي ممنوعون من الرزق منه والأصل ظللتم فحذفت اللام الأولى والتفكه من الأضداد يقال تفكه أي تنعم وتفكه أي تحزن.

قال الله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿68﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿69﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿70﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿71﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿72﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿73﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿74﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿75﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿76﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿77﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿78﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿79﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿80﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿81﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي من السحاب أم نحن المنزلون عليكم منه لو نشاء جعلناه أجاجاً أي مُرّاً شديد المرارة محرقاً للحلق والكبد لا يمكن شربه والانتفاع به فهلا تشكرون عذوبته، وقيل الأجاج شديد الملوحة مع المرارة.

(1) كتاب السبعة في القراءات: 623. إعراب القراءات السبع وعللها: 2: 347.

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ يعني التي يظهرونها بالزناد من الأعواد ومعنى: تورون تقدحون وتستخرجون من زندكم يقال: أوريت النار إذا قدحتها قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ أي أنها شجرة النار ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ لها في الأرض جعلناها خضراء وفيها النار قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً﴾ أي نحن جعلنا النار موعظة ليتعظ بها المؤمن وقيل جعلناها تذكرة للنار الكبرى إذا رآها الرائي ذكر جهنم فذكرها الله تعالى، واستجار به منها وترك المعصية قوله تعالى: ﴿وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي وجعلناها منفعة للمسافرين الذين ينزلون بالأرض التي بالمفاوز يقال أقوى الرجل إذا نزل الأرض القوي وهي الخالية القفراء ويقال أرض قفر قال الراجز:

قـي بـنـاصـيـتـهـا بـلادي

وألقي والقوا هي الأرض القفراء العمران، يقال أقوت الأرض من ساكنها.

قال النابغة:

أقوت وطال عليها سالف الأمد[1]

ومنفعة المسافرين بالنار أكثر من منفعة المقيمين لأنهم يوقدونها ليلاً لتهرب منها السباع، ويهتدي بها الضال من الطريق ويستضيئوا بها في الظلمة ويصطلوا بها من البرد ويطبخوا بها ويخبزوا وضرر فقدها عليهم أشد وقد يقال للذي يقدر زاده المقوي من أقوت الدار إذا خلت، ويقال للفقير مقو لخلوه من المال والمعنى مقو لقوته على ما يريد فعلى هذا المقوي من الأضداد والمغنى متاعاً للغني والفقير وذلك أنه لا غنى لأحد عنها ولما ذكر الله سبحانه ما يدل على توحيده وما أنعم به قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ أي برىء الله مما يقول الظالمون في وصفه وتنزهه عن ما لا يليق به، وفي الحديث لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: **«اجعلوها في ركوعكم»**، قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ معناه: فأقسم وإنما دخلت «لا» زائدة للتوكيد، ويجوز أن يكون قوله: فلا راد لما يقوله

---

(1) عجز البيت وصدره: يا دارَ مَيَّةَ بالْعَلْياءِ فالسَّنَدِ.

الكفار في القرآن أنه سحر أو شعر أو كهانة ثم استأنف القسم على أنه قرآن كريم في كتاب مكنون. ومعنى قوله: بمواقع النجوم نجوم القرآن التي كانت تنزل على رسول الله ﷺ متفرقاً قطعاً نجماً، وقيل يعني مغارب النجوم ومساقطها، وقرأ حمزة والكسائي بموقع[1] على المصدر والمصدر يصلح للواحد والجمع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ قال الزجاج: هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم: نزول القرآن[2]، والضمير في أنه يعود على القسم، ودل عليه أقسم، والمعنى: أن القسم بمواقع النجوم عظيم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ هذا جواب القسم، ومعناه: كثير الخير دال على أنه من عند الله لأنه لا يأتي أحد بمثله، والكتاب المكنون هاهنا هو اللوح المحفوظ مصون عن التغيير والتبديل والزيادة والنقصان، قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ قال بعضهم الضمير يعود على الكتاب المكنون معناه: لا يمس اللوح المحفوظ إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة، وقال بعضهم: الضمير يعود إلى القرآن، والمراد به المصحف لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث والجنابات والحيض كما روي عن النبي ﷺ: «**لا يمس القرآن إلا طاهر**»[3]، وقيل معنى الآية لا يعمل به إلا الموفقون، وقيل لا يجد حلاوته إلا المفسرون وقيل معناه لا يقرأه إلا الموحدون المطهرون من الشرك، وكان ابن عباس ينهى أن يمكن اليهود والنصارى من قراءة القرآن، وقيل معناه: لا يجد لذته ونفعه إلا من آمن به، وقيل: لا يوفق للعمل به إلا السعداء فظاهر الآية أنه لا يجوز للمحدث مس المصحف والآية وإن كان ظاهرها نفي فمعناها النهي أي لا يمس المصحف إلا المطهرون من الأحداث، وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء وذهب الحكم، وداود بن علي إلى أنه يجوز للمحدث مس المصحف إذا كان مسلماً ولا يجوز ذلك للمشرك، والدليل على أنه لا يجوز للمحدث مسه قوله ﷺ: «**لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر**» وعليه إجماع الصحابة، وسئل علي رضي الله عنه أيمس المحدث المصحف؟ قال: لا، قوله

(1) كتاب السبعة في القراءات: 624.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 5: 110.

(3) ذكره الهيثمي في المجمع: 1: 276، وذكره الألباني في صحيح الجامع رقم 7780.

تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (81)﴾ معناه: أفبهذا القرآن الذي يقرأ عليكم يا أهل مكة أنتم تكفرون وتكذبون، والمدهن المداهن الكتاب المنافق، وقيل معنى مدهنون تظهرون خلاف ما تضمرون مأخوذ من الدهن ومداهنة العدو وملاينته ومصانعته وإظهار مسالمته بخلاف ما يضمر له.

قال الله تعالى:

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82) فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (83) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (87) فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (90) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (91) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (96)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82)﴾ أي وتجعلون شكركم أنكم تكذبون بنعمة الله عليكم فيقولون شفينا بنوء كذا وذلك أنهم كانوا يقولون مطرنا بنوء كذا ولا ينسبون السقيا إلا لله تعالى فقيل لهم وتجعلون رزقكم التكذيب أي تجعلون بدل شكركم تكذيبكم بأنه من عند الله الرزاق، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لو حبس الله تعالى عن أمتي المطر سبع سنين، ثم أنزل عليهم الماء لأصبح طائفة منهم يقولون سقينا بنوء كذا وكذا**»(1)، وروي أن النبي ﷺ خرج في سفر فنزلوا فأصابهم العطش، وليس معهم ماء فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**أرأيتم إني دعوت لكم فسقيتم، فلعلكم أن تقولوا سقينا هذا المطر بنوء كذا**»، فقالوا يا رسول الله: ما هذا بحين الأنواء، قال: فصلى ركعتين ودعا ربه عز وجل فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمطروا حتى سالت الأودية وملأوا الأسقية فركب رسول الله ﷺ، فمر برجل يغرف بقدح له، وهو يقول: سقينا بنوء كذا ولم يقل هذا من رزق الله فأنزل الله هذه الآية(2)

---

(1) أخرجه أحمد في المسند: 1: 131.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 13: 271 - والثعلبي في تفسيره - خ. والواحدي في أسباب النزول: 341.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿82﴾﴾ أي تجعلون شكركم لله تعالى على رزقه إياكم أنكم تكذبون بنعمته، وتقولون سقينا بنوء كذا وعن معاوية الليثي أن رسول الله ﷺ قال: **«يصبح الناس مجدبين فيأتيهم الله برزق من عنده فيصبحون مشركين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا»** قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿83﴾﴾ معناه: فهلا إذا بلغت النفس الحلقوم عند الموت، وأنتم حينئذ يا أهل البيت تنظرون حال الميت، وأنتم حوله ترون نفسه تخرج ولا تقدرون على ردها.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي ورسلنا أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرونهم يعني ملك الموت وأعوانه والمعنى ورسلنا القابضون روحه أقرب إليه منكم، ويجوز أن يكون معناه ونحن أقرب إليه منكم بالعلم والقدرة لأنا نراه من غيرنا مسافة بيننا وبينه وأنتم لا تبصرونه إلا بمسافة قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي فهلا إن كنتم غير محرمين ومحاسبين كما تزعمون من دون نفس هذا الميت إلى جسده إذا بلغت تراقيه إن كنتم صادقين في ظنكم أن لكم شيئاً من القدرة يعجزكم عن ردِّ هذه الروح إلى الجسد دليل على أنكم مقهورون عاجزون والمعنى إن كان الأمر كما تقولون أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء ولا إلٰه يحاسب ويجازي فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم وإذا لم تقدروا على ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله عز وجلّ قوله تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ جواب عن قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿83﴾﴾ وعن قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿86﴾﴾ أجبنا بجواب واحد[1] قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ أُقْسِمُ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ معناه: فأما إن كان هذا المحتضر الذي بلغت نفسه الحلقوم من السابقين المقربين عند الله فله روح وهو الروح والاستراحة، وقال مجاهد: الروح الفرح والريحان هو الرزق في الجنة[2] قرأ الحسن وقتادة ويعقوب فروح بضم الراء ومعناه: الحياة الدائمة التي لا مَوت فيها، ويقال: إن الروح بنصب الراء[3] نسيم تستريح إليه النفس والريحان هو المشموم قال أبو العالية: يؤتى بعض من ريحان الجنة فيشمه قبل أن يفارق

---

(1) التبيان في إعراب القرآن: 2: 398.

(2) الطبري في تفسيره: 13: 275.

(3) الطبري نفسه، والنحاس في إعراب القرآن: 4: 346.

الدنيا ثم تقبض روحه، وقال أبو بكر الوراق: الروح النجاة من النار، والريحان دخول دار القرار[1]، وقال الترمذي الروح الراحة في القبر، والريحان دخول الجنة، وقال بسطام الروح السلامة، والريحان الكرامة، وقال شعبة الروح معانقة الأبكار، والريحان مرافقة الأبرار وقيل الروح كشف الكروب، والريحان غفران الذنوب، وقيل: الروح تخفيف الحساب والريحان تضعيف الثواب، وقيل الروح عفو بلا عقاب، والريحان رزق بلا حساب، وقيل الروح لأرواحهم والريحان لقلوبهم، وجنة النعيم لأبدانهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ معناه: وأما إن كان هذا المتوفى من أصحاب اليمين يعني من عامة المؤمنين دون الصديقين والسابقين فسلام لك أيها الإنسان الذي من أصحاب اليمين من عذاب الله، وسلمت عليك ملائكة الله، وسلمت مما تكره لأنك من أصحاب اليمين، وترى في الجنة ما تحب من السلامة، قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ رفع على معنى لك سلام أي سلامة من العذاب، وقيل معناه: فسلام عليك من أصحاب اليمين قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي وأما إن كان هذا المتوفى من المكذبين بالبعث وبالرسل الضالين عن الهدى والحق فالذي يعد له حميم جهنم وتصلية جحيم أي إدخال نار عظيمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ يعني ما ذكر من قصة المحتضرين وجميع ما سبق ذكره في هذه السورة اليقين حق اليقين والمعنى هو حق اليقين لا شك فيه قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ أي نزه الله عن السوء والباء زائدة والاسم بمعنى الذات كأنه قيل فسبح ربك.

---

(1) البغوي في معالم التنزيل: 5: 304.

سُورَةُ الحَدِيدِ

سورة الحديد مدنية، وهي ألفان وأربعمائة وستة وسبعون حرفاً، وخمسمائة وأربع وأربعون كلمة، وتسع وعشرون آية، قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسوله»**[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (1) لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (2) هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ
شَيۡءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ
مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا
كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (4) لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (5) يُولِجُ
ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (6)﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي خضع وصلى لله ما في السماوات من الملائكة وما في الأرض من الخلق، ونزهوه عن السوء والأنداد وهو العزيز الحكيم في ملكه وسلطانه الحكيم في أمره وقضائه.

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ. وذكره الزمخشري في تفسيره: 4: 69.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له خزائن السماوات والأرض من المطر والنبات وغير ذلك يحيي للبعث ويميت عند انقضاء الآجال وهو على كل شيء من الإحياء والإماتة قادر قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ أي هو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء لم يزل قديماً قبل كل شيء وهو الدائم الباقي بعد فناء كل شيء وهو الظاهر الغالب على كل شيء وهو القاهر ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾[1] أي غالبين ويقال ظهر الأمير على بلد كذا إذا غلب عليها وهو الباطن الذي لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس، وقيل معناه: هو الظاهر بأدلته العالم بما بطن من أمور خلقه، وقيل الباطن المتحجب عن الأبصار وهو بكل شيء من الظاهر والباطن عليم، قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد تقدم تفسيره، قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما يدخل فيها فيستتر كما يعلم ما يخرج منها فيظهر ويعلم ما ينزل من السماء من ملك ورزق ومطر، وما يقصد إليها من الملائكة وأعمال العباد وهو معكم أين ما كنتم أي وهو أعلم بأقوالكم وأفعالكم وعزائمكم في أي موضع كنتم فليس يخلو أحد من علم الله وقدرته أينما كان في أرض أو في سماء أو في بر أو في بحر ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وما بعد هذا ظاهر المعنى.

قال الله تعالى:

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (8) هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (9) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10)﴾.

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي صدقوا بالله بأنه خالقكم وإلٰهكم وصدقوا برسوله إنه صادق فيما يؤديه إليكم وأنفقوا في الجهاد وعلى الضعفاء

(1) سورة الصف: 61 الآية: 14.

وغير ذلك من سبيل الخير من الأموال التي جعلكم الله تعالى مستخلفين فيها بأن ورثكموها ممن كان قبلكم.

ويقال: إن الأموال التي في الدنيا لا تخلو إما أن تكون قد صارت إلينا من غيرنا فنحن خلفاؤهم فيها أو تصير منا إلى غيرنا فنحن خلفاؤهم في حفظها لهم قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي لهم ثواب عظيم في الآخرة قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ هذا استفهام إنكار معناه: أي شيء لكم من الثواب في الآخرة إذا لم تؤمنوا بالله بعد قيام الحجة عليكم على وحدانية الله وتمام علمه وكمال ملكه، وأي عذر يمنعكم عن الإيمان بالله تعالى والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم في ظهر آدم بأن الله ربكم لا إله إلا هو فلا معبود سواه، وقيل معنى أخذ ميثاقكم ركب فيكم العقول وأقام الحجج والدلائل التي تدعوا إلى متابعة الرسول ﷺ قرأ العامة أخذ بفتح الهمزة وفتح القاف، وقرأ أبو عمرو بضمهما[1] على ما لم يسم فاعله وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: إن كنتم مصدقين كما تزعمون قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ معناه: هو الذي ينزل على عبده محمد ﷺ آيات بينات يعني القرآن ليخرجكم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حين بعث الرسول ونصب الأدلة قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ معناه: أي شيء لكم في ترك الإنفاق في نصرة الإسلام، ومواساة الفقراء وأنتم ميتون تاركون أموالكم والله سبحانه يرثكم ويرث ما في السماوات والأرض بجيت من فيها ويرث ما عليها قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ معناه: لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل العدو من قبل فتح مكة مع من أنفق من بعد وقاتل. قال الكلبي: نزلت هذه الآية[2] في أبي بكر الصديق رضي الله عنه قيل على هذا إنه كان أول من أنفق المال على رسول الله ﷺ، وأول من قاتل في الإسلام قال ابن مسعود: أول من

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 625.

(2) الواحدي في أسباب النزول: 342، القرطبي في تفسيره: 17: 240.

أظهر إسلامه بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق، وقد شهد له النبي ﷺ بأنه أنفق ماله قبل الفتح.

قال العلاء بن عمرو بينا النبي ﷺ جالس وعنده أبو بكر، وعليه عباءة قد ظلّلها على صدره بخلال إذ نزل عليه جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد مالي أرى أبا بكر عليه عباءة فقال: «**يا جبريل إنه أنفق ماله قبل الفتح علي**» قال: فاقرئه من الله السلام وقل له: يقول لك ربك أراضٍ أنت عليَّ في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال ﷺ: «**يا أبا بكر هذا جبريل يقرئك من الله السلام، ويقول لك ربك أراضٍ أنت عني في فقرك أم ساخط؟**» فبكى أبو بكر رضي الله عنه، وقال: أعلى ربي أغضب أنا عن ربي راضٍ أنا عن ربي راضٍ، وفي هذه الآية دلالة واضحة وحجة بينة على فضل أبي بكر وتقديمه على سائر الصحابة[1] كما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: لا أوتى برجل فضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري[2]، قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ معناه: أولئك أعظم ثواباً وأفضل درجة عند الله من الذين أنفقوا من بعد فتح مكة، وقاتلوا بعده، وإنما فضل الله المنفقين والمقاتلين من قبل الفتح لأن الإنفاق والقتال في ذلك الوقت كان أشد على النفس وكانت الحاجة إليها أمس لقلب المسلمين وضعفهم وكثرة الكفار وشوكتهم مع شدة المحنة للمسلمين ثم بين الله تعالى أن لكلا الفريقين الحسنى وهو الحسنة إلا أنهم متفاوتون في الدرجات، وقال تعالى: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي وكلا الفريقين وعد الله الحسنى، وقرأ ابن عامر وكل بالرفع[3] على الاستئناف على لغة من يقول ويد ضربت وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي عالم بما يعمله كل واحد منهم.

قال الله تعالى:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 240. البغوي في معالم التنزيل: 5: 309.
(2) القرطبي نفسه.
(3) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 625. والكشف عن وجوه القراءات وعللها: 2: 307.

خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ قد تقدم تفسيره في البقرة قال أهل العلم: القرض الحسن: أن يكون من حلال لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب، وأن يكون من أحسن ما يملك دون أن يقصد الردىء لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[1] وأن يتصدق وهو محب المال ويرجو الحياة لأن النبي ﷺ سئل عن أفضل الصدقات فقال: «**أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا، ولفلان كذا**»[2]، وأن يضع الصدقة في الأحوج الأولى، وأن يكتم الصدقة ما أمكن لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[3] وأن لا يتبع الصدقة المن والأذى لقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[4] وأن يقصد بها وجه الله تعالى، ولا يرائى بها، وأن يستحقر ما يعطي وإن كثر لأن الدنيا كلها قليلة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[5] وأن يكون من أحب ماله إليه، قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[6] فهذه تسعة أوصاف إذا استكملتها الصدقة كانت قرضاً حسناً قوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ فيه قراءتان من قرأه بالرفع فعلى العطف على يقرضوا، وعلى الاستئناف على معنى فهو يضاعفه، ومن قرأه بنصب الفاء فعلى جواب الاستفهام بالفاء[7] وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ الأجر

١٠٢

(1) سورة البقرة: 2 الآية: 267.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 7: 121، والبيهقي في الشعب: 3: 255 رقم 3469.

(3) سورة البقرة: 2 الآية: 271.

(4) سورة البقرة: 2 الآية: 264.

(5) سورة النساء: 4 الآية: 77.

(6) سورة آل عمران: 3 الآية: 92.

(7) كتاب السبعة في القراءات: 625، والنحاس في إعراب القرآن: 4: 355 والفراء في معاني القرآن: 3: 132.

الكريم الذي يقع به النفع العظيم وهو الجنة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ اذكر يوم تراهم، ويجوز أن يكون انتصاب اليوم على معنى ولله أجر كريم في يوم يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم على الصراط يوم القيامة وهو دليلهم إلى الجنة، وأراد بالنور القرآن، وقيل نور الإيمان والطاعة يظهر لهم فيمشون فيه قال ابن مسعود: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتي نوره مثل الجبل، ومنهم من يؤتي نوره كالنخلة ومنهم من يؤتي نوره كالرجل القائم وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه يطفي مرة ويوقد أخرى[1]، وقال قتادة: المؤمن يضيء نوره كما بين عدن إلى صنعاء ودون ذلك حتى إن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه[2] قوله تعالى: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ قال الضحاك ومقاتل: وبأيمانهم كتبهم التي أعطوها فكتبهم بأيمانهم ونورهم بين أيديهم[3].

وتقول لهم الملائكة بشراكم اليوم ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يعني أنهار اللبن والخمر والعسل والماء ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي احذروا يوم يقول المنافقين تغشاهم ظلمة حتى لا يكادون يبصرون مواضيع أقدامهم فينادون المؤمنين انتظرونا نقتبس من نوركم وقرأ حمزة أنظرونا بقطع الألف، وكسر الظاء أي أمهلونا[4] وقال الزجاج معناه: انتظرونا[5] أيضاً قال عمرو بن كلثوم:

١٠٤

أَبَـا هِـنْـدٍ فَـلا تَـعْـجَـلْ عَـلَـيْـنَـا ∴ وَأَنْـظِـرْنَـا نُـخـبِـرْكَ الْـيَـقِـيـنَـا[6]

(1) القرطبي في تفسيره: 17: 244.
(2) القرطبي نفسه.
(3) البغوي في معالم التنزيل 5: 310.
(4) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 625.
(5) معاني القرآن وإعرابه: 5: 124.
(6) هذا البيت من معلقة «عمرو بن كلثوم التغلبي» يراجع في شرحي الزوزني، والتبريزي، خاطب الشاعر «عمرو بن هند» ملك الحيرة وناداه بكنيته، وهو من شواهد الفراء في معاني القرآن: 3: 133، وأورده ابن منظور في اللسان: (نظر).

وقال المفسرون: إذا كان يوم القيامة أعطى الله المؤمنين نوراً على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط المستقيم، وأعطى الله المنافقين نوراً كذلك خديعة لهم فبينا هم يمشون كذلك إذ بعث الله ريحاً وظلمة فانطفأ نور المنافقين فعند ذلك يقول المؤمنون أتمم لنا نورنا مخافة أن يسلبوا كما يسلب المنافقون، ويقول المنافقون حينئذ للمؤمنين أنظرونا نقتبس من نوركم فيقولون لهم لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا وارجعوا وراءكم فاطلبوا هنالك لأنفسكم نوراً فيرجعون في طلب النور فلا يجدون، وتقول لهم الملائكة: ارجعوا إلى الدنيا فاطلبوا نوراً فإن المؤمنين علموا النور من الدنيا بإيمانهم وطاعتهم قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ معناه: فيميز بين المؤمنين والمنافقين بأن يضرب بينهم بجدار كبير يقال له: السور، وهو الذي يكون عليه أصحاب الأعراف وهو حاجز بين الجنة والنار قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ بَابُۢ﴾ أي السور باب باطنه فيه الرحمة وهي الجنة التي فيها المؤمنون وخارج السور من قبله العذاب يعني جهنم والنار.

قال الله تعالى:

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿14﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿15﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿16﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿17﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ معناه: إن المنافقين ينادون المؤمنين من وراء السور ألم نكن معكم في الدنيا على نبيكم نناكحكم ونوارثكم ونصلي معكم في مساجدكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم فأهلكتموها بالنفاق والمعاصي والشهوات وكلها فتنة وتربصتم بمحمد الموت وبالمؤمنين الدوائر، وقلتم يوشك أن يموت محمد فنستريح منه قوله تعالى: ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي وشككتم في توحيد الله، وفي نبوة محمد ﷺ، وغرتكم الأماني يعني ما كانوا يتمنونه من قبل محمد ﷺ، وهلاك المسلمين وغرتهم أيضاً الأباطيل وطول الآمال حتى جاء

أمر الله يعني الموت والبعث وغركم بالله الغرور أي وغركم الشيطان بحكم الله وإمهاله عن طاعة الله وقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أي لا يقبل منكم نذر تفدون به أنفسكم من العذاب ولا من الذين كانوا يظهرون الكفر قرأ ابن عامر، والحسن ويعقوب لا يؤخذ بالنار[1]، وقوله تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي هي أولى بكم وأحق أن تكون مسكناً لكم قد ملكت أمركم وهي أولى بكم من كل شيء وأنتم أولى بها ومنه المولى لأنه أولى بعبده من غيره وبئس المصير النار قال قتادة: ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في النار[2] قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ معناه: أما حان للمؤمنين الذين تكلموا بكلمة الإيمان إذا سمعوا القرآن أن تخشع قلوبهم وتلين وترق لذكر الله قال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين[3] والذين يجب أن يورثهم الذكر خشوعاً ولا يكونوا كمن نذكره بالغفلة فلا يخشع قلبه للذكر، قوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآن قرأ نافع وعاصم ـ نزل ـ مخففاً[4] قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ وهم اليهود والنصارى، وموضع ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ النصب عطفاً على قوله تعالى: ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ معناه: وأن لا يكونوا[5]، قال الأخفش: وإن شئت جعلته نهياً، وهذه زيادة في وعظ المؤمنين[6] معناه: ولا يكونوا في قساوة القلوب كالذين أعطوا التوراة والإنجيل من قبل المؤمنين فطال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم فقست قلوبهم.

قال ابن عباس: مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله فلم تلن قلوبهم عند سماع كلام الله[7] وقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي خارجون عن طاعة

---

(1) كتاب السبعة في القراءات: 626 ـ والبغوي في معالم التنزيل: 5: 312.
(2) الطبري في تفسيره: 13: 295 رقم 26042.
(3) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 18: 161 ـ 162.
(4) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها: 2: 310، وكتاب السبعة نفسه.
(5) يراجع الفراء في معاني القرآن: 3: 135.
(6) يراجع الثعلبي في تفسيره: خ.
(7) البغوي في معالم التنزيل: 5: 313.

الله وإنما قال وكثير منهم لأنه كان منهم من أسلم ـ قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فيه تنبيه على الاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها على البعث والنشور.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿18﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿19﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿20﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿21﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ قرأ ابن كثير وعاصم بتخفيف الصاد من التصديق تقديره: إن المؤمنين والمؤمنات، وقرأ الباقون بتشديدها[1] يعني المتصدقين من الصدقة أدغمت التاء في الصاد ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالصدقة والنفقة في سبيله يضاعف لهم ـ قرأ ابن كثير وابن عامر يُضَعَّف بتشديد[2] [العين] وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ واحدهم صديق وهو الكثير الصدق والتصديق لم يشكوا في الرسل حين أخبروهم ولم يكذبوهم ساعة قوله تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال بعضهم: تمام الكلام عند قوله: الصديقون ثم ابتدأ فقال: والشهداء عند ربهم وخبره[3]: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ والشهداء على هذا القول يحتمل أن المراد بهم الأنبياء عليهم السلام الذين يشهدون يوم القيامة لمن صدق بالتصديق،

(1) كتاب السبعة في القراءات: 626، والكشف عن وجوه القراءات: 2: 310.

(2) يراجع القرطبي في تفسيره: 17: 252، والثعلبي في تفسيره ـ خ.

(3) يراجع النحاس في إعراب القرآن: 4: 361.

وعلى من كذب بالتكذيب ويحتمل أن المراد بهم الذين قتلوا في سبيل الله[1].

وقال بعضهم: قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ عطف على الصديقين، ومعنى الشهداء على هذا سائر المؤمنين ففي الحديث: «**المؤمنون شهداء الله في أرضه**»، وقال ﷺ: «**كل مؤمن شهيد**»[2] قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ يعني الحياة الدنيا كاللعب واللهو في سرعة فنائها وانقضائها ونظير هذا قوله ﷺ: «**الطواف صلاة**» أي كالصلاة، ويقال: فلان بحر أي كالبحر في السخاء وفلان أسد أي كالأسد في الشجاعة، وقوله: وزينة أي منظر حسن والمعنى: إنما الحياة الدنيا لعب ولهو كلعب الصبيان، وزينة كزينة النسوان، وتفاخر كتفاخر الأقران، وتكاثر كتكاثر الدهقان، قال علي بن أبي طالب لعمار بن ياسر: لا تحزن على الدنيا فإنها ستة أشياء: مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومشموم، ومركوب، ومنكوح، فأكبر طعامها العسل وهو بزاق ذبابة، وأكبر مشروبها الماء وفيها تستوي جميع الحيوانات، وأكبر لبوسها الديباج وهو نسج دودة، وأكبر مشمومها المسك وهو دم فأرة أو ظبية، وأفضل مركوبها الفرس وعليه يقتل الرجال، وأكبر منكوحها النساء وهو مبال في مبال[3] قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي مثل الدنيا كمثل مطر أعجب الزراع نباته والكفر في اللغة: هو التغطية ويسمى الكافر كافراً لأنه يغطي الحق بالباطل، والزراع يغطي الحب بالأرض والمعنى كمثل غيث أعجب الزراع ما نبت من ذلك الغيث ثم يهيج فتراه مصفراً ثم ييبس فيصير مصفراً بعد خضرته وريه ثم يكون حطاماً أي متكسراً متفتتاً تحت أرجل الدواب كذلك الدنيا تزول وتفنى كما لا يبقى هذا الزرع قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي عذاب شديد للكفار والمنافقين، ومغفرة من الله ورضوان للمؤمنين المطيعين وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي هي في سرعة فنائها ونفادها مثل متاع البيت في سرعة فنائه وفراغه وسقوطه وانكساره، وعن علي رضي الله عنه أنه كان

---

(1) يراجع الطبري في تفسيره: 13: 300 ـ 301.
(2) ذكره الجصاص في أحكام القرآن: 3: 416.
(3) القرطبي في تفسيره: 17: 255.

يقول في صفة الدنيا أما ما مضى فحلم، وأما ما بقي فأماني وغرور.

وقال رسول الله ﷺ: «**الراعية في الدنيا تكثر الهم والحزن والزهد في الدنيا يريح القلب والبدن**» قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي سابقوا إلى ما أمرتم به، وإلى التوبة لتنالوا مغفرة الله، وجنة سعتها كسعة السماء والأرض، وقيل المراد بالآية السبق إلى الجهاد، والجمعة، والجماعات، وسائر أعمال البر، وباقي الآية ظاهر المعنى.

قال الله تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿22﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿23﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿24﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿25﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿26﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ معناه: ما أصاب أحد مصيبة في الأرض من قحط المطر وقلة النبات ونقص الثمار ولا في أنفسكم من المرض والموت وفقد الأولاد وهو مكتوب في اللوح المحفوظ من قبل أن تخلق الأرض، ويقال: من قبل أن تخلق الأنفس، ويقال: من قبل أن تقدر تلك المصائب في اللوح المحفوظ لأن خلق ذلك وتقديره على الله هين، والبراء في اللغة هو الخلق والبارىء الخالق والبرية الخليقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني إثبات ذلك مع كثرته على الله هين قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أمر بالصبر على المصائب والشكر عند النعم لأن العاقل إذا علم أن الذي فاته كان مكتوباً عليه دعاه ذلك إلى ترك الجزع وكانت نفسه أسكن وقلبه أحبب، وإذا علم أن الذي أتاه من الدنيا كان مكتوباً له قبل أن يصير إليه وأنه لا يبقى عليه دعاه

١٠٦

ذلك إلى ترك البطر قرأ أبو عمرو وأتاكم بالقصر أي جاءكم، واختاره أبو عبيد لقوله تعالى: ﴿فَاتَكُمْ﴾ ولم يقل أفاتكم، وقرأ الباقون آتاكم بالمد أي أعطاكم واختاره أبو حاتم[1]. وكان الحسن يقول: لصاحب المال في ماله مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما يسلب عن كله ويسأل عن كله قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فيه ذم للفرح الذي يختال، ويبطر بالمال والولد والولاية، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ يعني الذين يمتنعون عن أداء الحقوق الواجبة في المال، ويمنعون الناس عن أداء تلك الحقوق وهذا نعت المختال الفخور قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي من يعرض عن الإيمان، وعن أداء الحقوق فإن الله هو الغني عنه وعن إيمانه وهو المحمود في أفعاله قرأ نافع وابن عامر فإن الله الغني الحميد، وقرأ الباقون[2] هو الغني قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالآيات والحجج وأنزلنا معهم الكتاب الذي يتضمن الأحكام قوله تعالى: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ يعني العدل أي أمرنا بالعدل، وقيل: يعني الذي يوزن به أي أمرنا بالميزان ليقوم الناس بالقسط أي ليتعاملوا بينهم بالعدل والنصفة قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ قال ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه الزبرة والمطرقة والكشبان، وقيل المراد بإنزال الحديد أن خلقه الله في الجبال والمعادن وقوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي قوة شديدة لا تلينه إلا النار. وقوله تعالى: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ يعني الفؤوس والسكاكين والإبر وآلة الحرث وآلة الرفع يعني السلاح[3] قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ أي وليعلم الله من ينصر دينه وينصر رسوله بهذه الأسلحة والله سبحانه لم يزل عالماً بمن ينصر ومن لا ينصر لأن علم الله لا يكون حادثاً إلا أن المراد بهذا العلم الإظهار والتمييز قوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ معناه: ولم ير الله ولا أحكام الآخرة. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 626.
الكشف عن وجوه القراءات السبع: 2: 311.

(2) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات: 627. الكشف عن وجوه القراءات السبع: 2: 312.

(3) القرطبي في تفسيره: 17: 261. الثعلبي في تفسيره ـ خ.

عَزِيزٌ﴾ فيه بيان أنه تعالى لم يأمر بالجهاد عن ضعف وعجز وإنما أمرنا به ليثيبنا عليه وما بعد هذا ظاهر المعنى.

قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (27) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (28) لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (29)﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي أتبعنا الرسل على أثر نوح وإبراهيم ومن كان من الرسل من أولادهما، وقفينا بعيسى ابن مريم أي اتبعنا أمه وأعطيناه الإنجيل دفعة واحدة وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه يعني الحواريين واتبعناهم رأفة ورحمة يعني المودة كانوا متوادين بعضهم لبعض كما وصف الله تعالى أصحاب محمد ﷺ بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1] قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ ليس بعطف على ما قبله وانتصابه بفعل مضمر يدل عليه ما بعده[2] كأنه قال: وابتدعوا رهبانية أي جاءوا بها من قبل أنفسهم وهو كقوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ معناه: ما فرضنا عليهم تلك الرهبانية بل هي علوهم في العبادة من حمل الميثاق على أنفسهم وهي الامتناع من المطعم والمشرب والملبس والنكاح والتعبد في الجبال ما فرضنا عليهم ذلك إلا أنهم طلبوا بها رضوان الله، وقيل معناه: ما فرضنا عليهم إلا اتباع ما أمر الله به قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي قصروا فيما ألزموا أنفسهم ولم يحفظوها حق الحفظ ويقال إنهم لما لم يؤمنوا بالنبي ﷺ حين بعث كانوا تاركين لطاعة الله غير مراعين لها والمعنى

---

(1) سورة الفتح: 48 الآية: 29.

(2) التبيان في إعراب القرآن: 2: 402.

فضيعوها وكفروا بدين عيسى وتهودوا وتنصروا وتركوا الترهيب قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ وهم الذين أقاموا على دين عيسى حتى أدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به أعطيناهم ثوابهم قال ﷺ: **«من آمن بي، وصدقني، واتبعني منهم فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يتبعني فأولئك هم الهالكون»** قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ معناه: وكثير منهم خالفوا دين عيسى فقالوا: ابن الله، أو نحواً من هذا القول، والرهبانية في اللغة: خصلة يظهر فيها معنى الرهبة وذلك إما في لبسه أو انفراده عن الجماعة للعبادة. قال ﷺ: **«لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم فذلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»**[1].

وعن عروة قال: دخلت امرأة عثمان بن مظعون على عائشة وهي باذة الهيئة فسألتها ما شأنك، فقالت زوجي يقوم الليل ويصوم النهار، فذكرت عائشة ذلك لرسول الله ﷺ، فلقي عثمان بن مظعون، فقال له: **«يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا فما لك فيَّ أسوة فوالله إني لأخشاكم لله وأحفظكم لحدوده»**[2]. قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله وآمنوا برسوله محمد ﷺ يؤتكم كفلين من رحمته أي يؤتكم نصيبين من ثوابه وكرامته نصيباً لإيمانكم به اليوم، ونصيباً لإيمانكم المتقدم بالأنبياء عليهم السلام.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ على الصراط كما قال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾[3] فهذه علامة المؤمنين في القيامة، وقيل معناه: ويجعل لكم نوراً بالإيمان في الدنيا يعني الهدى والبيان تهتدون به إلى طاعة الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور لمن تاب رحيم لمن مات على التوبة، قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وحسدوا المؤمنين منهم أن لا يصرفوا النبوة عمن

---

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 3: 401 رقم 3884 ـ باب القصد في العبادة.

(2) حلية الأولياء 1: 106.

(3) سورة التحريم: 66، الآية: 8.

تفضل الله بها عليه إلى غيره، وأن التوفيق والثواب والكرامة بتقدير الله يعطي النبوة من يشاء ممن كان أهلاً لها صالحاً للقيام بها، وقيل معناه: ليعلم الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ أنهم لا أجر لهم ولا نصيب لهم من فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فآتى المؤمنين منهم أجرين والله ذو الفضل العظيم، يتفضل على من يشاء من عباده المؤمنين، ولا في قوله ﴿لِئَلَّا﴾ زائدة[1] المعنى لأن يعلم مثل قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[2].

---

(1) النحاس في إعراب القرآن 4: 369.

(2) سورة الأعراف: 7، الآية: 12

سُورَةُ المُجَادَلَةِ

سورة المجادلة مدنية، وهي ألف وسبعمائة واثنان وتسعون حرفاً، وأربعمائة وثلاث وسبعون كلمة، واثنتان وعشرون آية، قال ﷺ: «**من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة**»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿1﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ
إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿2﴾
وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ
تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿3﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن
يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ
ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿4﴾﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ نزلت هذه الآية في خولة بنت ثعلبة[2] وهي امرأة من الخزرج من بني عمرو بن عوف،

(1) الزمخشري في الكشاف 4:79.

(2) الطبقات الكبرى 8:280 رقم: 4453.

وفي زوجها أوس بن الصامت وكان أوس بن الصامت[1]، وعبادة بن الصامت أخوين وكانت خولة حسنة الجسم فرآها زوجها ساجدة في صلاتها فنظر إلى عجزها فلما فرغت من صلاتها راودها فأبت عليه فغضب عليها فقال لها: «أنت عليَّ كظهر أمي» وندم بعد ذلك على ما قال، وكان الظهار طلاقاً في الجاهلية فمضت خولة إلى رسول الله ﷺ، فوجدت عائشة تغسل شق رأس رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات مال وأهل حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبرت سني ظاهر مني، وقد ندم على ذلك فهل شيء يا رسول الله يجمعني وإياه، فقال ﷺ: **«ما أراك إلا قد حرمت عليه»** فقالت: يا رسول الله، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً، وإنه أبو أولادي، وأحبّ الناس إليّ، فقال ﷺ: **«حرمت عليه»**. فقالت: أشكو إلى الله تعالى ثم جعلت تُراجع رسول الله ﷺ وهو يقول: **«حرمت عليه»**، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي، فنزل الوحي على رسول الله ﷺ، فلما قضى الوحي قال ﷺ: **«ادعي زوجك»**، فجاء فتلا عليه النبي ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾.

وروي أن خولة لما أتت النبي ﷺ قالت له: يا رسول الله إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب فيَّ فلما خلا سني، ورقّ عظمي، ونثرت له داء بطني جعلني عليه كأمه ثم ندم على قوله، ولي منه صبية صغار إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، فقال ﷺ: **«ما عندي في أمرك شيء»**، فقالت: زوجي وابن عمي وأبو أولادي وأحبّ الناس إليّ وهو شيخ كبير لا يستطيع أن يخدم نفسه. فقال ﷺ: **«ما أراك إلا قد حرمت عليه»**، فقالت: يا رسول الله لا تقل ذلك فإنه ما ذكر طلاقاً وإنما قال كلمة. فقال ﷺ: **«ما أمرت في شأنك بشيء وإن نزل في شأنك شيء بينته لك»** هتفت وشكت وجعلت تراجع رسول الله ﷺ ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك شدة وحدتي وما يشق عليّ فراقه، ورفعت يدها إلى السماء تدعو وتتضرع فبينا هي كذلك إذ تغشى رسول الله ﷺ الوحي فلما

---

(1) شهد أوس بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، الطبقات الكبرى 3: 413.

سري عنه قال: «**يا خولة قد أنزل الله فيك وفي زوجك القرآن**»[1] ثم تلى ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ معناه: قد سمع الله قول المرأة التي تسائلك وتخاصمك في أمر زوجها وترفع إلى الله ما بها من المكروه والله يسمع محاورتكما ومراجعتكما إن الله سميع لمقالتكما عليم بأمرها وأمر زوجها والتحاور: تراجع الكلام قوله تعالى: ﴿تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ وهو أن النبي ﷺ كلما قال: «**قد حرمت عليه**» قالت: والله ما ذكر طلاقاً فكان هذا جدالها.

قوله تعالى: ﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهو قولها: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي وأن لي صبية صغاراً إذا ضممتهم إليه ضاعوا وإذا ضممتهم إليّ جاعوا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ﴾ أي ليس هنَّ بأمهاتهم
وما هنّ كأمهاتهم في الحرمة وقرأ عاصم ما هنّ أمهاتهم بالرفع كما يقال ما زيد ١٠٧
عالم[2] قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ﴾ معناه: وإن المظاهرين ليقولون منكراً من القول قبيحاً من حيث شبهوا المرأة التي هي في غاية الإباحة بما هو غاية في الحرمة وهو ظهر الأم والمنكر هو الذي لا يعرف في الشرع والزور: الكذب قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي الكثير العفو عن ذنوب عباده كثير الغفران والستر عليهم عفا عنهم وغفر لهم بإيجاب الكفارة عليهم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ﴾ اختلف السلف في معنى العود المذكور في هذه الآية فذهب أصحاب الظواهر إلى أن المراد به إعادة كلمة الظهار وهذا قول مخالف لقول أهل العلم، وقد أوجب النبي ﷺ الكفارة على أوس حين ظاهر من امرأته ولم يسأل أكرر الظهار أم لا؟ وذهب مالك إلى أن العود: هو العزم على الوطء، قال: وإذا عزم على وطئها بعد الظهار فعليه الكفارة سواء أمسكها أو أبانها أو

---

(1) الواحدي في أسباب النزول ص 344، القرطبي في تفسيره 17: 269، ابن عطية في المحرر الوجيز 15: 435.

(2) إعراب القراءات السبع 2: 354.

عاشت أو ماتت[1] وقال الشافعي العود هٰهنا: هو الإمساك على النكاح إذا أمسكها عقيب الظهار ولم يطلقها فعليه الكفارة ولا تسقط عنه تلك الكفارة وإن أبانها بعد ذلك، وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أن معنى العود: هو أن يعود للمقول فيه فيستبيح ما حرمه بالظهار وقد يذكر المصدر ويراد به المفعول، كما قال ﷺ: «**العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه**»[2] وإنما هو عائد في الموهوب، ويقال: اللهم أنت رجاؤنا أي مرجونا، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[3] أي الموقن به والعود في الشيء: هو فعل ما يناقض ذلك الشيء وحروف الصفات تقوم بعضها مقام بعض كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[4] أي على جذوع النخل فيكون المعنى ثم يعودون فيما قالوا. والإمساك على النكاح عقيب الظهار لا يكون عوداً على وجه التراخي ولا يناقض لفظ الظهار فإن الظهار لا يوجب تحريم العقد حتى يكون إمساكها على النكاح عوداً ثم على مذهب أبي حنيفة إذا قصد أن يستبيحها ثم بانها سقطت الكفارة عنه.

وفي قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ دليل أن هذه الكفارة إنما شرعت لدفع الحرمة في المستقبل وفيه دليل تحريم التقبيل واللمس قبل التكفير لأن في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ ولجميع ضروب المسيس[5] وفي قوله تعالى: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ دليل أن الظهار لا يكون إلا فيما إذا كن زوجات لأن إطلاق لفظ النساء ينصرف إلى الحرائر[6] كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾[7] وفي قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ دليل جواز إعتاق الرقبة الكافرة في

---

(1) الباجي في المنتقى 4:49، وابن رشد في بداية المجتهد 2:92.
أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن 3:316.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي 11:65.

(3) سورة الحجر: 15، الآية: 52.

(4) سورة طه: 20، الآية: 71.

(5) الجصاص في أحكام القرآن 3:423.

(6) الجصاص، نفسه.

(7) سورة النور: 24، الآية: 31.

الظهار لأن ذكر الرقبة مطلق في الآية بخلاف كفارة القتل، والأصل في الظهار أنه إذا ذكر في المرأة ما يجمعها مثل الجسد والبدن والرأس والرقبة ونحوها والظهر والبطن والفرج والفخذ وشبهها بمحارمه كان مظاهراً وإن قال أنت عليّ كيد أمي أو رجلها أو قال يدك عليّ أو شعرك عليّ كظهر أمي كان باطلاً وقال مالك يصح الظهار بالتشبيه بالأجنبية، وقال الشعبي: لا يصح الظهار إلا بأم، وقال الشافعي إذا قال يدك أو قال: أنت عليّ كيد أمي فهو ظهار قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ أي فمن لم يجد من المظاهرين الرقبة ولا قيمتها فعليه أن يصوم شهرين متتابعين قبل المسيس وهذا يقتضي أنه إذا أفطر فيهما لمرض أو لغيره كان عليه استقبال الصوم، وكذا إذا قدر على الرقبة في خلال الصوم فلم يعتقها حتى عجز عنها كان عليه استقبال الصوم، وأما إذا مسها قبل انقضاء الصوم للشهرين فعليه الاستقبال أيضاً في قول أبي حنيفة ومحمد سواء كان المسيس بالليل أو بالنهار، وقال أبو يوسف: إذا مسّها بالليل عامداً أو بالنهار ناسياً لم يستقبل قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ معناه: إذا عجز عن الصوم لكبر أو مرض فكفارته أن يطعم ستين مسكيناً وإن مسها المظاهر بعدما أطعم بعض الطعام لم يستقبل الإطعام لأنه ليس في ذكر الإطعام في هذه الآية ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ إلا أنا إنما أمرناه بالإطعام قبل المسيس لأنّا لم نؤمر بذلك لم يؤمن أن يمسها فيقدر على العتق قبل الإطعام أو يقدر على الصوم قبل الإطعام فيحصل العتق والصوم بعد المسيس، وفي ذلك خلاف ما أوجبه الله في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ذلك الذي أمركم الله به لتستديموا الإيمان بالله ورسوله، وتصدقوا أن الله أمر بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي التي شرّعها الله في الظهار أحكام الله وفرائضه وللجاحدين بحدود الله عذاب وجيع فلما نزلت هذه الآيات قال النبي ﷺ لأوس بن الصامت: «**هل تستطيع أن تعتق رقبة؟**» قال: لا فإني قليل المال، قال: «**فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟**» قال: والله يا رسول الله إني إذا لم آكل باليوم ثلاث مرات كلّ بصري، وخشيت أن يغشى عليّ، قال: «**فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟**» قال: لا، والله إلا أن تعينني يا رسول الله،

فقال ﷺ: «**إني معينك بخمسة عشر صاعاً، وداعٍ لك بالبركة**»[1]، فأعانه رسول الله ﷺ، وروي أن خولة لما ظاهر منها أوس بن الصامت خرج فجلس في نادي قومه ثم رجع إليها فراودها عن نفسها، فقالت: كلا والذي نفس خولة بيده لا تصل إليّ حتى يحكم الله فيَّ وفيك ثم مضت إلى رسول الله ﷺ، فشكت عليه قصتها، فأنزل الله هذه الآيات، فقال ﷺ: «**مريه فليعتق رقبة**» قالت: والله ما عنده ذلك، قال: «**مريه فليصم شهرين متتابعين**» قالت: يا نبي الله إنه شيخ كبير ما به من صوم، قال: «**مريه فليطعم ستين مسكيناً**»، قالت: والله ما يجد ما يطعم، قال: «**أنا سأعينه بعرق من تمر**»[2] وهو مكيل تسع وثلاثين صاعاً، قالت: وأنا أعينه بعرق آخر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (6) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (7)﴾.

قال أبو بكر الحداد: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ معناه: إن الذين يخالفون الله ورسوله في الدين، ويصيرون في حد غير الحد الذي فيه أولياء الله أذلوا وأخزوا[3] بالعذاب كما أذل الذين أشركوا من قبل أهل مكة من الذين خالفوا الأنبياء صلوات الله عليهم.

والكبت في اللغة: الكبُّ على الوجه، ومنه كبت الله عدوك، ويقال معناه: كبدوا أي ضربوا على أكبادهم فقلبت الدال تاء. وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ

---

(1) الثعلبي في تفسيره: خ.
القرطبي في تفسيره 17: 271.
(2) البغوي في معالم التنزيل 5: 326.
(3) في النسخة، ك: أخرجوا.

بَيِّنَٰتٍۚ﴾ أي فرائض معروفة ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي ولمن لم يعمل بها، ولم يصدق بها عذاب مهين ثم بين وقت ذلك العذاب فقال: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ ويجزيهم عليه، قوله تعالى: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ أي حفظ الله عليهم أعمالهم ونسوه هم والله على كل شيء مما يحب لهم وعليهم شهيد عالم قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ معناه: أن الله يعلم كل ما في السموات، وكل ما في الأرض مما ظهر للعباد، وما بطن لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ يعني المسارة: ما تناجى به صاحبك من شيء إلا هو رابعهم بالعلم يعني أن نجواهم معلومة عنده كما تكون معلومة عند الرابع الذي هو معهم ولا أقل من الثلاثة ولا أكثر من الخمسة إلا وهو عالم بهم وقادر عليهم في أي موضع كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة عند الجزاء والحساب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذه الآية نزلت في اليهود والمنافقين لما أعياهم الإسلام وظهوره جعلوا يتناجون فيما بينهم فيوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم[(1)]، وكانوا إذا خرجت سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فرأى هؤلاء رجلاً ممن خرج له في السرية صديق أو قريب تناجوا فيما بينهم ليظن الرجل أنه حدث بصاحبه حادث فيحزن عليه لذلك فلما كثر ذلك وطال شكوا إلى رسول الله ﷺ فنهاهم عن المناجاة دون المسلمين فلم ينتهوا وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله تعالى:

قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿8﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ

(1) الواحدي في أسباب النزول ص 346.
الثعلبي في تفسيره: خ.
القرطبي في تفسيره 17: 291.

تُحْشَرُونَ ﴿9﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿10﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ معناه: ألم ترَ إلى هؤلاء الذين نهاهم الله عن مناجاة بعضهم بعضاً دون المؤمنين في الآية التي قبل هذه الآية ثم عادوا إليها مغايظة لأصحاب رسول الله ﷺ، ويتشاورون فيما بينهم بالكذب والاعتداء، ويوصي بعضهم بعضاً بمخالفة النبي ﷺ ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ﴾ يا محمد ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي سلموا عليك بما لم يسلم به الله عليك وذلك أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ، فقالوا: السام عليك، وكانت عائشة من وراء الستر فلعنتهم وقال ﷺ: «**مهلاً يا عائشة**»، فقالت: أما سمعت ما قالوا؟ قال: «**أوما سمعتِ كيف أجبتهم؟**»[1] ثم قال: «**إذا سلّم عليكم أحد من أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم ما قلتم**»[2].

والسام: هو الموت. قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ معناه: إنهم كانوا يقولون في أنفسهم لولا ينزل الله العذاب بنا بما نقول لنبيه إن كان نبياً كما يزعم فلو كان محمد نبياً لعذبنا الله بما نقول، فقال الله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي كافيهم جهنم عذاباً لهم يلزمونها ويقاسون حرها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي فبئس المرجع يرجعون إليه، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ معناه: يا أيها الذين آمنوا إذا تجالستم وتخاليتم للشر فيما بينكم فلا تجالسوا وتخالوا بالمعصية والظلم ومخالفة الرسول، ولا تكونوا كاليهود والمنافقين ﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي بفعل ما أمرتم به وترك ما نهيتم عنه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ في الآخرة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ معناه: إنما النجوى الذي يفعله اليهود والمنافقون من عمل الشيطان

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري 12: 308 رقم 6256 كتاب الاستئذان، ومسلم في صحيحه بشرح النووي 14: 147، كتاب السلام.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري 12: 309 رقم 6258، ومسلم في صحيحه بشرح النووي 14: 144، كتاب السلام.

ووساوسه ليحزن بها الشيطان الذين آمنوا وأخلصوا وليس تناجيهم يضر المؤمنين شيئاً إلا بعلم الله وقضائه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ويستعيذوا به من الشيطان، ويقرأ (لِيُحزن)[1] بضم الياء وهما لغتان.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (12) ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (13)﴾.

قال أبو بكر الحداد: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال مقاتل كان رسول الله ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس من أهل بدر وفيهم ثابت بن قيس بن شماس وقد سبقوا في المجلس فقاموا حيال النبي ﷺ، فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فردّ عليهم النبي ﷺ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فعرف النبي ﷺ ما لحقهم من ضرر القيام فشق عليه قال لمن حوله ممن لم يكن من أهل بدر: «**قم يا فلان وأنت يا فلان وأنت يا فلان**»، فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم، فقال المنافقون للمسلمين: ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس فوالله ما عدل على هؤلاء إن قوماً أخذوا مجالسهم، وأحسوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس غيرهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية[2] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا

(1) النشر في القراءات العشر 2: 85.
ابن عطية في المحرر الوجيز 15: 447.
(2) الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان: خ.
القرطبي في تفسيره 17: 296.
الواحدي في أسباب النزول ص 347.

﴿قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ أي أوسعوا في المجلس فافسحوا أي فوسّعوا على من حضر مجلس رسول الله ﷺ، وأحب سماع كلامه ليشتركوا في سماع الدين منه وهذا أمر لهم بالتأدب كيلا يؤذي أحد جليسه بفعل الزحام. ولئلا يكون غرضهم إلا التواضع لله وللدين وذلك أنهم كانوا قد جلسوا متضايقين حول النبي ﷺ منضمين إليه فلم يجد غيرهم مجلساً عند النبي ﷺ فأمروا أن يتنحوا عنه في الجلوس ويتوسعوا ليجلس غيرهم معهم قوله تعالى: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي يوسّع مجالسكم في الجنة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ معناه: وإذا قيل انهضوا إلى الصلاة وأمر بالمعروف، ونودي للصلاة فانهضوا، وقيل معناه: وإذا قيل لكم اخرجوا إلى الجهاد فاخرجوا يرفع الله درجاتكم في الجنة، ويرفع الله الذين أوتوا العلم درجات فوق درجات الذين أكرموا بالإيمان بغير علم وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في الماء والطير في جو السماء وفضل العالم على الذي ليس بعالم سبعون درجة الله أعلم بما بين كل درجتين**»[1] وقال ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على سائر أمتي**»[2] وقال ﷺ: «**يؤتى بالعالم يوم القيامة والعابد، فيقال للعابد ادخل الجنة ويحبس الفقيه، فيقول: فيم حبستموني، فيقال له: اشفع**» قرأ أهل المدينة والشام وعاصم انشزوا فانشزوا بضم الشين، وقرأ الآخرون بكسرها وهما لغتان[3]، ومعناهما: إذا قيل لكم تحركوا وقوموا وارتفعوا وتوسعوا لإخوانكم فافعلوا، وقيل معناه: إذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة والذكر وعمل الخير فانشزوا ولا تقصروا قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ يعني يرفعهم بطاعة رسول الله ﷺ، وقيامهم من مجالسهم وتوسعهم لإخوانهم والذين أوتوا العلم منهم بفضل علمهم قال ﷺ: «**من جاءت منيته وهو يطلب العلم فبينه وبين**

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان 2: 262 رقم 1696، فضل العلم وشرفه.
(2) ذكر الثعلبي في تفسيره: خ.
(3) ابن خالويه: إعراب القراءات السبع وعللها 2: 356.
النحاس في إعراب القرآن 4: 379.
ابن عطية في تفسيره 15: 451.

الأنبياء درجة واحدة»[1] قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾.

وذلك أن الأغنياء كانوا يستخلون بالنبي ﷺ فيشاورونه بما يريدون ويلحون عليه بالحاجات والمسائل ويشغلون بذلك أوقاته التي كانت مستغرقة بالعبادة والإبلاغ إلى الأمة وكان الفقراء لا يتمكنون من النبي ﷺ كتمكن الأغنياء منه فأمر الله الناس بتقديم الصدقة على نجواهم وبين أن ذلك خير لهم من الكف عن الصدقة وأصلح لقلوبهم وقلوب الفقراء ورخص لمن لا يجد ما يتصدق به أن يكلم النبي ﷺ بما يشاء من غير صدقة وهو قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلما علم الله ضيق صدر كثير منهم من ذلك الوجوب نسخ ذلك الحكم بقوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ﴾ معناه: أبخلتم يا أهل الميسرة، وثقل عليكم تقديم الصدقة بين يدي نجواكم مع النبي ﷺ ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ﴾ وخفّف الله عنكم بإسقاط تلك الصدقة ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي داوموا عليها يعني الصلاة المفروضة، وآتوا الزكاة المفروضة، وأطيعوا الله في الفرائض، والرسول في السنن ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر، وعن علي رضي الله عنه قال: إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي وهي آية النجوى كان لي مثقال فبعته بعشرة دراهم، فكلما أردت أناجي رسول الله ﷺ قدمت درهماً، فقدمت هذه الصدقات بين يدي نجواي ثم فسخت قال مجاهد: نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا فلم يناجه إلا علي كرّم الله وجهه قدّم ديناراً فتصدق به فنزلت الرخصة[2].

قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿14﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿15﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿16﴾ لَّن تُغْنِىَ

---

(1) الثعلبي نفسه.
(2) ابن العربي في الناسخ والمنسوخ 2: 381، وابن عطية في المحرر الوجيز 15: 452.
القرطبي في تفسيره 17: 301.
الجصاص في أحكام القرآن 3: 428.

عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (18)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ نزلت هذه الآيات في قوم من المنافقين كانوا يتولون اليهود، وينقلون إليهم أسرار المسلمين مباطنة لهم ولم يكونوا مؤمنين ولا من اليهود، ولكن كانوا يحلفون للمؤمنين بأنا لمؤمنون مصدقون وهم يعلمون أنهم كاذبون في حلفهم[1].

قال الله تعالى: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي ولا من اليهود، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون أنهم كذبة. قال السدي ومقاتل: نزلت هذه الآية في عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس النبي ﷺ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينما رسول الله ﷺ جالس إذ قال: «**يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار، وينظر بعيني شيطان**» فدخل عبد الله بن نبتل، وكان أزرق، فقال ﷺ: «**علام تسبني أنت وأصحابك**» فحلف بالله ما فعل، فقال له النبي ﷺ: «**قد فعلت**»، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه، فأنزل الله تعالى هذه[2] الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي هيّأ لهم عذاباً شديداً في قبورهم ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من موالاة اليهود وكتمان الكفر والحلف الكاذب مع العلم به قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي اتخذوا أيمانهم الكاذبة ترساً من القتل وجعلوها عدة ليدفعوا بها عن أنفسهم التهمة، وقرأ الحسن إيمانهم بكسر[3] الألف وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي صرفوا الناس عن ذكر الله وطاعته بإلقاء الشبهة عليهم في السر، وقيل: فصدوا المؤمنين عن جهادهم بالقتل ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهينهم

---

(1) الواحدي في أسباب النزول: 348، والثعلبي في تفسيره: خ.
الطبري في تفسيره 14: 31 رقم 26180.
(2) الإمام أحمد في المسند حديث رقم: 2147.
(3) وهذا على حذف المضاف أي اتخذوا إظهار إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله، ابن جني في المحتسب 2: 310.

في الآخرة قوله تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لن تدفع عنهم كثرة أموالهم ولا كثرة أولادهم من عذاب الله شيئاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ انتصب على الظرف[1] من قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي يحلفون لله يومئذ أنهم كانوا مخلصين في الدنيا، ويحسبون يومئذ أنهم على صواب ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ عند الله في حلفهم، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينادي مناد يوم القيامة أين خصماء الله**»؟ فتقوم القدرية مسودة وجوههم، مزرقة أعينهم مائلة أشداقهم يسيل لعابهم يقولون: والله ما عبدنا من دونك شمساً ولا قمراً ولا صنماً ولا وثناً ولا اتخذنا من دونك إلٰهاً[2].

قال ابن عباس: صدقوا والله ما آتاهم الشرك من حيث لا يعلمون ثم تلا ابن عباس هذه الآية: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ والله القدريون والله القدريون[3].

قال الله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿19﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿20﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿21﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿22﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي غلب عليهم، واستولى عليهم وحولهم فأنساهم ذكر الله أي شغلهم عن ذكر الله وطاعته، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ

---

(1) التبيان في إعراب القرآن 2: 404.

(2) الثعلبي في تفسيره: خ، بلفظه تقريباً.
والقرطبي في تفسيره 17: 305.

(3) الثعلبي في تفسيره.

وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يحالفون الله ورسوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ أي في المغلوبين المقهورين، ومن جملة ما يلحقهم الذلّ في الدنيا والآخرة قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ أي كتب ذلك في اللوح المحفوظ قال الحسن: ما أمر نبيٌّ بحرب فغلب قطّ، وإن الرسل على نوعين منهم من بعث بالحرب، ومنهم من بعث بغير حرب فهو غالب بالحجة[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ أي مانع حزبه من أن يذلّ عزيز غالب لمن نازع أولياءه. قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ نزلت هذه الآية[3] في حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أنه كتب إلى أهل مكة إن محمداً يريد أن يغزوكم، فاستعدوا له، فأعلم الله نبيه عليه السلام بذلك، فقال ﷺ: «**ما دعاك يا حاطب إلى ما فعلت**»؟ فقال: حببت أن أتقرّب إلى أهل مكة لمكان عيالي فيهم ولم يكن على عيالي[4] ذاب هنالك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ومعناها: لا تجد قوماً يصدقون بوحدانية الله بالبعث بعد الموت يناصحون ويطلبون مودة من خالف الله ورسوله في الدين ولو كانوا أقاربهم في النسب فإن البراءة واجبة من المحادين لله وسنذكر هذه القصة في أول سورة الممتحنة إن شاء الله تعالى أخبر الله تعالى بهذه الآية أن إيمان المؤمنين يفسد بمودة الكفار، ومن كان مؤمناً لا يوالي من كفر وإن كان أباه أو ابنه أو أخاه أو أحد من عشيرته، وعن عبد الله بن مسعود في هذه الآية قال قتل أبو عبيدة أباه يوم أحد فمعنى قوله: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ يعني أبا عبيدة وقوله تعالى ﴿أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ يعني أبا بكر الصديق رضي الله عنه دعا ابنه يوماً إلى المبارزة، وقال: دعني يا رسول الله أكر عليه، فقال له النبي ﷺ: «**متعنا بنفسك يا أبا بكر، أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري**»، وقوله تعالى: ﴿أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ﴾[5] يعني

---

(1) الزجاج في معاني القرآن وإعرابه 5: 141.
(2) سورة الصافات: 37، الآية: 173.
(3) البغوي في معالم التنزيل 5: 335.
(4) في النسخة: ك ـ لعيالي.
(5) البغوي في معالم التنزيل 5: 336.

مصعب بن عمير قتل أخاه «عبيد بن عمير» يوم أحد وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ يعني عمر رضي الله عنه قتل خاله «العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر»، وكذلك علي رضي الله عنه قتل شيبة بن ربيعة، وكذلك حمزة رضي الله عنه قتل عتبة، قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ يعني الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله أثبت الله في قلوبهم حب الإيمان كأنه مكتوب في قلوبهم ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي قواهم بنور الإيمان حتى اهتدوا للحق وعملوا به، وقيل المراد بالروح جبريل عليه السلام يعينهم في كثير من المواطن، وقيل معناه: وأيدهم بنصرة منه في الدنيا على عدوهم لأنهم عادوا عشيرتهم الكفار، وقاتلوهم غضباً لله ولدينه قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ - ظاهر المعنى - قوله تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي رضي عنهم بإخلاصهم في التوحيد والطاعة، ورضوا عنه - بما أعد لهم من الثواب والكرامة في الآخرة قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي أهل هذه الصفة جند الله وأولياءه ألا إن جند الله هم الفائزون بالبقاء الدائم والنعيم المقيم.

سُورَةُ الحَشْرِ

قال أبو بكر الحداد: سورة الحشر مدنية، وهي ألف وتسعمائة وثلاثة عشر حرفاً، وأربعمائة وخمس وأربعون كلمة، وأربع وعشرون آية، قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ سورة الحشر لم تبق جنة ولا نار، ولا عرش ولا كرسي، ولا حجاب، ولا السموات السبع، ولا الأرضون السبع، والهوام والريح، والطير والشجر، والدواب، والجبال، والشمس والقمر، والملائكة إلا صلوا عليه فإن مات من يومه أو ليلته مات شهيداً[1]، ومن قرأ آخر سورة الحشر ثم مات من يومه أو ليلته غفر الله له كل خطيئة عملها»**[2] وبالله التوفيق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿1﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿2﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿3﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿4﴾﴾.

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره 18:1، والثعلبي في تفسيره: خ.

(2) ذكره الثعلبي.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ ظاهر المعنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه السورة بأسرها في بني النضير[1]، وذلك أن النبي ﷺ لما دخل المدينة صالحه بنو النضير واليهود، وعاهدوه على أن لا يكونوا معه، ولا عليه لا يقاتلون معه، ولا يقاتلونه، فكانوا على ذلك حتى كانت وقعة أحد فأصابت المسلمين يومئذ نكبة فنقضوا العهد، وركب «كعب بن الأشرف» في أربعين راكباً إلى مكة فأتوا قريشاً فطلبوا أبا سفيان وأصحابه فحالفوهم وعاقدوهم بين الكعبة والأستار على حرب النبي ﷺ، وأن كلمتهم واحدة ثم رجع كعب بن الأشرف وأصحابه إلى المدينة، فنزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فأخبره بأمرهم، وقال له: إن الله يأمرك بقتل كعب بن الأشرف فجمع النبي عليه السلام أصحابه، وأخبرهم بما صنع كعب[2].

وقال لهم: «**إن الله أمرني بقتله فانتدبوا إلى ذلك**»، فانتدب رهط فيهم «محمد بن مسلمة» وكان أخا كعب من الرضاعة وحليفه فانطلقوا في أول الليل إلى دار كعب، فناداه محمد بن مسلمة فاستنزله من داره وأوهمه أنه يكلمه في حاجة له فلما نزل أخذ محمد بن مسلمة بناصيته وكبّر فخرج أصحابه وكانوا وراء الحائط فضربوه حتى تردّى مكانه فصرخت امرأته وتصايحت اليهود فخرجوا إليهم، وقد رجع المسلمون، فجاء المسلمون إلى رسول الله ﷺ وأخبروه بذلك فلما أصبح النبي ﷺ خرج إليهم غازياً فتحصنوا في دورهم فوجدوهم في قرية لهم يقال لها: رهوة وهم ينوحون على كعب[3] وكان سيدهم، فقالوا: يا محمد ناعية على أثر ناعية، وباكية على أثر باكية، قال: «**نعم**»، قالوا: ذرنا نبكي نشجو على كعب وقد كان عبد الله بن أبي بن سلول المنافق وأصحابه أمر اليهود سراً بأن لا تخرجوا من الحصن، وقاتلوا محمداً وأصحابه فإن قاتلوكم فنحن معكم

(1) الواحدي في أسباب النزول: 350.
الطبري في تفسيره 14: 37.
(2) البغوي في معالم التنزيل 5: 337.
(3) السيرة النبوية لابن هشام 3: 276، المكتبة العلمية بيروت لبنان.

ولا نخذلكم ولننصرنكم، ولئن خرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الأزقة وحصونها فحاصرهم رسول الله ﷺ إحدى وعشرين ليلة فلما عجزوا عن مقاومة المسلمين، وأيسوا من نصر المنافقين لهم طلبوا الصلح فأبى رسول الله ﷺ عليهم إلا أن يخرجوا من مدينتهم على ما يأمرهم به فقبلوا ذلك فصالحهم على الجلاء فقالوا على أن يحمل أهل كل ثلاثة أبيات من متاعهم على بعير واحد ما شاءوا، ولنبي الله ما بقي، ويخرجوا إلى الشام ففعلوا ذلك وخرجوا إلى الشام إلى أذرعات، وأريحاء، والحيرة، وخيبر فذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: النضير ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ التي كانت يثرب وحصونهم قال ابن إسحاق: كان إجلاء بني النضير[1] مرجع النبي ﷺ من أحد، وكان فتح بني قريظة عند مرجعه من الأحزاب[2]، وبينهما سنتان قوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ معناه: هو الذي أخرج هؤلاء اليهود من منازلهم وحصونهم لأول جمع أحلوا من جزيرة العرب وهي أرض الحجاز حشروا إلى الشام، وذلك أن النبي ﷺ قال لهم يومئذ: «**اخرجوا**»، قالوا: إلى أين؟ فقال: «**إلى المحشر**»، فخرجوا إلى أذرعات وأريحاء من الشام. وأما ثاني الحشر فهو أن يحشر الخلائق يوم القيامة إلى أرض الشام أيضاً، ويقال: إنما قال لأول الحشر لأن الحشر أربعة: حشر بني النضير أولاً، ثم حشر خيبر، ثم حشر أهل نجران، ثم حشر جميع أهل الكتاب من جزيرة العرب في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ما روي أنه أجلاهم منها، وقال شهد إليّ رسول الله ﷺ ألا يجتمع في جزيرة العرب دينان.

قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ أي ما ظننتم أيها المؤمنون أن يخرج بنو النضير من منازلهم لشد تمكنهم وقوتهم بالأموال والمنعة، وذلك لأنهم كانوا أهل حصون وعقار ونخيل كثيرة وسلاح قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي وظن بني النضير أن حصونهم تمنعهم من أمر الله فيهم ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ أي فأتاهم أمر الله من حيث لم يظنوا أن ينزل

(1) في ربيع الأول سنة أربع هجرية.
(2) السيرة النبوية، نفسه.

بهم ما نزل من قتل كعب بن الأشرف، وقتلهم وإجلائهم ونصر رسول الله ﷺ من حيث لم يتوهم القوم، وقذف في قلوبهم الرعب بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، وكان ذلك أعظم شيء عليهم إذ أتاهم ما لم يظنوه، قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم، فجعلوا يخربونها من داخل، والمسلمون يخربونها من خارج، وقيل إنهم كانوا يهدمونها من داخل بأيديهم ليرموا المسلمين بأحجارها ويهدمها المؤمنون ليتمكنوا من قتالهم قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ معناه: فليعتبر بما أصاب بني النضير كل من له بصرٌ بأمر الله تعالى، ولينظر إلى عاقبة الكفر والغدر والطعن في النبوة، وليحذر كل قوم من الكفار مثل ما صنع بني النضير، والمعنى: تدبروا وانظروا فيما نزل بهم يا أهل اللبّ والعقل والبصائر قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ قرأ العامة بالتخفيف من الإخراب أي يهدمونها، وقرأ الحسن وأبو عمرو يخرّبون بالتشديد من التخريب قال أبو عمرو: إنما اخترت التشديد لأن الإخراب تلك الشيء خراباً[1] بغير مساكن، وبنو النضير: لم يتركوا منازلهم فيرتحلوا عنها ولكنهم خربوها بالنقض والهدم وقال بعضهم: التخريب والإخراب بمعنى واحد قال الزهري: وذلك أنهم لما أيقنوا بالخروج كانوا يهدمون أعمدة بيوتهم وينتزعون الخشب والآلات، وينقضون السقوف وينقبون الجدران ويقتلعون الخشب[2] حتى الأوتاد لئلا يسكنها المسلمون حسداً وبغضاً وكان المؤمنون يخربون ما بقي من بنيانهم قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

معناه: لولا أن قضى الله عليهم في اللوح المحفوظ الانتقال والخروج عن أوطانهم إلى الشام وخيبر لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة، ولهم مع ما أصابهم في الدنيا عذاب النار في الآخرة، ولكن علم الله أن الجلاء أصلح قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي ذلك الجلاء والعذاب بأنهم خالفوا أولياء الله وأخذوا في شق غير شق أولياء الله، ومن يخالف الله في

---

(1) الثعلبي في تفسيره: خ.
(2) الثعلبي نفسه.

الدين فيفعل كفعل هؤلاء فإن الله شديد العقاب له في الدنيا والآخرة[1].

قال الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وذلك أن النبي ﷺ لما نزل ببني النضير وتحصنوا في حصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها فقالت اليهود: ما بعث نبي إلا بالصلاح وليس في هذا إلا إفساد المعيشة علينا وعليهم، وقالوا: يا محمد إنك تريد الصلاح أفمن الصلاح قطع النخيل والأشجار؟ وهل وجدت فيما زعمت أنزل الله عليك الفساد في الأرض؟ فشق ذلك على النبي ﷺ، ووجد المسلمون في أنفسهم من ذلك مشقة، وكان بعض المسلمين يقفون في قطع النخيل وبعضهم ينهى عن ذلك[2].

فأنزل الله تعالى هذه الآية تصديقاً للذين نهوا عن قطع النخل وتحليلاً لمن قطعه وبراءة لهم من الإثم وتصويباً للفريقين، فقال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وبين الله تعالى أن ما قطع منها قطع بإذن الله وما ترك منها ترك بإذن الله، واللينة: هي النخلة، قال ابن عباس وقتادة اللينة: هي كل نخلة غير العجوة، وقيل اللينة: ما خلا العجوة والبزي وجمعه: ليان[3].

---

(1) الثعلبي في تفسيره: خ.

(2) الواحدي في أسباب النزول: 351.
تفسير الطبري 14: 44. رقم 26219.
السيرة النبوية 3: 192.

(3) القرطبي في تفسيره 18: 8، قال: اختلف في اللينة ما هي؟ على أقوال عشرة... الخ.

وروي أن النبي ﷺ كان يقطع نخيلهم إلا العجوة، قال عكرمة: والنخل كله ليان ما خلا العجوة، وقال سفيان اللينة: هي كريم النخل، وقال مقاتل: هو ضرب من النخل ثمرها شديد الصفرة يغيب فيه الضرس عند أكله، وكان من أجود تمرهم وأعجبه إليهم، والعرب تسمي النخل كله ليان قوله تعالى: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ معناه: وليهين الله، ويذل اليهود، ويخزيهم بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا لأنهم نقضوا العهد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ معناه: وما ردّ الله على رسوله من غنائم بني النضير مما لم توجفوا عليه أنتم بخيل ولا إبل ولكن مشيتم إليه مشياً لأن ذلك كان قريباً من المدينة أي لم يحصل ذلك بتعب لكم فلا شيء لكم من ذلك إنما كان ذلك بتسليط الله نبيه ﷺ والله تعالى يمكن رسله صلوات الله عليه من أعدائه بغير قتال، والله على كل شيء من النصر والغنيمة قادر والضمير في قوله تعالى: ﴿أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على ما أفاء الله، والإيجاف: هو الإسراع والإزعاج للسير، يقال: وجف الفرس وأوجفته أنا، والوجيف نوع من السير فوق التقريب، ويقال وجف الفرس والبعير يجف وجفا إذا أسرع السير وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع ومعنى الآية: ما أفاء الله على رسوله من مال بني النضير فما أوجفتم عليه أي لما أوضعتم عليه من خيل ولا إبل، ولم ينالوا فيه مشقة، ولم يلقوا حزناً، وإنما مشيتم إليه مشياً إلا النبي ﷺ فإنه ركب جملاً، فافتتحها النبي ﷺ وأجلاهم عنها، وأحرز أموالهم، فسأل المسلمون النبي ﷺ القسمة في تلك الأموال فأنزل الله تعالى هذه الآية، فجعل أموال بني النضير خاصة لرسول الله ﷺ يضعها حيث شاء فقسمها رسول الله ﷺ بين المهاجرين ولم يعطِ الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة فقد كانت بهم حاجة وهم: أبو دجانة[1]،

---

(1) أبو دجانة سماك بن خراشة من لوذان، كانت عليه يوم بدر عصابة حمراء يعلم بها في الزحوف، وشهد أحداً وثبت مع الرسول ﷺ أعطاه الرسول سيفه بحقه فارتجز:

أنا الذي عاهدني خليلي ... بالشعب ذي السفح لدى النخيل

ألا أكون آخر الأفول ... أضرب بسيف الله والرسول

استشهد في موقعة اليمامة من حروب الردة سنة اثنتي عشرة هجرية، الطبقات الكبرى 3: 419.

وسهل بن حنيف[1]، والحارث بن الصمة[2].

وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان ينفق على أهله من مال بني النضير نفقة[3] سنة، وما بقي جعله في الكراع[4] والسلاح عدة في سبيل الله لأنه مما أفاء الله على رسوله فلم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب فكان خالصاً لرسول الله ﷺ، وأراد بهذا ما كان يحصل من غلة أراضيهم في كل سنة، وهذه الآية دالة على أن كل مال من أموال أهل الشرك لا يغلب عليه المسلمون عنوة، وإنما أخذ صلحاً إنه يوضع في بيت مال المسلمين، ويصرف إلى الوجوه التي تصرف فيها الجزية والخراج لأن ذلك بمنزلة أموال بني النضير قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ اختلف أهل اللغة في الفيء ما هو؟ فقال بعضهم: هو ما ملكه الله المسلمين من أموال المشركين يعني بغير قتال أو بقتال، والغنيمة فيء، والخراج فيء، والجزية فيء، وقال بعضهم: الغنيمة اسم لما أخذه المسلمون من الكفار عنوة وقهراً، والفيء: ما صولحوا عليه، فبيّن الله في هذه الآية حكم الفيء فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي من غنائم قرى المدينة في

---

(1) سهل بن حنيف بن واهب، آخى الرسول بينه وبين علي بن أبي طالب شهد بدراً وثبت يوم أحد مع الرسول ﷺ وأعطاه الرسول من أحوال بني النضير لفقره، وشهد صفين مع علي، مات بالكوفة سنة ثمان وثلاثين هجرية، وصلى عليه علي وكبّر عليه ست تكبيرات، وقال لأعرفكم بفضل أهل بدر، الإصابة 2: 87.

(2) الحارث بن الصمة: شهد الحارث أحداً وثبت مع الرسول ﷺ، وقتل عثمان بن المغيرة المخزومي، وأخذ سلبه درعاً ومغفراً وسيفاً، وعندما قال الرسول ما فعل عمي حمزة؟ خرج الحارث في طلبه، ولحق به علي بن أبي طالب وهو يرتجز:

يا رب إن الحارث بن الصمة ... كان رفيقاً وبنا ذا ذمه
قد ضل في مهامه مهمة ... يلتمس الجنة فيها ثمه

فوجده، ووجد حمزة مقتولاً فأخبرا النبي ﷺ، استشهد الحارث في موقعة بئر معونة على رأس ستة ست وثلاثين شهراً من الهجرة، الطبقات الكبرى 3: 386.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري 9: 619، رقم 4885 باب ما أفاء الله على رسوله ﷺ، ومسلم في صحيحه بشرح النووي 12: 69، باب حكم الفيء.

(4) في الدواب التي تصلح للحرب.

قريظة، وبني النضير، وفدك فإن ذلك خاصة للنبي ﷺ دون الغانمين وكان أمر رسول الله ﷺ في ذلك حائزاً، فكان ﷺ يصرفها بأمر الله تعالى إلى نوائب نفسه، وفقراء قرابته، ويتامى الناس عامة، والمساكين عامة يعني المحتاجين، وأبناء السبيل، ولفقراء المهاجرين، واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال بعضهم: أراد بقوله: ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى: الغنائم التي يأخذها المسلمون من أموال الكفار عنوة وغلبة، وكانت الغنائم في بدء الإسلام لهؤلاء المسلمين دون الغانمين الموجفين عليها ثم نسخ ذلك بقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾[1] والآية التي قبل هذه في بيان حكم أموال بني النضير خاصة، وهذه في بيان حكم سائر الأموال التي أصيبت بغير قتال، ولم يوجف عليها بالخيل والجمال، وقال آخرون هما واحد، والثانية بيان قسم المال الذي ذكر الله تعالى في الآية الأولى.

والغنائم كانت في بدء الإسلام لرسول الله ﷺ يصنع بها ما يشاء كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾[2] ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية، فجعل أربعة أخماسها للغانمين تقسم بينهم، وأما الخمس الباقي فيقسمه على خمسة أسهم: أسهم لرسول الله ﷺ، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لبني السبيل[3]، قوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ معناه: كي لا يكون الفيء متداولاً بين الأغنياء منكم، والفرق بين الدُولة والدَّولة أن الدولة بفتح الدال عبارة عن المرة من الاستيلاء والغلبة، والدُولة: اسم للشيء يتداول والمعنى: كي لا يتداوله الأغنياء منكم ليكون لهذا مرة ولهذا مرة كما يعمل في الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها وهو المرباع، والأغنياء الرؤساء قال مقاتل: كيلا يغلب الأغنيار الفقراء فيقسمونه بينهم ثم قال للرؤساء ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ من الفيء

(1) سورة الأنفال: 8، الآية: 41.
(2) . سورة الأنفال: 8، الآية الأولى.
(3) القرطبي في تفسيره 18: 14، 15.
الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم لأبي بكر بن العربي 2: 224.

والغنيمة فخذوه فهو حلال لكم وما نهاكم عن أخذه فانتهوا وهذا نازل في أمر الفيء ثم هو عام في كل ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه قال الحسن: في قوله ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ يعني ما نهاكم عنه من الفلول، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ معناه: واتقوا عذاب الله إن الله شديد العقاب إذا عاقب فعقوبته شديدة.

قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿8﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿9﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿10﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ معناه: كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، ولكن يكون للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم يعني أن كفار مكة أخرجوهم يبتغون فضلاً من الله أي رزقاً مما آتاهم ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ أي إرضاء ربهم حين خرجوا من دار الهجرة، أولئك هم الصادقون في إيمانهم.

والمعنى: للفقراء المهاجرين بيان المحتاجين المذكورين في الآية التي قبل هذه الآية كأنه قال لهؤلاء المحتاجين الفقراء ما تقدم ذكره من الفيء، وكانوا نحواً من مائة رجل، وكانوا شهدوا بدراً أجمعين ولذلك أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي يطلبون بتلك الهجرة ثواب الله ورضاه، وينصرون بالسيف والجهاد أولياء الله وأولياء رسوله أولئك هم الصادقون في الإيمان وطلب الثواب، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ قال الكلبي: والذين تبوءوا الدار مبتدأ وخبره: يحبون من هاجر إليهم[1] وهذا ثناء على الأنصار وذلك أن النبي ﷺ لما أعطى المهاجرين ما قسم

(1) التبيان في إعراب القرآن 2: 406.

لهم من فيء بني النضير لم يأمن على غيرهم أن يجسدهم إذا لم يقسم فقال للأنصار إن شئتم قسمتم لهم من دوركم وأموالكم، وقسمت لكم كما قسمت لهم، وأما أن يكون لهم القسم ولكم دياركم وأموالكم فقالوا: لا بل تقسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم في قسمة ما أفاء الله عليهم بهذه الآية، والمعنى: والذين لزموا دار الهجرة، ولزموا الإيمان من قبل هجرة المهاجرين ووطنوا منازل أنفسهم لهم يحبون من هاجر إليهم من مكة من أصحاب النبي ﷺ، ولا يجدون في قلوبهم ضيقاً وحسداً مما أعطوا المهاجرين من الغنائم، ومعنى الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ يعني المدينة وهي دار الهجرة تبوءها الأنصار قبل المهاجرين، وتقدير الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لأن الأنصار لم يؤمنوا قبل المهاجرين، وعطف الإيمان على الدار في الظاهر لا في المعنى لأن الإيمان ليس بمكان تبوّئ والتقدير: وآثروا الإيمان أي اعتقدوا الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ معناه: ويؤثرون المهاجرين على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم، ولو كان بهم فقر وحاجة إلى الدار والنفقة بين الله أن إيثارهم لم يكن عن غناء من المال ولكن عن حاجة فكان ذلك أعظم لأجرهم وعن أبي هريرة قال: جاء[1] رجل إلى النبي ﷺ وقد أصابه الجهد فقال: يا رسول الله إني جائع فأطعمني؟ فبعث النبي ﷺ إلى أزواجه: «**هل عندكن شيء؟**» فكلهن قلن: والذي بعثك بالحق ما عندنا إلا الماء[2]. فقال ﷺ: «**ما عند رسول الله ما يطعمك هذه الليلة**»، ثم قال: «**من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله؟**» فقام رجل، فقال: أنا يا رسول الله قال في صحيح مسلم[3] هو أبو طلحة وقيل: أبو أيوب، والضيف أبو هريرة، فمضى به إلى منزله، فقال: لأهله هذا ضيف رسول الله ﷺ، فأكرميه ولا تدخري عنه شيئاً، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، قال: قومي فعلليهم[4] عن قوتهم حتى يناموا

(1) هو أبو هريرة كما ذكر ذلك فتح الباري في شرحه للصحيح 9:622.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي 14:11، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره.
(3) صحيح مسلم 14:13.
(4) عليهم: يقال: علله بكذا، شغله ولهاه به.

ثم أسرجي وأحضري الطعام، فإذا أخذ الضيف ليأكل قومي كأنك تصلحين السراج فاطفئيه وتعالي نمضغ ألسنتنا لضيف رسول الله ﷺ حتى يشبع، فقامت المرأة إلى الصبية فعللتهم حتى ناموا ولم يطعموا شيئاً ثم قامت فأسرجت السراج فلما أخذ الضيف ليأكل قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته وجعلا يمضغان ألسنتهما فظن الضيف أنهما يأكلان معه فأكل الضيف حتى شبع، وباتا طاويين فلما أصبحا غدوا إلى رسول الله ﷺ، فلما نظر إليهما تبسم، ثم قال: «**لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة**»، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وقال أنس رضي الله عنه: أهدي لبعض الصحابة رأس شاة مشوية، وكان مجهوداً، فقال: لعل جاري أحوج إليه مني، فبعث به إليه، ثم إن جاره قال: مثل ذلك، فوجه به إلى جار له، فتداولته تسعة أنفس حتى عاد إلى الأول، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1] وحكي عن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيّف وثلاثون رجلاً بقرية قرب الري، ومعهم أرغفة قليلة لا تشبع جميعهم فكسروا الرغفان، وأطفأوا السراج وجلسوا ليأكلوا الطعام، فلما رفع فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئاً إيثاراً[2] لصاحبه على نفسه، ويحكى عن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي، ومعي شيء من الماء، فإذا أنا به، فقلت: له أسقيك، فأشار برأسه أن نعم فإذا أنا برجل يقول: آه! آه، فأشار ابن عمي أن انطلق بالماء إليه، فإذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك؟ فسمع آخر يقول آه، فأشار هشام أن انطلق إليه فجئته فإذا هو قد مات ثم رجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، ثم رجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات[3].

ويحكى عن أبي يزيد البسطامي قال: ما غلبني أحد ما غلبني شاب من

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري 9: 621. كتاب التفسير.
ومسلم في صحيحه بشرح النووي 14: 13، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره.
الواحدي في أسباب النزول ص: 353.

(2) القرطبي في تفسيره 18: 29.

(3) القرطبي نفسه.

أهل بلخ قدم علينا حاجاً فقال لي: يا أبا يزيد ما حدّ الزهد عندكم؟ قلت: إذا وجدنا أمكنا، وإذا فقدنا صبرنا، فقال: هكذا كلاب بلخ عندنا، فقلت: وما حدّ الزهد عندكم؟ قال: إذا فقدنا شكرنا، وإذا وجدنا آثرنا. وسئل ذو النون المصري عن علامة الزاهد قال: ثلاث تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار عند القوت[1]، قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي من يدفع عنه رذيلة الشح، وحرص النفس حتى تطيب نفسه بذلك، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون السعداء الباقون في الآخرة، والشح في اللغة: منع النفع، وأما في الدين فهو منع الواجب، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**بريء من الشح من أدّى زكاة ماله، وأقرى الضيف، وأعطى في النائبة**»[2]، وقال سعيد بن جبير شح النفس: هو أخذ الحرام، ومنع الزكاة، وجاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال: لقد خفت أن تصيبني هذه الآية ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والله ما أقدر أن أعطى شيئاً أطيق منعه، فقال عبد الله: إنما ذلك البخل، وبئس الشح البخل، ولكن الشح أن تأخذ مال أخيك بغير حقه[3]، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمع الشح والإيمان في قلب رجل مسلم، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخانة جهنم في جوف مسلم قط**»[4]، واختلف العلماء في الشح والبخل، فقال بعضهم: هما واحد وهو منع الفضل، وقال بعضهم: بينهما فرق، فالبخل أن يبخل الرجل بما في يديه والشح: أن يبخل بما في أيدي الناس، وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حمله على أن يسفك الدماء واستحلوا محارمهم**»[5]. وعن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت، فرأيت رجلاً يقول: اللهم قني شحّ نفسي لا يزيد على ذلك، فقلت له في ذلك، فقال: إني

---

(1) القرطبي في تفسيره.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان 7: 427، رقم 10842، باب في الجود والسخاء.

(3) ذكر البغوي في معالم التنزيل 5: 346.

(4) أخرجه البيهقي في الشعب 7: 10828.

(5) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي 16: 134 باب تحريم الظلم، وأخرجه البيهقي في الشعب 7: 424 رقم 10832.

إذا وقيت شح نفسي لم أسرق، ولم أزن، فإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف[1]. ويحكى أن كسرى قال لأصحابه ذات يوم أي شيء أضرَّ بابن آدم؟ قالوا: الفقر، قال: الشح أضر من الفقر لأن الفقير إذا وجد شبع، وإن الشحيح لا يشبع أبداً[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ يعني: التابعين، وهم الذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة، وقال ابن عمر: هؤلاء هم التابعون بالإحسان إلى يوم القيامة قال ابن أبي ليلى: الناس على ثلاث منازل: المهاجرون، والذين تبوءوا الدار والإيمان، والذين جاءوا من بعدهم فاجهد ألا تكون خارجاً من هذه المنازل[3] ثم ذكر الله تعالى أن هؤلاء التابعين يدعون لأنفسهم وللسلف الذين سبقوهم، فقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي لا تجعل في قلوبنا غشاً وحسداً وبغضاً وحقداً للمؤمنين فكل من لم يترحم على جميع الصحابة وكان في قلبه غلّ على أحد منهم كان خارجاً من أقسام المؤمنين لأن الله تعالى رتب المؤمنين على ثلاثة منازل: المهاجرين، والأنصار، والتابعين إلى يوم الدين.

قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿11﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿12﴾ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿13﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿14﴾﴾.

---

(1) تفسير القرطبي 18: 30.

(2) القرطبي نفسه.

(3) القرطبي في تفسيره 18: 31، والبغوي في معالم التنزيل 5: 348.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ يعني عبد الله بن أبي وأصحابه، ومعنى نافقوا: أظهروا خلاف ما أضمروا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب، وهم بنو قريظة، وبنو النضير، وسماهم إخوانهم لأنهم كفار مثلهم وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ أي لئن أخرجتم من دياركم إلى الغربة لنخرجن معكم أي لا نساكن محمداً ولا نطيعه على قتالكم، فإن قاتلتم محمداً وأصحابه لنعاوننكم عليه بأن تكون أيدينا يداً واحدة في المقاتلة حتى نغلبهم، وعدوهم أنهم ينصرونهم فكذبهم الله في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في مقالتهم.

وقد بان كذبهم فيما نزل ببني النضير من الجلاء، وفيما أصاب بني قريظة من القتل ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ فكان الأمر على ما ذكره الله لأنهم أخرجوا من ديارهم فلم يخرج معهم المنافقون، وقوتلوا فلم ينصروهم أظهر الله كذبهم، وبان صدق ما قال الله قوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ معناه: ولئن قدر وجود نصرهم لأن ما نفاه الله لا يجوز وجوده، قال الزجاج معناه: لو قصدوا نصر اليهود لولوا الأدبار منهزمين ثم لا ينصرون يعني بني النضير لا يصيرون منصورين[1] إذا انهزم ناصروهم قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ معناه: أنتم يا معشر المسلمين أهيب في صدور المنافقين واليهود من عذاب الله وخوفهم منكم أشد من خوفهم من الله لعلمهم بكم وبصفاتكم، وجهلهم بالله وعظمته ذلك الخوف الذي بهم منكم دون الله تعالى بأنهم لا يعرفون الله ولو عرفوه لعلموا أن عقوبة الله تعالى أعظم مما عساه يقع بهم من فعل المؤمنين، وفي هذه الآية: بيان أنه لا ينبغي لأحد أن يكون خوفه من الناس أزيد من خوفه من الله تعالى، فإن من زاد خوفه من أحد من الناس على خوفه من الله فليس بفقيه إنما الفقيه: من يخشى الله تعالى كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[2] والفقه العلم لمفهوم الكلام في إدراك ظاهره لمضمونه والناس يتقاضون في الإدراك لاختلافهم في

(1) معاني القرآن وإعرابه 5: 147.
(2) سورة فاطر: 35، الآية: 28.

جودة القريحة وسرعة الفطنة قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ معناه: لا يقاتلونكم بنو قريظة وبنو النضير إلا في حصون موثقة أو من خلف جدار لما قذف الله في قلوبهم من الرعب، ولا يقاتلونكم مبارزة قرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن كثير، وأبو عمرو: جدار بالألف على الواحد، ويروى عن بعض أهل مكة: جَدْر بفتح الجيم، وجزم الدال وهي لغة في الجدار، وقرأ يحيى بن وثاب: جُدْر بضم الجيم وجزم الدال، وقرأ الباقون بضمهما[1]. ١١١

قوله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني بعضهم وعداوة بعضهم لبعض شديدة وبينهم مخالفة وعداوة عظيمة تحسبهم جميعاً أي تحسبهم متفقين على أمر واحد بنيات مجتمعة إذا قاتلوا المؤمنين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي متفرقة لا يتعاونون لمعاداة بعضهم بعضاً وإن أظهروا الموافقة والمعنى أنهم مختلفون لا تستوي قلوبهم ولا نياتهم لأن الله خذلهم بذلك الاختلاف ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه الحظ لهم، ولا يعقلون الرشد من الغي.

قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿15﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿16﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿17﴾﴾.

قال الحداد رحمه الله: قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ معناه: مثل هؤلاء اليهود كمثل الذين من قبلهم وهم كفار مكة يعني مثلهم فيما ينزل بهم من العقوبة كمثل مشركي مكة قوله تعالى: ﴿قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ يعني القتل والأسر ببدر، وكان ذلك قبل غزوة بني النضير بستة أشهر ولهم عذاب أليم في الآخرة قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ

---

(1) تراجع هذه القراءات في الكشف عن وجوه القراءات السبع 2: 216.
وفي المحتسب لابن جني 2: 411.
والنحاس في إعراب القرآن 4: 399.

فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾ أي مثل المنافقين في غرورهم بني النضير وخذلانهم كمثل الشيطان في غروره لابن آدم إذ دعاه إلى الكفر بما زينه له من المعاصي فلما كفر الآدمي تبرأ الشيطان منه ومن ذنبه في الآخرة، ويقال: إن المراد بهذه الآية إنسان بعينه يقال له: «برصيصا» عبد الله تعالى في صومعة له سبعين سنة، وكان من بني إسرائيل[1]، فعالجه إبليس فلم يقدر عليه، فجمع ذات يوم مردة الشياطين، وقال لهم: ألا أحد منكم يكفيني أمر برصيصا، فقال له الأبيض: أنا أكفيك، وكان من شدة تمرد هذا الأبيض أنه اعترض للنبي ﷺ ليوسوس إليه فدفعه جبريل دفعة هينة، فوقع في أقصى أرض الهند، فقال الأبيض لإبليس: أنا أتزين له، فتزين بزينة الرهبان، ومضى حتى أتى صومعة برصيصا، فأقبل على العبادة في أصل الصومعة، فانفتل برصيصا، فإذا هو يراه قائماً يصلي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان، فأقبل إليه، وقال له: يا هذا ما حاجتك؟ فقال: أحب أن أكون معك، فأتعلم منك، وأقتبس من عملك، ونجتمع على العبادة، فتدعو إليّ وأدعو لك، فقال له برصيصا: إني لفي شغل عنك، فإن كنت مؤمناً فسيجعل الله لك نصيباً مما أدعو للمؤمنين والمؤمنات، ثم أقبل على صلاته، وترك الأبيض، وقام الأبيض يصلي، فلم يلتفت إليه برصيصا إلا بعد أربعين يوماً، فلما التفت إليه بعد الأربعين رآه يصلي قائماً فلما رأى برصيصا شدة اجتهاده، وكثرة ابتهاله وتضرعه أقبل عليه.

وقال له: اطلب حاجتك، قال: حاجتي أن تأذن لي فارتفع إليك فأكون معك في صومعتك، فأذن له فارتفع إليه فأقام معه في صومعته حولاً كاملاً يتعبد لا ينظر إلا في كل أربعين يوماً يوماً ولا ينفتل عن صلاته إلا في كل أربعين يوماً يوماً فلما رأى برصيصا شدة اجتهاده أعجبه شأنه، وتقاصرت عنه عبادة نفسه، فلما جاء الحول قال الأبيض لبرصيصا: إني منطلق إلى صاحب لي غيرك أشد

---

(1) هذا من جملة ما تأثر فيه الإمام الحداد بمن ينقل عنهم.
رواه السيوطي في الدر المنثور 7: 116، وأخرجه الحاكم في المستدرك 2: 484 عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والبيهقي في شعب الإيمان 4: 373 رقم 5450، والطبري في تفسيره 14: 63، رقم 26266.

اجتهاداً منك وإنه قد كان بلغني عنك من العبادة والاجتهاد غير الذي أرى منك فدخل على برصيصا من كلامه ذلك أمر عظيم، وكره مفارقته لما رأى من شدة اجتهاده في العبادة فلما ودعه قال له الأبيض؛ إن عندي دعوات أعلمكها تدعو بها فهي خير لك مما أنت فيه يشفي الله بها السقيم، ويعافي بها المبتلى والمجنون، فقال برصيصا: إني أكره هذه المنزلة، وإن لي في نفسي شغلاً، وإني أخاف إن علم الناس بذلك شغلوني عن العبادة فلم يزل به الأبيض حتى علمه، وانطلق الأبيض حتى أتى إلى إبليس، وقال له: والله قد أهلكت الرجل ثم انطلق الأبيض إلى رجل فخنقه ثم جاء إلى أهله في صورة طبيب، فقال لهم: إن بصاحبكم جنوناً، فقالوا له: فعالجه لنا وداوه، فقال: إني لا أقوى على جنيته ولكني أرشدكم إلى من يدعو له فيعافى قالوا: دلنا، قال: انطلقوا إلى برصيصا فإن عنده الاسم الأعظم الذي إذا دعا الله به أجاب، فمضوا بصاحبهم إليه، فدعا الله بتلك الكلمات التي علمها إياه الأبيض فذهب عنه الشيطان.

ثم انطلق الأبيض إلى صبية من بنات الملوك ولها ثلاثة أخوة، وكان لهم عم هو ملك بني إسرائيل فخنقها ثم جاء إليهم في صورة طبيب فعالجها وداواها فلم يذهب عنها، فقال لهم: إن الذي عرض لها مارد لا يطاق ولكني أرشدكم إلى رجل يدعو لها بدعوات فتتعافى قالوا: ومن هو؟ قال: برصيصا، قالوا: وكيف يجيبنا ذلك إلى هذا الأمر، وكيف يقبلها منا قال: ابنوا لها صومعة إلى جنب صومعته وتكون لزيقة بصومعته وقولوا له هذه أمانة عندك فاحتسب فيها، فانطلقوا بها إليه فلم يقبلها فبنوا لها صومعة كما ذكر لهم الأبيض وتركوها فيها وقالوا لبرصيصا هذه أختنا وقد عرض لها عدو من أعداء الله فهي أمانة عندك، فاحتسب فيها ثم انصرفوا فلما انفتل برصيصا عن صلاته عاينها فرأى جمالاً رائعاً وحسناً فائقاً فسقط في يده ودخل عليه أمر عظيم فجاءها الأبيض فخنقها، فلما رأى برصيصا ذلك انفتل عن صلاته ودعا بتلك الدعوات فذهب عنها الشيطان، ثم جاء الأبيض إلى برصيصا، وقال له: انزل اتخذ مثل هذه وواقعها، وأنت تتوب بعد ذلك، ولم يزل به حتى واقعها وابتنى بها، فأقامت معه كذلك وهو يواقعها حتى حملت وظهر حملها، فقال له الأبيض: ويحك أنت قد افتضحت

فهل لك أن تقتلها وتتوب فإن سألوك عنها فقل جاء شيطانها فذهب بها ولم أطق عليه، ففعل ذلك فقتلها، وذهب بها إلى ناحية من الجبل ودفنها، فجاء الشيطان ليلاً وهو يدفنها فجذب طرف إزارها حتى صار خارجاً من التراب، ثم رجع برصيصا إلى صومعته، وأقبل على صلاته فجاء إخوتها يتعاهدونها وكانوا في سائر الأيام يأتون إلى برصيصا ويتعاهدون أختهم ويوصونه بها فأتوه في هذه المرة كعادتهم فلم يجدوها فقالوا أين ذهبت أختنا فقال برصيصا: جاء شيطانها فذهب بها ولم أطقه فصدقوه وانصرفوا عنه وهم مكروبون، فجاءهم الأبيض في صورة إنسان، وأخبرهم بالخبر، وقال هي مدفونة في موضع كذا وإن برصيصا قد فعل بها كذا وكذا ثم قتلها ودفنها وإن طرف رداءها خارج التراب فانطلقوا فوجدوها كما قال لهم فجمعوا لبرصيصا غلمانهم وعساكرهم وجاءوا بالفؤوس والمساحي فهدموا صومعته فأنزلوه وكتفوه وانطلقوا به إلى الملك مغلولاً فسأله عن ذلك فأقرّ على نفسه فصلبه الملك على خشبة فجاء إبليس إلى الأبيض، وقال له: أي شيء صنعت في برصيصا؟ الآن يقتل ويكون قتله كفارة لما كان منه، وما يغنى عنك ما صنعت فيه، فقال الأبيض أنا أكفيك فيه فأتاه وهو مصلوب، فقال له: يا برصيصا أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات أما اتقيت الله في أمانة وضعت عندك خنت أهلها، وأنت أعبد بني إسرائيل أما استحييت من الله أما راقبته في دينك فلم يزل يعيره ويوبخه، ثم قال له: وما كفارة ما صنعت حتى أقررت على نفسك، وفضحت أشياخك فإن متّ على هذه الحالة لم تفلح أبداً قال: فكيف أصنع؟ قال: تطيعني في خصلة حتى أنجيك مما أنت فيه، وآخذ ما عندهم وأخرجك من مكانك قال: وما هي؟ قال: تسجد لي سجدة واحدة، قال: كيف أسجد لك، وأنا مصلوب على هذه الحالة قال: أكتفي منك بالإيماء فأومأ له بالسجود فكفر بذلك، فقال: يا برصيصا هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك إلى أن كفرت بربك إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ثم ذهب عنه، وتركه، فقتل.

فضرب الله هذا مثلاً لبني قريظة، والنضير والمنافقين من أهل المدينة، وذلك أن الله أمر نبيه ﷺ أن يجلي بني النضير فدسّ إليهم المنافقون أن لا

يجيبوا محمداً إلى ما دعاهم إليه، ولا يخرجوا من ديارهم فإن قاتلكم كنا معكم، وإن أخرجكم خرجنا معكم فأطاعوهم، ودربوا على حصونهم وتحصنوا في دورهم، فجاء رسول الله ﷺ فحاربهم فناصبوه الحرب يرجون نصرة المنافقين، فخذلوهم وتبرءوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا وخذله. قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ معناه: فكان عاقبة الشيطان والذي كفر أنهما في النار مقيمين دائمين وذلك جزاء الظالمين أي وذلك عاقبة الكافرين، فيحذر كل امرىء أن يقع في مثل ما وقع فيه هذا الكافر، وقال مقاتل معنى الآية: فكان عاقبة المنافقين واليهود أن صاروا إلى النار، وذلك جزاؤهم.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (19) لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (20) لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ معناه: اتقوا الله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، ولتنظر نفس ما قدمت ليوم القيامة أعملاً صالحاً ينجيها، أم عملاً سيئاً يوبقها؟ قال الحسن: ما زال الله يقرب الساعة حتى جعلها كغد، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي تركوا حق الله وأمره حتى صاروا كالمنسي لله، فأنساهم أنفسهم أي فخذلهم حتى لم يعملوا لله طاعة، ولم يقدموا خيراً لأنفسهم قال ابن عباس يريد قريظة والنضير، وباقي الآيتين ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ معناه: لو جعل في الجبل تمييز وعقل مثلكم، وعلم من القرآن ما تعلمون أنتم لرأيته يخشع ويتصدع خوفاً من عذاب الله مع عظمه وكبره وصلابته، فأنتم مع ضعفكم وصغركم أولى بالخشوع والعمل على مقتضى الدين في تمييز الحق من الباطل، وقيل معناه: لو شعر الجبل مع صلابته وشدته بالقرآن لخشع

تعظيماً للقرآن، ولتصدع من خشية الله، فالإنسان أحق بهذا منه، وهذا وصف للكافر في الفسق حيث لم تلين قلبه مواعظ القرآن الذي لو نزل على جبل لخشع.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (22) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (24)﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (22)﴾ قيل إن هذه الآيات مردودة إلى أول السورة، والمعنى: هو الذي أخرج الذين كفروا، وهو الله الذي تحق له العبادة، ولا يشركه في ذلك غيره، وهو العالم بكل شيء ما غاب عن العباد وما عملوه قوله تعالى: ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ القدوس: هو الظاهر عن كل عيب المنزّه عن ما لا يليق به، السلام: هو الذي سلم من كل نقص وعيب، وقيل: هو الذي سلّم العباد من ظلمه، والمؤمن: هو الذي أمن أولياءه عذابه. والمهيمن: هو الشهيد على عباده بأعمالهم ومنه قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي شاهداً عليه ويقال هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيباً على الشيء، والعزيز: الممتنع الذي لا يغلبه شيء ولا يمنع من مراده، والجبار: هو العظيم، والجبروت: الله تعالى عظمته، ويجوز أن يكون فعالاً من جبر إذا أغنى الفقير، وأصلح الكسير، ويجوز أن يكون من جبره على كذا إذا أكرهه على ما أراد قال السدي، ومقاتل: هو الذي يقهر الناس، ويجبرهم على ما يشاء، والمتكبر: هو المستحق لصفات التعظيم وهو من الكبرياء، وإنما تذم صفة المتكبر في الناس لأنه ينزل نفسه منزلة لا يستحقها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الخالق: هو المنشىء للأعيان، والبارىء: هو المقدر المسوي لها، والبرية الخلق، وبريت القلم: إذا سويته. والمصور: الناقش كيف يشاء يعني الممثل للمخلوقات بالعلامات المميزة، والهيئات المتفرقة والأسماء الحسنى: هي

الصفات العلى، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة الحشر غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»[1]، وقال ﷺ: «**من قرأ حين يصبح الثلاث الآيات من آخر سورة الحشر وكّل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، فإن مات من ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قرأها حين يمسي كان بتلك المنزلة**»[2]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سألت حبيبي رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم، فقال: «**عليك بآخر سورة الحشر فأكثر قراءتها**» فأعدت عليه، فأعاد عليَّ فأعدت عليه، فأعاد عليّ[3].

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف 4: 88.

(2) أخرجه البيهقي في الشعب 2: 492 رقم 2502، فصل في فضائل السور والآيات. والإمام أحمد في المسند 5: 26.

(3) ذكره الزمخشري نفسه.

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

قال أبو بكر الحداد رحمه الله: سورة الممتحنة مدنية، وهي: ألف وخمسمائة وعشرة أحرف، وثلاثمائة وثمان وأربعون كلمة، وثلاث عشرة آية، قال ﷺ: **«من قرأها كان المؤمنون والمؤمنات له شفعاء يوم القيامة»**[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (1) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ (2)﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[2] نزلت هذه الآية في حاطب بن أبي بلتعة وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صفي بن هشام أتت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ورسول الله يتجهز لفتح

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف 4: 96.
والثعلبي في تفسيره: خ.

(2) الواحدي في أسباب النزول: 354.
والطبري في تفسيره 14: 74، رقم 26292.
وأخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري 9: 624، رقم 4890 كتاب التفسير.

مكة، فقال لها النبي ﷺ: «**أمسلمة جئت؟**» قالت: لا، قال: «**أمهاجرة جئت؟**» قالت: لا، قال: «**فما حاجتك؟**» قالت: كنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد ذهبت موالي، واحتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني قال: «**وأين أنت من شباب أهل مكة؟**» مغنية ونائحة قالت: ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر، فأمر النبي ﷺ بني عبد المطلب، فكسوها وأعطوها نفقة، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة الأزدي حليف بني أسد فكتب إلى أهل مكة، وأعطاها عشرة دنانير على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة وكتب في الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم مع أشياء كتب بها ينتصح لهم فيها، فمضت سارة بالكتاب فنزل جبريل عليه السلام، فأخبر النبي ﷺ بما فعل حاطب بن أبي بلتعة، فبعث رسول الله ﷺ وراءها علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، والمقداد فخرجوا تتعادى[1] بهم خيلهم، فلحقوها، فطلبوا منها الكتاب.

فقالت: ما معي كتاب، وحلفت على ذلك، ففتشوا متاعها، فلم يجدوه، فقالت لهم: لا تصدقوني حتى تفتشوا ثيابي اصرفوا وجوهكم عني، فصرفوها، فطرحت ثيابها، ففتشوها فلم يجدوا شيئاً، فتركوها وهموا بالرجوع، فقال علي رضي الله عنه: إني أشهد أن رسول الله ﷺ لم يكذبنا، وأنها هي الكاذبة فيما تقول، فاستل سيفه، وقال: اخرجي الكتاب وإلا والله لأضربن عنقك، وأقسم على ذلك، فلما رأت الجد أخرجته من ظفائر رأسها، فأخذوه وخلوا سبيلها، ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: «**يا حاطب هل تعرف هذا الكتاب؟**» قال: نعم، قال: «**ما حملك على ذلك؟**» قال: والله يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ صحبتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، فلا تعجل عليّ يا رسول الله إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، ولم أكن منهم، ولم يكن أحداً من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته، وأنا غريب فيهم، وكان أهلي بين أظهرهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ

---

(1) تتعادى: أي تجري مسرعة.

عندهم يداً، والله ما فعلت ذلك شكا في ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، ولا ارتبت في الله منذ أسلمت، وقد علمت بأن الله تعالى ينزل عليهم بأسه، وإن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله ﷺ، وعذره، وقال: إنه قد صدق، فقام عمر رضي الله عنه، وقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ، «**إنه قد شهد بدراً، وما يدريك يا عمر أن الله تعالى قال لأهل بدر: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»، وروي أن عبداً لحاطب جاء يشتكي بحاطب إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار، فقال: «**كذبت لا يدخلها أبداً لأنه قد شهد بدراً والحديبية**» ثم أنزل الله هذه الآية يعرف بها النبي ﷺ أن حاطباً مؤمن فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ معناه: لا تتخذوا الكافرين أحباء في العون والنصرة تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ، وسره بالمودة التي بينكم وبينهم، وتخبرونهم بما يخبر به الرجل أهل مودته.

وقد جحدوا بما جاءك من الحق يعني القرآن، ومع ذلك يخرجون الرسول وإياكم أي يخرجون الرسول من مكة، ويخرجونكم أيضاً من دياركم لأجل إيمانكم بربكم قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ هذا شرط وجوابه متقدم عليه وهو قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ تقديره: إن كنتم خرجتم مجاهدين في طاعتي ومتبعين مرضاتي فلا تتخذوهم أولياء، قوله تعالى: ﴿جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ منصوبان لأنهما مفعول[1] لهما قوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي تخفون مودتهم وأنا أعلم بما تضمرون في صدوركم وما تظهرون بألسنتكم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ يعني الأسرار وإلقاء المودة إليهم، فقد ضل سواء السبيل أي فقد أخطأ طريق الهدى والمعنى: ومن يفعله منكم يا معشر المؤمنين بما فعل حاطب، فقد أخطأ قصد الطريق والهدى قوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ معناه: إن يصادقوكم ويظفروكم في حال لا يخافونكم فيها يظهروا عداوتكم، ويبسطوا إليكم أيديهم بالقتل والضرب وألسنتهم بالشتم والطعن، ويحبون أن تكفروا بالله بعد

---

(1) التبيان في إعراب القرآن 2: 407.
النحاس في إعراب القرآن 4: 410.

إيمانكم كما أنهم كافرون، والمعنى: لا ينفعكم التقرب إليهم بنقل أخبار النبي ﷺ إليهم.

قال الله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (4) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (5)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ أي لا توادهم بسبب الأرحام والأولاد فإن الأرحام والأولاد لا ينفعوكم، فلا تعصوا الله، ولا تخونوا رسوله لأجلهم يوم القيامة يفصل بينكم فيدخل أهل طاعة الله الجنة، ويدخل أهل الكفر النار، والله بما تعملون من الخير والشر بصير.

قرأ عاصم ويعقوب: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ بفتح الياء وكسر الصاد مخففاً، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿يُفَصِّلُ﴾ بضم الياء وكسر الصاد مشدداً، وقرأ ابن عامر والأعرج ﴿يُفَصَّلُ﴾ بضم الياء وفتح الصاد مشدداً، وقرأ طلحة والنخعي: ﴿نُفَصِّلُ﴾ بالنون وكسر الصاد مشدداً، وقرأ الباقون: ﴿يُفَصَلُ﴾ بضم[1] الياء وفتح الصاد مخففاً ثم ضرب الله لهم إبراهيم مثلاً حين تبرأ من قومه فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي قد كانت لكم قدوة حسنة في إبراهيم خليل الله والذين معه من المؤمنين إذ قالوا لأقاربهم من الكفار إنا برءاء منكم ومن دينكم ومما تعبدون من دون الله، ومن الأصنام تبرأنا منكم، وظهر بيننا وبينكم العداوة بالفعل والبغضاء بالقلب إلى الأبد حتى تقروا وتصدقوا

(1) تراجع هذه القراءات في: كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: 633.
وفي النحاس في إعراب القرآن 4: 411.
ومكي في الكشف عن وجوه القراءات 2: 318.
والقرطبي في تفسير 18: 55.

بوحدانية الله تعالى فهلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم في إظهار معادة الكفار، وقطع الموالاة بينك وبينهم كما فعل إبراهيم ومن معه قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم وأموره إلا قوله لأبيه لأستغفرن لك، وما أملك لك من الله من شيء إن عصيته نهوا أن يتأسوا بإبراهيم في هذه الخاصة فيستغفروا للمشركين.

والمعنى: قد كانت لكم أسوة في صنع إبراهيم إلا في استغفاره لأبيه وهو مشرك ثم بيّن الله عند إبراهيم في سورة التوبة في استغفاره لأبيه فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾[1] وكان هذا قبل إخبار الله تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به، وقول إبراهيم: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ معناه: لا أقدر على دفع شيء من عذاب الله تعالى عنك إن لم تؤمن، وكان من دعاء إبراهيم عليه السلام وأصحابه ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي بك وثقنا ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي فوّضنا أمورنا، وإليك رجعنا بالتوبة والطاعة ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ في الآخرة ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي لا تظهر الكتاب علينا فيظنوا أنهم على الحق، وأنا على الباطل فيفتتنوا بنا هكذا قال قتادة، وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال معناه: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، وقال مجاهد معناه: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿6﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿7﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿8﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿9﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ معناه: لقد كان لكم في إبراهيم والذين معه قدوة صالحة فيما رجع إلى أن جاء

---

(1) سورة التوبة: 9، والآية: 114.

ثواب الله وحسن المنقلب في اليوم الآخر وهذا مقتضى وجوب الاهتداء بهم في أفعالهم، وأما الأول فهو الاقتداء بهم في باب العداوة لله، والولاية لله تعالى في أمر الدين وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ بدل من قوله لكم فيهم[1] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾[2] ومعنى يرجو الله أي يخاف الله، ويخاف الآخرة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي من يعرض عن الإيمان ويوالي الكفار فإن الله هو الغني عن خلقه الحميد إلى أوليائه، وأهل طاعته قال مقاتل: فلما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار، وأظهروا لهم العداوة والبراءة امتثالاً لأمر الله تعالى فأنزل[3] الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ﴾ أي كونوا على رجاء وطمع في أن يجعل الله بينكم وبين الذين عاديتم من المشركين مودة يعني من كفار مكة ففعل الله ذلك بأن أسلم كثير منهم بعد الفتح منهم أبو سفيان بن حرب، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام وكانوا من رؤساء الكفار، والمعادين لأهل الإسلام، فصاروا لهم أولياء وإخواناً فخالطوهم وناكحوهم، وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب فلان لهم أبو سفيان بسبب المودة التي جعلها الله بينهم ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ﴾ على أن يجعل بينكم المودة[4] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بهم بعد ما تابوا وأسلموا.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ يعني أهل العهد الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال والمظاهرة وهم «خزاعة» أن تبروهم والمعنى: لا ينهاكم الله عن إبراء الذين لم يقاتلوكم، وهذا يدل على جواز البر بأهل الذمة، وإن كانت الموالاة منقطعة لذلك جوّز أبو حنيفة ومحمد صرف صدقة الفطر والكفارات والنذور المطلقة إليهم[5]، وأجمعوا على جواز صدقة

(1) التبيان في إعراب القرآن 4: 408.
(2) سورة آل عمران: 3، الآية: 97.
(3) البغوي في معالم التنزيل 4: 362، والواحدي في أسباب النزول: 356.
(4) القرطبي في تفسيره 18: 58.
(5) الكاساني في بدائع الصنائع 2: 49، ط 2/ 1982م، دار الكتاب العربي، بيروت. الجصاص في أحكام القرآن 3: 436.

التطوع إليهم، وأجمعوا على أنه لا يجوز صرف الزكوات إليهم لقوله عليه السلام: «**أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم**»[1] قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ في موضع خفض بدل من الذين كأنه قال: أن تبروهم، وقوله تعالى: ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ﴾ القسط إليهم أن يعطيهم قسطاً من أموالنا على جهة البر، ويقال: أقسط الرجل إذا عاملته بالعدل، قال الزجاج معناه: وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ⑨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٖ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ⑩﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما صالح رسول الله ﷺ كفار مكة عام الحديبية على أن من أفاء من أهل مكة رده عليهم، ومن أتى مكة من أصحابه فهو لهم ولم يردوه عليه، وكتب النبي ﷺ بذلك لهم كتاباً، وختم عليه خاتمه، فلما ختم ﷺ جاءته سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة فجاء زوجها إلى النبي ﷺ وهو كافر، فقال: يا محمد ردها عليّ فإنك شرطت لنا ذلك عليك، وهذه طينة كتابنا لم تجف، فأنزل[3] الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٖ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾. فاستحلفها رسول الله ﷺ بالله ما أخرجك إلينا إلا الحرص على الإيمان والرغبة فيه، والمحبة لله ولرسوله وللإسلام فحلفت

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري 4: 3 رقم 1395، كتاب الزكاة.
(2) معاني القرآن وإعرابه 5: 158.
(3) الواحدي في أسباب النزول: 357، والقرطبي في تفسيره 18: 61.

بالله العظيم الذي لا إله إلا هو ما خرجت إلا لذلك، فأمر النبي ﷺ أن يعطى زوجها مهرها الذي أنفق عليها وذلك معنى قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ أي هذا الامتحان لكم، والله عالم بهن وليس عليكم إلا علم الظاهر، والله أعلم بإيمانهن قبل الامتحان وبعده فإن علمتموهن في الظاهر بالامتحان أنهن مؤمنات فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار بمكة لا المؤمنات حلّ للكفار ولا الكفار يحلون للمؤمنات، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ أي أعطوا أزواج المهاجرات من الكفار ما أنفقوا عليهن من المهر قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي لا حرج عليكم أن تتزوجوهن إذا أعطيتموهن مهورهن ولو كان لهن أزواج كفار في دار الكفر لأن الإسلام قد فرق بينها وبين الكافر، وهذا كله دليل على أن المرأة إذا هاجرت إلينا مسلمة أو ذمية وقعت الفرقة بينهما بنفس الهجرة كما هو مذهب أصحابنا ولهذا قال أبو حنيفة إن المهاجرة[1] لا عدة عليها لأن الله تعالى أباح للمسلمين التزوج بالمهاجرات من غير أن يشترط انقضاء العدة ولو كانت الزوجية باقية بعد الهجرة لما أمر الله برد مهورهن على أزواجهن، وعلى هذا إذا خرج الزوج إلينا مسلماً أو ذمياً وقعت الفرقة بينه وبين امرأته.

وأما إذا دخل الحرب إلينا بأمان أو دخل المسلم دار الحرب بأمان أو أسلم الزوجان في دار الحرب ثم خرج أحدهما إلينا لم يبطل نكاحهما. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ معناه: أن المرأة المسلمة إذا كفرت والعياذ بالله فقد زالت العصمة بينها وبين زوجها وانقطع النكاح بينهما والكوافر جمع كافر نهى الله المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ معناه: واطلبوا من أهل مكة مهور النساء اللاتي يخرجن عنكم إليهم مرتدات وليسأل الكفار منكم ما أنفقوا على نسائهم اللواتي خرجن إليكم مهاجرات ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم بينكم وبينهم قال الزهري: فلما نزلت[2] هذه الآية آمن المسلمون بحكم الله

(1) الجصاص في أحكام القرآن 3:440، الكاساني في بدائع الصنائع 2:338.

(2) الطبري في تفسيره 14: 95ـ 96، رقم 26343ـ 26344، البغوي في معالم التنزيل 5:366.

فأما المشركون فأبوا أن يقروا فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ
(11) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
(12) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ
(13)﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ معناه: إن ذهبت امرأة من نسائكم إلى الكفار فعاقبتم أي فغنمتم، قال الزجاج معناه: فكانت العقبى لكم أي كانت الغلبة لكم حتى غنمتم فأعطوا الأزواج الذين ذهبت نساؤهم مثل ما أنفقوا من المهور قبل أن تقتسموا[1] الغنائم ثم اقسموا الغنائم كما أمر الله قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي اخشوه في مخالفة ما أمركم به قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ لما افتتح مكة جلس على الصفا وإلى جنبه عمر رضي الله عنه. والنساء يأتين يبايعنه ﷺ فيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً أن يعرفها رسول الله ﷺ وقد أنزل هذه الآية[2] فقال ﷺ: «**أنا أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً**»، فقالت هند: أشركنا وعبدنا الآلهة فما أغنت عنا شيئاً، فقال ﷺ: «**ولا يسرقن**» فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح مسيك وإني أصبت من ماله لغناه ولا أدري أيحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ، وعرفها وقال: «**وإنك لهند بنت عتبة**» قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك، فقال: «**ولا يزنين**»، قالت: وهل تزني الحرة؟ فضحك عمر رضي الله عنه، وقال: «**لا لعمري ما تزني الحرة**» ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ فقالت هند: ربيناهم

(1) معاني القرآن وإعرابه 5: 160.
(2) الطبري في تفسيره 14: 99 رقم 26358.
الطبري في تفسيره 14: 103 رقم 26367.

صغاراً وقتلتموهم كباراً وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم النبي ﷺ ومعنى قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أي لا يدفن بناتهن أحياء كما كان بعض العرب يفعلونه فقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي لا تلحق بزوجها ولداً ليس منه وذلك أن المرأة كانت تلتقط لقيطاً فتضعه بين يديها ورجليها، وتقول لزوجها ولدت هذا الولد فذلك البهتان والافتراء ويقال: أراد بين الأيدي أن توضع بين يديها ولد غيرها وبين أرجلهن أن يأتين بولد حرام وهذا كناية عن الفرج فلما قال عليه السلام: «**ولا يأتين ببهتان**» قالت هند: والله إن البهتان لقبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي في جميع ما يأمرهن وينهاهن من النوح، وشق الجيوب، وخمش الوجوه، ورنة الشيطان وغير ذلك من أصوات المصيبة، ومن صوت اللعب واللهو والمزامير وغير ذلك، والمعروف: كل ما كان طاعة، والمنكر كل ما كان معصية فلما قال ﷺ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء فأقرّت النسوة بما أخذ عليهن.

وقوله تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ معناه: إذا بايعنك على هذه الشروط فبايعهن، فقال ﷺ: «**قد بايعتكن**» كلاماً كلمهن به من غير أن مست يده امرأة، وكان على يد عمر رضي الله عنه ثوب يصافح به النساء. قال القرطبي معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال المعروف الذي لا معصية فيه[(1)]، وقال الربيع: كل ما يوافق طاعة الله فهو معروف. قال مجاهد: غير المعروف: هو خلو المرأة بالرجال، وعن سعيد بن المسيب أن معناه: ولا يحلقن ولا يصلقن ولا يخرقن ثوباً، ولا ينتفن شعراً، ولا يخمشن وجهاً، ولا يحدثن الرجال إلا ذا رحم محرم، ولا تخلو المرأة برجل غير ذي محرم، ولا تسافر مع غير ذي رحم. قال ابن عباس: ولا يَنُحْن، وعن مصعب بن نوح قال: أدركت عجوزاً ممن بايعت النبي ﷺ فحدثتني عن قوله تعالى: ﴿وَلَا

(1) في تفسيره 18: 71.

﴿يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قالت النوح، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**النوائح يجعلن يوم القيامة صفين وينبحن كما تنبح الكلاب**»، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تخرج النائحة من قبرها يوم القيامة شعثاء غبراء عليها جلباب من لعنة ودرع من حرب واضعة يدها على رأسها تقول وا ويلاه**» ومالك يقول: أمين، ثم يكون من ذلك حظها النار، وقال ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا تتركوهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**» وقال: «**النائحة: إذا لم تتب قبل موتها بعام جاءت يوم القيامة عليها سربال من قطران**»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**لعن الله النائحة والمستحية والحالقة والصالقة والواشمة والمستوشمة**»، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع نائحة فضربها حتى وقع خمارها عن رأسها فقيل له: يا أمير المؤمنين: إنها قد وقع خمارها، قال: إنها لا حرمة لها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ختم الله هذه السورة بمثل ما افتتحها به حيث نهى المؤمنين عن تولي أعداء الله، وأراد بالقوم الذين غضب الله عليهم اليهود والمعنى: يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا اليهود وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ لأنهم كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم وكانوا لا يؤمنون به فأيسوا من أن يكون لهم في الآخرة خير وقيل إنهم كانوا يزعمون أنه لا يكون في الآخرة أكل ولا شرب ولا نعمة والمراد بذلك اليهود وقوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ معناه: كما يئس المشركون الذين لا يؤمنون بالبعث من رجوع أصحاب القبور ومن أن يبعثوا وقيل معناه: كما يئس الكفار أي ماتوا وصاروا في القبور من أن يكون لهم في الآخرة حظ ويئسوا أن ليس لهم في الجنة نصيب.

---

(1) البغوي في معالم التنزيل 5: 369.

سُورَةُ الصَّفِّ

سورة الصف مدنية، وهي تسعمائة حرف، ومائتان وإحدى وعشرون كلمة، وأربع عشرة آية، قال ﷺ: **«من قرأ سورة الصف كان عيسى مصلياً عليه، ومستغفراً له ما دام في الدنيا، ويوم القيامة هو رفيقه»**[(1)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ
۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ وَإِذْ
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا
زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ قد تقدم تفسيره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ قال مقاتل: وذلك أن المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا بالقتال: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه وبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فدلّهم الله إلى أحب الأعمال إليه فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ فابتلوا يوم أحد بما أصابهم، فتولوا عن النبي ﷺ

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف 4: 101، والثعلبي في تفسيره: خ.

حتى شج وجهه، وكسرت رباعيته فذمهم الله على ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ أي عظم ذلك في المقت والبغض عند الله أي إن الله يبغضه بغضاً شديداً أن تعدوا من أنفسكم شيئاً، ثم لم تفوا به[1] وموضع: أن تقولوا رفع وانتصب قوله: مقتاً على التمييز[2]، وذكر الكلبي أن المسلمين كانوا يقولون قبل فرض الجهاد لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لفعلنا فدلهم الله على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ ولم يبين ما هي؟ فمكثوا على ذلك ما شاء الله، ثم قالوا يا ليتنا نعلم ما هي فنسارع إليها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآيات وقال قتادة: كان الرجل إذا خرج إلى الجهاد ثم رجع قال: قلت وفعلت ولم يكن فعل فأنزل[3] الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾﴾ أي يحب الذين يصفون أنفسهم عند القتال صفاً كأنهم بنيان ملتزق بعضه إلى بعض أعلم الله أنه يحب من يثبت في القتال ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص الذي قد أحكم وأتقن ليس فيه فرجة ولا خلل قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ في هذا تسلية للنبي ﷺ فيما لقي من آذاء الكفار والمنافقين وقد مر تفسير آذاهم موسى في سورة الأحزاب[4] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي عدلوا عن الحق ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أي أمالها عن الحق وخذلها ومنعها الهدى مجازاة لهم بإبداء نيتهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ إلى ثوابه وجنته.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا

---

(1) الواحدي في أسباب النزول: 358.
(2) التبيان في إعراب القرآن 2: 409.
(3) البغوي في معالم التنزيل 5: 371.
(4) عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ سورة الأحزاب: 33، الآية: 69.

لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿6﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿7﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿8﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿9﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ معناه: واذكر يا محمد لقومك قصة عيسى وعاقبة من آمن معه وعاقبة من كفر، وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا﴾ نصب على الحال[1] أي في حال تصديقي بالتوراة التي أوتيها من قبلي، وفي حال تبشيري برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد وذلك أن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام يا نبي الله هل بعدنا من أمة؟ قال: نعم أمة أحمد قالوا: يا روح الله، وما أمة أحمد؟ قال: حكماء علماء، أبرار أتقياء كأنهم من الأنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله تعالى منهم باليسير من العمل، ويدخلهم الجنة بلا إله إلا الله.

وفي تسمية نبينا عليه السلام أحمد قولان: أحدهما أن الأنبياء كانوا حمادين لله تعالى ونبينا ﷺ أحمد أي أكثر حمداً لله تعالى منهم فيكون معنى أحمد المبالغ في الفاعل، والثاني أن الأنبياء كلهم محمودون ونبينا عليه السلام أكثر مناقب للفضائل فيكون معناه مبالغة من المفعول يعني أنه يحمد بما فيه من الأخلاق والمحاسن أكثر مما يحمد غيره قال ﷺ: «**إن لي أسماء أنا أحمد وأنا محمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي**»[2] قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ معناه: وأي أظلم من الكفرة ممن اختلق على الله

---

(1) التبيان في إعراب القرآن 2: 410.

(2) وأخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري 7: 246 رقم 3532 من حديث جبير بن مطعم، كتاب المناقب.
أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي من حديث جبير بن مطعم 15: 104 باب في أسمائه ﷺ.
القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى 1: 444 ط 2 1986م دار الفيحاء عمان.

الكذب بأن جعل له شريكاً وولداً وهو يدعى إلى دين الإسلام والله لا يرشد إلى دينه من كان في سابق علمه أنه يموت على الكفر وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي هو الذي أرسل محمداً ﷺ بالقرآن، والدعاء إلى دين الحق ليظهره على جميع الأديان وإن كره المشركون ذلك فلا تقوم الساعة حتى لا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام أو أدوا الجزية إلى المسلمين وقوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: يريدون ليغلبوا دين الله مع ظهوره وقوته بتكذيبهم بألسنتهم كمن أراد إطفاء نور الشمس بأخف الأشياء وهي الريح التي يخرجها من فيه والله متم نوره أي هداه ومظهر دينه وغالب أعدائه وناصر أوليائه على كره من الكفار.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿10﴾
تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿11﴾
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿12﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿13﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟
أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ
فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ
﴿14﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿10﴾﴾ أي هل أدلكم على طاعة تخلصكم من عذاب مؤلم، وإنما سميت الطاعة تجارة لأنه يربح عليها الجنة والثواب كما يربح على تجارة الدنيا زيادة المال وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تفسير للتجارة المذكورة وإنما قدم ذكر الإيمان في هذه الآية لأنه رأس الطاعات وقوله تعالى: ﴿وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي وتجاهدون العدو في طاعة الله بنفقتكم وخروجكم بأنفسكم وقد يكون الجهاد بالمال دون النفس بأن يجهز غازياً بماله، وقد يكون بالنفس دون المال بأن يجاهد بنفسه بمال غيره وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي التجارة التي دللتكم عليها خير من التجارة في الأموال إن كنتم تعلمون ثواب الله لأن تلك التجارة تؤدي إلى ربح لا يزول ولا ينفد بخلاف التجارة في الأموال في أمور الدنيا قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ

﴿ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إنما جزم يغفر[1] على المعنى تقديره: إن فعلتم ذلك يغفر لكم وقال الزجاج: هو جواب تؤمنون وتجاهدون لأن معناه الأمر كأنه قال: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا يغفر لكم[2] وقوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ المساكن الطيبة هي المنازل الحسنة التي طيبها الله تعالى بالمسك والرياحين في جنات عدن أي في بساتين إقامة يقال: عدن بالمكان إذا أقام به قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الذي ذكرت لكم هو التجارة العظيمة والنعيم المقيم قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي ولكم خصلة أخرى في العاجلة تحبونها مع ثواب الآخرة وهي الغنيمة والفتح نصر من الله على أعدائكم وفتح قريب أي عاجل يعني فتح مكة، وقيل فتح عامة البلاد وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بشرهم بهاتين النعمتين نعمة العاجل ونعمة الآجل معناه: بشر المؤمنين يا محمد بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي كونوا أنصار دين الله على أعدائه بالسيف ودوموا على ذلك كما نصر الحواريون عيسى عليه السلام قرىء أنصار الله بغير تنوين[3] والأنصار جمع ناصر كصاحب وأصحاب والحواريون خلصان الأنبياء الذين نقوا من كل عيب ومنه الدقيق الحواري وهو النقي.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي صدقت جماعة منهم يعني وكفرت به طائفة، وذلك أنه لما رفع عيسى عليه السلام تفرق قومه ثلاث فرق فرقة قالوا كان الله فارتفع، وفرقة قالوا كان ابن الله فرفعه الله، وفرقة قالوا كان عبد الله ورسوله فرفعه الله وهم المؤمنون فاتبع كل فريق منهم طائفة من الناس فاقتتلوا وظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين حتى بعث النبي ﷺ، فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة فذلك قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟

(1) التبيان في إعراب القرآن 2: 410.
الفراء في معاني القرآن 3: 154.
(2) معاني القرآن وإعرابه 5: 166.
(3) ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: 635.
وابن الجزري في النشر 2: 386.

﴿ظَٰهِرِينَ﴾ أي غالبين والمعنى أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ أن عيسى عبد الله وكلمته وروحه[1] والمؤيد بالقوة وعن الحسن قال: سألنا عمران بن الحصين وأبا هريرة عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ فقال أبو هريرة: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**قصر من لؤلؤة في الجنة في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوت أحمر في كل دار سبعون بيتاً من زمرد أخضر في كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشاً على كل فراش امرأة من الحور العين، وفي كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام يعطي الله المؤمن من القوة ما يأتي على ذلك كله**»[2].

(1) البغوي في معالم التنزيل 5: 373.
(2) القرطبي في تفسيره 18: 88.